مكتبة بغداد

جريغ مورتنسون

ديفيد أوليفر ريلين

# ثلاثة أكواب من الشّاي

ترجمة: وفاء طقوز

التكوين

رواية

جريغ مورتنسون
ديفيد أوليفر ريلين

# ثلاثة أكواب من الشاي

ترجمة: وفاء طقوز

التكوين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

Greg Mortenson & David Oliver Relin

***Three cups of tea***

**الطبعة الأولى 2016**

© حقوق النشر والترجمة والاقتباس محفوظة
لـِ دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر

هاتـف: 00963 112236468
فاكس: 00963 112257677
ص. ب: 11418 ، دمشق - سوريا
taakwen@yahoo.com

# المقدمة

## في فلك السيد مورتنسون

ظل الضوء الأحمر الصغير يومض لمدة خمس دقائق قبل أن يكترث به فانجو. "مؤشرات الوقود في هذه الطائرات القديمة معروفة بعدم كفاءتها" قال الجنرال فانجو، أحد أكثر قادة الحوامات خبرة في الأجواء العليا، وهو ينقر عليه، ولم أعرف أنه كان يقصد بذلك أن يطمئنني بعض الشيء.

كنت جالساً إلى جانب فانجو أنظر نحو الأسفل عبر الزجاج الأمامي الرجراج لنافذة الحوامة التي تعود إلى العهد الفييتنامي. على مسافة ألفي قدم نحو الأسفل، كان هناك نهر ملتوٍ تطوقه كتل صخرية ناتئة على كلا جانبي وادي هونزا، وعلى مد النظر أنهار جليدية خضراء متدليّة، كانت تتشظى تحت سياط أشعة الشمس اللاهبة. تابع فانجو الطيران دون أن يرف له جفن، وهو ينفض رماد سيجارته خارج كوة، ألصقت بجواره مباشرة لافتة تقول: "ممنوع التدخين".

مد مورتنسون ذراعه الطويلة من المقعد الخلفي للطائرة وربت على كتف فانجو وصاح قائلا: "سيدي الجنرال، أظن أننا نطير في الاتجاه الخاطئ".

كان الجنرال فانجو طيّار الرئيس مشرّف الخاص قبل أن يتقاعد من الجيش وينضم إلى شركة خاصة للملاحة المدنية. وفانجو الآن في نهاية الستينيات من العمر له شعر أسود يغزوه الشيب وشارب مشذب


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومنمق كالمفردات اللغوية التي اكتسبها من المدرسة الخاصة التابعة للمستعمرات البريطانية حيث تلقى التعليم وهو صبي صغير برفقة مشرّف والعديد من قادة المستقبل الباكستانيين.

رمى الجنرال سيجارته من الكوة وزفر زفرة طويلة ثم أحنى رأسه واضعاً جهاز تحديد المواقع الذي اشتراه من السوق على ركبتيه ليقارنه مع الخارطة العسكرية التي فضها مورتنسون كي يتأكد من موقعنا.

"لقد طرت في الأجواء الشمالية لمدة أربعين عاماً" قال وهو يهزّ رأسه "فكيف لك أن تعرف هذه البقاع أفضل مني؟" وارتفع فانجو بالطائرة نحو الأعلى ثم قلب مسارها، عائدا من حيث أتى.

تسارع وميض الزر الأحمر الذي كان يثير قلقي وبيّنت الإبرة المتراقصة فوق المؤشر أنه لدينا أقل من مئة لتر من الوقود. وبما أن تلك المنطقة من شمال الباكستان نائية جدا ومعزولة، فقد طلبنا من أصدقاء لنا أن يَحضروا بواسطة سيارة جيب ليزودونا ببراميل وقود احتياطية إلى مواقع متفقٍ عليها وإن لم نتمكن من الوصول إلى هناك فنحن في مأزق حقيقي فالجروف المنحدرة التي نطير بينها ليس فيها أي منبسط من الأرض يصلح لهبوط المروحية. حلّق فانجو نحو الأعلى كي يصبح لديه مجال للدوران، وطار باتجاه المناطق البعيدة المنبسطة في حال نفذ لدينا الوقود دافعاً بعصا القيادة نحو الأمام لتصل سرعة المروحية إلى تسعين عقدة.

وفي اللحظة التي وصلت فيها الإبرة إلى درجة الصفر وبدأ الزر الأحمر يصدر صفيراً، كان فانجو قد حطّ بالمروحية في وسط الحرف "م" الذي شكّله أصدقاؤنا من صخور بيضاء ليدلّوا على انه "مهبط" والى جواره براميل الوقود الخاصة بنا.

"تلك كانت مناورة جميلة" أشعل فانجو سيجارة أخرى وتابع "الفضل في ذلك يعود لمورتنسون".

تزودت الطائرة بحاجتها بعد إدخال المضخة اليدوية إلى برميل الوقود الصدئ وحلقنا من جديد فوق "وادي برالدو" باتجاه قرية "كورف" آخر قرية مأهولة قبل أن يباشر نهر "برالدو" مسيره نحو قمة "كيه 2" وأكبر تجمع في العالم للذرا التي يصل ارتفاعها إلى عشرين ألف قدم.

بعد محاولة مخفقة لتسلق "كيه 2"، وصل مورتنسون إلى "كورف" منهكاً وخائر القوى. وفي قلب تلك الشرذمة البائسة من بيوت الحجر والطوب، تغير مسار حياة مورتنسون وحياة أطفال شمال الباكستان جميعاً. في المساء، أوى الى الفراش قرب نار يوقدها روث ثيران الياك، وفي الصباح شارك مضيفه بضعة أكواب من الشاي بالزبدة وعقد شريط حذائه وتحول إلى ناشط إنساني اكتشف درباً له مغزى سيسير عليه بقية حياته. وبما أننا قد وصلنا إلى "كورف" بصحبة (الدكتور جريغ) فقد كانت في استقبالنا أذرع مفتوحة ورأس ثور ذبح للتو، وأكواب لا حصر لها من الشاي. وعندما بدأنا نستمع إلى أطفال الطائفة الشيعية في "كورف"، وهم أشد الجماعات البشرية فقراً في العالم، يتحدثون عن طموحاتهم وأحلامهم المستقبلية التي بدأت تتحقق على يد رجل أميركي ضخم وصل إليهم منذ عقد من الزمن وقام ببناء أول مدرسة عرفوها في حياتهم، كنا أنا والجنرال قد استنفدنا.

"أتعرف؟" قال الجنرال، وقد ابتلعنا حشد يتألف من مئة وعشرين طالبا يلكزوننا بأذرعهم ونحن نقوم بجولة داخل مدرستهم، "مرافقتي للرئيس مشرف جعلتني ألتقي بالكثير من قادة العالم والكثير من السادة والسيدات البارزين. ولكنني أعتقد أن جريغ مورتنسون هو أكثر شخص متميز التقيته في حياتي".

كل الذين يحالفهم الحظ لمشاهدة مورتنسون وهو يدير العمل في الباكستان تنتابهم الدهشة أمام درايته المتكاملة لجغرافيا منطقة هي من


https://telegram.me/maktabatbaghdad

أكثر المناطق عزلة في العالم، والكثير منهم يجدون أنفسهم يدورون في فلكه رغماً عنهم.

خلال العقد الأخير، وبعد أن حولته سلسلة من الأحداث والإخفاقات من متسلق جبال إلى ناشط إنساني، جذب مورتنسون اليه طاقم عمل من أدنى الكفاءات وأعلى الفعاليات الذين لم يسبق لأي منظمة خيرية أخرى على وجه الأرض أن استخدمتهم.

حمالو الأعالي الذين يدعون "شيربا" في الجزء الباكستاني من سلسلة جبال "كاراكورام، وضعوا أحمالهم أرضاً وانضموا إليه مقابل أُجور هزيلة في سبيل أن يحصل الأولاد على التعليم الذي أُجبر الآباء على التخلي عنه. سائق سيارة أُجرة تصادف أن أقل مورتنسون من مطار إسلام أباد، باع سيارته وأصبح ذراع مورتنسون اليمنى بولاء شرس ومطلق. مقاتلون سابقون لدى حركة طالبان نبذوا العنف وقمع النساء بعد أن عرفوا مورتنسون وذهبوا للعمل معه بوئام في بناء مدارس للإناث. لقدجذب اليه متطوعين ومناصرين من شتى طبقات المجتمع الباكستاني ومن طوائفه الاسلامية المتحاربة.

الروايات التي سمعتها عن مغامراته أثناء بناء مدارس الإناث كانت بعيدة عن التصديق قبل أن أذهب إلى هناك. لكنني ومن صيادي التيس الجبلي في أعالي "كاراكورام" وفي مواطن البدو وحول طاولات الاجتماع مع نخب الضباط الباكستانيين، وعبر عدد لايحصى من أكواب الشاي بالزبدة في المقاهي المختنقة بسحب الدخان، حيث كان علي أن أفرك عينيّ مرارا كي أتمكن من رؤية الكرّاس الذي أكتب عليه، اكتشفت وقائع فاقت كل تصور لدي. والصحفيون الذين يفترض بهم أن يظلوا موضوعيين هم أيضا معرضون لخطر الانجذاب الى فلكه.

لقد رافقت مورتنسون في ثلاث رحلات الى شمال الباكستان، نحلق فوق الوديان القصيّة لكاراكورام في الهيملايا وهيندوكوش على متن مروحيات يجب أن تكون معلّقة في المتاحف، وكلما أمضيت وقتا أطول في مراقبة مورتنسون وهو يعمل، ازدادت قناعتي بأنني في حضرة شخص استثنائي.

وبصفتي صحفيا مارس هذه المهنة المتطرفة التي تتطلب الخوض في حياة الناس لمدة عقدين من الزمن، فقد قابلت عددا لايحصى من الشخصيات العامة الذين لم يكونوا على وفاق مع معايير صحافتهم المحلية. ولكن في كورف، وفي باقي قرى الباكستان كلها حيث استقبلني الناس كفرد من العائلة عاد بعد طول غياب لأن أميركياً آخر كان قد بذل الوقت والجهد كي يعزز روابطنا هنا، شاهدت حكاية السنوات العشر الأخيرة من وجود مورتنسون وهي تتفاعل وتتداخل بزخم يفوق مايمكن أن يحققه أحد منا خلال عمر بأكمله.

إنه أسلوب مزخرف كي أقول: إنها حكاية لم أستطع أن أقف حيالها موقف المتفرج. فكل شخص يذهب الى هناك لزيارة مدارس مؤسسة آسيا الوسطى الثلاث والخمسين برفقة مورتنسون لايملك إلا أن يشارك في العمل، وعندما يفعل ذلك لايملك إلا أن يصبح مؤيدا له. ويعد سهر ليالٍ طوال لحضور اجتماعات وجهاء القرية يتدارسون خلالها مشاريع جديدة، أو تدريب صف كامل من طالبات في الثامنة من العمر على كيفية استعمال مبراة قلم الرصاص كان شخص ما قد فطن الى تزويدهن بها، أو إعطاء درس مرتجل لطريقة لفظ اللغة الانجليزية في غرفة صف تعج بطلاب مجتهدين ومهذبين، لم يعد بوسعي أن أظل مجرد ناقل للخبر.وتوصلّت كما توماس فوللر ذلك المراسل السوداوي في رواية "الأميركي الهادئ" لجراهام غرين للخلاصة التي تقول: لكي تكون كائناً بشرياً عليك في بعض الأحيان أن تكون منحازاً.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد اخترت أن أنحاز الى جانب مورتنسون، ولكن ذلك لايعني بأنه خال من العيوب. فإحساسه المائع بالزمن جعل من تحديد تسلسل الأحداث في هذا الكتاب أقرب الى المستحيل. ومثله التحدث مع البلطيين الذين يعمل معهم، حيث لاتوجد أزمنة للأفعال في لغتهم، ولكن لديهم ذلك الحس بالانفصال عن الزمن، تماما مثل الرجل الذي يدعونه (دكتور جريغ).

خلال العامين اللذين عملنا فيهما معا على هذا الكتاب، كان مورتنسون يتأخر دائما عن مواعيده بشكل يبعث على الجنون، الى درجة أنني فكرت بالتخلي عن المشروع. والكثير من الناس، خاصة في أميركا انقلبوا ضده لهذا السبب وأطلقوا عليه نعوتا مثل "غير جدير بالثقة" وأحيانا اسوأ. لكنني كنت قد بدأت أدرك ماكانت زوجته، تارا بيشوب، تردده دائماً: (جريغ ليس واحدا منّا) إنه يعمل بتوقيت مورتنسون، وقد يكون ذلك نتيجة لنشأته في افريقيا وتواجده في الباكستان معظم أوقات السنة. لقد رأيت أسلوبه في الشغل. كان يوظف أشخاصاً ذوي إمكانيات محدودة اعتماداً على حدسه المجرد ويعقد ارتباطات مع شخصيات تافهة. كما أنه يدير العمل بشكل مرتجل ضمن ظروف مقلقلة. ومع ذلك، فقد تمكن من زحزحة الجبال من مكانها. وبالنسبة لرجل أحرز كل هذه الانجازات، فان مورتنسون يفتقر الى الشعور بالأنا. فبعد أن وافقت على وضع هذا الكتاب، أعطاني قصاصة ورق عليها عشرات الأسماء والأرقام، محشورة على الهامش بخط دقيق وقال: "تحدث اليهم جميعا ودعهم يقولون ماعندهم. نحن حصدنا النتائج ولا يهمني شيء آخر". وقد أصغيت الى مئات الاشخاص من مؤيدي مورتنسون، وكذلك من مناوئيه. ومن أجل الحفاظ على الأمانة والخصوصية، فقد غيّرت بعضاً من أسماء الشخصيات والمواقع.

العمل على هذا الكتاب كان فيه الكثير من التعاون الصادق. أنا من كتب القصة، لكن مورتنسون هو الذي عاشها، ومعاً، نسقنا الكثير من عروضه الضوئية وراجعنا وثائق وأشرطة فيديو تغطي عقداً من الزمن، وسافرنا معاً للقاء الأشخاص الذين يشكلون حجر الأساس في هذه الحكاية الأقرب الى الخيال، ومعا أخرجنا هذا الكتاب الى النور.

وكما ثبت لي في الباكستان، فإن مؤسسة آسيا الوسطى قد حصدت النتائج بشكل لايقبل الجدل.

وفي جزء من العالم حيث يسيء الناس فهم الأميركيين، وفي معظم الأحوال يخافونهم ويمقتونهم، قام هذا الرجل الضخم عذب الحديث ومتسلق الجبال السابق من "مونتانا" بتحقيق سلسلة من النجاحات صعبة التصديق. وبالرغم من أنه لم يشر الى ذلك قط، فقد تمكن وحده من تغيير مسار حياة عشرات الألوف من الأطفال، ووحده ايضاً، كسب قلوباً وعقولاً عجزت أمامها كل وسائل الإعلام الأميركية الرسمية التي تتزاحم في تلك المنطقة.

لذا، سأدلي هنا باعتراف صريح: لن يكفيني سرد ماأنجزه، بل إنني أتمنى أن أرى مورتنسون يحقق مايريده وأرجو له التوفيق، لأن أسلوبه في مكافحة الإرهاب هو ماعلينا أن نتبناه.

يقود سيارته العتيقة على مايسمى بطريق كاراكورام الدولي، ويواجه شتى أنواع الخطر، ليزرع المدارس في تلك البقعة التي أنجبت (طالبان) ويشن، بذلك، الحرب على المسببات الجذرية للإرهاب في كل مرّة يمنح فيها طفلا الفرصة لتلقي العلم المتوازن بدلاً من ارتياد المدارس المتطرفة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

اذا أردنا نحن الأميركيين أن نتعلم من أخطائنـا كالطريقـة الـشرسة والعقيمة التي شنَّت بها هذه الأمة الحرب على الإرهاب بعد هجمـات الحادي عشر مـن أيلـول وكإخفاقنـا الـذريع في عـرض قـضيتنا علـى الحشود الطيبة والمحبة للسلام في قلب العـالم الإسـلامي، فعلينـا أن نصغي إلى جريغ مورتنسون.

أنا أصغيت اليه، وذلك فتح بصيرتي أكثر من كـل التجـارب الـتي مررت بها في حياتي.

**ديفيد أوليفر ريلين**

# الفصل الأول

"عندما يكون الظلام دامساً،
تستطيع أن ترى النجوم"
حكمة فارسية

في سلسلة جبال كاراكورام في الباكستان، وعلى رقعة لا تتعدى مساحتها مئة ميل، يمتد ستون جبلا من أعلى الجبال في العالم، تطلُّ بجمالها الألبي المتوحش على البراري مترامية الأطراف في الأعالي.

وباستثناء النمر الجبلي وتيس الجبل، فإن قلة قليلة من الكائنات الحيَّة قاربت هذه الذرا المقفرة، حتى أن وجود "كيه 2"، ثاني أعلى جبل في العالم، كان أقرب الى شائعة يتداولها الناس حتى نهايات القرن العشرين.

ينبع نهر بالتورو الجليدي من "كيه 2" ويذهب باتجاه المناطق المأهولة في أعلى وادي الهندوس عبر القمم الصوانية لجبل جاشربروم والذرا الحادة المتوعدة للجبال المحيطة. وذلك النهر الجليدي الذي يبلغ طوله اثنين وستين كيلومتر يجري دون أن يعكر صفو عروش الصخر والجليد تلك، إذ أن معدل جريانه البالغ أربعة إنشات في اليوم يكاد لايُلحظ.

بعد ظهيرة اليوم الثاني من شهر ايلول عام 1993، أحسَّ جريغ مورتنسون أنه لايتقدم نحو الأمام وبأن حذاء التسلق الثقيل الذي يحيط بقدميه ينزلق به تلقائيا نحو نهر بالتورو من بين أسطول من الأعمدة


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجليدية المصطفة بانتظام وكأنها أشرعة آلاف من السفن العالقة في وسط الجليد. وفي كل لحظة، كان يتوقع أن يرى سكوت دارسين، رفيقه في العودة الى الحياة المتمدنة واقفا فوق جلمود ما يناكفه ويتهمه بالتراخي. لكن الضفة العليا للنهر كانت أقرب الى متاهة منها الى طريق جبلي، وهو لم يلحظ بعد أنه قد ضل طريقه وبات وحده. كان قد انحرف عن المجرى الرئيسي للنهر عند نتوء جانبي لم يكن يؤدي الى الغرب حيث تقع قرية أسكول على مبعدة خمسين ميلا ليجد سيارة جيب عابرة تخرجه من بين هذه الجبال، بل يؤدي الى الجنوب نحو قلب متاهة منغلقة في قلب شلاّل جليدي هادر ومن ثم الى عراء مكشوف يهدده بالقتل تحت نيران طلقات المدفعية التي يتبادلها الجيشان الهندي والباكستاني.

مورتنسون، اليقظ عادةً، لا يعرف كيف فاتته حسابات الحياة والموت ولا كيف لم يركز تفكيره على اقتفاء خطوات مظفر، ذلك الحمّال الذي ظهر أمامه فجأة كرحمة الهية وحمل عنه أثقاله، كما حمل أيضاً خيمته وكل الطعام الذي بحوزته. كيف فاته كل ذلك وهو تحت رحمة هذه التركيبة الطبيعية الجبارة التي يمكن أن تفتك به؟

في عام 1909، قام الدوق ابروتزي وهو واحد من أعظم متسلقي الجبال وأكثرهم دراية بالمنحدرات الوعرة، بقيادة بعثة استكشافية إيطالية عبر نهر بالتورو، في محاولة للوصول الى قمة "كيه 2". المحاولة باءت بالإخفاق، لكن ابروتزي الذي افتتن بالجمال الأخاذ للقمم المطوّقة، كتب في مجلته قائلاً: "عندما تتحدث عن الجمال الألبي، فلا شئ يضاهي هذا المشهد. إنه عالم متكامل من الأنهار الجليدية والجروف الصخرية، مشهد يمكن أن يسلب لب أي رسام ويستفز أي متسلق جبال".

بدأت الشمس تميل نحو المغيب وراء ذرا الصوان المسننة في الجهة الغربية، والظلال تنحدر عن الجهة الشرقية للوادي وتتجه نحو المسلات المسطحة لجبل جاشربروم، لكن مورتنسون لم ينتبه الى كل ذلك لأنه كان مستغرقا داخل ذاته، مشتتا ومذهولا أمام إخفاقه العصي على الفهم حتى الآن.

دسّ يده في جيبه وتحسس قلادة الكهرمان التي كانت كريستا، أخته الصغيرة، ترتديها دائماً عندما كان والداه يعملان مدرسين في تنزانيا ضمن بعثة تبشيرية لوثرية، كانت كريستا في الثالثة من عمرها وأصابتها عدوى التهاب السحايا ولم تشف منها تماماً، وجريغ، الذي يكبرها باثنتي عشرة سنة، عيّن نفسه حامياً وحارساً لها. كان على كريستا أن تبذل جهدا جباراً للقيام بمهام بسيطة، مثل ارتداء ملابسها في الصباح الذي كان يستغرق منها ساعة كاملة، كما كانت تعاني من نوبات صرع حادة. وبالرغم من ذلك، فقد فرض مورتنسون على والدته أن تسمح لها بفسحة من الاستقلالية، فوجد لها عملا في مشغل يدوي وعلّمها كيف تصل اليه بوسائط النقل العامة لكي تتحرك بمفردها وتنال شيئا من الحرية، وبالرغم من احتجاجات أمه المدوّية، فقد تدارس مع أخته وسائل منع الحمل عندما علم بأنه أصبح لديها صديق. وفي كل عام، كان يصر على أن تزوره أخته الصغيرة لمدة شهر، سواء أثناء تأديته للخدمة الإلزامية كمشرف طبي، أو دراسته لنيل شهادة في الأمراض العصبية والصرع على أمل أن يجد علاجاً ناجعاً يضمن لها الشفاء التام، أو حتى خلال تلك الفترة من حياته التى عاشها داخل سيارته كالمتشردين.

كانا يذهبان معاً لاستكشاف البقاع التي تبعث البهجة في قلبها. كما اصطحبها الى المصاطب الصوانية لجبل يوزميت، الذي كان يجسّد في ذلك الحين معبده المقدس.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكهدية لعيد ميلادها، قررت والدة جريغ أن تصطحب كريستا في رحلة من مينيسوتا الى حقول الذرة الواقعة في ديرسفيل في ولاية أيووا، حيث تم تصوير فيلم "حقل الأحلام" الذي عشقته كريستا وشاهدته مراراً. وفي يوم عيد ميلادها، وقبل أن تباشرا الرحلة بساعات قليلة، توفيت كريستا إثر نوبة صرع حادة. بعد موت كريستا، احتفظ مورتنسون بالقلادة التي كانت بين مقتنياتها القليلة، ولاتزال تعبق برائحة الحطب الذي أوقده معها عندما زارته في كاليفورنيا للمرة الأخيرة وعسكرا في العراء. لقد جلب القلادة معه ملتفّة داخل سجادة صلاة من التيبت، وجلب معها عزمه على تخليد ذكرى أخته الصغيرة.كان مورتنسون متسلقاً للجبال وقد قرر أن يكون لها تقدمة نابعة من صميم قلبه:

سيتسلق "كيه 2" حتى يصل الى قمتها العصيّة ويودعها قلادة كريستا، هناك.. على ارتفاع (28267) قدما عن سطح الأرض. نشأ مورتنسون في كنف أسرة حققت مكاسب صعبة، كبناء مدرسة ومستشفى على سفوح جبل كليمنجارو في تنزانيا. وبالرغم من تدين والديه العميق والمتسامح أيضاً، فإن مورتنسون لم يبت بعد في ماهية الدين. ومع ذلك، فقد قرّ قراره على أن يترك قربانا للإله الجاثم فوق تلك الأعالي، كائناً من يكون.

وقبل هذا بثلاثة أشهر، كان مورتنسون قد تمكن من اجتياز النهر بصندله الخفيف وحقيبته الثقيلة ليلبي نداء المغامرة المغوي الآتي من الأعلى. فانطلق من أسكول في رحلة تسلق تبلغ مسافتها سبعين ميلاً بصحبة فريق مؤلف من عشرة متسلقين من البريطانيين والفرنسيين والأميركيين والإيرلنديين، الذين لا يملكون التمويل الكافي لكنهم يتحلون بشجاعة غريزية، في محاولة للوصول الى ثاني أعلى قمة في العالم مقارنة بقمة ايفرست التي تبعد نحو ألف ميل بمحاذاة الجنوب

الشرقي من المحور المركزي لجبال الهيملايا، فالكل يعلم علم اليقين أن "كيه 2" عبارة عن قاتل لا يعرف الرحمة. وبالنسبة لمتسلقي الجبال الذين يدعونه بالقمة الشرسة، فإنه أصعب امتحان لهم، لأنه عبارة عن هرم تنحدر جوانبه الصوانية كالنصال حتى أن الثلج لايمكن أن يثبت على حوافه الناتئة وكأنها خناجر.

عندما وصل مورتنسون في شهر أيار، لم تخامره ذرة من الشك بأنه سيقف عما قريب فوق القمة التي وصفها بأنها أضخم الذرا وأكثرها لؤماً على وجه الكرة الأرضية. فهو يتمتع ببنية ضخمة وقوية كالثور، وكان يتسلق الجبال خلال كل سنوات عمره البالغ خمسة وثلاثين عاماً، وقد نجح في الوصول الى قمة جبل كليمنجارو وعمره إحدى عشرة سنة، واكتسب المهارات اللازمة عندما قام بتدريب نفسه على جدران الصوان العامودية لجبل يوزميت، كما تمكن من تسلق جبال الهيملايا مراتٍ عديدة.

لقد كان على وشك الوصول ولم يتبق بينه وبين القمة سوى ستمئة متر. لكن "كيه 2" ارتد الى قلب السديم الذي كان خلفه، والقلادة في جيبه تنتظر. كيف حدث هذا؟ لاشك أن توازنه قد اختل فبعد أن أمضى ثمانية وسبعين يوماً يتصارع وحيداً مع أعالي "كيه 2"، شعر بأنه قد بات نسخة هزلية وهزيلة عما كان عليه ولم يقو على أن يقرر فيما اذا تبقى لديه مايكفي من القدرة لكي يسير خمسين ميلاً أخرى في قلب هذه القفار الشرسة كي يصل الى أسكول.

صوت الفرقعة الحاد الذي صدر عن انهيار صخري أعاد مورتنسون الى الواقع الذي يحاصره، ليرى جلموداً من الصخر، يضاهي حجمه حجم بناء من ثلاثة طوابق، يتدحرج نحو الأسفل ويدمر كل مافي طريقه، قبل ان يصل الى النهر ويسحق كتلة من الجليد العائم.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

حاول مورتنسون أن يسترد يقظته ونظر الى خارج ذاته الذاهلة ورأى أن الظلال قد تسلقت القمم الشرقية، ونبش في ذاكرته وهو يحاول ان يتذكر المرة الأخيرة التي شاهد فيها كائناً بشرياً.

لقد مرّت ساعات على اختفاء سكوت دارسني الذي كان يسير أمامه نحو الأسفل. ومنذ ساعة، وربما أكثر، سمع أصوات رنين الأجراس المعلّقة حول رقاب قافلة من البغال تابعة للجيش، تحمل الذخائر الى ساحة القتال التي تبعد اثني عشر ميلاً الى الجنوب الغربي على ارتفاع عشرين ألف قدم، حيث ترابط القوات الباكستانية في وضعية تأهب أزلية لمواجهة الجيش الهندي.

أمعن النظر في الطريق علّه يجد أثراً ما. فعلى الطريق العائد الى أسكول، تتواجد أحياناً آثار خلفها الجيش وراءه، لكنه لم ير شيئاً. لاروث بغال ولا أعقاب سجائر ولاعلب طعام فارغة أو مايتساقط على الطريق عادةً من القش الذي يحمله راكبو البغال كي يعلفوا حيواناتهم به. لاشيء. ولاحظ أن المدى الذي يترامى أمامه لايمكن أن يكون طريقا، بل أشبه بصدعٍ في قلب متاهةٍ متداخلة من كتل الصخر والجليد، وتساءل كيف قادته قدماه الى هناك. حاول أن يحرّض عقله على التفكير بوضوح، لكن تواجده الطويل على هذا الارتفاع الشاهق كان قد استنفد قدراته كلها على التصرف السليم او اتخاذ أي قرار.

أمضى ساعة وهو يتخبط على منحدر من الحصى، علّه يجد موقعا مناسباً فوق صخرة أو كتلة من الجليد يستدل منها على نقطة العلاّم التي يبحث عنها. فإذا تمكن من إيجاد ذلك النتوء الصخري المتكئ على خاصرة الجبل كقبضة يد ضخمة، فسوف يجرجر نفسه عائداً الى الطريق الصحيح. لكن ما توصل إليه لم يكن سوى المزيد من الإنهاك. لقد انحرف عن المسار الصحيح باتجاه وادٍ مقفر لمسافة

تصل الى ثمانية أميال، وقد بدأ ضوء النهار يخبو، والخطوط المتعرجة حول القمم التي يعرفها جيداً لن تبدو على حالها من موقعه المجهول هذا. وشعر بشيءٌ من الخوف يتسلل الى ذاته الحذرة، فجلس يجرد الموجودات داخل حقيبته القماشية ذات اللون القرمزي الذي لوّحته الشمس. توجد بطانية صوفية خفيفة من النوع الذي يستعمله الجيش الباكستاني، وزجاجة ماء فارغة ولوح واحد من الشوكولاته. أما كيس نومه الذي يستعمله في المرتفعات الجليدية وملابسه الصوفية السميكة وخيمته وموقد الطبخ والطعام وأيضاً مصباحه، فكلها داخل الصرّة التي على ظهر الحمّال الذي اختفى عن أنظاره.

عليه أن يجعل هذه الليلة تمضي لكي يباشر البحث في ضوء النهار. كانت درجة الحرارة قد انخفضت الى دون الصفر بكثير، لكنه أقنع نفسه أن النوم في العراء لن يقتله. فما زال لديه مايكفي من الوعي لكي يدرك بأن متابعة السير في الليل وهوعلى هذه الدرجة من الإنهاك فوق الجليد العائم حيث الصدوع تفغر فاها نحو بحيرات جوفية تقع على عمق مئات من الأقدام يشكل خطورة أكبر بكثير. فشق طريقه بين الحصى وسار نحو الأسفل، يبحث عن فسحة صلبةٍ الى حدٍ كافٍ كي لاتتكسر وترمي به الى قلب النهر وبعيدة عن المنحدرات كي لايهرسه أي انهيار صخري.

وجد صخرة مسطّحة بدت ثابتة، فأزاح الثلج عنها بيديه العاريتين ووضعه داخل زجاجة الماء، ثم تدثّر ببطانيته وهو يحثّ نفسه على عدم التفكير بالوحدة والعزلة اللتين كان في غمارهما. ساعداه متقرحان من شدّ الحبال، ويعرف بأن عليه أن ينزع الضماد المتخثّر وأن يجفف القيح الذي ينز من الجروح العصبيّة على الشفاء بسبب تواجده على ذلك الارتفاع الشاهق، لكنه لم يجد الدافع لفعل كل


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذلك. استلقى فوق الصخرة الخشنة وهو يرتعش من البرد، وراح يراقب آخر شعاع للشمس يتحول الى خطٍ أحمر قانٍ فوق القمم المسننة، ثم يخبو مخلّفاً وراءه أثراً من اللون الأزرق المائل للسواد.

منذ حوالي قرن من الزمن، قام فيليبو دي فيليبي، الطبيب ومؤرخ الأحداث في بعثة دوق ابروتزي الاستكشافية الى كاراكورام، بالكتابة عن إحساس التوحد الذي انتابه بين هذه الجبال. لقد كان بصحبة أربعة وعشرين شخصاً من الأوروبيين، بالإضافة الى مئتين وستين حمّالاً يحملون عنهم المقاعد المطوية وأطقم الشاي المفضضّة، وتصلهم الصحف الأوروبية بانتظام بواسطة فريق من العدائين، ومع ذلك، فإن تركيبة الطبيعة في تلك البقاع سحقته حتى الضآلة. وقد كتب عن ذلك قائلاً: "الصمت المطبق كان يهيمن على الوادي ويثقل على أرواحنا بجبروت لايقهر. لايمكن أن يوجد مكان آخر في العالم يشعر فيه المرء بهذا القدر من الوحدة والعزلة، وهذا التجاهل المطلق من قبل الطبيعة، وهذا العجز عن التواصل معها". لكن الأمر بالنسبة لمورتنسون كان مختلفاً فقد كان يشعر بالوئام، وقد يكمن السرّ في أنه كان الطفل الأميركي الوحيد بين مئات من الأفارقة، أو في الليالي التي أمضاها وحده يعسكر في العراء على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم وهو يتسلق جبل يوزميت. أما إن سألته هو عن السبب، فقد يعزوه إلى حالة الخبل التي يسببها التواجد على ارتفاع شاهق لمدة طويلة. لكن كل من راقب مورتنسون عن كثب وهو لا يكل ولا يمل من الإلحاح على عضو في مجلس الشيوخ الأميركي أو على ناشط في حقوق الإنسان مازال متردداً، أو أمير حرب داخل أفغانستان، حتى ينتزع منهم الموافقة على تحرير المساعدات المالية المجمدة، أو المساهمة بتبرع مادي، أو إذنٍ خطيٍ يخوّل له الدخول الى مرابط القبائل، فسوف يعتبر هذه الليلة دليلاً آخر على إرادة مورتنسون الفولاذية.

ازدادت سرعة الرياح واشتدت برودة الليل. نظر مورتنسون حوله وحاول أن يتبين القمم التي تحاصره وتتوعده، لكن الظلام الحالك منعه من ذلك. وبعد أن أمضى ساعة من الزمن تحت بطانيته، استطاع أن يذيب لوح الشوكولاته المتجمّد الذي ألصقه بجسده، وبعضاً من الطمي الجليدي داخل زجاجته، وراح يرتجف بقوة عندما شرب منها.وبما أن النوم في طقس بتلك البرودة ضرب من المستحيل، فقد ظل مستلقيا يتأمل النجوم، وقرر أن يقوم بتحليل طبيعة إخفاقه.

إن قادة بعثته، دان مازور وجوناثان برات، ومعهما الفرنسي ايتيان فاين، يتحدرون من سلالات ارستقراطية، ولذا فهم قادرون على التسلق بسرعة بفضل مورثاتهم التي تساعدهم على التقافز الرشيق نحو الأعلى. أما هو، فإنه ضخم البنية وبطيء، علماً بأن بنيته تلك هي التي مكنته من دخول الجامعة عن طريق منحة رياضية حصل عليها كلاعب لكرة القدم. ومع أن أحداً لم يدفعه الى ذلك، فإن الجهد والصبر اللذين يتطلبهما تسلق الجبال قد تماشى مع طبعه وطبع دارسني.

لقد قام لمراتٍ عديدة بدور البغال، حيث حمل على ظهره الطعام والوقود وأسطوانات الأوكسجين إلى مستودعات متفرقة داخل الدهليز الياباني على جبال الألب، المُشكّل من حفر خفيّة قامت البعثة بحفرها على مسافة ستمئة متر من قمة "كيه 2"، من أجل تموين معسكراتهم المتواجدة في الأعالي، بحيث يتمكن المتسلقون الذين في المقدمة من الحصول عليها عند الحاجة.

اختارت المجموعات الاستكشافية الأخرى لذلك الموسم أن تتحدى القمة بالطريقة التقليدية، أي عبر ممر تم اكتشافه منذ مايقارب قرناً من الزمن وهي السلسلة الجنوبية الشرقية من "كيه 2". أما هم فقد اختاروا السلسلة الغربية، وهو عبارة عن مسلكٍ شاقٍ ووعر ولايؤدي


https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى القمة مباشرةً وتتربص في باطنه المراوغ الهوة تلو الهوة. لم ينجح في عبور ذلك المسلك سوى متسلق ياباني يدعى أييهو أوتاني ورفيقه الباكستاني نازير سابير منذ اثنتي عشرة سنة.

كان مورتنسون سعيداً وفخوراً بالمسلك الشرس الذي وقع اختيارهم عليه. وفي كل مرّة كان يصل فيها الى مواقع المؤن التي حفروها بأظافرهم كي يودع حمله من صفائح الوقود ولفائف الحبال كان يلاحظ بأنه يزداد قوةً. قد يكون بطيئاً لكن وصوله الى القمة بدا له مؤكداً.

وذات مساء، وبعد مرور أكثر من سبعين يوماً على وجودهم في الجبال، عاد مورتنسون ودارسني الى المعسكر الرئيسي، وكانا على وشك الارتماء على فراشيهما لتعويض مافاتهما من نوم خلال ست وتسعين ساعة من التسلق المتواصل لتعزيز المؤن، فألقيا نظرة أخيرة على القمة عبر التلسكوب.

كان الليل في أوله، وكان هناك ضوء يتراقص على أعلى السلسلة الغربية لفت انتباههما وأدركا أنه آتٍ من أحد أفراد مجموعتهم، يقوم بإرسال الإشارات إليهما بواسطة مصباحه الرأسي، وخمّنا بأنه رفيقهم الفرنسي وبأنه لابد في خطر.

وقد تحدث مورتنسون عن ذلك قائلا: "ايتيان فاين كان ألبيا (نسبة الى جبال الألب)" وقالها وهو يؤكدعلى تلك الكلمة الفرنسية الدّالة على الكثير من التوقير والإعجاب بتلك الفئة من المتسلقين "فقد كان يمشي بخطى سريعة متقافزة وليس بحوزته سوى ماخفّ حمله من المعدات. وكنا في بعض الأحيان نضطر الى اعتراض سبيله كي لايتابع التسلق دون ان يحصل على مايكفي من التأقلم التدريجي الضروري".

لم يكن مورتنسون ودارسني على ثقة بأنه مازال لديهما مايكفي من قوة لصعود الجبل من جديد لإنقاذ فاين وقد وصلا للتو من رحلة هبوط مرهقة، فطلبا من بقية المجموعات الخمس أن يقوم أحدهم بالمهمة، لكن أحداً لم يستجب. فاستلقيا في خيمتهما لمدة ساعتين، ثم حزما أمتعتهما وانطلقا مجدداً. الهبوط من المعسكر الرابع الواقع على ارتفاع سبعة آلاف وستمئة متر كاد يودي بحياة برات ومازور، ويقول مازور عن ذلك: "صعد ايتيان لينضم إلينا في سعينا للوصول الى القمة، وعندما وصل انهار وسقط أرضاً. ومن خلال أنفاسه المتقطعة، أخبرنا بأنه يشعر بقرقرةٍ في رئتيه".

فاين كان مصاباً بالاستسقاء الرئوي الذي يسببه الارتفاع الشاهق عن سطح الأرض، حيث تمتلئ الرئتان بالسوائل وتقتل المصاب إن لم يتم ترحيله على الفور الى منطقة أقل ارتفاعاً. ويتابع مازور حديثه قائلاً: "كان أمراً مرعباً، زبد أحمر اللون يتدفق من فم ايتيان ونحن عاجزون عن طلب المساعدة لأن جهاز الإرسال سقط في الثلج ولم يعد يعمل. فحملناه وباشرنا عملية الهبوط نحو الأسفل".

تناوب برات ومازور على ربط جسديهما الى جسد فاين بواسطة مشابك الحبال وتجرجرا معه وهما يهبطان عبر أشد أخاديد السلسلة الغربية انحداراً. يصف مازور ذلك بقوله: "كنت أشعر وكأنني أتدلى من حبل مثبّت الى كيس ملئ بالبطاطا. وكان علينا أن نتحرك ببطءٍ كي لانعرض أنفسنا للقتل".

وبعباراته المختصرة المعهودة، فأن مورتنسون لايقول سوى أن المهمة كانت شاقة الى حدٍ ما عندما يتحدث عن الساعات الأربع والعشرين التي أمضاها يدفع بجسمه الضخم نحو الأعلى كي يصل الى فاين. ويضيف إلى ما قاله أن: "البطلين الحقيقيين هما برات ومازور.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

فقد تخليا عن هدفهما في الوصول الى القمة، والذي كان وشيكا، من أجل إنقاذ حياة ايتيان". حين التقى مورتنسون ودارسني برفاقهما عند واجهة صخرية، كان فاين يغيب عن الوعي لدقائق ثم يصحو، لأنه أصيب باستسقاء في الدماغ، وهو ورم دماغي وآفة أخرى تسببها المرتفعات الشاهقة، وبات عاجزا عن ازدراد ريقه ويحاول أن يخلع حذاءه.

مورتنسون، الذي عمل ممرض إنعاش في وحدات الإسعاف بين رحلات التسلق، قام بزرقه بعدة حقن لتخفيف حدة الاستسقاء، لينطلقوا معاً، رغم إعيائهم، في رحلة أخرى مدتها ثمان وأربعون ساعة وهم يهبطون بفاين عبر منحدرات صخرية وعرة.

ويتذكر مورتنسون ماحدث. كان فاين، الذي يتحدث اللغة الانجليزية بطلاقة، يصحو أحياناً ويهذي باللغة الفرنسية. وبحدس متسلق الجبال المخضرم في حماية الذات، كان ينهض بجذعه ليثبت المشابك التي تربطه الى الحبل عندما يصبح الهبوط شديد الانحدار، ثم يغيب عن الوعي من جديد.

بعد انطلاق مورتنسون ودارسني لإنقاذ فاين باثنتين وسبعين ساعة، تمكنت المجموعة من إيصاله الى فسحة منبسطة تقع عند المعسكرات الرئيسية الأمامية وأرسل رسالة لاسلكي إلى المجموعة الكندية المتواجدة في الأسفل، التي قامت بدورها بإرسال طلبه لمروحية إنقاذ إلى الشرطة الباكستانية. ولو تم ذلك، لكانت أكثر عمليات الإنقاذ علواً حتى ذلك الحين. لكن القيادة العامّة أجابت بأن الأحوال الجوية سيئة للغاية وبأن هناك رياحاً عاصفة وقويّة، وأعطت التوجيهات بترحيل فاين إلى الأراضي المنخفضة.

لكن إعطاء التوجيهات شيء، وتنفيذها من قبل أربعة رجال وصلوا

الى مرحلة من الإرهاق تفوق طاقة البشر شئ آخر. فما كان منهم إلا أن ربطوا فاين داخل كيس للنوم وقاموا بجره نحو الأسفل لمدة ست ساعات عبر معبر خطر يمر من شلال جليدي في نهر سافوريا، وكانت وسيلة تخاطبهم الوحيدة التأوهات والأنين.

ويذكر دارسني ماجرى قائلاً: "كنا قد استنفدنا كل ذرّة من طاقتنا واستبد بنا الإعياء فلم نعد نقوى إلا على الزحف على بطوننا ونحن نحاول الوصول إلى الأسفل".

شارفت المجموعة، أخيراً، على الوصول إلى المعسكر الرئيسي وصعد باقي أفراد المجموعة مسافة ربع ميل ولاقوهم لقاء الأبطال.

ويتابع دارسني حديثه: "بعد أن وصلت مروحية الشرطة الباكستانية وقامت بترحيل إيتيان، عمل أفراد المجموعة الكندية جميعهم على إعداد وليمة فاخرة وشارك الكلُ في الاحتفال ماعدانا أنا ومورتنسون، إذ ارتمينا داخل أكياس النوم كالقتلى".

ولمدة يومين، كان مورتنسون ودارسني يتأرجحان بين مايشبه النوم واليقظة، تلك الحالة التي تنتاب كل من يقضي وقتا في الأعالي مهما بلغت شدّة الإرهاق. وفي هذه الأثناء، كانت تبلغ مسامعهما أصوات الرياح وهي تعبث بخيمتهما مترافقةً مع الطرقات الحادة على أطباق الطعام المعدنية التي تحمل كل واحدةٍ منها اسم أحد المتسلقين البالغ عددهم ثمانية وأربعين الذين قضوا نحبهم وهم يتسلقون الجبل المتوحش في مثل هذا اليوم الذي أُطلق عليه اسم ارت جيلكي وهو متسلق جبال توفي أثناء رحلة استكشافية اميركية عام 1953.

عندما استيقظا، وجدا ورقة مكتوبة تركها لهما برات ومازور اللذان قفلا راجعين إلى معسكرهما في الأعالي وفيها دعوة موجهة إلى رفيقيهما كي ينضما إليهما في محاولة للوصول إلى القمة بعد أن


https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتماثلا للشفاء، ولكن الشفاء لم يكن وشيكاً، فعملية الإنقاذ التي أتت مباشرة عقب مهمة تعزيز المؤن قد استنزفت كل ماكان لديهما من قوة، وعندما خرجا أخيراً من خيمتهما وجدا أنهما غير قادرين على السير. وفاين الذي نجا من الموت، لم ينجُ من دفع الثمن باهظاً فالمحنة كلّفته كل أصابع قدميه، أما بالنسبة لمورتنسون ودارسني فقد كان الثمن أنهما خسرا كل الآمال في الوصول إلى القمة التي كافحا مريراً في سبيلها، إذ أعلن كل من مازور وبرات للعالم بعد أسبوع أنهما قد وصلا إلى القمة ووقفا فوقها ثم عادا إلى ديارهما ليعيشا مجد ذلك الانتصار الساحق.

ومع ذلك، فإن عدد الأطباق المعدنية التي سوف تُقرع في الهواء الطلق في اليوم التذكاري قد تزايد لأن ستة عشر متسلقاً آخر قد لاقوا حتفهم في ذلك الموسم أثناء عملية الهبوط. لم يكن مورتنسون راغباً في أن يُحفر اسمه على طبق معدني وكذلك دارسني، فقررا أن يباشرا معاً رحلة العودة الى الحياة المدنية إن أمكنهما ذلك.

كان مورتنسون يستعيد مراحل عملية الإنقاذ وهو يرقد داخل بطانيته الصوفية الرقيقة، تائهاً ووحيداً في ساعات الفجر الأولى ويحاول أن يحصل على وضعية استلقاءٍ مريحة، لكن رأسه كان ناتئاً خارج البطانية في ذلك الصقيع الوحشي بسبب طول قامته. ولأنه فقد الكثير من وزنه أثناء وجوده على جبل "كيه 2" فقد كان ذلك سبباً آخر كي تلتصق عظامه بالصخرة المتجمدة التي تربض تحته. كان يتأرجح بين الغفوة والصحو على أنين آلة الطبيعة الخفية التي لاتكل عن العمل في باطن النهر عندما قرر أن يتصالح مع إخفاقه في تكريم كريستا، فالذي أخفق هو جسده وليست روحه ولكل جسد حدود. وأدرك أنه ولأول مرة في حياته قد اكتشف الحدود القصوى لذلك الجسد.

# الفصل الثاني

# الضفة الخطأ من النهر

"لم تجهد نفسك في اكتناه خفايا المستقبل وترهق عقلك في جهد لا طائل من ورائه؟ اطرح عنك الهموم واترك خطط الله لله، إنه وضعها من قبلُ دون أن يستشيرك".

عمر الخيام ـ الرباعيات

فتح مورتنسون عينيه. كان الفجر صافياً للغاية فلم يعرف سبباً لحاجته الماسة للتنفس. أخرج يديه من تحت البطانية ورفعهما بصعوبة بالغة نحو رأسه الملقى على الصخرة العارية وتحسس وجهه ليجد أن طبقة ملساء من الجليد الرقيق قد أطبقت على أنفه وفمه. نزع مورتنسون الجليد عن وجهه وعبّ نفساً عميقاً، ثم جلس وهو يضحك من حاله. قسط النوم الزهيد الذي ناله جعله يفقد الحس بالزمان والمكان. وبعد أن تمطى وفعل مابوسعه في تمسيد أطرافه التي تيبست من الاستلقاء على الصخرة، بدأ يسترد الإحساس بمحيطه ونظر نحو القمم التي اتخذت ألواناً يهيجة من كل تدرجات اللون الوردي والبنفسجي والأزرق، أما السماء فكانت صافيةً وساكنة بانتظار شروق الشمس الوشيك.

شعر بالدورة الدموية تسترد حركتها داخل جسده، واسترد معها حقيقة المأزق الذي يحاصره وهي أنه مازال تائهاً ووحيداً. بيد أنه لم يكن قلقاً، فقد أخرجه نور الصباح من كآبته. وفوق قمم جبلٍ بالتورو أتى نسرٌ وحلّق في الأعالي على أمل العثور على الغذاء، وجناحاه



https://telegram.me/maktabatbaghdad

العريضان يجوبان آفاق الذرا المكللة بالثلوج. دسّ مورتنسون بأصابعه المعقوفة من الصقيع طرف بطانيته داخل حقيبته وحاول أن يفتح سدادة زجاجة الماء المتجمدة لكنه لم يفلح، فأعادها إلى مكانها بعناية وهو يقول لنفسه بأنه سيشرب الماء عندما تسترخي أصابعه. أما النسر، فقد شاهد مورتنسون وهو يتحرك ووجه جناحيه نحو الاتجاه المعاكس ليبحث عن مصدر آخر لطعام الإفطار.

قد يعود الفضل لقسط النوم الذي ناله ولوكان ضئيلاً، لكن مورتنسون بدأ يفكر بشكل واضح وقرر أنه إذا تتبع آثار أقدامه لبضع ساعات فسوف يصل إلى الطريق. انطلق باتجاه الشمال بخطىً متعثرة والخدر مازال يسري في ساقيه وهو يختار أضيق الصدوع حتى أحرز تقدماً اعتبره مقبولاً، وتصاعدت من أعماقه أنشودة الطفولة التي كانت تسعفه دائماً: "يسوع هو صديقنا المخلص ويعيش في السماوات" وبدأ يرتلها باللغة السواحلية التي كانوا يستعملونها في الكنيسة البسيطة الوادعة التي يشرف عليها جبل كيليمنجارو من بعيد، أثناء قداس يوم الأحد. تلك الترنيمة كانت متأصلة في نفس مورتنسون إلى درجة أنه لم يلحظ المفارقة بينها وبين وضعه الحالي: أميركي تائه في الباكستان يترنم بترتيلة أصلها ألماني باللغة السواحلية، بل ويجد فيها الحنان الدافئ الآتي من البلد الذي اعتبره وطناً ذات يوم، وتشكّل منارة تنير له الدرب وهو يشق طريقه جاهداً بين الكتل الصخرية والجليد الأزرق الذي يفغر فاهُ نحو هوات لاقعر لها.

مرت ساعة على هذا النحو وتلتها ساعة أخرى ثم تسلق إفريزاً يمتد بمحاذاة الدرب الضيق العميق الذي كان يسلكه وجثا على ركبتيه وكفيه وبدأ يزحف عبره حتى وصل إلى ذروةٍ شاهقة وانتصب واقفاً في اللحظة التي كانت فيها الشمس تنفلت من عقالها من وراء جدران الوادي وتزحف نحو الأعلى.شعر وكأن طلقات من الرصاص اخترقت

عينيه، فقد كانت بانوراما قمم عمالقة الجبال تلك المكلّلة بالثلوج عاريةً أمام الشمس وتتضطرم وكأنها ألسنة من لهب.

جلس مورتنسون على صخرة وشرب من زجاجة الماء حتى ارتوى لكنه لم يرتو من النظر إلى ذلك المشهد. كان مصور الحياة البرية جالين رويل، وقبل وفاته عام 2002 في حادث تحطم طائرة، قد أمضى سنوات عديدة وهو يحاول أن يجعل عدسته تلتقط هذا الجمال الخلاّب كي ينقله إلى العالم وكانت لقطاته أخّاذة، لكنه لم يشعر قط أنه أوفاه حقه لأن مجرد الوقوف أمامه كان كفيلاً بأن يجعل أي مصور يشعر بالضآلة حيال ماأسماه: "كرسي عرش آلهة الجبال".

كان مورتنسون قد أمضى شهوراً في ذلك المكان إلا أنه، وعلى حد تعبيره: "أنا لم أرها حقاً من قبل. فقد أمضيت الصيف برمته وأنا أراقب تلك الجبال باعتبارها أهدافاً

وقد انصب كل تركيزي على القمة الشاهقة لجبل "كيه 2" ومدى ارتفاعها والعقبات التي يمكن أن تعترضني باعتباري متسلق جبال. أما في ذلك الصباح فقد رأيتها وللمرة الأولى، وكان ما رأيته أخّاذاً".

تابع مورتنسون المسير وهو يتأمل الكمال البنيوي في الجبال. كانت الارتدادات الجدارية والنتوءات البارزة من الغرانيت القرمزي والذهبي تنضفر إلى بعضها البعض بعزم وتناسق وهي في طريقها نحو القمة الشامخة لتتوحد هناك. وربما يعود الفضل لذلك التأمل في شروده عن وهنه الجسدي وحاجته الماسة للطعام والملابس الدافئة وفرصه الضئيلة في البقاء عل قيد الحياة إن لم يحصل عليها عاجلاً، حتى أنه كان يشعر بالطمأنينة. ملأ زجاجة الماء من أحد شقوق النهر الجليدي وشرب منها وهو يرتعش من برودتها ويقول لنفسه إن عدم توفر الطعام لن يشكل خطورةً عليه قبل عدة أيام ولكن عليه ألا ينسى الماء.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

عند وقت الظهيرة، سمع صوت رنين أجراس آتٍ من بعيد فغيّر وجهة سيره نحوها إلى جهة الغرب وهو يتوقع أن يلتقي بقافلةٍ من الحمير. بحث عن الركام الحجري الذي يدلّ على الدرب الرئيسي النازل من جبل بالتورو لكنه لم يجد سوى كتلة من الصخور المتشابكة بفوضى عجيبة. وعند زاوية حادة من المخلفات البشرية التي تتشكل عادة على شكل شريط ممتدٍ على ضفاف الأنهار الجليدية، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام جدار شاهق يصل ارتفاعه إلى خمسة ألاف قدم ليسد من أمامه كل احتمالات التقدم نحو الأمام فأدرك أنه قد مرّ بالقرب من الدرب ولم يلحظه، فعاد مع الطريق التي أتى منها وهو يجبر نفسه على التحديق نحو الأسفل بحثاً عن أي أثر وعدم النظر نحو الأعلى حيث القمم التي سلبت لبّه. وبعد نحو ثلاثين دقيقة، وجد عقب سيجارة ثم ركاماً حجرياً، فسلك تلك الدرب المبهمة باتجاه الأجراس التي أصبح رنينها الآن قريباً.

لم يعثر على القافلة لكنه استطاع، وأخيراً، أن يميّز هيئة رجلٍ يقف على جلمود صخري معلق فوق النهر على مبعدة ميلٍ منه. صاح مورتنسون بأعلى صوته لكن سماعه من تلك المسافة لم يكن ممكناً. اختفى الرجل لدقائق معدودة وعاد إلى الظهور على جلمودٍ آخر لا يبعد عنه أكثر من أربعمئة قدم. وفي هذه المرة، استجمع مورتنسون مااستطاع من قوة وصاح من جديد فسمعه الرجل واستدار نحوه بسرعة، لكنه مالبث أن غادر المرتفع راكضاً واختفى عن الأنظار. لم يكن بالإمكان رؤية مورتنسون لأنه كان واقفاً في منتصف مجرى النهر بين سراديب الكتل الصخرية وملابسه مغبرّة كلون الحجر، والرجل سمع صوته لأنه ارتد عن الصخور.

لم يكن قادراً على الركض، فسارع مهرولاً نحو البقعة التي شاهد فيها الرجل وهو يطلق بين الحين والآخر زعيقاً عالياً فوجئ بأنه قادر

عليه، وهناك كان الرجل، واقفاً على الجانب البعيد لإحدى الصدوع الواسعة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة أوسع من الصدع الذي كان يقف عليه.

مظفر، مثقل الظهر بأمتعة مورتنسون التي يبلغ وزنها تسعين رطلاً، لم يبذل جهداً يذكر في القفز من فوق شقٍ ضيق ليتجه نحوه ويرمي بأحماله أرضاً لكي يعانقه هاتفاً: "سيد جريغ، الله أكبر! أأنت حي؟ ألف حمدٍ وشكرٍ لك يارب!".

انحنى مورتنسون وهو يستسلم للعناق الطاحن الذي كاد يسحقه بين ذراعي رجل بحجم قزم ويكبره بعشرين عامٍ على الأقل.

وبعد أن أطلق مظفر سراحه، بدأ يضربه على ظهره مهللاً، فانتابته نوبة من السعال الشديد لم يعرف إن كانت بسبب صفعات مظفر على ظهره أم الغبار الذي تصاعد من قميصه.

اعترى القلق مظفر وهو يعاين حالة مورتنسون المزرية وأعطاه الوصفة التي رآها شافية: "الشاي ياسيد جريغ، الشاي هو الذي سيرد لك قوتك"، ثم اقتاده إلى كهف صغير ليبعده عن الرياح الباردة واقتطف ملء راحتيه أوراقاً من أغصان المريمية المربوطة على صرة حوائجه وبدأ يفتش في جيوب سترته المهلهلة التي التقطها من مخلفات إحدى المجموعات الاستكشافية حتى وجد حجر صوان وإبريقاً معدنياً وجلس كي يعد الشاي. التقى مورتنسون بمظفر علي للمرة الأولى بعد أربع ساعات من مغادرته "كيه 2" برفقة دارسني. كانا قد قطعا مسافة الأميال الثلاثة التي تفصلهما عن المعسكر الرئيسي في برود بيك في بداية الصيف خلال خمس وأربعين دقيقة لزيارة سيدة من المجموعة المكسيكية كان دارسني يحاول أن يوقعها في حبائله طوال الوقت. لكن قطع تلك المسافة القصيرة بات فيما بعد مهمة


https://telegram.me/maktabatbaghdad

عسيرة وهما يتعثران في الأعالي وتنوء سيقانهما الهزيلة تحت أحمالهما وتحول إلى معاناة امتدت أربع ساعات.

كان مظفر وصديقه يعقوب قد فرغا من عملهما مع المجموعة المكسيكية ويغادران الجبل نزولاً باتجاه قريتهما، فعرضا على مورتنسون ودارسني أن يحملا عنهما الأمتعة الثقيلة وصولاً إلى أسكول مقابل أربعة دولارات لليوم الواحد فوافق الأميركيان بسرور. وبالرغم من أنه لم يعد بحوزيتهما سوى بضع روبيات، فقد قررا أن يدفعا زيادةً على المبلغ المتفق عليه حالما يتمكنان من مغادرة الجبال.

مظفر كان من البلطيين، ذلك الشعب الآتي من الجبال الذي استوطن أكثر الوديان توحشاً في الأعالي الشاهقة الواقعة في شمال الباكستان. هاجر البلطيون من موطنهم الأصلي في جنوب غرب التيبت منذ أكثر من ستة قرون. وإبان ذلك الرحيل العسير، غادرتهم ديانتهم البوذية وحلّت محلها ديانة أخرى أكثر تلاؤماً مع قسوة بيئتهم الجديدة وهي الإسلامية الشيعية، لكنهم حافظوا على لغتهم الأم وهي شكل موغل في القدم من اللغة التيبيتية. أما قاماتهم القصيرة وصلابتهم ومقدرتهم الفائقة على التلاؤم والانسجام مع مرتفعاتٍ لم تجرؤ سوى قلة قليلة من البشر على وطئها، فقد كانت تذكر متسلقي الجبال بشيربا نيبال، السلالة التي تحدّروا منها وتقطن على الجانب الشرقي منهم. ولكن للبلطيين أيضاً خصائصهم إذ يمتلكون ذلك التشكيك الباطني بكل من ليس منهم، وإيماناً دينياً عيمقاً مما جعل الغربيين يمتنعون عن التشدق بالحديث عنهم كما يفعلون مع البوذيين.

فاسكو مارايني الذي كان عضواً في بعثة استكشاف إيطالية عام 1958 تمكنت من تحقيق أول وصول إلى قمة جبل "جاشربروم" الرابع، جار "كيه 2" الشرس، ذُهل أمام البلطيين وافتتن بهم إلى

درجة أن الكتاب الموسع الذي وضعه عن ذلك الاستكشاف تحت عنوان "كاراكورام: تسلق جاشربروم الرابع" يمكن أن يعتبر بحثاً مطولاً عن البلطيين وطريقة حياتهم أكثر منه تدويناً للنصر الذي أحرزته البعثة في وصولها إلى القمة. ومما يقوله مارايني في ذلك الكتاب: "يتواطؤون عليك ويتذمرون منك حتى تخرج عن طورك. وعلاوة على رائحتهم الكريهة، فإنهم لايتركون لك مجالاً للشك بأنهم يسرقونك. ولكن إن استطعت أن تتغاضى عن فظاظتهم سترى بأنهم شجعان بالفعل وبأنهم يخدمونك بإخلاص. هم أقوياء بدنياً لكن الأهم من ذلك أنهم يتحملون المشاق ولايبالون بالمصاعب مهما كبرت. أولئك الرجال ذوو القامات القصيرة وسيقان طائر اللقلق يحملون أربعين كيلوغراما على ظهورهم ويسيرون أياماً متواصلة على دروب لايمكن لأحد غيرهم أن يفكر في مجرد وطئها".

جلس مظفر القرفصاء وأخذ ينفخ بقوة في عيدان المريمية المشتعلة، وبدا وسيماً بجلافة ولو أن أسنانه المخلوعة وبشرته التي جعدتها أشعة الشمس تجعله يبدو أكبر سناً من سنواته الخمسين. لقد أعدّ الشاي بالزبدة، ذلك المشروب الذي يُشكل ركناً أساسياً في برنامج البلطيين الغذائي، وبعد أن أصبح الشاي الأخضر جاهزاً داخل إبريق الصفيح، أضاف إليه الملح والخميرة وحليب الماعز ثم كشط برفق طبقة رقيقة من (المار)، الزبدة البائتة الزنخة التي تُستخرج من شحم الثيران ويعتبرها البلطيون بذخاً مفرطاً، وأضافها إلى الشاي وحرك المزيج بإصبعه القذرة. تابع مورتنسون المشهد بعصبية، فهو يشم رائحة شاي الزبدة ذاك منذ وطئت قدماه بالتستان ويصف طعمه بأنه "أكثر نتانةً من أسوء جبن صنعه الفرنسيون عبر التاريخ" وكان دائماً يختلق المئات من الأعذار كي يتجنب شربه. وعندما ناوله مظفر كوباً يتصاعد منه البخار، شعر بالغثيان في البداية، لكن جسده الذي يتوق


https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى الملح والدفء جعله يتجرع الكوب بأكمله وألحقه بكوب ثانٍ ملأه مظفر حتى حافته. "أحسنت ياسيد جريغ..ياسندباد!" هلّل مظفر بعد أن شرب الكوب الثالث وهو يضربه على كتفه ويثير الغبار المتراكم على ملابس مورتنسون.

واصل دارسني طريقه الى أسكول يرافقه يعقوب وخلال الأيام الثلاثة التي انقضت قبل أن يغادرا الجبل، لم يسمح مظفر لمورتنسون قط بأن يغيب عن ناظريه. وعلى الدرب التي مازال مورتنسون يحاول أن يتبينها، كان مظفر يراها منبسطة أمامه كراحة يده ويمسك بيد مورتنسون في بعض الأحيان أو يحرص كل الحرص على أن وديعته يسير ملاصقاً لعقبي جزمته البلاستيكية الرخيصة التي ينتعلها دون جوارب. كان مظفر المتدين والحريص على أداء الطقوس الإسلامية يقوم بالصلوات الخمس وهو يخطف بصره عن مكة لثوانٍ معدودة كي يتأكد بأن مورتنسون مازال إلى جانبه.

استغل مورتنسون فرصة التواجد مع مظفر كي يتعلم اسم كل ماكان يشاهده باللغة البلطية. النهر الجليدي يُدعى "جانجس - زهينج" والانهيار الجليدي "رودو - روت" أما الصخور فلها تسميات مختلفة عند البلطيين، شأنهم في ذلك شأن قبائل الإينويت في تسمياتهم للثلج. "براك - ليب" هي الصخور العريضة الملساء التي تُستخدم كسرير للنوم أو للطبخ عليها، و"خروك" لها شكل الإسفين المثالي لسد الثغرات في جدران المنازل الحجرية. أما "خودوس" فهي صخور دائرية صغيرة يضعونها في النار بعد أن يلفوا حولها العجين غير المخمّر للحصول على "الكوربا" أي أرغفة الخبز المستديرة الي يعدونها كل صباح قبل أن يخرجوا إلى الجبال. وبمساعدة أذنه المرهفة في التقاط اللغات، أصبح لدى مورتنسون كمية لابأس بها من المفردات الأساسية في اللغة البلطية.

وعندما بدأ المسير في ممر جبلي ضيق، كان مورترنسون قد غادر المنزلقات الجليدية لتطأ قدماه أرضاً صلبة للمرة الأولى منذ مايزيد عن ثلاثة أشهر. كان خطم نهر بالتورو الجليدي يقع في قعر المجرى الذي اسّود بفعل الرواسب وحولّته عوامل الحت إلى شكل مستدّق يشبه مقدمة الطائرة. ومن هذا المنفذ تندفع نحو الخارج، بدوي يصم الأذان، الأنهار الباطنية التي تجري أسفل طبقات من الجليد تصل سماكتها إلى اثنين وستين كيلومتراً، وعمود الماء المزبد الهائج ذاك هو منبع نهر برالدو ونقطة انطلاقه.

بعد خمس سنوات من ذلك اليوم، وصل إلى تلك البقعة قائد زوارق سويدي برفقة طاقم سينمائي لتصوير فيلم وثائقي وحطّوا رحالهم فيها. وأثناء محاولة لاجتياز نهر بالتورو باتجاه نهر الهندوس، أي التجذيف مسافة ثمانمئة ميل، دفع السويدي حياته ثمناً لها إذ تلقفت الصخور قاربه وهشمته بعد لحظات من ملامسته للماء.

ولأول مرة منذ أشهر طويلة، شاهد مورتنسون زهرة بريّة تحمل خمس أوراق وردية اللون وعندما انحنى كي يتأملها عن قرب، شعر وكأنها تبشّر برجوعه سالماً من شتاء سرمدي. وكانت عيدان القصب وشجيرات المريمية تتناثر على ضفتي النهر الذي أخذا يسيران بمحاذاته وقد أحاطت به نسائم الخريف وكان لها ذلك الوقع الحيي الذي كاد أن ينساه. ظواهر الطبيعة الحيّة الهزيلة في ذلك المعبر النهري الوعر كانت بذخاً لايضاهى بالنسبة لمورتنسون. وبما أنهما غادرا جبل بالتورو وأخطاره، فقد نصب مظفر معسكراً في العراء وصار يعد طعام العشاء كل مساء قبل أن يعود مورتنسون من جولته. أما مورتنسون، فكان يتمشى على الدرب الذي يتفرع نحو بقعة ترعى فيها الحيوانات في فصل الصيف ولايجد صعوبة في العثور على طريق العودة إذ يتبع النهر حتى يشاهد الدخان المتصاعد من النار التي


https://telegram.me/maktabatbaghdad

يوقدها مظفر كل مساء. لكن السير على ساقيه الواهنتين لم يكن بنفس اليسر وكان مضطراً لاحتمال الألم لأنه لايوجد حلٌ أخر، فظل يتابع المشي حتى أصبحت محطات التوقف الضرورية لأخذ قسطٍ من الراحة أقل تدريجياً.

وفي اليوم السابع لمغادرته "كيه 2"، شاهد مورتنسون الأشجار من جديد وهي تنتصب فوق حيدٍ يقع قرب الضفة الغربية لنهر برالدو وكانت عبارة عن خمس أشجار أحنتها الرياح القوية نحو الأمام وتلوح بأغصانها وكأنها أصابع يدٍ بشرية ترحب به وشعر باللمسة الإنسانية في اصطفافها المنتظم كنقيضٍ حاد لجبروت كاراكورام الأهوج الذي يلفظ كتل الجليد وجلاميد الصخور على شكل سيلٍ أعمى يمكن أن يسحق دون اكتراث أي كائنٍ حي وضعه سوء حظه في طريقه، أما تلك الأشجار فكانت تخبره بأنه قد نزل منه حياً ومعافى.

كان مستغرقاً في تأمله للخضرة، فلم ينتبه الى التشعب الذي يعيده إلى المسار الصحيح ويؤدي إلى (زامبا) أي جسر مصنوع من حبال من وبر الثور مجدولة إلى بعضها البعض ومعقودة إلى كتلتين من الصخر على ضفتي النهر. لقد تاه مورتنسون مرةً أخرى. فبدلاً من الجسر الذي يؤدي إلى أسكول، وجهته الرئيسية التي تبعد ثمانية أميالٍ على الضفة الشمالية للنهر، اتخذ مساراً آخر على الضفة الجنوبيةَ نحو الأشجار، وماظنها أشجار حور كانت في الحقيقة شجيرات مشمش.

فوق هذه البقعة التي يبلغ ارتفاعها عشرة ألاف قدم عن سطح البحر، كان موسم الحصاد قد انتهى في أواسط شهر أيلول، وتكدست أكوامٌ من الثمار الناضجة داخل مئات من السلال المجدولة من القصب، تعكس ألوانها الذهبية البرّاقة على أوراق الأشجار المتدلية فوقها.

رأى مورتنسون مجموعات من النساء يركعن عند السلال ويقسمن ثمار المشمش إلى نصفين ويضعن جانباً بذورها التي سيقمن أيضاً بفتحها لاستخراج اللب. وعندما انتبهت النساء إلى وجود مورتنسون، سارعن إلى تغطية وجوههن بأوشحتهن واحتمين خلف الأشجار كي تحجبهن عن "الإنجريزي"، ذلك الرجل الغريب ذي البشرة البيضاء، ولكن الأطفال لم يكونوا بذلك التحفظ، بل شكلّوا مذنباً طويلاً مشى خلف مورتنسون وهو يلج الحقول السمراء الضاربة إلى الصفرة حيث كانت النسوة يختلسن النظر إليه من بين سنابل القمح والشعير التي كن يعملن على حصادها بالمناجل. دسّ الأطفال بأصابعهم داخل قميصه وقلبوا معصمه بحثاً عن ساعة اليد التي لايرتديها بالأصل وتناوبوا على الإمساك بيديه.

وللمرة الأولى منذ أشهر عديدة انتبه مورتنسون إلى غرابة مظهره الخارجي بشعره الطويل المشعث وقامته الضخمة الموغلة في القذارة، ويذكر ذلك قائلاً: "كانت قد مرت ثلاثة أشهر دون أن أستحم". انحنى نحو الأطفال يحاول ألا يثير خوفهم، لكنهم لم يجدوا فيه أي سبب للخوف.فالقمصان التي كانوا يرتدونها مليئة هي الأخرى بالبقع ومعظمهم حفاة الأقدام رغم البرد القارس. وصلت رائحة قرية كورف إلى أنف مورتنسون وهو مايزال على مسافة مئة ميلٍ منها، ذلك العبق المحبب الذي يفوح من نبات العرعر المشتعل داخل مواقد الطبخ، وعبير الإنسانية التي لم تطلها مخالب التمدن وابتلّت روحه بعد الجدب الذي عاشه في أعالي الجبال. كان مايزال يعتقد أنه في الطريق المؤدية إلى أسكول التي مرّ بها قبل ثلاثة أشهر وهو في طريقه إلى "كيه 2"، رغم شعوره بأنه يشاهد كل شيء لأول مرة. وحين وصل إلى مدخل القرية الرئيسي الذي لم يكن سوى قوسٍ بسيطٍ من أغصان الأشجار يقف بتواضعٍ قربَ حقلٍ للبطاطا، كان قد أصبح قائداً لمسيرةٍ قوامها خمسون طفلاً.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

نظر نحو الأمام وهو يأمل في أن يرى مظفر بانتظاره ، لكن ما رآه كان عبارة عن رجلٍ ضئيل القامة، ملامح وجهه قاسية كأنها قدّت من صخور الوادي ويعتمر قلنسوة صوفية رمادية بلون لحيته، وكان اسمه الحاج علي وهو زعيم قرية كورف. صافحه الحاج علي قائلاً: "السلام عليكم" ، ورافقه عبر المدخل وفق ماتقتضيه أصول الضيافة التي من المعيب ألا يبديها أي رجل بالطي، ثم أشار إلى سبيلٍ للماء وأمره بأن يغسل وجهه ويديه وتوجه به بعدها إلى منزله.

تقع قرية كورف على ارتفاع ثمانمئة قدم عن نهر برالدو حيث تربض فوق رفٍ صخري معلق على خاصرة جدار الوادي النهري، وكأنه مصطبةٌ لنوم متسلقي الجبال حُشرت في جانب الجرف الصخري الشاهق. وكانت البيوت البسيطة المكتظة بالسكان عبارةً عن مبانٍ حجرية مربعة الشكل وتتألف من ثلاثة طوابق تتكئ على بعضها البعض ويصعب تمييزها عن جدران الوادي لولا الألوان المتباينة لأكوام المشمش والبصل والقمح المكدّسة فوق الأسطح.

قاد الحاج علي مورتنسون إلى داخل منزلٍ متواضع يفتقر إلى أي مظهرٍ للفخامة يميزه عن باقي البيوت ومسّد كومة من التبن تحت قدميه مثيراً كومةً من الغبار ملأت الغرفة، ثم وضع الوسائد قرب موقد النار حيث يجلس الضيوف وأقعد مورتنسون هناك. لم يدُر أي حديث أثناء إعداد الشاي، والأصوات الوحيدة المسموعة في الغرفة كانت تصدر عن وقع الأقدام ووضع المزيد من الوسائد عندما حضر عشرون رجلاً من عائلة الحاج علي الكبيرة واتخذوا مجالسهم حول موقد النار.

كان إبريق الشاي يُعد فوق الموقد الذي تصاعدت منه الرائحة اللاذعة لروث الثيران المُشتعل من تحته، وسحب الدخان المتجهة،

لحسن الحظ، نحو الخارج عبر فتحةٍ واسعة في سقف الغرفة.وعندما نظر مورتنسون نحو الأعلى، شاهد العيون الفضولية للأطفال الخمسين الذين لحقوا به متحلّقة حول الفتحة بشكل دائري، إذ لم يسبق للقرية أن عرفت رجلاً غريباً قبله.أعمل الحاج علي يده في جيب صدرته المطرّزة وهو يفرك يهمةٍ الأوراق الخضراء للتبغ المخصص للمضغ يدعونه "ناسوار" بواسطة قطعة نتنة من لحم الوعل المقدد وقدّم لمورتنسون مضغة منه، فازدردها متحدياً نفسه أمام أغرب طعمٍ عرفه في حياته وسط قهقهات الاستحسان من ناظريه، ثم تناول كوب الشاي بالزبدة الذي قدمه له الحاج علي وهو ممتنٌ للدفء الذي منحه إياه.وعند ذلك، كان الحاج علي قد أتم واجبات الضيافة على أكملِ وجه، فدنا بوجهه الملتحي من وجه مورتنسون وزعق فيه قائلاً: "شيزالي؟" وهي كلمة باللغة البلطية وتعني: "مالذي تريده بحق الجحيم؟". وبالنتف القليلة الي يعرفها باللغة البلطية والكثير من الحركات والإيماءات، أخبر مورتنسون المجموعة التي كانت تراقبه باهتمامٍ كبير بأنه أميركي الجنسية وقد جاء لتسلق جبل "كيه2" مما أثار استحسان الرجال. ثم أضاف بأنه أصبح مريضاً وخائر القوى وبأنه قد حضر إلى هنا، إلى أسكول، بحثاً عن سيارة جيب توصله إلى سكاردو عاصمة بالتستان التي تبعد ثماني ساعات.

أنهى مورتنسون حديثه وعاد إلى الاسترخاء على وسادته وقد استنفد كل ذرة من طاقته مابين المشي الطويل والجهد الذي بذله في شرح وضعه. وفي هذا المكان الذي أحاطه بالدفء والراحة والتفاعل الإنساني، أحس بأن الإرهاقِ الذي كان يقاومه قد هبط عليه بكل ثقله. ولكن الحاج علي ضحك قائلاً: "هذه ليست أسكول!" وأضاف وهو يشير إلى أرض الغرفة عند قدميه: "هذه كورف!".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

صُعق مورتنسون وانتصب جالساً. فهو لم يسمع بهذا الاسم في حياته ولم يشاهده على أي خارطةٍ من عشرات الخرائط التي قام بدراستها، ونهض واقفاً وقال لهم بأنه يجب أن يصل إلى أسكول لكي يلاقي رجلاً اسمه مظفر ويحمل كل مايملك.لكن الحاج علي أمسك ضيفه من كتفيه بقبضتيه القويتين ودفع به نحو الوسائد، واستدعى ابنه تواها الذي تعلّم بعض المفردات الغربية خلال زياراته المتكررة إلى سكاردو وأمره بأن يقوم بالترجمة. ذلك الرجل الذي كان نسخة طبق الأصل عن أبيه باستثناء اللحية، ترجم بلغة ركيكة ماكان يقوله والده وانتهى إلى خلاصةٍ مفادها أن الذهاب إلى أسكول في ذلك اليوم ليس وارداً لأنه يستغرق مايعادل نصف يوم من تسلق الجبال، وتلك مشكلة كبيرة. غداً إن شاء الله، سيرسل الحاج علي أحدهم كي يجد مظفر، اما الآن، فعليه أن يخلد للنوم. نهض الحاج علي من مجلسه وأشار للأطفال أن يبتعدوا عن فتحة السقف التي بدأت العتمة تغشاها، في حين انصرف الرجال من الغرفة عائدين إلى بيوتهم.

كان عقله يمور بالقلق ويشعر بحنقٍ عارم على نفسه لأنه أضلّ طريقه مرّة أخرى وتلبسته أحاسيس العزلة والتيه من جديد. ورغم ذلك، فقد خلع عنه ملابسه واستلقى ليغط في نومٍ عميق.

# الفصل الثالث

# "الارتقاء والكمال"

"أخبرنا أرجوك، إن كان بوسعنا أن نقدم شيئاً واحداً لقريتك فما هو ذلك الشيء؟" "مع فائق الاحترام أيها السيد، انتم غير قادرين على تعليمنا القوة والصلابة، ونحن لا نحسدكم على أرواحكم القلقة وقد نكون سعداء أكثر منكم. ما نحتاجه هو أن يذهب أولادنا إلى المدارس، ومن بين كل ما تمتلكونه لا نريد إلاّ شيئاً واحداً وهو أن يذهب أولادنا إلى المدارس".

حوارٌ جرى بين سير إيدموند هيلاري
وأوركيين شيريا، مقتطف من كتاب
"بناءٌ مدرسي بين الغيوم"

لقد قام أحدهم بوضع لحافٍ سميك فوق مورتنسون أثناء نومه، فاستكان تحته يتلذذ بالدفء الذي غمره في أول ليلة ينام فيها تحت سقف منذ الربيع الماضي. ومن خلال النور الخفيف المنبعث عن جمرات الموقد، استطاع أن يميّز أجساداً أخرى تشاركه النوم في الغرفة نفسها وتناهت إليه أصوات شخير متنافرة تتصاعد من الزوايا كافة، فانقلب إلى جانبه الآخر وبدأ يشخر بدوره. وعندما أفاق للمرة الثانية، وجد نفسه وحده وشاهد السماء الزرقاء تُطل عليه من فتحة السقف.

لاحظت سكينة، زوجة الحاج علي، أنه قد استيقظ من النوم فأحضرت له الحليب والكعك الطازج والشايِ المحلّي بالسكر. كانت سكينة أول امرأةٍ بلطية يراها عن قرب، وكان لديها ألطفُ وجهٍ شاهده


https://telegram.me/maktabatbaghdad

في حياته، التجاعيد التي كانت إلى جانب عينيها انحدرت نحو الأسفل وتلاقت مع تلك التي عند زاويتي فمها لتشكل معاً ابتسامةً لاتمحى. أما شعرها، فقد كان مجدولاً بعناية على طريقة نساء التيبت، وتغطيه "الأودوا" قلنسوة الصوف المطرّزة بالخرز والصدف. وظلت سكينة واقفة على خدمة مورتنسون لكي تتبين رأيه في طعام الإفطار. تناول مورتنسون أولاً لقمة من الكعك الدافئ بعد أن غمسها بالحليب وازدردها، ثم التهم الطعام كله الذي قُدّم إليه وهو يحتسي الشاي المحلّى بالسكر مع كل لقمة مما أبهج سكينة فجلبت له المزيد وهي تضحك بحبور، ولو عرف مورتنسون حينها مدى ندرة السكر لدى البلطيين وغلاء ثمنه لما شرب كل ذلك الشاي. بدأ مورتنسون يتفحص الغرفة بعد أن غادرتها سكينة وكانت بسيطةً وتشي بالعوز. فعلى الحائط يوجد ملصقٌ إعلاني بهتت ألوانه لمنتجعٍ جبلي يقع في سويسرا بين أحضان مروجٍ غنّاء تفترشها زهورٌ برية. أما ما تبقى من الموجودات، فكان عبارة عن أوانٍ للطبخ تفحمّت من كثرة تعرّضها لنيران الموقد ومصابيح للإنارة طالتها يدُ الإصلاح مراراً ومازالت جميعها قيد الاستعمال.

وعندما نظر إلى اللحاف السميك الذي وضعوه فوقه بعد أن أخلد إلى النوم، وجد بأنه مصنوع من مخملٍ حريري قرمزي اللون ومزركش بمرايا صغير برّاقة، في حين كانت البطانيات التي تدثّر بها بقية من كانوا معه في الغرفة مهترئةً ومرقعة كيفما اتفق بكل أنواع الأقمشة. لقد قدموا إليه أثمن ما يوجد في بيت الحاج علي كي يتنعم بالدفء.

بعد الظهر بقليل، سمع مورتنسون أصوات هرجٍ ومرج، فخرج وسار، يصحبه معظم أهل القرية، حتى وصل إلى الجرف الصخري المطل على نهر برالدو وشاهد رجلاً يسحب نفسه باتجاهه في قلب صندوق خشبي يتدلى من كبلٍ فولاذي معلّق على ارتفاع مئتي قدم فوق سطح النهر.

مما لاشك فيه أن عبور النهر بهذه الطريقة يوفر زمنا قدره نصف يومٍ بالنسبة لذلك القادم لأن عليه أن يسير صعوداً مع مجرى النهر وأن يعبر الجسر باتجاه كورف لكي يصل إليها، ولكنها تعني أيضاً بأن انقطاع الكبل والسقوط في النهر موتٌ محتّم. وعندما أصبح الرجل في منتصف الطريق النهري، لاحظ مورتنسون أنه مظفر بشحمه ولحمه وقد حشر جسمه في صندوق خشبي مهلهل مربوطٍ إلى بعضه البعض بطريقةٍ خرقاء، ويجلس فوق صرة أمتعته التي يبلغ وزنها تسعين رطلاً!

صفعات مظفر على ظهره وهو يعبر عن سعادته بمرآه لم تعد تفاجئ مورتنسون ولكنه حاول هذه المرّة أن يكتم سعاله . ابتعد مظفر قليلاً وتأمل مورتنسون من أعلاه إلى أسفله والدموع تملأ عينيه، ثم رفع كفيه نحو السماء وراح يهزهما وهو يصيح بأعلى صوته: "الله أكبر!"، وكأنه حظي بالمنّ والسلوى.

عرف مورتنسون الكثير عن مظفر خلال تناولهم للعشاء في منزل الحاج علي، والذي كان عبارةً عن دجاجٍ مشوي هزيل وأعجف تماماً مثل البلطيين الذين كانوا يربونه، واكتشف أن مظفر معروف في أنحاء كاراكورام كلها كواحدٍ من أمهر الحمالين المتواجدين في أعالي الهيملايا منذ ثلاثة عقود. وقد ذاع صيت إنجازاته المتنوعة والواسعة، خصوصاً مرافقته للمتسلق الشهير نيك كلينش خلال أول محاولة أميركية لتسلق جبل ماشربروم عام 1960. وماأثار إعجاب مورتنسون بحق هو أن مظفر لم يُشر قط إلى تلك النجاحات أثناء الساعات الطويلة التي أمضياها معاً وهما يتحدثان.وعندما استطاع مورتنسون أن يخلو إلى مظفر، دفع له ثلاثة آلاف روبية، وهو مبلغ يفوق بكثير الأجر المتفق عليه، ووعده بأن يقوم بزيارته في قريته عندما يتعافى تماماً. ولم يخطر ببال مورتنسون حينها أن مظفر سيلازمه خلال السنوات العشر القادمة وهو يقوده عبر الدروب المسدودة في شمال


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الباكستان باليد المتمرّسة ذاتها التي أزاحته من طريق الإنهيارات الجليدية وعبرت به الصدوع .

وبمساعدة مظفر، التقى مورتنسون ودارسني من جديد وقاما معاً بالرحلة الطويلة إلى سكاردو بواسطة سيارة جيب. وفي نزلٍ مخصصٍ لمتسلقي الجبال يُدعى "كيه 2"، وجد مورتنسون المتع الحَسيّة التي افتقدها من طعامٍ معدٍ كما يجب وفراش نوم مريح. لكن ثمة شعورٍ كان يحثه على العودة إلى بقاع كاراكورام، وقد تولّد عنده حسٌ خفيَ بأنه وجد شيئاً نفيساً فيها، فعاد إلى كورف حالما وجد أحداً يأخذه إلى هناك.

ومن مقرّ إقامته في بيت الحاج علي، وضع مورتنسون لنفسه برنامجاً يومياً، إذ كان ينطلق صباحاً ومساءاً في جولة حول كورف ترافقه فيها، بالطبع، جوقة الأطفال ذاتها وهم يمسكون بأيديه ويتدافعون من حوله. وشاهد كيف أن واحة الخضرة التي انبثقت من قلب صحراء شاسعة من الصخور الجدباء، تدين بحياتها لجهود بشرية خارقة شقت أقنية الري بالسواعد العارية لكي تصل المياه التي تذوب من جليد النهر إلى حقولهم وبساتينهم . والآن، وبعد أن أصبح بعيداً عن جبل بالتورو المحفوف بالمخاطر، أدرك كم كانت حياته هناك مهدّدة وكم أصبح ضعيفاً وخائر القوى، إذ لم يتمكن من هبوط الدرب المتعرج نحو النهر إلا بشق الأنفس وراعه ماشاهده على سطح الماء عندما خلع ملابسه ليغتسل: "كان ساعداي أشبه بعودي ثقاب وكأنهما ذراعا شخصٍ آخر".

وعندما كان يصعد طريق العودة نحو القرية لاهثاً يلتقط أنفاسه بصعوبة، لم يكن يشعر بأنه أفضل حالاً من رجال كورف العجّز الذين يجلسون في ظلال أشجار المشمش، يدخنون النرجيلة ويقضمون لب المشمش. وبعد ذلك التسكع اليومي، كان يُقرّ بتعبه ويعود إلى عشه في منزل الحاج علي ويستلقي على الوسائد قرب موقد النار ويتأمل السماء من خلال فتحة السقف.

كان زعيم القرية يتابع حالة مورتنسون عن كثب، فأمر بنحر كبشٍ من الكباش المعدودة في القرية كي يقوى جسمه، وشاركه في تناوله نحو أربعين رجلاً. وعندما رأى مورتنسون كيف تقوم أسنان أولئك الناس بكشط اللحم عن عظام الذبيحة الهزيلة، ثم كيف يدقون العظام بالصخور ويمصّون نخاعها، أدرك مدى ندرة وجبة كهذه وكم أن شعب قرية كورف قريبٌ من خط الجوع. وفي الوقت نفسه الذي كان يسترد فيه عافيته، كان يسترد أيضاً بصيرته. فعندما وصل إلى كورف في المرة الأولى، ظن أنه قد تعثّر بالصدفة بما يشبه المدينة الفاضلة. الكثير من الغربيين الذين جاؤوا إلى تلك المناطق يعتقدون بأن البلطيين يعيشون حياةً بسيطة وخالية من التعقيدات، على نقيض حياتهم في بلدانهم المتقدمة، حتى أن الرواد الأوائل بحثوا عن اسم رومانسي يناسبها، فاختاروا لها تسمية "تيبت أشجار المشمش".

وقد زار ماريني أسكول عام 1958 وكتب بإسهاب معبراً عن إعجابه بطريقة حياة البلطيين: "من الواضح أن البلطيين يستمتعون بحياتهم كما هي. فقد ترى مجموعة من الرجال المسنين يجلسون بهدوء تحت الأشجار يدفئون عظامهم العتيقة ويدخنون النرجيلة، ومجموعة أخرى أكثر شباباً ينسجون على أنوالٍ بدائية فى ظلال أشجار التوت بالمهارة التي يتمتع بها ذوو الباع الطويل. وقد ترى أيضا صبيين صغيرين يجلسان على انفراد ومنهمكين في نزع حشرات القمل من رؤوسهما بدأب وأناة. إنه جو يعبق بحس الرضى التام والسلام المطلق، مما يطرح سؤالاً بديهياً: أليس من الأفضل أن يحيا الانسان وهو جاهل بكل الأمور ولا يعرف ماهو الإسفلت أوالطرقات المعبدة ووسائط النقل وأجهزة الاتصالات والتلفاز؟ أليس من الأفضل أن يمضي الإنسان حياته في هذا النعيم من اللامعرفة؟".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبعد خمس وثلاثين سنة من ذلك الوصف الرومانسي، مازالت كورف تعيش بالطريقة نفسها ومازالت تفتقر إلى كل وسائل الحياة العصرية. ولكن مورتنسون الذي لم يمض فيها بعد سوى أيامٍ قليلة بدأ يلاحظ بأنها بعيدة كل البعد عن كونها الجنة هنيّة البال التي ألهبت خيال زوارها الغربيين. ففي كل بيت، يوجد شخص واحد على الأقل يعاني من تضخم الغدة الدرقية أو قصرٍ حاد في النظر. أما الأطفال الذين أحب مورتنسون لون شعرهم الأشبه بلون الزنجبيل، فلم يكن لوناً طبيعياً بل هو أثر جانبي لنوع خطير من أمراض سوء التغذية يُدعى "كواشيوركور" يسببه نقص البروتين في نظامهم الغذائي.

وفي حديث له مع تواها، ابن زعيم القرية، بعد عودته من صلاة العشاء في المسجد أخبره بأن أقرب طبيب إلى القرية يقيم في سكاردو ويبعد عنهم مسافة أسبوع سيراً على الأقدام، وبأن طفلاً من بين كل ثلاثة أطفال في كورف يموت قبل أن يُتم عامه الأول. كما أخبره بأن رقية، زوجته، قد توفيت قبل سبعة أعوام أثناء ولادة ابنته الوحيدة جيهان، وبأن اللحاف الوثير ذا اللون القرمزي والمرايا الصغيرة الذي أكرموا مورتنسون باستعماله هو أنفس قطعة كانت في جهاز العروس رقية.

شعر مورتنسون بامتنان كبير وبدأ يفكر بوسيلة يرد بها أفضال مضيفيه، فلم يجد سوى أن يهديهم ممتلكاته. إنها أشياء بسيطة بحد ذاتها لكن البلطيين يجدونها قيّمة لأنها تنفعهم أثناء تجوالهم الطويل في المراعي النائية التي يأخذون حيواناتهم إليها في فصل الصيف، مثل زجاجات الشراب المقوي والمصابيح اليدوية، فكان لكل فرد من أفراد أسرة الحاج علي الكبيرة حصةً منها.

إذ قدّم لسكينة موقد الطهي الضخم المخصص للتخييم، أما تواها فقد وضع على كتفيه سترته السميكة ذات اللون الخمري وألح عليه

كثيراً حتى وافق على قبولها، رغم أنها واسعة للغاية نظراً لفرق الحجم الشاسع بين الرجلين ، وخصّ الحاج علي بسترته الواقية السميكة التي حمته من الموت برداً على "كيه 2".

لكن الذي تبيّن أنه ثمين بالفعل كانت خبرته كممرض متمرّس والأدوية التي يحملها معه في علبة الإسعاف المخصصّة لأفراد البعثة. وبما أنه بدأ يسترد قوته يوماً بعد يوم، فقد أصبح قادراً على السير لمدة ساعات، يصعد الأزقة الضيقة في كورف ويتنقل بين البيوت ليقوم بما يقدر عليه في خضم الكم الهائل من الحاجة الملحّة للرعاية الطبية. استعمل مراهم المضادات الحيوية لعلاج القروح المزمنة وتجفيف الجراح المتقيّحة، وكيفما اتجه، كانت العيون تتأمله من خلف الأبواب الموصدة على عجائز القرية وصبرهم الطويل على آلامهم المبرحة. كان يقوّم العظام المكسورة ويخفّف من الآلام بالمسكّنات والمضادات الحيوية، وذاع صيته في بقية المناطق وبدأ الناس يرسلون في طلب "الدكتور جريغ"، ذلك اللقب الذي سيلازمه في شمال الباكستان منذ ذلك الحين رغم تأكيده الدائم بأنه ممرض وليس طبيباً.

خلال إقامته في كورف، كان مورتنسون يشعر بوجود أخته الصغيرة كريستا حوله خصوصاً عندما يكون بين أطفال القرية، ويقول عن ذلك: "كل شيءٍ في حياتهم يتطلب النضال وقد ذكرني ذلك بكريستا التي كان عليها أن تناضل كي تنجز أبسط الأمور. ومثلهم أيضاً، كان عليها أن تصمد أمام أي أذيةٍ يمكن أن تلطمها الحياة بها"، وقرر أن يفعل شيئاً من أجلهم، مثل شراء لوازمهم أو كتبهم المدرسية بالنقود التي ستبقى معه عندما يصل إلى إسلام أباد.

كان مستلقياً قرب الموقد عندما طلب من الحاج علي أن يأخذه في زيارة لمدرسة كورف ورأى غمامةً من الحزن تعلو الوجه العجوز


https://telegram.me/maktabatbaghdad

المتغضن، لكنه ظل يلّح عليه حتى وافق الزعيم على أن يصحبه إلى هناك في الصباح الباكر. وبعد أن تناولا إفطارهما المعتاد من الكعك الطازج والشايٍ، سار به الحاج علي عبر أكثر الممرات ارتفاعاً وأشدها وعورةً حتى وصلا إلى حيدٍ جبلي فسيحٍ يقع على ارتفاع ثماني مئة قدم فوق نهر برالدو. المشهد كان أخاذاً، حيث تربض كتل الجليد العملاقة على قمة الجبل وتشق عنان السماء الزرقاء، لكن مورتنسون لم يعبأ به لأنه وقف مشدوهاً أمام مشهدٍ آخر يضم اثنين وسبعين فتىً وأربع فتياتٍ واتتهن الجرأة للانضمام إلى الصبية، راكعين فوق الأرض المتجمّدة في وسط العراء. تحاشى الحاج علي النظر في عيني مورتنسون وهو يخبره بأنه لاتوجد مدرسةٌ في القرية وبأن الحكومة الباكستانية لم ترسل لهم أي مدرسين. وبما أن أجر المدرس يصل إلى دولار في اليوم الواحد، وهو نفقة لاتقدر عليها القرية، فقد شاركوا قريةً أخرى بمدرسٍ يحضر إلى كورف ثلاثة أيام في الأسبوع. أمّا في بقية الأيام، فيقوم الطلاب بمراجعة مافاتهم من الدروس بمفردهم.

شعر مورتنسون بقلبه يقفز إلى حلقه ويكاد يخنقه وهو ينظر إلى الطلاب الذين وقفوا على أهبة الاستعداد كي يبدؤوا يومهم المدرسي بالنشيد الوطني الباكستاني. كان البخار يتصاعد من أفواههم في صقيع العراء المرافق لبدايات الشتاء بينما ينشدون بركاكة عذبة: "بارك الله الأرض المقدسة ولتحل السعادة على حكومتنا الرشيدة، يارمز الصدق والعزيمة، ياأرض الباكستان". ولمح مورتنسون جيهان، ابنة تواها ذات سبع السنوات، تقف منتصبة القامة تشمخ برأسها الملفوف بوشاح وتنشد: "فليحفظ الله هذه الأمّة وهذا البلد وحكومتنا في نور المجد الأبدي، وهذا الهلال وهذه النجمة المزهوتين على علمنا كي تسدد خطانا نحو الارتقاء ونحو الكمال".

خلال فترة النقاهة التي أمضاها مورتنسون في كورف، كان أهل القرية يشتكون على الدوام من تحكّم شعب البنجاب، أولئك الناس الذين يسكنون الأراضي المنخفضة ويعتبرونهم دخلاء على الباكستان ويسود إقرار عام في القرية بأنهم يختلسون الأموال الشحيحة التي خصصتها الحكومة لبالتسنان أثناء رحلتها الطويلة من العاصمة إسلام أباد الى مناطقهم المعلّقة في الأعالي عبر تلك الأراضي. ويتندر القرويون أيضاً بأن السلطات في إسلام أباد تقاتل بضراوة كي تنتزع من الهند تلك المناطق التي كانت جزءاً من كشمير، في حين لاتقدم شيئاً يذكر لمن يقطنونها.

كان من الواضح أن معظم الأموال التي تنجح في الوصول إلى هذه المناطق الشاهقة، تنصب في ميزانية النفقات الباهظة للقوات الباكستانية المرابطة هناك في مواجهة الجيش الهندي. واستشاط مورتنسون غضباً وهو يفكر بأنه لاتوجد دولة، مهما بلغت درجة فقرها، تعجز عن تأمين دولارٍ واحد في اليوم من أجل علم أبنائها. أيُعقل أن يكون ذلك الهلال وتلك النجمة المزهوتان على علم الوطن عاجزين عن دفع هؤلاء الأطفال نحو الارتقاء والكمال ولو قليلاً؟

انتهى النشيد الوطني وجلس الأطفال على شكل حلقاتٍ منظمة وبدؤوا يكتبون جداول الضرب على الأرض بواسطة العصي، أما الأوفر حظاً منهم، مثل جيهان، فكانوا يحملون ألواحاً يخطون عليها بعصي يغمسونها في مزيج من الماء والطين. وتساءل مورتنسون: "هل يمكن للمرء أن يشاهد في أميركا طالباً في الصف الرابع، ليس عنده مدرّس ولامدرسة، يجلس على الأرض بمثل هذا الهدوء والالتزام كي يكتب واجبه المدرسي؟ شعرت بقلبي يكاد يتمزق أمام تلك العزيمة الجبارة لأولئك الصغار من أجل ان يتعلموا مهما كانت


https://telegram.me/maktabatbaghdad

العوائق في سبيلهم، وذلك ذكّرني بكريستا من جديد وقررت أن أفعل شيئاً من أجلهم". شيئاً مثل ماذا؟ ماتبقى معه من المال لن يكفي سوى للعيش بتقشف وركوب الحافلات وسيارات الجيب حتى يصل إلى إسلام أباد وشراء تذكرة طائرة للعودة

إلى الوطن! ومالذي ينتظره هناك؟ أعمال التمريض المتفرقة وسيارته، لابومبا، بالوعة الوقود التي لايملك مأوىً سواها؟ سيجد حلاً، عليه أن يجد حلاً.

وقف إلى جانب الحاج علي فوق حيدٍ يشرف على المشهد الصافي للجبال النقية التي قطع نصف الكرة الأرضية كي يتحداها ويضع على قمة "كيه 2" قلادة كريستا. وتملكه شعور بأن هناك طريقة أخرى للوصول إلى القمة ، غنية وذات معنى عميق، سيخلّد بها ذكرى أخته.

وضع مورتنسون يديه على كتفي الحاج علي الذي فعل ذلك معه مراراً منذ تشاركا كوب الشاي الأول، وقال له: "سأبني مدرسة لكم، وهذا وعدٌ مني". ولم يعرف مورتنسون حينها بأن ذلك الوعد سوف يقلب حياته رأساً على عقب، وبأنه سيضعه أمام منعطفاتٍ وعرة ومحفوفة بالمخاطر أكثر من تلك التي سلكها وهو يهبط من على قمة "كيه 2".

# الفصل الرابع

# "المخزون الذاتي"

"لا تقوم العظمة إلا على أساس واحد: القدرة على الظهور والتحدث والتصرف مثل أي إنسان عادي".

**شمس الدين محمد حافظ**

اشتمّ مورتنسون رائحة أفريقيا عندما وقف عند عتبة المخزن المفتوح بمساحته التي تعادل مساحة خزانة الملابس. كان يسمع صوت ضجيج المركبات التي تعج بها جادة سان باولو، ويعاني من ذلك الخواء الذي يخلفه السفر الطويل بالطائرة. عندما أقلعت الطائرة طائرته من مطار إسلام آباد، كان مليئاً بالعزيمة، وباشر برسم المشاريع التي ستوفر الأموال اللازمة لبناء المدرسة. لكنه بعد وصوله إلى بيرسي في كالفيورنيا، وجد نفسه عاجزاً عن التأقلم وشعر بأنه ينسحق تحت وطأة السماء التي تسطع فيها الشمس بلا هوادة، وهو يسير بين طلاب الجامعة المترفين الذين كانوا يتسكعون بانشراح، في طريقهم لتناول القهوة الفاخرة. أما الوعد الذي قطعه للحاج علي، فقد تحوّل إلى أضغاث أحلام شاهدها في نومه المتقطع أثناء رحلته التي استغرقت ثماني وأربعين ساعة، غيّر خلالها ثلاث طائرات. اختلاف التوقيت، أو ربما صدمة الفرق الحضاري بين الأمكنة، أو أي تسمية أخرى يمكن أن تنطبق على هذا الحسّ الشيطاني من اللاانتماء، الذي سبق وأن تملكه مرات عديدة عند عودته من رحلات التسلق. وفي كل مرة كان يأتي إلى هذا المتسع الوضيع ويلوذ به حتى يسترد توازنه.



https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومدّ يده في الظلمة العابقة بالروائح ليبحث عن الخيط المربوط إلى المصباح الذي في السقف، وعندما عثر عليه وشدّه، شاهد أكواماً من المؤلفات المتعلقة بتسلق الجبال يعلوها الغبار وممتلكات والده من الأفيال المنحوتة بمهارة من خشب الأبنوس، والقرد الدمية "جي جي" رفيقه المقرب من الزمن الغابر الذي بات مجرد ذكرى باهتة، مرمياً فوق أليوم صور مهترئ.

أمسك بلعبة طفولته وشاهد أن أليافاً من حشوة الحرير الإفريقي تتدلى من ثقوب درزة في صدر القرد. أعاد الألياف إلى مكانها وقرّب اللعبة إلى أنفه وشمّها، فانتابه شعور بأنه قد عاد إلى فناء المنزل الأرضي الواسع المرصوف بالأحجار البركانية، تحت شجرة الفلفل الوارفة التي كانت تحتضن البيت بأكمله، في تنزانيا.

ولد مورتنسون في مينيسوتا مثل أبيه، عام 1958 وكان عمره ثلاثة أشهر عندما تم شحنه مع باقي الأمتعة، إلى تنزانيا في مغامرة العمر التي قام بها والداه عندما قبلا بمنصب التدريس ضمن بعثة تبشيرية هناك عند سفوح جبل كليمنجارو، أعلى جبل في القارة.

إيرفين مورتنسون والد جريغ، كان ينتمي بالولادة إلى الطائفة اللوثرية ذات النوايا الدينية الطيّبة. وعلى غرار الرجال الصموتين في منطقة بحيرة وويجون، مسقط رأسه، فقد كان يجد أن الكلمات عبارة عن عملة نادرة لا يجوز تبذيرها. قامته الطويلة وبنيته النحيلة، التي ورثها مورتنسون عنه، جعلت الناس يطلقون عليه لقب ديمبسي، تكنياً بملاكم كان مشهوراً في تلك الأيام، لا سيما وأنه كان جريئاً وعنيداً بطفولته. وقد لاصقه ذلك اللقب طيلة حياته بعد أن مُحيَ اسمه الأصلي من ذاكرة الناس. كان ديمبسي الولد السابع والأخير لعائلة مستنفدة مادياً نتيجة للكساد الكبير الذي حاق بالمنطقة، لكنه

كان لاعب الظهير الأول في فريق كرة القدم بمدرسته، وكذلك لاعب الدفاع الأول في فريق الولاية لكرة السلّة، مما فتح له السبيل كي يخرج إلى العالم الأوسع، وحصل على منحة دراسية من جامعة مينيسوتا ليتأهل خبيراً في الرياضة البدنية.

أما زوجته جيرين، فقد هامت بحبه مباشرة بعد انتقالها مع عائلتها من آيووا، وكانت، هي أيضاً فتاة رياضية وتترأس فريق كرة السلة في مدرستها. وتزوجا دون تردد عندما أتى ديمبسي في إجازة مدتها ثلاثة أيام خلال تأديته للخدمة الإلزامية. وتقول جيرين عن ذلك: "كان ديمبسي مهووساً بالسفر، ووجوده في اليابان أثناء خدمته الإلزامية جعله يرغب في رؤية العالم الواسع الذي يقع خارج مينيسوتا. كنت حاملاً بجريغ عندما أتى ذات يوم وقال لي (إنهم بحاجة إلى مدرسين في تانجانيكا. فهيا بنا إلى إفريقيا). ولم يعنِ حينها أن أرفض، فمن الصعب أن يعرف المرء مالا يريد عندما يكون فتياً".

وتم تعيينها في بلد لا يعرف كلاهما عنه سوى موقعه على خارطة أفريقيا الشرقية بين كينيا ورواندا. وبعد أن عملا لمدة أربع سنوات في المناطق النائية المحيطة بجبل أوسامبار انتقلا إلى موشي، التي تعني الدخان باللغة السواحلية. وهناك، قامت الطائفة اللوثرية بإيواء العائلة في منزل أرضي واسع مبني من الحجارة البركانية كان يملكه مهرب أسلحة يوناني قبل أن تصادره السلطات. ومثل تلك المصادفات السعيدة التي تتأتى أحياناً عن القرارات المتهورة، فقد وقعت العائلة بأكملها في حب ذلك البلد، الذي أصبح اسمه تنزانيا بعد حصوله على الاستقلال عام 1961. ويؤكد مورتنسون على تلك المحبة بقوله: "كلما تقدمت في العمر، ازداد تقديري لسنوات طفولتي هناك، لقد كانت جنة حقيقية".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأكثر ما كان يشعر مورتنسون بالأمان في ذلك المنزل الراقد في أحضان فناء عامرٍ بالخضرة، هي شجرة الفلفل التي يقول عنها: "لقد كانت رمزاً للاستقلال. عند الغسق، كانت المئات من طيور الخفاش التي تسكنها تندفع بأعداد كبيرة قاصدة الصيد. أما بعد هطول الأمطار فقد كان الفناء بأكمله يفوح برائحة الفلفل الزكية"

وبما أن العلاقة الروحية التي تربط ديمبسي وجيرين بمذهبهما الديني كانت مرنة، فقد تحوّل منزلهما إلى مكان للقاء شتى أنواع العروق والأصول، أكثر منه مركزاً دينياً. ديمبسي كان يدّرس في مدرسته يوم الأحد، لكنه قام أيضاً بتحديد مساحة من الفناء لها شكل معين هندسي، بحيث أصبحت شجرة الفلفل عموداً للمرمى، ليباشر في تأسيس أول فريق كرة سلة من الطلاب في تنزانيا.

لكن مشروعين ضخمين ظهرا في حياة كلٍ من ديمبسي وجيرين واحتلاها بالكامل فقد وهب ديمبسي كل ذرة من كيانه في سبيل تحقيق أعظم إنجاز في حياته، وهو جمع التبرعات ووضع الأساسات لإنشاء مركز "كيليمن رو" الطبي المسيحي.

جيرين بدورها، كانت تكدح بالعزيمة الجبارة نفسها لتأسيس مدرسة موشي الدولية، لتلك البوتقة الكوزموبوليتانية التي انصهر في داخلها كل الأطفال من شتى أنواع الأقليات المهاجرة إلى تنزانيا. درس مورتنسون في تلك المدرسة وترعرع في أحضان هذا التنوع الثقافي واللغوي الواسع. الانقسامات الموجودة بين الجنسيات المختلفة لم تعنِ له شيئاً بل إنه كان يغضب عندما ينشب شجار بين التلامذة بسببها. وفي الفترة التي أصبح فيها الصراع بين الهند وباكستان على أشدّه، كان ينزعج من الحرب التمثيلية التي يؤديها الطلاب الهنودو الباكستانيون وهم يتظاهرون بإطلاق المدافع وبقطع رؤوس بعضهم البعض، وعن ذلك يقول مورتنسون: "فيما عدا ذلك،

فقد كانت المدرسة مكاناً رائعاً للتعليم، وأشبه بمبنى مصغر للأمم المتحدة. حيث تواجدت ثمان وعشرون جنسية مختلفة ويحتفل فيها الجميع بالمناسبات والأعياد المتنوعة للطوائف الدينية كافة".

تذكر جيرين تلك الأيام قائلة: "كان مورتنسون يكره الذهاب معنا إلى الكنيسة لأن الأفريقيات المسنات كن يداعبن شعره الأشقر، وهكذا، نشأ مورتنسون نشأة سعيدة، غير واعٍ لعرق أو مذهب، وسرعان ما أتقن اللغة السواحلية التي كان ينطقها مثل أهلها، إلى درجة أن من يتحدث إليه عبر الهاتف كان يظنه تنزانياً. وأنشد التراتيل الأوربية القديمة ضمن جوقة الكنيسة، كما انضم إلى فرقة رقص أفريقية شاركت في مسابقات لرقصات القبائل بثت على التلفاز في يوم سابا- سابا، عيد استقلال تنزانيا.

قام جريغ مورتنسون بمحاولته الجديدة الأولى بتسلق الجبال في سنّ الحادية عشرة "منذ كنت في السادسة، وأنا أتأمل ذروة الجبل وأتوسل إلى والدي كي يأخذني إلى هناك" وأخيراً، قرر ديمبسي أنّ ابنه قد بلغ العمر الذي يسمح له بالتسلق، إلا أنه وبدلاً من أن يستمتع بتلك الرحلة: "اجتاحني شعور بالغثيان وكنت أتقيأ طوال رحلة الصعود، وحينها كرهت تسلق الجبال. لكنني عندما وصلت إلى القمة عند الفجر ووقفت هناك منتصب القامة وسهول أفريقيا القاحلة تمتد نحو المدى عند قدمي، أصبحت عالقاً في شباك هوى التسلق" أنجبت جيرين ثلاث فتيات: كيري، سونياجوي، ثم كريستا التي ولدت عندما كان جريغ في الحادية عشرة من عمره.

ديمبسي كان يغيب كثيراً عن المنزل ولمدة أشهر طويلة، يقوم خلالها بجمع الأموال وجلب الفرق الطبية من أوربا وأميركا، فكان جريغ، الذي أصبح طوله ستة أقدام في الوقت الذي بلغ فيه العمر


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الثالثة عشرة، يقوم بمهام ربّ الأسرة أثناء غياب والده، ليساعده في ذلك طوله الذي يوحي بأنه أصبح رجلاً. وعندما اصطحب الوالدان كريستا من أجل عمادتها، تطوع جريغ أن يكون عرابها.

ويعكس أخوتها الثلاثة الذين شبوا بسرعة حتى أصبحوا على شاكلة والديهم، فإن كريستا ظلت صغيرة الحجم وذات بنية هشّة. وعندما صارت بعمر الدراسة، أصبح الفرق الشاسع بينها وبين بقية أفراد أسرتها جلياً. وحين كانت تحاول أن تخطو خطواتها الأولى، أصيبت بحساسية بالغة تجاه لقاح مرض الجدري "وأصبحت ذراعها سوداء تماماً" كما تقول والدتها التي تعتقد بأن ذلك اللقاح المستخلص من فيروس بقري قد تسبب بخلل وظيفي في دماغها. أما في الثالثة من عمرها، فقد أصابتها عدوى التهاب السحايا ولم تتعافَ منه تماماً أمام عيني أمها التي كانت تتابع وضعها برعب لا جدوى منه. وعند بلوغها سن الثامنة، بدأت تنتابها نوبات صرع متكررة، وبالمحصلة فإن كريستا لم تكن طفلة طبيعية، إذ تقول والدتها: لقد تعلمت القراءة بسرعة، ولكن الكلمات كانت مجرد أصوات بالنسبة لها لأنها لا تستطيع أن تستوعب معانيها".

جريغ الذي صار على أعتاب الشباب، أصبح وجوداً دائماً في حياة كريستا، ويقف بالمرصاد لكل من يحاول أن يناكف أصغر أخواته. ويصفها قائلاً: "لقد كانت ألطف عضو في الأسرة، وواجهت قدراتها المحدودة بسمو وكياسة. وبما أنها تعرف أن ارتداء ملابسها في الصباح يستغرق منها دهراً، فقد كانت تضعها إلى جانب سريرها قبل أن تنام لكي توفر علينا الوقت قبل ذهابنا إلى المدرسة. لقد كانت حساسة للغاية تجاه ما يقدمه لها الآخرون، وتشبه والدي من بعض النواحي، فكلاهما كانا يحسنان الإصغاء لما يقال لهما".

ديمبسي أحسن الإصغاء إلى الشبان الأفارقة الطموحين في موشي، الذين كانوا يتوقون إلى فرصٍ للمستقبل. لكن تنزانيا المستعمرة السابقة في ذلك الحين، كانت، ولا تزال، من أكثر الدول فقراً على وجه الكرة الأرضية، وليست قادرة على أن تقدم فرصاً أفضل من الأعمال الزراعية الوضيعة.

عندما انتهى من بناء المستشفى وباشر العمل بشكل جزئي، أصرّ على إعطاء المنح لدراسة الطب إلى الطلاب الأفارقة الواعدين، بدلاً من توظيفها لصالح أولاد المغتربين والنخبة الأفريقية الثرية وجابه بإصرار ذاك العديد من أعضاء مجلس الإدارة الأجانب الذين كانوا ضده. وعند بلوغ جريغ عامه الرابع عشر، كان المستشفى الذي يحتوي على ستمئة وأربعين سريراً جاهزاً للعمل بكامل طاقته، وافتتحه رئيس جمهورية تنزانيا يوليوس نيريري وألقى فيه خطاباً بعد أن قصّ الشريط الحريري. أما والد جريغ. فقد ابتاع مقادير كبيرة من البيرة المحلية التي تصنع من الموز، وجزّ كل الشجيرات من فناء منزله، كي يتسع للضيوف البالغ خمسمئة شخص بين مغتربين وأفارقة دعاهم لإقامة حفل شواء في منزله احتفالاً بنجاح مشروعه. ووقف عند المنصة التي بناها قرب شجرة الفلفل من أجل الفرقة الموسيقية، وخاطب الناس الذين أحبهم من كلّ قلبه، وهو يرتدي الزي التنزاني التقليدي. كان ابنه ينظر إليه أثناء حديثه ويقول لنفسه بأن وزن والده قد ازداد خلال الأربعة عشر عاماً التي قضاها في إفريقيا ولم يعد يبدو ذلك الرياضي الرشيق الذي كان عليه، لكنه ما زال رجلاً مهيب الطلعة. في بداية خطابه، قام ديمبسي بتقديم عبارات الشكر إلى شريكه التنزاني جون موشي، الذي شاركه أعباء العمل وله الأفضال نفسها في تحقيق نجاح المشروع. ولأول مرة في حياته، رأى جريغ


https://telegram.me/maktabatbaghdad

والده يسترسل في الحديث ببساطة، وقد تخلى عن الارتباك الذي يعتريه عادة عندما يتحدث إلى مجموعة كبيرة من الناس، خصوصاً عندما بدأ يخاطبهم باللغة السواحلية قائلاً: "أستطيع أن أتنبأ أنه وخلال عشر سنوات، فإن رؤساء جميع الأقسام الموجودة داخل مراكز كيلمنجارو الطبي المسيحي سيكونون من مواطني تنزانيا. البلد بلدكم والمستشفى ملك لكم".

يصف مورتنسون ذلك قائلاً: "أحسست بالاعتزاز الكبير الذي شعر به الأفارقة، بعكس المغتربين الذين كانوا يريدونه أن يقول: انظروا ماذا فعلنا من أجلكم في حين قال والدي: انظروا إلى ما فعلتموه من أجل أنفسكم، وكم أنتم قادرون على فعل المزيد. وبالطبع فقد شن عليه المغتربون هجوماً شرساً. لكن نبوءة والدي تحققت فالمستشفى الذي بناه أصبح أفضل واحد في تنزانيا، ورؤساء الأقسام جميعهم من المواطنين التنزانيين، وذلك بعد عشرة أعوام من افتتاحه. وعندما نظرت إليه وهو واقف على المنصة، غمرني أنا أيضاً شعور بالاعتزاز لأن ذلك الرجل الضخم ذا المنكبين العريضين هو والدي. لقد علّمني، لقد علّمنا، بأن الإيمان الحقيقي بالنفس يستطيع أن يدحر كلّ الصعوبات".

بعد أن اطمأن إلى أن مشروعي المدرسة والمستشفى قد اكتملا، كانت مهام ديمبسي وجيرين من تنزانيا قد انتهت. وتلقى ديمبسي عرضاً مغرياً لبناء مستشفى للاجئين الفلسطينين على جبل الزيتون في القدس، لكنه قرر هو وزوجته أن الأولاد يجب أن يعودوا إلى أميركا التي لا يعرفونها بعد.

انتابت جريغ وأخواته مشاعر متضاربة بين البهجة والقلق إزاء الرحيل النهائي إلى تلك المنطقة التي يفترض بأنها بلدهم الأصلي،

وهم لم يطؤوا أرضها سوى في زيارات قصيرة ومتباعدة. لقد قرأ مورتنسون بعض النبذات عن الولايات الخمسين في الموسوعة التي لديهم وهو يحاول أن يتصور أميركا وأن يستعد لها. وخلال هذه الأعوام الأربعة عشر، كان أقاربهم في مينيسوتا يرسلون صور مناسباتهم إلى أسرتهم الأفريقية، ويرفقونها بقصاصات من الجرائد كي لا يفوتهم ما يحدث في أميركا، احتفظ جريغ بكل ما أرسلوه في غرفته وأعاد قراءتها مرات عديدة على أمل أن يفهم تلك الإنجازات الهامة التي تحققها تلك الثقافات المجهولة بالنسبة له.

قامت العائلة بشحن الكتب والمطرزات والمنحوتات الخشبية عن طريق البحر، وبعد وصولهم، أقاموا في البداية في منزل والديّ جيرين القديم في سانت بول، ثم اشتروا منزلاً زهيد الثمن في ضاحية متواضعة تدعى روزفيل.

وفي يومه الأول في المدرسة الثانوية الأميركية، تنفس جريغ الصعداء عندما شاهد العديد من الطلاب ذوي البشرة السوداء يتجولون داخل قاعات مدرسة سانت بول المركزية، ولم يشعر بأنه قد ابتعد كثيراً عن موشي. وسرعان ما انتشر الخبر بين الطلاب بأن ذلك الصبي الضخم الذي يتعثر في مشيته قد أتى من أفريقيا. وأثناء الاستراحة، جاء إليه لاعب كرة سلة تبدو عليه إمارات القوة، ويضع حول عنقه سلسلة ذهبية تحمل شارة الكاديلاك، ودفع به نحو واحدة من صنابير الماء وخاطبه بازدراء وقح قائلاً: "أنت لست أفريقياً" ثم أعطى المجال لمجموعة الصبية الذين كانوا برفقته لينهالوا بالضرب على جريغ الذي غطى رأسه بيديه وهو يتساءل عما اقترفه من ذنب. وعندما توقف الضرب أخيراً أنزل يديه وشفتاه ترتجفان حنقاً. فاستدار قائد المجموعة نحوه ولكمه بقبضته في عينه، والتقط صبي آخر علبة


https://telegram.me/maktabatbaghdad

مياه غازية وقلبها فوق رأسه. وقف مورتنسون عند صنبور الماء والمياه الغازية تسيل من شعره، وتصل إلى أسماعه قهقهات السخرية الآتية من الممر.

أبدى مورتنسون قابلية للتأقلم مع الثقافة الأميركية في معظم النواحي، فقد أظهر تميزاً أكاديمياً في مجالات الرياضيات والموسيقى والعلوم. أما استعداده الوراثي، فقد جعل منه متفوقاً في الأنشطة الرياضية.

وبعد أن انتقلت العائلة للإقامة في الضواحي كان الحضور الطاغي لجريغ في فريق كرة القدم في مدرسته كلاعب هجوم رئيسي، قد مهد له الطريق ليكون زميلاً محترماً من قبل بقية الطلاب، وإن لم تصل بهم العلاقة إلى درجة الصداقة الحميمة. ولكن مورتنسون ظل على خلاف واحد مع طريقة الحياة الأميركية. وتقول والدته عن ذلك: "لم يأت جريغ في الوقت المحدد أبداً. منذ طفولته، وهو يعمل حسب التوقيت الإفريقي".

ما فعلته العائلة في إفريقيا كان مجزياً من جميع النواحي، ما عدا الناحية المادية. ولهذا، فإن تسديد أقساط كلية خاصة ذات مستوى تعليمي عالٍ لم يكن وارداً على الإطلاق. وعندما استشار مورتنسون والده عم يجب أن يفعله، أجابه قائلاً: "لقد درستُ على حساب منحة رياضية، أما وضعك أنت فقد يكون أسوأ". وفي شهر نيسان من عامه الدراسي الأخير، توجه مورتنسون إلى مكتب المتطوعين في الجيش، وتطوع للخدمة لمدة سنتين. ويقول جريغ عن ذلك: "لقد كان قراراً يصعب أن يفهمه أحد، وقد جاء مباشرة بعد كوارث فيتنام، وتعجب منه أصدقائي في المدرسة لكننا كنّا مفلسين".

بعد أربعة أيام من انتهائه من المرحلة الثانوية، التحق مورتنسون بوحدة التدريب الأساسي في ميسوري. وفي حين كان زملاؤه في

الصف يتمتعون بالنوم العميق خلال ذلك الصيف الأخير قبل بداية دراستهم الجامعية، استيقظ مورتنسون فزعاً عند الخامسة صباحاً من يومه الأول على زعيق الضابط المناوب: "انزع ملابس نومك عنك وارتد زيك العسكري على الفور" وهو يرفس سريره ويهزه بعنف.

"قررت ألا أصبح تحت رحمة ذلك الرجل" وعندما حضر الضابط المناوب عند الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي، أدى له مورتنسون التحية العسكرية وقد ارتدى كامل زيه. "لكنه صبّ علي اللعنات لأنني لم أنم الساعات الثماني التي تنص عليها اللوائح الحكومية، وجعلني أمارس تمارين الضغط أربعين مرة، ثم سار بي إلى الإدارة العامة ووضع على كتفي شارتي الرتبة، وعاد بي بعدها إلى مهجعي، ووجه كلامه إلى الباقين قائلاً: "هذا مورتنسون، وهو قائد فصيلكم الجديد، إنه أعلى رتبة منكم أيها الصعاليك، فنفذوا ما يأمركم به".

مورتنسون الذي كان دمثاً بطبعه، لم يكن قادراً على إعطاء الأوامر لزملائه الجنود، لكنه أبلى بلاءاً حسناً في الجيش. لياقته البدنية العالية التي اكتسبها من لعب كرة القدم ومسابقات الجري في المدرسة، جعلت من خشونة التدريب العسكري أمراً غير جدير بالذكر، بعكس الروح المعنوية المنهارة في نفوس أولئك الجند الذين كانوا في فيتنام. فبعد أن لقن أصول التعامل مع السلاح المدفعي تلقى تدريباً مكثفاً كممرض، وباشر في التطبيق العملي في مجال الطب الذي طالما أحبه، وتم إرساله إلى ألمانيا كمرافق للفرقة الثالثة والثلاثين المسلحة. ويتحدث عن تلك الفترة قائلاً: "كنت غراً ساذجاً عندما تطوعت، لكن الجيش لديه طريقته في تخليصك من ذلك".

"كان الكثير من الشباب الذين خدموا في فيتنام قد أدمنوا تعاطي الهيروين. والبعض منهم كانوا يأخذون جرعات زائدة عندما يأوون


https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى أسرتهم، ثم نذهب نحن لإحضار جثثهم الهامدة". وفي صباح يوم شتائي بارد، انتشل مورتنسون جثة رقيب من خندق يغمره الثلج، كان قد تعرض لضرب مبرح قبل أن يرمى به إلى داخل الخندق ليموت هناك والسبب أنه مثلي الجنس.

وفي موقعه الذي يقع في بامبرج في ألمانيا قرب حدود ألمانيا الشرقية، اكتسب مورتنسون قدرة لازمته طوال حياته، وهي أنه يستطيع أن يستغرق في النوم في أي مكان وأي زمان، ويعزو الفضل في ذلك إلى أوقات المناوبة غير المنتظمة في الجيش.

وقد كان مورتنسون جندياً نموذجياً "لم أطلق النار على أحد أبداً، ولكن ذلك كان قبل أن ينهار جدار برلين، عندما كنا نمضي الساعات ونحن ننظر من عدسات بنادقنا ولدينا الصلاحية بأن نطلق النار على القناصين الشيوعيين الذين يستعملون بنادقهم لمنع المدنيين من الفرار. لقد حدث ذلك مراراً ولكن، والحمد لله، ليس أثناء مناوبتي".

يروي مورتنسون ما كان يحدث خلال العطل الأسبوعية قائلاً: "كان الجنود البيض يمضونها في معاقرة الشراب وفتيات الهوى الرخيصات، أو إطلاق النار في الهواء باستهتار ورعونة. أما أنا والجنود السود، فكنا نستفيد من الرحلات العسكرية المجانية لنذهب إلى روما أو لندن أو أمستردام. أفضل أصدقائي في الجيش كانوا من السود. وذلك الأمر كان مستهجناً في مينيسوتا، بدا طبيعياً في الجيش حيث يكون الانتماء العرقي آخر الهموم. لقد تقبلني الجميع في ألمانيا، ولأول مرة منذ غادرت تنزانيا لم أعد أشعر بالوحدة".

منح مورتنسون ميدالية الشجاعة في الجيش لأنه استطاع أن ينتشل جنوداً مصابين أثناء مناورة بالرصاص الحي، وتم تسريحه بعد سنتين بتقدير عالٍ من قبل رؤسائه، ولكنه كان قد اكتسب عادة أخرى لازمته

ايضاً طوال حياته، بالإضافة إلى عدم التزامه بالمواعيد وهي أنه كان يركن سيارته في المواقف المخصصة ومقدمتها إلى الأمام، وهي عادة تلبسته أثناء خدمته في الجيش، إذا كان يأخذ وضعية نحو الأمام للفرار عندما يبدأ إطلاق النار. ولم يغير تلك العادة سواء كان يقود سيارة جيب في بالتستان، أم يصطحب عائلته في سيارته إلى مركز للتسوق.

توجه في البداية إلى جامعة كونكورديا في مينيسوتا بمنحة دراسية كلاعب كرة قدم، حيث أحرز فريقه الدرجة الأولى في الدوري الوطني. لكنه سرعان ما شعر بالملل من التداخل البشري داخل ذلك الحرم الجامعي المحدود، فانتقل إلى جامعة داكوتا الجنوبية، حيث أحرز فريقه الدرجة الأولى في الدوري الوطني. لكنه سرعان ما شعر بالملل من التداخل البشري داخل ذلك الحرم الجامعي المحدود، فانتقل إلى جامعة داكوتا الجنوبية، حيث يوجد تنوع أوسع، بموجب منحة دراسية كانت والدته جيرين تدرس للحصول على درجة الدكتوراه في التعليم، أما والده ديمبسي فقد حصل على عمل بأجر هزيل في المراجعات الحسابية لدائرة حكومية، ليصبح دخل الأسرة أكثر حرجاً من أي وقت مضى. تابع جريغ دراسته الجامعية وهو يغسل الأطباق في المطعم، ويعمل ممرض خلال المناوبات الليلية في مستشفي داكوتا ويرسل شهرياً جزءاً مما يجنيه إلى والده.

وفي شهر نيسان من عام 1981، عندما كان جريغ في سنته الثانية في كلية الكيمياء وعلم التمريض، أصيب ديمبسي وهو في سن الثامنة والأربعين بمرض السرطان الذي انتشر في جسده حتى وصل إلى العقد اللمفاوية والكبد، وأدرك جريغ بأنه على وشك أن يفقد والده. في حين كان منكبّاً على الدراسة استعداداً للامتحان، دأب على أن يقطع تلك المسافة الطويلة إلى مينيسوتا كل أسبوعين كي يمضي الوقت المتبقي مع والده، ويرتاع في كل مرة يلحظ فيها التدهور


https://telegram.me/maktabatbaghdad

السريع في صحته.كان مورتنسون قد أصبح ملماً بالطب، فأقنع أطباء ديمبسي بأن يوقفوا علاج الأشعة لأن حالته ميؤوس منها، ويجب أن يستمتع بالبقية الباقية من حياته.

وعندما فكرّ مورتنسون بأن يتخلى عن دراسته كي يتفرغ لرعاية أبيه، نهاه عن ذلك بحزم: "إياك أن تجرؤ على ذلك" فظل على زياراته المعتادة كل أسبوعين. وعندما يكون الطقس لطيفاً، كان يحمل والده إلى خارج المنزل، وهو يشعر بالقهر حيال تلك البنية الهزيلة التي وصل إليها، ويجلسه على مقعد تحت الشمس في الحديقة التي زرعها ورعاها تيمناً بمنزله القديم في موشي، ويتلقى الأوامر منه بأن ينزع الحشائش الضارة من حوض الأعشاب. وأثناء الليل، عندما يكون مورتنسون يصارع النوم، تصل إلى أسماعه أصوات الآلة الكاتبة التي كان ديمبسي يحاول جاهداً أن يطبع عليها مراسم جنازته، بينما تغفو جيرين على الأريكة بانتظار أن تصمت الآلة الكاتبة كي تذهب بزوجها إلى النوم.

زار مورتنسون والده للمرة الأخيرة في شهر أيلول، وكان قد نُقل إلى المستشفى. وتذكر مورتنسون ذلك: "كان لدي امتحان في صباح اليوم التالي، لكنني لم أستطع أن أغادره، والدي الذي كان مخفقاً في التعبير عن عواطفه، أمضى الليل وهو يضع يده على كتفي طوال الوقت، وقال لي أنه على وشك المغادرة: "لقد تم ترتيب كل شيء والأمور جاهزة" لم يكن أبي خائفاً من الموت".

ديمبسي الذي خطط لذلك الاحتفال الضخم في موشي ليكون خاتمة لائقة لإقامتهم المثمرة في أفريقيا، فارق الحياة في صباح اليوم التالي وهو مطمئن إلى التفاصيل التي قررها لمراسم جنازته بحيث تكون هي الأخرى خاتمة لائقة لإقامته المثمرة على وجه الكرة الأرضية.

في كنيسة أمير السلام اللوثرية في روزفيل تلقى حشد المعزين برنامجاً وضعه ديمبسي ويحمل عنوان "بهجة العودة إلى الوطن" وألقى مورتنسون كلمة الوداع باللغة السواحلية ووصف والده قائلاً "بابا، كاكا، ندوجو، يا أبي ويا أخي ويا صديقي" وتم دفنه في المقبرة الوطنية، المثوى الاخير للجنود الذين خدموا في الجيش ببسالة من أمثال ديمبسي.

بعد وفاة والده، وحصوله على شهادتي علم التمريض والكيمياء بمرتبة الشرف، شعر مورتنسون بالانعتاق، وانتسب إلى كلية الطب في جامعة كيس ويسترن، لكنه وجد أنه لا يستطيع أن يمضي خمس سنوات أخرى دون أن يكون لديه دخل بالإضافة إلى أن موت والده كان قد خلّف فيه هوساً من أن يفقد كرستا أيضاً، التي أصبحت نوبات صرعها متقاربة. فعاد إلى المنزل لقضاء عام إلى جانب صغرى أخواته، ووجد لها عملاً في مصنع للأدوية، وظل يرافقها إلى مكان عملها حتى تأكد من أنها قادرة على ركوب الحافلة المناسبة وحدها. أبدت كريستا اهتماماً كبيراً بصديقات أخيها، وصارت توجه إليه أسئلة دقيقة عن الجنس، لأنها كانت تخجل من الخوض في أحاديث مشابهة مع والدتها. وعندما علم أنها تصادق شاباً، جلب لها ممرضة شرحت لها تفاصيل الوقاية الجنسية.

في عام 1986، التحق مورتنسون بدورة طبية للخريجين لدارسة أمراض الجهاز العصبي وهو يعلم بأن بعضاً من الاجتهاد الشخصي المركّز سيجعله قادراً على اكتشاف علاج لعلّة أخته لكن عجلة البحث الطبي كانت أبطأ من ان يشفي غليل شاب لجوج لم يتجاوز عمره ثمانية وعشرين عاماً، وكلما تعمق في مرض الصرع، بدت إمكانيات الشفاء أقرب إلى المستحيل. وعندما كان يغوص في صفحات الكتب الطبية المعقدة، أو يقوم بالأبحاث داخل المخابر الطبية، يجد نفسه


https://telegram.me/maktabatbaghdad

قد شرد عنها ليفكر بعروق الكوارتز المتداخلة في قلب الأحجار الصوانية على جبل نيدلز الصخري الذي يقع بين الهضاب السوداء في داكوتا الجنوبية، حيث تعلم المبادئ الأولية في تسلق الجبال مع اثنين من رفاقه في الجامعة العام الماضي.

كان التوق الذي في داخله يتزايد يوماً بعد يوم. وبما أنه يملك سيارة جدته البويك التي اطلق عليها اسم (لابومبا)، وبضعة آلاف من الدولارات استطاع أن يدّخرها، بالإضافة إلى رؤياه الخاصة لنوعية مختلفة من العيش طليقاً في البراري مثل تلك التي عاشها في تنزانيا، فقد وجد أن كاليفورنيا هي المكان المثالي. وهكذا، أودع أمتعته وحوائجه داخل لابومبا وانطلق نحو الغرب.

ومثل معظم الغايات التي سعى إلى تحقيقها طوال حياته، فإن المنعطف الذي اتخذه مورتنسون كي يتعلم تسلق الجبال، كان حاداً مثل واجهة الصخور التي باشر في تسلقها فور وصوله. ومن يسمعه يتحدث عن سنواته الأولى في كاليفورنيا، لا يشعر بوجود فاصل بين الأسبوع التدريبي الذي قام به فوق صخور الانتحار في جنوب كاليفورنيا وبين مباشرته تسلق القمم التي يزيد ارتفاعها عن عشرين ألف قدم في نيبال. فبعد تلك الطفولة التي عاشها ضمن الأنظمة الصارمة التي فرضتها والدته، والتي تلتها الخدمة العسكرية في الجيش، ثم الجامعة، فإن الحرية التي يمنحه إياها التسلق، واللذة الكامنة في تحقيق المزيد من التقدم نحو الأعلى، كانت عالماً جديداً لا شبيه له. وبصفته ممرضاً، فقد وجد عملاً في مستشفى للحالات الإسعافية في منطقة الخليج يناوب فيها خلال العطل الأسبوعية وفترات الأعياد، تلك المناوبات التي لا يرغب فيها أحد مقابل حرية الاختفاء عندما تستدعيه الجبال.

ترك مورتنسون نفسه تنغمس في لجة المشهد الطاغي لمواقع التسلق في منطقة الخليج فالتحق بنادٍ للتسلق حيث كان يمضي الساعات لصقل حركاته، ويبدأ يمارس الركض الطويل، ويذهب فيما بين الرحلات، لتسلق الجهة الشمالية من جبل بيكر وغيرها من القمم التي تماثل الهيملايا.و يقول مورتنسون: "من العام 1989 حتى عام 1992، كانت حياتي برمتها قائمة على التسلق".

وقد استحوذه التوق لاكتساب المعرفة في التسلق لدرجة أنه كان يختبر نفسه أمام كتل صخرية لم يسبق له أن قهرها أحد، كما قام بتمشيط مخازن الكتب المستعملة فأصبحت لديه معرفة واسعة عن التسلق وأبطال التسلق خلال القرن التاسع عشر في تلك السنوات، كانت وسادة نومي عبارة عن مرجع ألفه متسلق جبال عنوانه "حرية المرتفعات".

وكانت كريستا تأتي لزيارته كل عام ويحاول أن يجعلها تفهم محبته للجبال ويصحبها إلى جبل يوزميت ويدلّ بإصبعه على عشرات الدروب التي اتخذها لصعود مسلّة هاف رودوم الغرانيتية العمودية.

وفي الثالث والعشرين من شهر تموز من عام 1992، كان مورتنسون على جبل سيل في سييرا الشرقية ترافقه آنا لوبيز، صديقته في ذلك الوقت ودليلة جبال سابقة كانت قد أمضت شهوراً وحدها في المناطق النائية.

وعند الساعة الرابعة والنصف صباحاً، بدأا رحلة الهبوط عبر نهر متجمد عسكرا عنده خلال الليل بعد أن وصلا للقمة. زلت قدم مورتنسون وهوى نحو الأمام ثم بدأ ينزلق من المنحدر الشاهق وهو يطير نحو الأعلى كلما ارتطم بكتل الجليد والثلج الصلبة ثم يسقط أرضاً وجسده يتلوى، فانخلع كتفه الأيسر من موضعه وكسر عظم


https://telegram.me/maktabatbaghdad

العضد. كان يهوي بشكل عمودي مسافة تقدر بثمانمئة قدم بشكل عمودي، حتى تمكن من إقحام فأسه في الجليد وأسند نفسه بيده السليمة الوحيدة، ثم أمضى أربعاً وعشرين ساعة من الزحف المضني حتى وصل إلى أسفل الجبل وأسعفته آنا إلى أقرب مركز طبي في بيشوب بكاليفورنيا.

اتصل مورتنسون بوالدته من المستشفى ليخبرها بأنه نجى من الموت لكن الخبر الذي تلقاه كان أشدّ إيلاماً من سقطته المريعة. لقد ماتت كريستا. في اللحظة التي كان فيها يهوي من على الجبل، دخلت والدته غرفة كريستا كي توقظها من أجل رحلتهما إلى موقع تصوير فيلم (حقل الأحلام) في دير سيفيل، هدية عيد ميلاد كريستا الثالث والعشرين، عندما: "وجدتها جاثية على ركبتها وكفيها وكأنها كانت تحاول أن تعود إلى السرير. وكانت زرقاء اللون ومتشنجة. عزائي الوحيد أنها ماتت بسرعة إثر نوبة صرع عنيفة هاجمتها وهي في وضعيتها تلك".

حضر مورتنسون الجنازة ويده مربوطة إلى عنقه، وقام خاله القس بإلقاء كلمة تأبين ضمنتها إشارة لطيفة إلى فيلم كريستا المفضل "ستستيقظ كريستا وتسأل هل أنا في دير سيفيل؟ وستكون الإجابة كلا، أنت في الجنة" وأجهش الجميع بالبكاء داخل الكنيسة نفسها التي ودّعوا فيها ديمبسي.

في كاليفورنيا، شعر مورتنسون بضياع لم يعرفه من قبل، وعندما أتاه على الهاتف صوت دان مازور، متسلق الجبال العتيد، شعر بأن يداً قد امتدت لتعيده إلى الحياة. قال له بأنه يخطط لبعثة تسلق إلى قمة جبل "كيه2"، وهو أقسى امتحان يمكن أن يمر به أي متسلق جبال، وبأنه يحتاج إلى مشرف طبي. فهل يوافق مورتنسون على الانضمام

إليهم؟ هذا هو المنفذ الذي سيعيده إلى مساره الأصلي، وسيساعده أيضاً في تقديم التكريم اللائق لشقيقته. سوف يصعد إلى تلك القمة، وسوف ينذر ذلك لذكراها، وسيجد وسيلة لانتزاع شيء له معنى من هذا الفقدان العبثي.

أبعد مورتنسون جي جي برفق عن وجهه وأعاد القرد إلى مكانه فوق ألبوم الصور المهترئ، ثم خرج من المخزن واستعاد معدات التسلق من صندوق لابومبا، وعلقها على المسامير المثبتة في الجدران.

حزام التثبيت والحبال والخطافات والبندقية والمزلاج وجزمة الهبوط من على الجبال، التي لم تطل إقامتها هناك وسترافقه من جديد إلى تسلق آخر. هذه المعدات التي أخذته عبر القارات وصعوداً نحو قمم كانت عصية على البشر لن تجديه نفعاً بعد الآن. فما يلزمه الآن هو الآلية الضرورية لجمع التبرعات. ما الذي يتوجب فعله كي يثير تعاطف الأميركيين مع ثلة من الأولاد يتحلقون حول بعضهم في العراء البارد في الجزء الآخر من العالم ويستذكرون دروسهم على التراب بواسطة العصي؟ سحب خيط المصباح الذي في السقف وأطفأه وغابت عن ناظريه موجودات الغرفة، وشاهد ومضة من أشعة شمس كاليفورنيا في عيني القرد الباليتين وهو يقفل باب المستودع.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

# الفصل الخامس

## "خمسمئة وثمانون رسالة وحوالة مالية واحدة"

"دع ذلك التوق المحزن يعيش في قلبك. أبداً لا تستسلم أبداً لاتيئس.

يقول الله تعالى: ﴿إن الله مع الصابرين﴾، فاسحق قلبك واصبر.

الشيخ ابو سعيد ابي الخير

كانت أزرار الآلة الكاتبة أصغر من أصابع مورتنسون وتطبع كل حرفين مع بعضهما، فيمزق الورق ويبدأ من جديد مما زاد في الوقت اللازم للطباعة وبالتالي من كلفة استئجار الآلة. لم يكن أجر دولار واحد في الساعة للآلة الكاتبة الالكترونية باهظاً، لكنه احتاج إلى خمس ساعات لطبع أربع رسائل فقط.

والمعضلة لم تنحصر في المسافات الضيقة بين الأزرار التي رأت شركة IBM أنها كافية بل أيضاً في ماذا سيقول في رسائله. لقد بدأ واحدة منها على الشكل الآتي:

"عزيزتي الآنسة وينفري،

إنني من أشد المعجبين بالبرنامج الذي تعدينه، وأرى بأنك من الأشخاص الذين يريدون ما فيه خير الآخرين، وأكتب لك هذه الرسالة كي أخبرك عن قرية صغيرة تقع في الباكستان، وعن مدرسة لأطفالها أحاول أن أبنيها هناك. هل تعرفين أن أولاد تلك البقعة الأخاذة في جبال الهيملايا ليست لديهم مدارس على الإطلاق؟"


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهنا تبدأ المشكلة، هل يطلب تبرعاً مادياً دون لف أو دوران، أم يكتفي بطلب المساعدة؟ وإن كان سيطلب مالاً، هل عليه أن يحدد مبلغاً معيناً؟ وتابع طباعة رسالته:

"إنني أخطط لبناء مدرسة من خمس غرف ومنح فرصة التعليم لمئة طالب، وصولاً إلى الصف الخامس. عندما كنت في الباكستان أتسلق قمة "كيه2" (التي لم أتمكن من الوصول إليها) تشاورت في أمر المدرسة مع السكان المحليين، ووجدت أنني إذا استخدمت المواد الخام واليد العاملة المتوفرين هناك، فسوف أتمكن من بنائها بمبلغ لا يتجاوز 12.000 دولار أميركي بالتأكيد" وهنا يكمن الجزء الأصعب، هل يطلب منها كامل المبلغ؟ "أي مبلغ ترغبين في التبرع به سيشكل مساهمة مشكورة منك" لكن أصابعه خانته وطبعت آخر كلمة بحروف خاطئة، فمزّق الرسالة وبدأ يطبع من جديد.

وفي الوقت الذي حان فيه موعد مناوبته الليلية في المستشفى، كان قد انتهى من كتابة ست رسائل، فوضعها داخل مغلفاتها وألصق عليها الطوابع البريدية اللازمة، معنونة إلى أوبرا وينفري، وعلى محطات تلفزيونية جديدة بما فيها CNN، بدأت تثبت أنها متمكنة كباقي المحطات، كما وجه رسالة عفوية اللهجة إلى الممثلة سوزان ساراندون لأنها تبدو لطيفة ومتعاطفة مع القضايا الإنسانية. قاد لابامبا من الشوارع المزدحمة بسبابته، هذا هو التقييم النموذجي الذي يتوافق مع حجم يديه!، ثم توقف عند صندوق للبريد ليضع فيه الرسائل الستّ، التي لا تعتبر إنجازاً يذكر بعد يوم كامل من التفكير والطباعة، لكنها تشكل نقطة انطلاق مقبولة. سوف يعمل بشكل أسرع لأنه وضع نصب عينيه هدفاً سيرسل من أجله خمسمئة رسالة. انسابت لابامبا عبر ازدحام جسر الخليج وهو يشعر بالدوار وكأنه أشعل فتيلاً سيعقبه انفجار من الأخبار السارة عما قريب.

تكون المناويات الليلية حافلة بالحالات الإسعافية الخطيرة في بعض الأحيان، مما يجعل الوقت ينقضي بسرعة. أما في الليالي الهادئة وعندما يمر الوقت ببطء فقد كان مورتنسون يستلقي على إحدى أسرة الإسعاف ليأخذ سِنة من النوم، أو يتجاذب أطراف الحديث مع الأطباء مثل توم فوجن.

توم طويل القامة، النحيل ذو النظارات الطبية والجديّ بطبعه، كان أخصائياً في الأمراض الرئوية، وأيضاً متسلق جبال، وقد تسلق جبل أكونكاجوا في الإنديز وهو أعلى جبل خارج قارة آسيا.لكن علاقته مع الممرض مورتنسون أصبحت وطيدة إبان مرافقته لمجموعة أميركية بصفته طبيباً خلال عام 1982 إلى جاشربرومII في الباكستان.

ويقول فوجن: "كنت تتمكن من مشاهدة كيه2 وأنت على جاشربروم II وكان مشهداً أخاذاً ومرعباً بشكل لايوصف، وقد طرحت العديد من الأسئلة على مورتنسون عما يشعر به المرء عند تسلقه".

فوجن شارك في محاولة لتسلق القمة التي تعتبر الاكثر يسراً من بين القمم التي يبلغ ارتفاعها ثمانية آلاف متر. لكن الموسم الذي قضاه على الجبل مر دون أن يصل إليها أحد من مجموعته، كما أن عضواً من أعضائها يُدعى جلين بريديرو، جرفه انهيار ثلجي نحو الأسفل ولم يتمكنوا من العثور عليه أبداً.

كان لدى فوجن حدس عن حسّ الإنجاز الذي يمنحه مقاربة قمة قاتلة مثل "كيه2"، وفيما بين حالات الإسعاف.كانا يتحدثان عن جلال وعزلة البالتورو، الذي يعتقد كلاهما بأنه من أروع الأماكن في العالم. لكن تركيز مورتنسون كان على البحث الذي يقوم به حول الاستسقاء الرئوي وأورام الرئة التي يسببها التواجد في الأعالي، والتي تسببت بالكثير من الإصابات الخطيرة وحالات الوفاة بين المتسلقين.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتحدث فوجن عن مورتنسون بقوله: "جريغ كان سريعاً وهادئاً ويُظهر كفاءة عالية خلال العمليات الجراحية، لكن قلبه في الحقيقة لم يكن في الطب، بل كان يتسكع بيننا ريثما يصبح جاهزاً للعودة إلى الباكستان".

لقد كان اهتمام مورتنسون ينصب بالفعل على قرية جبلية صغيرة تبعد اثني عشر ألف ميل لكنه لم يكن قادراً على أن يرفع عينيه عن مارينا فيلارد، طبيبة قسم التخدير التي كانت تُفقده توازنه كلما رآها، والتي يقول عنها: "كانت متسلقة جبال، وجهها خال من مساحيق التجميل، وشعرها أسود فاحم، أما شفتاها، فقد كانتا ممتلئتين إلى درجة أنني لم أكن أجرؤ على النظر إليهما. العمل إلى جانبها كان عذاباً حقيقياً ولم أعد أعرف كيف أختار بين أن أدعوها للخروج معي وبين أن أتجنبها لكي أستعيد توازني".

أثناء سعيه لجمع التبرعات من أجل المدرسة، كان مورتنسون يفعل ما بوسعه لتوفير المال، فلم يستأجر شقة يسكنها، بل اكتفى بذلك المخزن وبالمقعد الخلفي الواسع في لابامبا الذي كان يتحول إلى أريكة مريحة للنوم، خاصة عند مقارنته بالخيمة التي تعبث بها الرياح في البالتورو. وتابع اشتراكه في نادي سيتي روك، للحفاظ على لياقته بالإضافة إلى ميزة الاستحمام هناك.

وأثناء الليل، كان يجوب الشوارع مع لابامبا حتى يجد ركناً مظلماً وهادئاً يستطيع أن ينام فيه دون إزعاج. وعندما يلف حول جسده كيس النوم، وقد تدلت قدماه منه، كانت مارينا آخر خاطر يمر بباله قبل أن يغطّ في النوم.

أما في الأيام التي لم يكن يعمل فيها، فقد كان مورتنسون يكتب ويعيد كتابة مئات الرسائل إلى أعضاء في مجلس الشيوخ وإلى نجوم

موسيقا البوب ومشاهير السينما، ويذهب إلى المكتبات ليجد أسماءهم داخل مجلات لم يكن ليقرأها أبداً لولا حاجته إلى جمع التبرعات. وعلاوة على ذلك، فقد أعد قائمة بأسماء أول عشرة أغنياء في أميركا. ويقول مورتنسون عن ذلك. "لم أعرف ما كنت أفعله، لكنني كنت آخذ الأسماء من تلك القائمة وأوجه الرسائل طالباً العون من كل الذين كانوا ذوي سلطة أو شهرة أو نفوذ. لقد كنت في السادسة والثلاثين من عمري وأجهل كيفية العمل على الكمبيوتر، أي أنني كنت قليل الحيلة إلى هذه الدرجة".

وعندما ذهب مورتنسون ذات يوم إلى المكتبة التي تؤجره الآلات الكاتبة، ووجدها مغلقة، توجه نحو مكتبة أخرى قريبة يملكها شخص اسمه كيشوار سيد، ويروي كيشوار ما حدث: "قلت له أنه ليس لدينا آلات كاتبة، وبما أننا في عام 1993، فمن الأولى أن يستأجر جهاز كمبيوتر، لكنه أخبرني أنه لا يعرف كيف يستعمله" وعندها اكتشف مورتنسون أن سيداً باكستاني الأصل ومن قرية صغيرة تقع في إقليم البنجاب، قصّ عليه قصة الرسائل التي عليه أن يطبعها. وعندها، أجلسه سيّد على كرسي قبالة جهاز الكمبيوتر، وبدأ يعلم مورتنسون كيف يعمل عليه. وبعد عدد من الدروس المجانية، صار ملمّاً بمعارف ذلك الجهاز.

"بما أنه لا توجد أي مدرسة في قريتي بالباكستان، فإن ما كان مروتنسون يحاول أن يفعله هو شيء نفيس للغاية بالنسبة لي وذلك الهدف النبيل جعلني أكرس نفسي لمساعدته".

السرعة والإتقان في العمل على جهاز الكمبيوتر أدهشا مورتنسون، الذي أمضى شهوراً وهو يكتب الرسائل ويمزقها، في حين أن الكمبيوتر يستطيع أن ينجز ذلك في غضون يوم واحد. وتحت إشراف


https://telegram.me/maktabatbaghdad

سيّد، استطاع مورتنسون أن يطبع ويرسل خمسمائة رسالة في عطلة أسبوعية واحدة عمل خلالها بهمة وحماسة. وما لبث أن أصبح عددها خمسمئة وثمانين رسالة عندما خطرت لهما معاً أسماء معروفة أخرى. "لقد كان ذلك مشوّقا للغاية، رجل من الباكستان يحررني من أميتي في الكمبيوتر، كي أحرر بدوري أطفال الباكستان من أميتهم في العلم".

وبعد إرسال كل طلبات التبرع، كان مورتنسون يعود إلى مكتبة سيّد لصقل مهاراته على الكمبيوتر، ويكتب ستة عشر طلباً آخر من أجل الأموال اللازمة لمدرسة كورف.

وعندما ينتهيان من العمل على الأجهزة، كان مورتنسون وسيد يتحدثان عن النساء في حياة كلٍ منهما. ويقول سيّد عن تلك المرحلة بأنها كانت: "حزينة وجميلة. فقد اختارت لي والدتي فتاة من كراتشي. وكان عليّ أن أعمل جاهداً كي أوفر المال اللازم لزفافي إليها قبل أن أحضرها إلى أميركا".

مورتنسون بدوره، أفضى لسيّد عن افتتانه بمارينا، وراح الآخر يضع له الخطط ويخترع الوسائل كي يدعوها للخروج معه وقال له: "اسمع نصيحتي. أنت لم تعد شاباً وعليك أن تؤسس عائلة. ماذا تنتظر؟".

ومع ذلك، فإن لسان مورتنسون كان ينعقد كلما حاول أن يدعو مارينا للخروج معه، لكنه بدأ يتحدث معها أكثر خلال أوقات فراغهما في المستشفى. فاخبرها عن عملية إنقاذ ايتيان، وعما حدث معه في الجبال وعن مخططاته لإنشاء مدرسة لأطفال كورف، وهو يتجنب النظر إليها طوال الوقت خوفاً من أن يغرق في عينيها اللتين كانتا تلتمعان أمام عينيه كلما رفع رأسه نحوها. وبعد شهرين من المحاولات المخفقة، وضعت مارينا حداً لمعاناته وقامت هي بدعوته للخروج معها.

منذ عودته من الباكستان، كان مورتنسون يُقتّر على نفسه تقتير الزهّاد. فكان يدفع دولاراً واحداً ليتناول إفطاره المكون من كعكة صغيرة وفنجان قهوة في محل كمبودي للمعجنات، ويظل على تلك الوجبة الفقيرة حتى المساء عندما يذهب إلى مطعم مكسيكي شعبي ليأكل فطيرة من دقيق الذرة محشوة باللحم.

وبما أنه أول موعد لهما، فقد اصطحب مارينا إلى مطعم للمأكولات البحرية يطل على البحر، وطلب زجاجة من النبيذ الأبيض، وهو يفكر بثمنها ويصرّ على أسنانه. لكنه سرعان ما وجد نفسه غارقاً حتى أذنيه في حياة مارينا، وابنتيها بليز التي تبلغ الخامسة، ودانا التي تبلغ الثالثة، وتعلّق بهما وبأمهما معاً. وخلال العطل الأسبوعيّة التي تقضيها الفتاتان مع والدهما، كان مورتنسون ومارينا يذهبان لتسلق الجبال أثناء النهار ويمضيان الليل داخل لابامبا، أما عندما تكون الفتاتان في المنزل، فكان يصطحبهن إلى الصخرة الهندية، وهي نتوء صخري يقع في تلال بيركلي الخلابة ويعلمهن المبادئ الأولية في تسلق الجبال. ويقول مورتنسون عن تلك المرحلة في حياته: "فجأة أصبح لدي عائلة، وأدركت كم كنت بحاجة إليها. ولولا الصعوبات التي كانت تواجهني في جمع التبرعات لبناء المدرسة، لكانت سعادتي كاملة".

جيرين والدة مورتنسون، كانت تتابع أمور ابنها وكدّه بقلق متزايد.وبما أنها أصبحت مديرة مدرسة ابتدائية بعد حصولها على شهادة الدكتوراه، فقد قامت باقناعه بأن يزورِ مدرستها ويشرح مشروعه في الباكستان مع عرض للصور أمام ستمئة طالب.

"لقد كنت أعاني الأمرين وأنا أحاول أن أقنع أشخاصاً بالغين بأن الطلاب في الباكستان يحتاجون إلى العون. لكن الأطفال الذين لم


https://telegram.me/maktabatbaghdad

يصدقوا أعينهم عندما شاهدوا أطفالاً في مثل أعمارهم يجلسون في العراء البارد يحاولون أن يتعلموا بدون مدرسين، فهموا رسالتي على الفور وقرروا أن يمدوا يد المساعدة".

وبعد زيارته للمدرسة بشهر واحد، كتبت له والدته تقول بأن طلابها قد قاموا من تلقاء أنفسهم بإطلاق حملة أطلقوا عليها تسمية "تبرع ب سنتين من أجل الباكستان" جمعوا خلالها 629345 سنتاً داخل علب عصير فارغة. وعندما صرف مورتنسون الحوالة المصرفية التي أرسلتها والدته، استلم مبلغاً يعادل 623دولاراً و45 سنتاً. وعندئذ شعر مورتنسون بأن الحظ قد بدأ يحالفه "الأطفال هم الذين قاموا بالمساهمة الأولى لبناء المدرسة، وبماذا؟ بالقروش التي لا قيمة لها في مجتمعنا، في حين أنها قادرة على تحريك الجبال هناك".

أما بقية الخطوات، فقد أتت متباطئة للغاية. استلم مورتنسون في البداية رداً واحداً على الخمسمئة والثمانين رسالة من توم بروكار الذي كان زميله في الجامعة وفي فريق كرة القدم، مرفقاً بحوالة مصرفية قيمتها مئة دولار وبتمنيات المرسل بالتوفيق، وعندما بدأت باقي الردود تصل، كانت بمثابة ضربات هدامة لآمال مورتنسون وهي تعلن عن رفضها لتقديم المساعدة وخلال حديث له مع الدكتور توم فوجن أخبره مورتنسون عن عجزه في جمع التبرعات فقرر فوجن أن يساعده ونشر مقالة قصيرة في الجريدة التي تصدرها مؤسسة الهيملايا الأميركية قدّم من خلالها مورتنسون الذي حاول أن يصل إلى قمة كيه2 وتحدث فيها عن جهوده لبناء مدرسة في قرية كورف. ولم يفته أن يذكّر أعضاء المؤسسة الأثرياء، والذين كانوا متسلقي جبال في السابق، بالأثر الذي خلفه السير إدموند هيلاري في نيبال. بعد أن وصل إلى قمة إيفريست برفقة تينزنج نورجاي عام 1954، عاد هيلاري مجدداً إلى وادي خومبو واضعاً نصب عينيه هدفاً وصفه بأنه أشد وعورة من تسلق أعلى قمة في

العالم، وهو تشييد المدارس من أجل أطفال رجال الشيربا، أولئك الحمّالين الذين ظلوا معه حتى وصل إلى القمة. وفي كتابه الذي صدر عام 1964 عن المساعي اللازمة من أجل خدمة الإنسانية تحت عنوان "بناء مدرسي بين الغيوم" يتحدث هيلاري ببصيرة نافذةعن الحاجة الماسة لتقديم العون لتلك المناطق النائية والمعوزّة من العالم، مثل خومبو وكورف، يقول: "لقد بدأنا نلاحظ إدراك العالم المؤلم والبطيء لحقيقة المسؤولية الملقاة على عاتق البلدان المتقدمة الغنية تجاه تلك التي حرمت من هذه النعم، ليس فقط بدافع فعل الخير، بل لأنها أيضاً الطريقة الوحيدة التي نستطيع أن نحظى فيها بالسلام والأمان لأنفسنا".

لكن طريق هيلاري كانت ممهدة على عكس طريق مورتنسون الدونكيشوتية. وصوله إلى أعلى قمة على وجه الكرة الأرضية جعل منه شخصية شهيرة يتهافت الجميع على إرضائها، فحصل على مساهمة قدرها إثنان وخمسون ألف دولار من مؤسسة عالمية لنشر الموسوعات في عالم 1963، والجهة التي بدأت تصنع الخيام وأكياس النوم اللازمة للتسلق ضمن ماركة جديدة تحمل اسم هيلاري البرّاق، قامت بإرسال طاقم للتصوير لتغطية مشروعه، وتدفق المزيد من المال عندما قام مساعدو هيلاري ببيع حقوق الفيلم، وحصلوا على الدفعة الأولى من أجل حقوق نشر كتاب عن المشروع، في حين لم يكن هيلاري قد وصل إلى نيبال لإنجازه بعد.

أما مورتنسون، فإنه لم يخفق فقط في الوصول إلى قمة كيه2 بل رجع وهو مفلس أيضاً، يقضي معظم لياليه داخل لابامبا لأنه لا يريد أن يكون عبئاً على مارينا، وتوقظه الأضواء الكاشفة لرجال الشرطة، ليجلس وراء المقود وهو نصف نائم ليبحث عن مكان آخر لا يستطيعون أن يجدوه فيه قبل الصباح. وكل ذلك لأنه لا يرغب في أن يفسد علاقته مع مارينا التي بدأ يشوبها شيء من الفتور. ففي الآونة


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأخيرة، بدأت مارينا تنزعج من حرصه على عدم الإنفـاق، والمبيـت داخل لابامبا لم يعد له ذلك الوقع الرومانسي بالنسبة إليها.

كانا في طريقهما إلى جبل يوزميت ذات يوم ربيعي بـارد، عنـدما اقترحت عليه أن يمضيا عطلة باذخة في فنـدق مـن القـصور التاريخيـة القديمة يعتبر دُرةً للفنـادق بمفروشـاته النـادرة. لكنـه أسـاء التـصرف ورفض الاقتراح بفظاظة لأن تكلفـة تلـك الإقامـة ستـستهلك كـل مـا ادخره من أجل المدرسة حتى الآن. وكانت النتيجة أن إقامتـهما ظلّـت داخل لابامبا، وكانت تجيش بتوتر صامت.

وفي يوم ضبابي بارد من صيف سان فرانسيسكو، توجه مورتنسون إلى مناوبته المعتادة في المستشفى، حيـث لاقـاه تـوم فـوجن وسـلمّه قصاصة من الورق قائلاً له: "لقد قـرأ هـذا الرجـل مـا كتبتـه عنـك في الجريدة واتصل بي. إنه متسلق جبال وعالم في حقـل مـا. وبـصراحة، لقد شعرت بأنـه غريـب الأطـوار وسـألني إن كنـت مـدمن مخـدرات يسعى وراء أمواله كـي يبـذرها. ولكـنني أعتقـد بأنـه غـني وعليـك أن تتصل به". وقرأ مورتنسون عل القصاصة اسم الدكتور جـان هـويرني، إلى جانب رقم هاتفي يقع في سـياتل، فـشكر فـوجن علـى جهـوده، ووضع القصاصة داخل جيبه وهو يتوجه إلى قسم الإسعاف.

في اليوم التالي، ذهب مورتنسون إلى مكتبة بيركلي العموميـة وبحـث عن معلومات تتعلق بهذا الرجل. وفوجئ بأن اسـم جـان هـويرني يتكـرر مئات المرات، خصوصاً في الصحف، كلما ورد ذكر الإلكترونيات.

هويرني كان عالماً في حقل الفيزيـاء وسويـسري الأصـل ويحمـل شهادة من جامعة كمبردج، ترك العمل مع مجموعة من علماء الفيزياء في كاليفورنيا، وتفرغ لاختراع دارة كهربائية متكاملـة مهـدت الطريـق لاختراع رقاقة السيليكون، وحصل علـى بـراءة الاختـراع تحـت اسـم "سلسلة العمليات المسطحة".

وبما أن تشبثه العنيد برأيه كان يضاهي عبقريته، فقد تنقل من عمل إلى آخر، بعد أن يناطح رؤساء شركاته في العمل في كل مرة. لكنه كان أيضاً، وفي كل مرة، يخلّف وراءه مؤسسات متينة تحولّت فيما بعد إلى شركات عملاقة في مجال الإلكترونيات. وفي الوقت الذي اتصل فيه بفوجن باحثاً عن مورتنسون، كان هويرني يبلغ السبعين من العمر، وثروته تصل إلى مئات الملايين.

وعلاوة على ذلك، فقد كان هويرني يتسلق الجبال في شبابه، وحاول الوصول إلى قمة إفريست، كما تسلق العديد من الجبال في القارات الخمس. وبما أنه يتمتع بصلابة الجسم والعقل معاً، فقد أمضى ليلة قارسة البرودة في أعالي الجبال ذات مرة وهو يحشو كيس نومه بالجرائد، وكتبَ بعدها إلى صحيفة "وول ستريت جورنال" يقول فيها بأنها أدفأ صحيفة أصدروها حتى تاريخه. كان يكنّ محبة خاصة لجبال كاراكورام، وأخبر أصدقاءه بعد عودته، بأن هناك تناقضاً صارخاً بين هيبة الطبيعة الجبارة ووضاعة الحياة القاسية التي يعيشها الحمالون البلطيون.

صرّف مورتنسون عشرة دولارات إلى قطع نقدية صغيرة، واتصل بهويرني في منزله في سياتل من هاتف المكتبة العمومي. ومرّت بضع دقائق ثمينة قبل أن يرد هويرني على الهاتف "مرحباً، أنا جريغ مورتنسون. لقد أعطاني توم فوجن رقم هاتفك وأتصل بك الآن لأنني....".

وقاطعه صوت حاد ذو لكنة فرنسية.

"أعرف ما تسعى إليه. ولكن أخبرني، ما الذي تنوي أن تفعله بالتمويل الذي ستأخذه مني؟ هل ستبني مدرسة حقاً، أم أنك ستصطحب عاهرتك إلى المكسيك كي تبعثره على المخدرات والتهتك؟".

"وتلعثم مورتنسون في الرد: "أنا.....".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

"هيا أجبني!".

"كلا يا سيدي. لا أنوي ذلك على الإطلاق. ما أريده حقاً هو أن يتعلّم الأطفال في كاراكورام. إن شظف العيش هناك لا يصدق وهم بحاجة ماسة إلى كل ما نستطيع تقديمه من عون".

أجابه هويرني بهدوء هذه المرة: "أعرف ذلك. لقد شاهدتهم عام 1974 وأنا في طريقي إلى البالتورو".

"وهل ذهبت إلى هناك من أجل التسلق أم كنت بصحبة.....".

فزعق هويرني مجدداً: "كم تبلغ تكلفة مدرستك تلك؟".

"لقد اجتمعت مع مهندس ومقاول بناء في سكاردو وقمنا بدراسة تقريبية لأسعار كامل المواد، إذ أنني أريد أن أبني خمس غرف، أربع فيها ستكون صفوفاً للتلاميذ، وواحدة من أجل....".

قاطعه هويرني بحدة قائلاً: "أعطني رقماً!".

وأجابه مورتنسون وهو خائف: "اثنا عشر ألف دولار، ولكنك تستطيع أن تساهم بأي...".

وهنا، سأله هويرني بذهول: "هل تمزح؟ أيمكنك حقاً أن تبني مدرسة بمبلغ زهيد كهذا؟".

"نعم يا سيدي، يمكنني أن أبني مدرسة بمبلغ كهذا وأنا متأكد من ذلك".

وأمره هويرني قائلاً: "أعطني عنوانك".

وشعر مورتنسون بأن قلبه قد قفز إلى فمه وهو يقول لنفسه بارتياح: "يا لها من جملة مفيدة!".

سار مورتنسون مترنحاً نحو سيارته وقرر أنه قد حصل على سبب وجيه لكي لا ينام داخل لابامبا هذه الليلة.

وبعد أسبوع، فتح مورتنسون صندوق بريده ووجد مغلفاً يحتوي على حوالة مصرفية موقعة من قبل هويرني بقيمة اثني عشر ألف دولار موجهة إلى مؤسسة الهيملايا الأميركية ومرفقة بقصاصة الورق خربش عليها: "إياك والإخفاق. مع تحياتي ج.هـ".

وهكذا باشر مورتنسون ببيع ممتلكاته استعداداً للعودة إلى الباكستان. وبدأ بمئات النسخ من الكتب التاريخية المتعلقة بتسلق الجبال، والتي كان قد أمضى من أجل الحصول عليها ساعات طوال وهو يجول بين رفوف المكتبات التي تبيع كتباً مستعملة. بالإضافة إلى مقتنيات والده من الكتب النادرة التي كان قد جلبها من تنزانيا. يحصل بالمقابل على أقل من ستمئة دولار ثمناً لها.

وبعد صرف الحوالة التي وصلته من هويرني، قام ببيع كل شيء يملكه كي يؤمن ثمن بطاقة الطائرة ومصاريف إقامته في الباكستان التي لا يعرف كم ستطول. وأخبر مارينا بأنه سيسلك الدرب الذي اختاره منذ أن تعرف إليها وأحبها، حتى نهايته، وحتى يفي بالوعد الذي قطعه لأطفال كورف. وعندما يعود، فإن الأمور ستكون مختلفة وسيلتزم بساعات العمل كاملة، وسيجد مسكناً لائقاً ويمارس حياة أكثر استقراراً. أما معدات التسلق فقد ذهب بها إلى نادي التدريب الذي كان ينفق فيه كل مدخراته منذ أصبح مهووساً بتسلق الجبال. الوصول إلى النادي بسيارته لم يستغرق أكثر من أربع دقائق لكنها انحفرت في ذاكرته وكأنها دامت دهراً "لقد شعرت بأنني أقتلع جذوري من المكان الذي احتضنني منذ أتيت إلى كاليفورنيا" وعندما غادر النادي، كان قد أضاف إلى رصيده ألفاً وخمسمئة دولار.

أما التخلي المؤلم حقاً فقد جاء في اليوم السابق لسفره، عندما أخذ لابامبا، بعد أن اصطحب مارينا إلى عملها، باتجاه مرآب


https://telegram.me/maktabatbaghdad

للسيارات المستعملة وباعها مقابل خمسمئة دولار. شبقة الوقود تلك التي خدمته بإخلاص وجاءت به من الغرب الأوسط إلى كاليفورنيا ليمارس هوسه بتسلق الجبال، وكانت مأوىً له وهو يتلمس طريقه في مجاهيل جمع التبرعات، سترسله الآن إلى النصف الآخر من الكرة الأرضية.

ربت بحنان على سقفها الخمري، ووضع النقود في جيبه، ثم حمل حقيبته القماشية وسار باتجاه سيارة الأجرة التي ستذهب به إلى الحقبة المقبلة من حياته.

# الفصل السادس

# "أسطح منازل (راولبندي) عند الغسق"

"الصلاة خير من النوم"

**من آذان صلاة الفجر**

استيقظ من النوم يحتضن النقود والعرق يتصبب منه. اثنتا عشرة ألف وثمانمئة دولار كانت متراصة في رزم مرتبة، داخل كيس القماش الأزرق المهترئ ولم يجد له مكاناً آمناً في تلك الغرفة شبه الخاوية سوى داخل ملابسه. اثنتا عشر ألف منها كانت مخصصة للمدرسة، أما الثمانمئة المتبقية، فيجب أن تغطي نفقاته الشخصية خلال الأشهر العديدة القادمة. ربت على كيس النقود بشكل غريزي كعادته منذ أن غادر سان فرانسيسكو، ثم دلّى قدميه من على السرير المعلّق وهبط إلى الأرض الرطبة. اقترب من إحدى النوافذ وأزاح الستارة فكشفت له عن مشهدٍ أخاذ لفسحة سماوية بنفسجية اللون تشطرها إلى نصفين، المآذن الخضراء لمسجد عمال النقل الحكومي المجاور لغرفته. لون السماء كان يعني الفجر أو الغسق، وقرر وهو يفرك عينيه بأنه الغسق، لأنه وصل إلى إسلام آباد عند الفجر وقد غطّ في النوم حتى الآن.

لقد خاطت رحلته نصفي الكرة الأرضية إلى بعضهما البعض، لأن خط الطيران الذي فرضته تذكرته المخفضة يبدأ من مطار سان فرانسيسكو إلى أتلانتا ومنها إلى فرانكفورت ثم إلى أبو ظبي ومن ثم إلى دبي، التي غادر منها نفق التوقيت المتضارب وقاعات الإنتظار الخانقة ليصل إلى قيظ وسعار مطار إسلام آباد.



https://telegram.me/maktabatbaghdad

وها هو الآن في قلب راولبندي، توأم إسلام آباد المزدحم المبتذل، ويقيم في غرفة في فندق خيابان، أخبره المدير بأنها أرخص ما لديه.

كان عليه أن يحرص على كل روبية ينفقها، لأن أي تبذير سيسرق من الحجارة التي سوف تبني المدرسة أو الكتب اللازمة للتلاميذ. ومن أجل ذلك، فقد قبل مورتنسون بهذه الإقامة التي لا تتجاوز تكلفتها الدولارين لليلة الواحدة، لأنها غرفة عشوائية تم بناؤها على سطح الفندق ومساحتها لا تتجاوز ستة عشر قدماً وهي في حقيقتها، أقرب إلى سقيفة. ارتدى بنطاله وقميصه الباكستاني وفتح باب الغرفة فلاقاه تيار من الهواء الدافئ وجده رحيماً مقارنة بالرطوبة الخانقة داخل الغرفة. ووجد بانتظاره عبد الشاه حارس الفندق يرتدي قميصه الازرق القذر، وينظر إليه بعينه الواحدة السليمة قائلاً: "السلام عليكم سيد جريغ" ثم ركض كي يحضر له الشاي. شعر مورتنسون بأن عبد الشاه قد جلس القرفصاء بانتظاره طوال النهار. وبعد أن أحضر الشاي بالحليب في فنجان خزفي مشروخ، وجلس على كرسي صدئ إلى جانب مواد البناء المكوّمة على سطح الفندق وسأله عبد الشاه: "سيد جريغ، هل لي أن أسألك عن سبب عودتك؟".

وهو سؤال مشروع بالنسبة لمورتنسون. لقد أقام في هذا الفندق منذ عام بصفته عضواً في مجموعة استكشافية محترمة، يقضي كل دقيقة من إقامته وهو منهمك بالتزود بالمؤونة الضرورية والحصول على التراخيص وبطاقات الطائرات والاتفاق مع الحمالين وبغالهم. فما الذي عاد به إلى هنا؟.

أجابه مورتنسون: "لقد عدت لكي أبني مدرسة، إنشاء الله".

"هنا، في بندي، سيد جريغ؟".

احتسى مورتنسون فنجان الشاي ببطء وهو يروي لعبد الشاه قصة إخفاقه في تسلق جبل "كيه2" وكيف ضلّ طريقه داخل النهر الجليدي، وعن رعاية الناس في قرية كورف لهذا الرجل الغريب عنهم الذي جاءهم عن طريق الخطأ.

كان عبد الشاه يجلس القرفصاء أمامه يصغي باهتمام. وعندما انتهى مورتنسون من حديثه، ابتلع ريقه وهرش كرشه الكبير وهو ينظر إلى حذاء مورتنسون وقميصه المهترئ ثم سأله: "هل أنت رجل غني؟" فراح مورتنسون يبحث عن الصيغة المناسبة التي سيشرح بها جهوده المتعثرة خلال السنة الفائتة. وبعد شيء من التفكير أجابه: "كلا، أنا لست رجلاً غنياً. العديد من الناس في أميركا بما فيهم الأطفال تبرعوا ببعض المبالغ المالية" ثم أخرج الحقيبة من تحت قميصه وأراه النقود التي بداخلها وتابع قائلاً: "بشيء من حسن التدبير، هذا المبلغ سيمكنني من أن أبني مدرسة واحدة متكاملة".

هبّ عبد الشاه واقفاً وقال بعزيمة موطّدة: "أقسم بالله العلي العظيم أن أرافقك في الغد وأن أساوم بلا هوادة من أجل كل قرش تحمله" وراح يؤكد: "كل قرش" وهو يجمع أواني الشاي بين ذراعيه.

من مجلسه فوق السطح، سمع مورتنسون صوت مكبر الصوت في مئذنة المسجد المجاور يتم تجهيزه استعداداً للأذان الذي سيدعو المسلمين إلى أداء الصلاة، وأمام ناظريه، سرب من طيور السنونو غادر شجرة التمر هندي التي في حديقة الفندق على شكل رف واحد ثم حلّق فوق أسطحة المنازل. وعلا صوت الأذان من جميع مساجد راولبندي ليملأ ظلمة المساء "حي على الصلاة". لقد سمع مورتنسون الأذان وهو يجلس على هذا السطح نفسه منذ سنة وكان يداخله حينئذٍ في نسيج الأمسيات ما يشبه موسيقى تصويرية مناسبة لمجموعته وأهدافها. أما الآن، فها هو يجلس وحيداً ويتراءى له أنْ المؤذنين


https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتحدثون إليه مباشرة وأصواتهم المعتقة المشوبة بإيمان وطاعة راسخين منذ مئات السنين كانت تحثه على النهوض والعمل. أزاح من رأسه الشكوك التي قضّت مضجعه طوال السنة واتخذ قراراً حاسماً بأنه قادر على بناء المدرسة، في حين كان عبد الشاه يرفع الصينية التي تحمل أواني الشاي بهمة ونشاط.

وعند الساعة الرابعة والنصف من صباح اليوم التالي، جاءت طرقة عبد الشاه على الباب متزامنة مع أذان الفجر من مساجد راولبندي يخاطب المدينة الغافية "الصلاة خير من النوم". وعندما فتح مورتنسون الباب وجد عبد الشاه يحمل صينية الشاي من طرفيها ويقول بعزيمة وطيدة: "هنالك سيارة أجرة بانتظارنا، لكن تناول الشاي أولاً يا سيد جريغ".

فرك مورتنسون عينيه وهو يتساءل: "سيارة أجرة؟".

فأجابه عبد الشاه بأناة معلم يشرح مسألة حسابية بسيطة لتلميذ بليد: "من أجل الإسمنت. وإلا فكيف تستطيع أن تبني مدرسة، ولو كانت واحدة، بدون إسمنت؟".

أجابه مورتنسون وهو يضحك: "طبعاً لن أستطيع". وازدرد فنجان الشاي دفعة واحدة وهو يأمل أن يفعل الكافيين فعله بالسرعة المطلوبة.

كانت الشمس تشرق عندما انطلقوا باتجاه الغرب على الطريق الذي كان في السابق يدعى بالطريق الدولي الكبير، ويصل طوله البالغ ألفين وستمئة كيلومتر، بين مدينة كابول في أفغانستان ومدينة كالكوتا في الهند. أما الآن فقد تدنت مرتبته وبات يدعى "الطريق الوطني الأول" لأن الحدود بين أفغانستان والهند تكون مغلقة في معظم الأحيان. انحشر مورتنسون في المقعد الخلفي لشاحنة السوزوكي الصفراء الصغيرة التي وكلما ارتطمت بإحدى المطبات على الطريق بسرعتها البالغة مئة كيلومتر في الساعة، كان مورتنسون يعمل جاهداً على ألا ترتطم ذقنه بركبتيه المثنيتين.

عندما وصلوا إلى تاكسيلا كان القيظ قد أحكم قبضته على المدينة التي عسكر فيها الإسكندر الأكبر مع جيشه في عام 326 قبل الميلاد إبان حملته الأخيرة على التخوم الشرقية لإمبراطوريته. وبحكم موقعها الجغرافي فإن تاكسيلا تقع ضمن نقطة التقاء المعبرين الشرقي والغربي التجاريين، والتي أصبحت فيما بعد الطريق الدولي الكبير، وتتقاطع مع طريق الحرير القادم من الصين في أسفل جبال الهيملايا مما جعلها محوراً استراتيجياً في الزمن القديم. أما تاكسيلا الزمن الحاضر، فتحتوي على الركام العمراني الذي تم تشييده في الماضي، لأنها كانت تحتضن ثالث أكبر دير بوذي في العالم، انتشرت منه تعاليم بوذا باتجاه الشمال وصولاً إلى الجبال. لكن مساجد تاكسيلا الأثرية تم ترميمها وتجديدها في حين أن مقامات الديانة البوذية تركت تحت رحمة عوامل الطقس فحتتها وعرتها حتى عادت إلى الشكل الاصلي للصخور التي بنيت منها. أما ذلك الامتداد العشوائي لتلك الصخور على سفوح جبال الهملايا، فقد أصبح الآن موقعاً لمدينة صناعية، حيث يقوم الجيش الباكستاني بإنتاج نماذج مقلّدة للدبابات الروسية، وتنتصب أربع مداخن ضخمة لأربعة مصانع إسمنت تشكل المصدر الرئيسي للوازم الباكستان من البنى التحتية. حاول مورتنسون أن يدخل إلى أول مصنع في طريقهم ليباشر عملية الشراء، لكن عبد الشاه أنّبه مجدداً وكأنه طالب غرّ قائلاً: "يا سيد جريغ، علينا أولاً أن نشرب الشاي ومن ثم نناقش مسألة الإسمنت!".

جلس مورتنسون على مقعد عالٍ وهو يحاول ألا يفقد توازنه فوق الكرسي الصغير يحتسي كوبه الخامس من الشاي ويحاول أيضاً أن يفك شيفرة الحديث الدائر بين عبد الشاه وثلاثة رجال مسنين من رواد المقهى الذين ترقطت لحاهم بصفرة النيكوتين.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانوا منهمكين للغاية في حديث استطاع مورتنسون أن يستشف بأنه يدور حول الإسمنت، وبأنهم يناقشون أدقّ التفاصيل. وعندما انتهى النقاش، وضع مورتنسون بضع روبيات على الطاولة وانصرفا وهو يسأل: "أي مصنع سنتعامل معه؟" فأجابه عبد الشاه قائلاً: "إنهم لا يعرفون، لكنهم دلونا على مقهى آخر وصاحبه لديه قريب يعمل في مجال الإسمنت".

مقهيان آخران وعدد لا يحصى من أكواب الشاي امتدت إلى ما بعد الظهر ولم تفض إلى نتيجة ملموسة. فالإسمنت الذي ينتجه مصنع فوجي كان مقبولاً لأنه ليس مغشوشاً إلى درجة أن يتسبب في انهيار المدرسة، إن أخذنا بعين الاعتبار مناخ جبال الهملايا القاسي ولم يكن مورتنسون راضياً كل الرضى عن ذلك، لكنه استعد للمساومة اللازمة من أجل الحصول على مئة كيس من الإسمنت لا بد منها لبناء المدرسة، ليفاجأ بأن عبد الشاه قد قدّم إلى مصنع فوجي للإسمنت، بكل خنوع وامتنان، طلبية الإسمنت وطالب مورتنسون بدفع عربوناً قدره مئة دولار.

وبعد أن دفع مورتنسون المبلغ المطلوب واستلم مقابله إيصالاً يفيد بتسليم مئة كيس من الإسمنت إلى فندق خاييان خلال أسبوع، سأل عبد الشاه: "وماذا بخصوص المساومة التي تحدثت عنها؟" وأشعل عبد الشاه سيجارة كريهة الرائحة ونفث دخانها ولوح بيده كي يبعده عن مورتنسون وأجابه بلهجة مطمئنة: "مساومة؟" المساومة غير واردة في مجال الإسمنت، لأن العمل في الإسمنت... وأخذ عبد الشاه يبحث عن التعبير المناسب الذي يستطيع أن يفهمه الأميركي البليد "المافيا هي التي تعمل في مجال الإسمنت. أما المساومة الحقيقية فسوف نقوم بها غداً في سوق راجا". ثنى مورتنسون ركبتيه ووضع ذقنه عليهما، بينما اتخذت المركبة المستأجرة طريقها عائدة إلى بيندي.

وعندما وصل إلى الفندق، دخل مورتنسون حمام الرجال وحاول أن يخلع قميصه، فتمزق من جهة الكتف وصولاً إلى جهة الخاصرة. وبما أنه الزي الباكستاني الوحيد الذي يمتلكه، فقد قام بغسل الغبار عنه قدر ما يستطيع وارتداه من جديد. إنه الزي الذي ابتاعه جاهزاً واستعمله منذ أن بدأ بتسلق "كيه2" حتى الآن، وقد آن الآوان لشراء زي جديد.

كان عائداً إلى غرفته عندما اعترض عبد الشاه سبيله وبدأ يقرقع بلسانه، كتعبير عن أسفه لما حصل للقميص واقترح عليه أن يذهبا إلى الخياط. فغادرا واحة الفيء في الفندق وعادا إلى غوغاء راولبندي. كانت توجد في الطرف المقابل من الشارع عشرات العربات التي تجرها خيول تزبد وتضرب الأرض بحوافرها من السديم الحار الذي يهيمن على الشارع، في حين كان رجل مسن ذو لحية مخضبة بالحناء يقوم بعملية المساومة على الأسعار بهمة ونشاط. نظر مورتنسون نحو الأعلى ولاحظ للمرة الأولى وجود لوحة إعلانات مطلية بأصباغ فاقعة كتب عليها باللغة الإنجليزية: "تعاملوا مع دكتور آزاد من فضلكم" وإلى جانبها رسم هزيل لهيكل عظمي تتلألأ داخل عينيه المجوفتين جماجم مصغرة مجوفة براقة تغدق بالوعود: "لا توجد آثار جانبية" أما دكان الخياط فلم يعلن عن نفسه، بل كان محشوراً داخل زقاق مكتظ بالدكاكين التي بدت وكأنها تتفسخ منذ عقود، أو أنها ما زالت في حالة انتظار يائس لإكمال بنائها. كان منظور خان جالساً القرفصاء داخل دكانه الضيق وأمامه مروحة ولفافات من القماش ومجسم لجسد رجل يخيط عليه الملابس ويوحي بتقشف لا يتناسب مع هيئته الملوكية المهيبة. فالإطار الأسود السميك الذي يحيط بعدستي نظارته ولحيته البيضاء المشذبة كانت تعطيه شكل المفكرين.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعندما بدأ يأخذ مقاسات صدر مورتنسون، جفل أمام النتائج، وأعاد القياس، ثم دون أرقاماً على دفتر صغير. وبدأ عبد الشاه يشرح له الأمر قائلاً: "يريد السيد منظور أن يعبر عن اعتذاره منك لأن قميصك سيحتاج إلى ستة أمتار من القماش، في حين أن قمصاننا لا تحتاج إلى أكثر من أربعة أمتار، ولذلك عليه أن يطلب منك خمسين روبية إضافية. وأعتقد أن ما يقوله صحيح" فوافق مورتنسون على السعر وطلب أن يخيط له قميصين. صعد عبد الشاه إلى المنصة التي تعرض عليها الأقمشة وعرض على مورتنسون لفافة ذات لون أزرق زاهي وأخرى لها لون قلب الفستق الأخضر. لكن مورتنسون الذي يعرف مناخ بالتستان المغبر، طلب لوناً ترابياً وحاول أن يطيب خاطر عبد الشاه بقوله إنه لون يحتمل الغبار. إلا أن عبد الشاه ألح عليه: "يا سيد جريغ، يا سيدي، عليك أن تتخذ مظهر السيد الأنيق لكي يهابك الناس" لكن مورتنسون كان قلبه مع سكان كورف الذين يحتشدون طوال فصل الشتاء السرمدي المتوحش مع حيواناتهم حول النار وهي تنفث دخان روث الحيوانات الكريه داخل أقبيتهم الطينية بقمصانهم اليتيمة التي لا يملكون غيرها، فأجاب قائلاً: "أنا يناسبني اللون الترابي".

كان منظور يستلم العربون من مورتنسون، عندما علا صوت المؤذن ووصل إلى أسماعهم. سارع الخياط إلى وضع النقود جانباً، ومدّ سجادة الصلاة باهتة اللون وهو يصحح اتجاهها بدقة. فسأله مورتنسون بعفوية: "هلا علمتني الصلاة؟".

"وهل أنت مسلم؟".

نظر عبد الشاه إلى مورتنسون وبانت على وجهه علامات الرضا عندما أجاب:

"أنا أحترم الإسلام".

سُرّ منظور بإجابته ودعاه للصعود إلى المنصة المكتظة بأدوات الخياطة، قرب مجسم الخياطة المغروز بالدبابيس وبدأ تعاليمه قائلاً: "على المسلم أن يغتسل بالماء قبل الصلاة وذلك يدعى الوضوء. وبما أنني قد توضأت، فسوف أعلمك ذلك في المرة القادمة" ومد له قطعة القماش التي اشتراها لخياطة القميصين قرب سجادته وأمر الأميركي أن يقف إلى جانبه وهو يتابع تعليماته: "علينا أولاً أن نقف قبالة مكة، حيث يرقد رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام، ثم نركع بين يدي الله سبحانه وتعالى" وعندما حاول مورتنسون أن يركع في تلك المساحة الضيقة، اصطدم بالمجسم الذي بدأ يتأرجح فوق رأسه وكأنه إله ناقم. وصرخ فيه منظور: "كلا!" وجعله يمد ذراعيه ويعقد كفيه فوق بعضهما البعض "لا يجوز أن نقف أمام الله وكأننا بانتظار الحافلة، بل نضع أنفسنا بين يديه بخشوع واحترام".

ووقف مورتنسون دون حراك وهو ينصت إلى منظور يتلو بصوت خفيض فاتحة الصلاة في الإسلام: "بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال له عبد الشاه في محاولة لتبسيط الأمر: "إنه يقول أن الله ودود ومتسامح".

وأجابه مورتنسون: "لقد استطعت أن أفهم ذلك".

وصاح منظور مجدداً: "اخرسا!" وأحنى خاصرته نحو الأمام ثم وضع جبهته على سجادة الصلاة. حاول مورتنسون أن يحذو حذوه، لكن الشقوق التي في قميصه تمزقت وبدأ هواء المروحة يلطم ظهره العاري. نظر إلى مرشده سائلاً إياه: "هل أحسنت الأداء؟".

أمعن الخياط النظر في مورتنسون من خلال الإطار الأسود السميك وقال له: "سنحاول من جديد عندما تعود لاستلام القميص. فقد يصبح أداؤك أفضل" ولفّ سجادة صلاته بعناية وأعادها إلى مكانها.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

غرفة مورتنسون الزجاجية القائمة على سطح البناء كانت تمتص حرارة الشمس طوال النهار، وتنفثها عليه طوال الليل. الجزار في الدكان الذي يقع خلف غرفته تماماً لا يكل عن تقطيع اللحم أثناء النهار، كما أن مواسير الماء الممتدة تحت أرض غرفته كانت تقرقر دائماً لسبب لا يعرفه، علاوة على الإنارة الفوسفورية الدائمة في سقف غرفته التي بحث عن قاطع الكهرباء للتخلص منها لكنه لم يجده وهكذا، أصبح مورتنسون عاجزاً عن النوم حتى لمعت في رأسه فكرة، فوقف في وسط سريره الهزاز وهو يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال وذات اليسار، حتى تمكن من الوصول إلى لوحة الكهرباء وفصل شريط الإنارة، وارتمى على السرير وغطّ في نوم عميق حتى جاءت طرقة عبد الشاه على بابه.

عند شروق الشمس، كان سوق راجا يشكل مشهداً من الفوضى المنظمة التي راقت لمورتنسون.وبعينه اليسرى السليمة أخذه عبد الشاه من يده وقاده بخفة عبر متاهة الحمالين الدّوامة برؤوسهم المثقلة بلفائف من الأسلاك والعربات التي تجرها الحمير وهي تسارع إلى تسليم ألواح الثلج المغلّفة بأكياس الخيش قبل أن يقلص الحر الشديد من قيمتها.

وفي وسط دائرة واسعة من الدكاكين، شاهد كل أداة لازمة لتشييد بناء أو حتى هدمه. كان هناك صف كامل من الدكاكين يعرض كل أنواع المعاول، وصف آخر يعرض كلّ أنواع المسامير، من أكبرها حتى أصغرها. يا له من مشهد بديع، فبعد كل ما كابده من جهدٍ ووقتٍ في سبيل الحصول على المال والعون، ها هو الآن يقف أمام الادوات اللازمة كي تقف مدرسته على قدميها، أما ذلك المسمار الضخم هناك فقد يكون آخر واحد يدق في جدران مدرسة كورف. إلا أنه صحا من أحلام اليقظة وهو يذكر نفسه بضرورة أن يساوم بضراوة

على الأسعار، فهو يحمل تحت إبطه صحيفة ورقية تضم حزمة الروبيات التي أنفق ألف دولار من نقود المدرسة للحصول عليها.

بدأا جولتهما في فناء لبيع الأخشاب لا يوحي بأي شكل بأنه متميز عن باقي المحلات المجاورة، لكن عبد الشاه أصرّ على اختياره "هذا الرجل مسلم صالح". قادهما الرجل حتى نهاية دهليز طويل ضيق بين أدغال من دعامات الأسقف المستندة على الجدران كيفما اتفق. أقعدوا مورتنسون على كومة سميكة من السجاد العتيق إلى جوار علي، مالك المكان، الذي كان يرتدي قميصاً أرجواني اللون نظافته تناقض طبيعة عمله وما يترتب عليه من قذارة وأتربة. وشعر مورتنسون بالحرج من قميصه الممزق الذي تغطيه البقع، مع أن عبد الشاه كان قد خاطه إلى بعضه البعض ريثما تجهز ملابسه الجديدة. أرسل علي صبياً على عجل لإحضار ثلاث زجاجات ساخنة من عصير البرتقال، وهو يعتذر بأن الشاي لم يختمر بعد.

في مكتبه الذي لا يعدو سوى حجيرة زجاجية صغيرة تقع في بهو فندق خابيان، تقاضى مهندس معماري يدعى عبد الرؤوف ورقتين نقديتين قيمة كل منهما مئة دولار، ليقوم برسم مخططات المدرسة التي سيكون لها حرف L وفيها خمسة صفوف، وفقاً لرؤيا مورتنسون. ووضع على الهوامش التفاصيل المتعلقة بالمواد اللازمة لمبنى مدرسة مساحتها ألفا قدم مربع وأكدّ على أن أعلى تكلفة ستكون على الأخشاب. فتح مورتنسون الخرائط وقرأ هوامش المهندس عن القياسات ونوعيات الأخشاب المطلوبة التي خصص المهندس لها ألفين وخمسمئة دولاراً، ثم ناولها إلى عبد الشاه وجلس يحتسي العصير الفاتر عبر مصاصة مثقوبة، ويراقب عبد الشاه وهو يقرأ المعلومات بصوتٍ عالٍ ويجفل كلما نقرت أصابع علي أزرار الآلة الحاسبة التي كان يوازنها على ركبتيه.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأخيراً، مسّد علي طاقية الصلاة المتجعدة التي على رأسه ومسح ذقنه الطويلة، ثم نطق بمبلغ جعل عبد الشاه يقفز من جلسته المتربعة على الأرض ويصفق جبهته وكأن رصاصة قد أصابته وبدأ ينوح ويزعق بوابل من الشتائم.

كان مورتنسون قد تمكن من لغة الأوردو إلى درجة متقدمة ويستطيع أن يفهم معظم ما يقال بلغة الحياة اليومية، لكن السباب والنواح الصادرين عن عبد الشاه تضمنا إهانات جلية لم يسبق لمورتنسون أن سمعها. وعندما فرغت جعبة عبد الشاه، انحنى فوق علي وأصابع يديه منتصبة كأنها خناجر وسأله بصوت مسموع إن كان مسلماً أم كافراً. لأن هذا الرجل الشهم الذي يشرّف علي بشرائه لأخشابه ليس سوى ولي جاءه ليقوم بعمل يماثل أداء الزكاة، وبأن أي مسلم حقيقي سيسارع أمام فرصة كهذه إلى مساعدة الأطفال الفقراء وليس إلى سرقة أموالهم.

أما علي، فقد كان وجهه خالياً من أي تعبير طوال فترة أداء عبد الشاه، وجلس مسترخياً يرتشف زجاجة العصير على مهل ينتظر ختام خطبة عبد الشاه اللاذعة. وقبل أن يكلف نفسه عناء الرد على اتهامات عبد الشاه، وصل الشاي الذي وضع فيه ثلاثتهم السكر وبدؤوا بتحريك السائل الأخضر العطر الذي قدّم على غير عادة، في أكواب من الخزف الصيني الفاخر ولبعض من الوقت لم يسمع أي صوت سوى حركة الملاعق داخل الأكواب. هزّ علي رأسه راضياً بعد أن أخذ رشفة طويلة من الشاي، ثم بدأت الغرفة ترتج بصدى أوامره، وعلى إثرها دخل ابن علي الذي بدأ شارباه يخطان بحمل لوحين من الخشب مقصوصين على شكل مستطيل ووضعهما فوق السجادة على جانبي كوب مورتنسون، بينما ظلّ عبد الشاه مكفهر الوجه وممتنعاً عن تناول الشاي من الكوب الذي وضعه جانباً.

أدار علي رشفة الشاي في فمه للحظات وكأنه نبيذ معتق، ثم ازدرده وباشر في إلقاء محاضرة حرفية، فأشار إلى لوح الخشب الذي كان على يمين مورتنسون بسطحه الطافح بالعقد القاتمة وخطوط الشحم اللولبية وجوانبه التي نتأت عنها ما خلفته قضمات القوارض، ثم رفعه بشكل طولاني ونظر إلى مورتنسون من الثقوب التي أحدثتها الديدان قائلاً باللغة الإنكليزية: "تصنيع محلي" ثم أشار إلى اللوح الآخر وقال: "تصنيع إنكليزي" وكان اللوح خالياً من العقد وأملس ومقصوصاً من على جانبيه بدقة وبراعة. وضع علي اللوح تحت أنف مورتنسون بيد واحدة، بينما راحت يده الأخرى تتأرجح من تحته وكأنه يستحضر وادي كاغان، غابة أشجار الصنوبر العتيقة التي غادرها هذا اللوح منذ فترة وجيزة. وعاد ابن علي مجدداً يحمل لوحين من الخشب المعاكس ووضعهما فوق حزمة من القضبان المعدنية، ثم خلع نعليه ووقف فوق اللوحين. لم يكن وزنه يزيد عن الخمسين كيلوغراماً، لكن اللوح الأول سرعان ما انثنى تحته محدثاً صوتاً عالياً، أما اللوح الثاني فقد التوى قليلاً. وبناءً على طلب أبيه بدأ الصبي يقفز فوق اللوح الثاني الذي ظلّ صامداً تحته. ووصلت الرسالة إلى المتفرجين. أشاح علي بوجهه عن اللوح الأول وقال وهو يقلب شفتيه بازدراء "ثلاث طبقات"، ثم نظر بافتخار إلى اللوح الآخر الذي ما زال ابنه يقفز فوقه: "أربع طبقات". وعاد علي إلى التحدث باللغة الأوردية، ولم يجد مورتنسون صعوبة في فهم ما يريد أن يصل إليه، فهو يستطيع بالطبع أن يحصل على الأخشاب بأثمان بخسة، ولكن ما هو مدى جودتها؟ فهناك تلك الأنواع التافهة التي يبيعها التجار عديمو الضمير. ويمكن لمورتنسون أن يبني بها مدرسة. وتلك المدرسة قد تصمد لمدة عام واحد. وذات يوم، في اللحظة التي يقف فيها صبي غضّ في السابعة من عمره يتلو القرآن أمام رفاق صفه، يسمع صوت


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الدوي عندما تنهار الأرضية من تحته ويسقط في الفجوة وقد تمزقت شرايينه. فما الذي تملك أن تقوله عندئذ لصبي بريء تنزف دماؤه ببطء حتى الموت، والذنب الذي لم يقترفه هو أنك أنت من أراد أن يقتصد في تكلفة مواد البناء في مدرسته؟

وازدرد مورتنسون كوباً آخر من الشاي وهو يتململ في جلسته فوق كومة السجاد المغبر فيما المشاهد التمثيلية تتابع أمام ناظريه. تظاهر عبد الشاه ثلاث مرات بأنه يهم بالمغادرة، وفي كل مرة كان علي يخفض السعر قليلاً. وبعد انقضاء ساعة على ذلك المنوال، نفذ صبر مورتنسون، فابتلع ما تبقى من كوب الشاي ونهض من مجلسه وأشار إلى عبد الشاه كي يغادرا. مازال أمامه العشرات من المفاوضات المماثلة التي عليه أن يخوض غمارها إذا كان يأمل أن يملأ شاحنة بالمواد ويتجه بها إلى بالتستان بعد غد. فهو لا يستطيع أن يهدر لحظة واحدة. لكن علياً أمسك بذراعه وألح عليه: "اجلس، اجلس!، لقد فزت! هذا الرجل نجح في تحطيم أسعاري" نظر مورتنسون إلى عبد الشاه الذي أكدّ له: "ما يقوله صحيح يا سيد جريغ. لن تدفع له سوى سبعة وثمانين ألف روبية".

وعندما أجرى مورتنسون عملية حسابية سريعة في ذهنه وجد أن المبلغ يعادل ألفين وثلاثمئة دولار. وأضاف عبد الشاه قائلاً: "ألم أقل لك أنه مسلم صالح. أما الآن، فسوف نضع العقد" فيما كان مورتنسون يحاول كبح جماح نفسه لأن علياً طلب إبريقاً آخر من الشاي.

كان اليوم التالي نهاراً آخر من المساومات من بدايته حتى نهايته، حين استقل مورتنسون، المتخم بالشاي، يرافقه عبد الشاه ظهر عربة مكشوفة يجرها حصان هزيل يبدو مرهقاً أكثر منهما معاً، وخاض بهما في الوحول باتجاه فندق خايابان. كان جيب مورتنسون يفيض بالإيصالات التي استلمها مقابل المعاول، والمطارق والمسامير وألواح السقوف المعدنية والأخشاب القادرة على حمل أوزان طلاب

المدرسة التي سوف يتم تسليمها اعتباراً من فجر الغد إلى الشاحنة التي استأجرها من أجل رحلة الأيام الثلاثة على طريق كاراكورام. اقترح عبد الشاه أن يأخذا سيارة أجرة توصلهما إلى الفندق، لكن مورتنسون الملتاع من نضوب رزم الروبيات في دفع العرابين، أصرّ على ضرورة التقشف وهكذا استغرقت رحلة العودة إلى الفندق أكثر من ساعة وهم يعبرون شوارع تكاد تختنق من دخان عوادم السيارات.

وعندما وصلا سارع مورتنسون إلى غسل نفسه من أتربة اليوم الحافل، وراح يصب على رأسه دلواً تلو الآخر من الماء الفاتر دون أن يكلف نفسه عناء خلع قميصه ثم هرع إلى محل الخياط على أمل استلام ملابسه الجديدة قبل أن يقفل أبوابه من أجل صلاة العشاء، وجد منصور خان يكوي ملابسه بمكواة من الفحم، وهو يدندن مع مغنية يجأر صوتها بأغنية شعبية أوردية تصل إلى أسماعه من دكان الإسكافي في آخر الممر، مترافقة مع الاصوات الرتيبة لمصاريع أبواب المحلات وهي تعلن نهاية يوم من العمل.

انزلق مورتنسون داخل القميص الجديد النظيف الذي ما يزال دافئاً واعتمد على طوله الذي يصل إلى ركبتيه، فخلع سرواله القديم وارتدى بدلاً عنه السروال الجديد الفضفاض وربط خيط الوسط فوق القميص على شكل عقدة واستدار نحو منصور ليعرف رأيه. لكن رأي منصور كان: "ياللمصيبة!" وقفز نحو مورتنسون. حلّ خيط الوسط الظاهر للعيان ووضعه داخل بنطال ذلك الفاسق وهو يردد: "من المحرم أن ترتدي ملابسك على تلك الشاكلة!". أحسّ مورتنسون بمخاطر الأفخاخ التي تنصبها لها العقلية الباكستانية والقواعد الصارمة التي سوف يتعثر بها، وحسم أمره بأنه سيتجنب أي موقف يعتبر إساءة أو تجريحاً.

مسح منظور نظارته بقميصه، وتفحص لباس مورتنسون بعنايةٍ قائلاً: "أنت الآن نصف باكستاني. هلا جربت الصلاة من جديد؟"


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ورافق مورتنسون إلى خارج الدكان وقفل مصاريعه. كان الغسق الآسيوي قد بدأ يتغلب على ضوء النهار وقيظه. وسارا متأبطي ذراعي بعضهما البعض، باتجاه مئذنة المسجد، يمر بهما على جانبي طريق كشمير رجال يسيرون في مجموعات قرب المحلات التي كانت تغلق أبوابها. وبما أن الحضور بالسيارات إلى صلاة العشاء ليس محبذاً فقد كانت حركة المرور خفيفة على غير المعتاد. كان يفصلهما مجمعان من الأبنية عن المئذنة التي ظنّ مورتنسون أنهما يتجهان إليها، عندما انعطف به منصور نحو باحة محطة للوقود، حيث احتشد أكثر من مئة رجل يستعدون للوضوء، أي الاغتسال الذي لا بد منه قبل أداء الصلاة. ملأ منصور إبريق ماء من الصنبور ولقن مورتنسون التسلسل الدقيق لعملية التطهّر تلك. حذا مورتنسون حذوه، فجلس القرفصاء وشمّر عن ساقيه وساعديه وبدأ بغسل أكثر أطرافه قذارة بسكب الماء على قدمه اليسرى أولاً ثم اليمنى، وانتقل إلى غسل يده اليسرى ومن بعدها اليمنى، وعندما انحنى منصور ليملأ إبريق الماء مجدداً، صدرت عنه صوت ريح مسموعة. تأوه الخياط بعمق وبدأ يعيد عملية الوضوء من أولها، وعندما حاول مورتنسون أن يفعل مثله، قال له: "كلا، أنا الذي لم يعد طاهراً" وبعدها، ضغط الخياط بإصبعه على فتحة أنفه اليسرى، ثم اليمنى ونفخ حتى أصبحتا خاليتين تماماً مما فيهما، وحاكاه مورتنسون في كلّ ما يفعله خطوة بخطوة. كان المحيط من حولهما يعجّ بالمتوضئين والنغمات المتنافرة من النحنحة وبصق الماء والحث على الصلاة القادم من شتى المآذن، وعلى غرار منصور، غسل مورتنسون أذنيه، ومضمض فمه بالماء جيداً، لأن المسلمين يعتبرون الفم أكثر أعضاء الجسم قداسة، فهو الذي ينطق بالدعاء الذي يصل مباشرة إلى أسماع الله.

منذ سنوات ومورتنسون يعرف أن كلمة "مسلم" تعني حرفياً "أن يخضع المرء" وكان، شأنه شأن كل الأميركيين الذين يتعبدون في محراب الفردية المطلقة، يرى في ذلك المفهوم تجريداً من الإنسانية. أما الآن، فها هو متواجد بنفسه بين مئات من الغرباء الراكعين يغسلون عنهم ليس النجاسة وحسب بل أيضاً هموم وقلق حياتهم اليومية ويحس بالبهجة التي يجدونها في الانسياق مع طقس صلاة الجماعة.

قام أحدهم بإطفاء المولد الكهربائي، وآخرون بحجب مضخات الوقود المبهرجة بأقمشة خالية من الزخارف بينما أخرج منصور من جيبه طاقية صلاة ومسّدها جيداً كي تتسع لرأس مورتنسون الكبير، ثم انضما إلى صفٍ من الرجال وركعا على الحصيرتين اللتين أحضرهما الخياط. كان مورتنسون يدرك أن مكة تقع في مكان ما وراء الجدار الذي يقفون قبالته وعليه شارة تومض باسم محطة الوقود بأنوار فاقعة الألوان. ولم يستطع أن يكبح الفكرة بأنه مطالب بالانحناء أمام فنون البيع ومهارات تكرير الوقود لرجالات النفط في تكساس والسعودية، لكنه سارع إلى محو تلك السخرية اللاذعة من رأسه.

سجد مع منصور وعقد كفيه كي يتوجه إلى الله بخشوع. الرجال من حوله لا ينظرون إلى شارة الدعاية التي على الحائط ولا إليه بل ينظرون إلى داخل نفوسهم، وعندما ضغط بجبهته على الأرض الدافئة، شعر ولأول مرة منذ جاء إلى الباكستان بأنهم لا يعتبرونه غريباً والحقيقة أنهم لم يكونوا ينظرون إليه. ومع جموع المصلين في تلك الساحة المعتمة ردد بدوره: "الله أكبر". الإيمان الذي يموج حوله كان زخماً إلى درجة أنه أحال محطة وقود إلى مكان مقدس. يا ترى، ما هي عجائب التحول الأخرى التي مازالت بانتظاره؟



https://telegram.me/maktabatbaghdad

# الفصل السابع

## رحلة العودة الشاقة

"هذه الأرض القاسية الفاتنة، بجبالها الصخرية
المكللة بالثلوج وجداول مياهها المتجمدة
الشفافة، وغابتها العميقة بسروها وصفصافها
والدردار، هي هذا الجسد الواقف أمامك هنا.
لا أستطيع أن أغادر هذا ولا أن أغادركم،
فقلوبنا الكثيرة ليس لها سوى نبض واحد"

من ملحمة المحارب، الملك جيسار

جاءت طرقة عبد الشاه على الباب قبل الفجر بكثير، لكن مورتنسون كان صاحياً منذ ساعات ومستلقياً على أرجوحة نومه. النوم لم يعد مشكلة أمام تخوّفه من ألا يمر هذا اليوم كما يجب، ونهض من الفراش وفتح الباب وهو يحاول أن يجد تفسيراً لهذا الرجل ذي العين الواحدة الذي كان واقفاً هناك ويرفع أمام وجهه زوجاً من الأحذية المصقولة بعناية، لكي يتفحصه. وما لبث أن تبين له أنه حذاؤه القديم. كان من الواضح أن عبد الشاه قد أمضى الساعات التي نامها مورتنسون وهو يصلح، ويخيط، وينظف ويصقل هذا الحذاء البالي الباهت، باذلاً كل جهده كي يحوله إلى شيء لائق يستطيع رجل على وشك أن ينطلق في رحلة طويلة وشاقة أن يظهر به أمام الآخرين دون أن يشعر بالخزي. كما أضفى عبد الشاه على نفسه أيضاً بعض التعديلات بهذه المناسبة، فلجأ إلى صبغة الحناء وأحال لون لحيته الفضي إلى لون برتقالي داكن. تناول مورتنسون الشاي ثم اغتسل بدلو



https://telegram.me/maktabatbaghdad

من الماء البارد وبقايا قطعة الصابون التي اقتصد في استعمالها طوال الأسبوع، ووضع حوائجه القليلة في حقيبته وتركها لعبد الشاه كي يحملها على كتفه لأنه يعرف عاصفة اللوم التي ستهب في وجهه إن حاول حملها بنفسه. ثم ألقى نظرة وداع محببة على الزنزانة القابعة على سطح المبنى التي استضافته هذه المدة.

وحرصاً على مشاعر عبد الشاه الذي كان بدوره حريصاً على نظافة حذائه والمظهر اللائق به، فقد وافق مورتنسون على أن يستأجر سيارة توصلهما إلى سوق راجا، وسارت سيارة الموريس السوداء، التي كانت من مخلفات الإمبراطورية البريطانية أثناء انسحابها من راولبندي، لتقطع بهما على مهل الشوارع التي ما زالت نائمة. وبالرغم من الإنارة الضعيفة في ساحة السوق المغلق، فقد وجدا بسهولة شاحنة (البدفورد) التي، كمثيلاتها في المنطقة، لم تعد تشبه كثيراً شكلها الأصلي في الأربعينات حين استخدمت كحافلة عسكرية عندما كانت الباكستان جزءاً من الهند البريطانية، فقد تم استبدال معظم أجزائها عشرات المرات بقطع تبديل من تصنيع محلي. أما اللون الزيتوني الكالح الذي لم يكن لائقاً بملك طريق كاراكورام الدولي هذا، فقد تم حجبه تحت أكوام من المرايا التزينية والرقاقات المعدنية. وبالنسبة لما تبقى من سطح الشاحنة، فقد طليت كل أنملة منه بطبقة مبهرجة من الألوان الفاقعة عند واحدة من ورشات راولبندي المختصة، حيث تداخل بمهارة البرتقالي والذهبي والأحمر الناري على شكل خطوط دائرية وزخرفات عربية تماشياً مع تحريم الديانة الإسلامية للفن المجسّد.

ومع ذلك، فقد كان الباب الخلفي يعرض صورة بالحجم الطبيعي لبطل لعبة الكريكيت عمران خان وهو يرفع المضرب عالياً. لم يكن أي باكستاني مهما بلغت درجة تدينه يجد فيها أية مخالفة لتعاليم الدين الإسلامي.

دفع مورتنسون للسائق أجره، ثم دار حول الشاحنة الضخمة بحثاً عن طاقمها كي يبدأ يومه دون تلكؤ. صوت دمدمة جهوري جعله ينحني نحو قاع صندوق الشاحنة، فشاهد ثلاثة رجال مستغرقين في النوم في أراجيح من الشبك وقد تعالى صوت شخيرهم.

سبق مورتنسون إلى إيقاظهم صوت آذان الفجر الآتي من مئذنة مسجد يقع على أطراف الساحة بصوت جهوري لا يأخذ بعين الاعتبار أن الوقت مازال مبكراً جداً. قفز أفراد الطاقم من أرجوحاتهم وهم يزمجرون ونظفوا حلوقهم ويصقوا على الأرض ثم أشعلوا سجائرهم الأولى لذلك اليوم، بينما وقف مورتنسون إلى جانب عبد الشاه، الذي كان يحمل معه دائماً بوصلة تدلّ على مكان مكة، وباشروا في أداء الصلاة وأمامهم ساحة الأخشاب ببواباتها المغلقة التي لا توحي بالخشوع أبداً، لكن مورتنسون حاول أن ينظر إلى ما وراءها. ونظراً لعدم توفر الماء من أجل الوضوء، فقد رفع عبد الشاه أكمامه وبنطاله وأدى فريضة الوضوء بشكل رمزي وهو يمسح عنه النجاسة التي لا مجال لغسلها بالماء وفعل مورتنسون مثله ثم شبك يديه وانحنى لأداء صلاة الفجر. تفحصه عبد الشاه وأشار برأسه علامة الرضى، فسأله مورتنسون: "إذا، هل أبدو باكستانياً الآن؟" مسح عبد الشاه الغبار الذي التصق بجبهة مورتنسون عند السجود وأجابه: "لا، ولكن أعتقد أنك تبدو بوسنياً".

وصل علي وهو يرتدي لباساً أنيقاً آخر وفتح أبواب محله. ألقى مورتنسون عليه السلام ثم فتح دفتراً صغيراً كان قد اشتراه من السوق وبدأ يجري بعض الحسابات. عندما تمتلئ الشاحنة بمشترياته سيكون ثلثا الاثني عشر ألف دولار قد تبخر، ولن يتبقى معه سوى ثلاثة آلاف دولار عليها أن تكفيه لدفع أجور العمال، واستئجار سيارات الجيب التي ستحمل لوازم بناء المدرسة على الممرات الضيقة الصاعدة نحو كورف، وأيضاً لتغطية مصاريفه الشخصية حتى يكتمل بناء المدرسة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجاء أفراد أسرة علي الكثر وحمّلوا الشاحنة بالأخشاب أولاً تحت رقابة سائقها ومعاونيه بينما كان مورتنسون يقوم بعدّ الألواح وهي تسند إلى بعضها البعض وتأكد أيضاً من أنها الألواح المتينة نفسها التي كان قد اختارها. وأخذ يتأمل راضياً الشاحنة التي بدأت تعلو فيها الطبقة تلو الطبقة من لوازم مدرسته.

عندما أضاء نور الشمس السوق بدأ الحر يشتدّ وترددت في أنحائه صوت الصليل المعدني لأبواب المحال وهي تفتح، بينما ما زالت معدات المدرسة تشق طريقها إلى الشاحنة على رؤوس الحمالين والعربات التي يجرها الرجال أو الحمير أو الدراجات النارية ووصلت شاحنة بيدفورد أخرى لتسليم مئة كيس من الإسمنت.

كان داخل الشاحنة يطن كخلية نحل، ومع ذلك فقد انحنى عبد الشاه من فوق العمال وهو يعلن عن نوعية كل قطعة يتم تحميلها، ويقوم مورتنسون بشطبها من قائمته. وكان شعور مورتنسون بالرضى يتزايد وهو يراقب كل واحدة من الاثنتين والأربعين قطعة مشتريات جاهد برفقة عبد الشاه من أجل الحصول عليها تصطف بترتيب، الفؤوس إلى جانب أدوات البناء، تشدها إلى بعضها البعض صفوف من الرفوش.

وبحلول بعد الظهر، كان حشد كثيف قد اجتمع حول الشاحنة بعد أن ذاع الخبر بأن ملحداً ضخم الحجم يرتدي ملابس نوم بنية اللون يملأ شاحنة بما يلزم كي يبني مدرسة لأطفال مسلمين، وكان على الحمّالين أن يشقوا طريقهم بصعوبة بين حلقات الناس الكثيفة كي يوصلوا أحمالهم إلى الشاحنة. وأمام حجم مورتنسون الضخم، راح البعض منهم يرقص حاجبيه، استهزاء والبعض الآخر يلقي نكاتاً بذيئة، والكل يتساءل عن جنسية مورتنسون، وكأنه يجب أن يكون

بوسنياً أو تشيكياً، وإلا فمن أين له هذا الشكل الأجرب؟ لكن مورتنسون الذي أصبح طلقاً في اللغة الأوردية وضع حداً لتساؤلاتهم وأخبرهم بأنه أميركي.

حدّق حشد المتفرجين في قميصه القذر المبلل بالعرق ويديه الملطختين بالشحم، وصرح العديد منهم بأنهم لا يصدقون ذلك. لكن اثنتين من أهم المعدات كانتا مفقودتين: شاقول البنائين ومقياس الخط العمودي.كان مورتنسون متأكداً بأنه قد تمّ تسليمها، لكنه لم يشاهدهما بعد ذلك في غمار التحميل المتسارع للشاحنة، فراح عبد الشاه يقود حملة التفتيش عنهما بحماسة، فوضع أكياس الإسمنت جانباً حتى وجدهما في الأسفل حيث انزلقا. لف عبد الشاه المعدتين داخل قطعة قماش بعناية وسلمهما للسائق مع تعليمات صارمة بأن يظلّا داخل كبينة القيادة حتى الوصول إلى سكاردو.

وبحلول المساء، كان مورتنسون قد تأكد من تحميل جميع المواد داخل الشاحنة، حيث شكلت جبلاً يبلغ ارتفاعه عشرون قدماً قام طاقم الشاحنة بتغطيته بأكياس من الخيش، رُبطت بإحكام على جانبي الشاحنة بواسطة حبال متينة.

وعندما نزل مورتنسون من الشاحنة ليلقي تحية الوداع على عبد الشاه، تحلّق الحشد حوله يعرضون عليه السجائر وحفناً من الروبيات البالية من أجل مدرسته، لكن السائق الذي لم يعد يطيق الانتظار، أدار محرك الشاحنة ونفث الدخان الأسود من عوادمها. بالرغم من الضجيج والهيجان المحيط به، وقف عبد الشاه بوقار في وسط الحشد وهو يدعو الله كي يصل مورتنسون سالماً، ثم نفخ في يديه كي يصل الدعاء إلى الله، ومسح ذقنه المحنّاة وباشر بدعاء آخر كي ينعم الله على مورتنسون بحمايته الدائمة، لكنه تبخر في الهواء بسبب زعيق بوق الشاحنة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

فتح عبد الشاه عينيه واحتضن كفي مورتنسون الكبيرتين القذرتين في كفيه، ثم تفحصه ليجد أن الحذاء الذي كان قد نظفه وصقله الليلة الفائتة قد عاد معفراً بالتراب كما كان، تماماً مثل ملابسه الجديدة، فربت على ظهره وقال: "يا سيد جريغ، أنت لست بوسنياً. لقد أصبحت اليوم باكستانياً بكل معنى الكلمة".

صعد مورتسنون على ظهر الشاحنة وحيى بإيماءة من رأسه عبد الشاه الذي كان واقفاً وحده خارج الحشد متعباً ومتسخاً، وعندما تحركت الشاحنة هتف الحشد بصوت واحد "الله أكبر! الله أكبر!" فرفع مورتنسون ذراعيه بإشارة النصر وظلّ يلوح لهم حتى انكسف التوهج الخافت للحية صديقه المخضبة بالحناء في غمار الجمهور المائج.

شقّت الشاحنة طريقها خارج راولبندي نحو الغرب بينما جلس مورتنسون فوق لوازم مدرسته. وبالرغم من أن محمداً، السائق، حاول أن يقنعه بالجلوس داخل الكبينة المختنقة بدخان السجائر، إلا أن مورتنسون كان مصمماً على أن يتجرع نشوة هذه اللحظة من موقع غير سوقي.

كان الفنانون في الورشة التي تبرجت فيها الشاحنة قد أضافوا إلى سطحها قطعة بهيجة تشبه القبعة وعلى حواف تلك القبعة المتربعة على رأس الشاحنة المخلخلة وتشرف على حمولتها، وجد مورتنسون لنفسه عشاً مريحاً من أكياس الخيش، وكانت عيدان القش تتراقص على جانبي الطريق وتؤنسه، برفقتها صناديق بداخلها دجاجات ناصعة البياض ابتاعها محمد لكي يبيعها في الجبال وموسيقى بنجابية مبتذلة تهدر بصخب من نوافذ الشاحنة المفتوحة.

بعد الهرج والمرج الذي استنفذه في أسواق راولبندي، فقد استكان أمام مشهد أراضي الريف المنبسطة الجرداء ذات اللون البني وقد اكتست بشيء من الخضرة وسفوح جبال الهيملايا الجاثمة وراءها وكأنها تومئ

إليه بالتحية رغم قيظ الهزيع الأخير من النهار. وعلى الطريق كانت الشاحنات الصغيرة تسارع إلى الجانب أمام زعيق تلك الشاحنة الضخمة، وما يلبث سائقوها أن يهتفوا عند مشاهدة صورة عمران خان ومضرب الكريكت بعد أن تتجاوزهم الشاحنة بجسارة وقحة.

أما مزاج مورتنسون فقد كان رائعاً مثل حقول التبغ الساكنة التي كانوا يمرون بها وهي تتوهج بخضرتها كمحيط استوائي تداعبه الرياح. فبعد أسبوع ساخن حفِل بصفقات الشراء والقلق على كل روبية ينفقها، شعر أخيراً بالراحة. ويتذكر ذلك قائلاً: "كان الهواء بارداً ومنعشاً هناك في الأعلى. وبما أنني لم أشعر بذلك منذ وطئت قدماي راولبندي، فقد كان لدي إحساس ملك على عرشه، لقد كنت ملكاً أتربع على عرش مدرستي، لقد انتصرت....

لقد حصلت على كل ما يحتاجه بناء المدرسة دون أن أتجاوز ميزانيتي، ولا أحد يستطيع أن يجد ثغرة فيما أنجزه، ولا حتى جان هويرني نفسه. المدرسة ستصبح جاهزة في غضون أسابيع قليلة وسأتمكن عندها من العودة إلى وطني لأقرر ما سأفعله ببقية حياتي، ولا أعتقد أنني شعرت بمثل هذا الرضى عن نفسي من قبل".

عندما داس محمد علي فرامل الشاحنة بقوة كي يوقفها إلى جانب الطريق، سارع مورتنسون إلى التمسك بأقفاص الدجاج ليتجنب السقوط من الأعلى. ثم انحنى نحو الأسفل وسأله باللغة الأوردية عن سبب توقفهم. أشار محمد إلى مئذنة بيضاء بسيطة تقع على حافة حقل من حقول التبغ والرجال الذين كانوا يسارعون نحوه. وبما أن محمداً كان قد كتم صوت الموسيقى فقد تمكن مورتنسون من سماع صوت الأذان. لم يكن يتصور أن يكون لذلك السائق المتلهف على الوصول بسرعة ما يكفي من الإيمان كي يتوقف من أجل أداء صلاة العشاء.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكن، في الحقيقة، ذلك كان من ضمن معظم الأمور التي لا يستطيع أن يستوعبها في هذا الجزء من العالم. ولم لا؟ ويبدأ يبحث عن موطئ لقدمه كي ينزل إلى الأسفل، فهذا سوف يتيح له أيضاً فرصة لأداء صلاته.

وعند حلول الظلام، كان مورتنسون قد شبع وارتوى بعد أن تناول ثلاثة صحون من حساء العدس بالكاري وشاياً أخضر مركزاً عند كشك يقع إلى جانب الطريق، فصعد إلى عشه واستلقى يتأمل نجوماً متفرقة بدأت تخترق نسيج الغسق.

وبعد أن اجتازوا ثلاثين كيلومتراً غرب راولبندي وصولاً إلى تاكسيلا، انعطفوا عن الطريق العام للباكستان نحو الشمال باتجاه الجبال. من المحتمل أن تاكسيلا كانت مركزاً للصراع بين البوذية والإسلام منذ مئات السنين قبل أن تصبح ساحة للصدامات على السيادة بين هاتين الديانتين، لكن مدرسة مورتنسون التي تتأرجح فوق عجلات الشاحنة، كانت معنية الآن بانزياحات القشرة الأرضية التي حدثت في هذه المنطقة منذ ملايين السنين.

ففي هذه النقطة تلتحم السهول مع الجبال، وهذا الشريط الذي كان يوماً جزءاً من طريق الحرير القديم شديد الانحدار وسلوكه محفوف بالمخاطر. وكانت إيزابيلا بيرد، تلك الأنموذج المعقد من المستكشفين التي لا يمكن أن تنجب مثيلاتها سوى انكلترا العصر الفكتوري، قد دونت وثائق عن مدى صعوبة الترحال من سهول شبه القارة الهندية إلى داخل بالتستان أو "التيبت الصغرى" كما أسمتها، وذلك خلال رحلتها عام 1876. وقد كتبت تقول: "الرحّالة الذي يطمح في الوصول إلى الأراضي العالية لا يمكن حمله إليها بمركبة أو عربة جبلية ولا يملك سوى السير على الأقدام. وإن كان لديه أدنى اعتبار لحصانه، فعليه أن يهبط العديد من تلك المنحدرات الوعرة الشرسة راجلاً". ثم أضافت

بأسلوب متهكم: "فتلك التي تسمى بالطرقات...! تطلب شقّها الكثير من الجهد والنفقات، لأن ذلك تم وفقاً للتصميمات التي وضعتها الطبيعة. وهكذا، كان على منفذي الطرق أن يتصرفوا بحسب إمرتها، بمحاذاة الوديان والوهاد والمعابر والشقوق الجبلية. وعلى مسافة أميال عديدة، فإن ما يسمى بالطريق عبارة عن حيد جبلي معلّق فوق تيار نهري جارف. وعندما تتواجه قافلتان، فعلى واحدة منهما لكي تفسح الطريق أمام الأخرى أن تلتصق بجانب الجبل حيث إيجاد موقع للقدم بالغ الخطورة. وفي إحدى المرات التي كنا نتجاوز فيها قافلة، قام بغل مثقل بالأحمال بدفع حصان خادمي من فوق الحيد فسقط وجرفه التيار".

كانت شاحنتهم تشق طريقها صعوداً على الطريق كاراكورام الدولي وعادماها يهدران عالياً كأنه خوار ثور. تلك الطريق كانت من أجل تحسين باهظ التكاليف للممرات الشاهقة الخطرة التي سلكتها بيرد وجماعتها، وقد بدأ شقها عام 1958 من قبل الباكستان حديثة الاستقلال والساعية لإيجاد نقطة اتصال مع الصين، حليفتها ضد الهند، ومازال العمل في المشروع مستمراً منذ ذلك الحين لأن طريق كاراكورام الدولي كان أردأ مشروع هندسي وضعه البشر. فشقّ الطريق بدأ باتجاه وادي نهر الإندوس الوعر، مما أودى بحياة عامل مقابل كل كيلومتر واحد من بين الأربعمئة التي تم شقها. وما بني منها على اعتبار أنها طريق دولية كانت غير صالحة لحركة المرور. فقام المهندسون بتفكيك الجرافات، وحمّلوا الأجزاء على ظهور البغال، ثم أعادوا تركيبها قبل أن يباشروا العمل الحقيقي. حاول الجيش الباكستاني أن ينقل الجرافات إلى مواقع العمل بواسطة حوّامة إم-16 الروسية الثقيلة، لكن الحوّامة التي حاولت أن تناور عبر الرياح العاتية والصدوع الضيقة، ارتطمت بجرف صخري وهوت إلى قاع نهر الإندوس لتغرق مع طاقمها المؤلف من تسعة أشخاص.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وفي عام 1968 كان الصينيون يتوقون إلى إيجاد سوق مفتوحة أمام بضائعهم ووضع حدٍ للتحكم السوفيتي في آسيا الوسطى وتوطيد حلف راسخ ضد الهند، فعرضوا على الباكستان الإشراف والتمويل الكامل لإنجاز الطريق الدولية التي يبلغ طولها ألفاً وثلاثمئة كيلومتر وستربط مدينة كاشجار، الواقعة في جنوب غرب الصين، بمدينة إسلام آباد في الباكستان.

وقام جيش العمال الذي حشد من أجل ذلك المشروع، بإنهائه بعد عقد من الزمن وفي عام 1978 أعلن بشكل رسمي افتتاح الطريق التي تم تعميدها باسم "طريق الصداقة الدولية" وغرزوا بذلك مخرزاً في عين الهند.

بينما كانت الشاحنة تواصل صعودها، هبت نسائم باردة تعلن عن دنو فصل الشتاء القادم بصقيعه. لفّ مورتنسون ببطانية صوفية حول كتفيه ورأسه ولأول مرة راوده الشك حول إمكانية إكمال البناء المدرسي قبل أن يهجم الشتاء، لكنه أزاح الفكرة بعيداً وأسند رأسه على كومة من القش وغطّ في النوم، تهدهده الشاحنة التي كانت تسير الهوينى نحو الأعلى.

صياح الديك الجاثم داخل إحدى الصناديق القريبة من رأسه، انتزع مورتنسون من نومه عند انبلاج الفجر. واستيقظ متيبس الجسم ويرتعش من البرد ويشعر بحاجة ماسة إلى قضاء الحاجة. اتكأ على حافة الشاحنة كي يطلب التوقف، فرأى الكتلة الضخمة لرأس المعاون الحليقة تمتد خارج النافذة، ومن خلفها مباشرة، نهر بلون القهوة يزبد فوق جلاميد الصخر في أسفل ممر وعر يبلغ ارتفاعه ألفاً وخمسمئة قدم. ثم نظر نحو الأعلى ليرى أنهم كانوا مطوقين بإحكام بواسطة جدران من الصوان تتطاول بمقدار عشرة آلاف قدم على كلا جانبي النهر.

كانت الشاحنة تصعد طريقاً شديد الإنحدار، وعندما وصلت إلى الذروة، بدأت تنزلق نحو الأسفل، فيما كان محمد يحاول التحكم بناقل الحركة الذي ظلّ يناوره بشدة حتى استطاع أن ينقله إلى السرعة الأولى. أما مورتنسون الذي كان يرى ما يجري من فوق. فقد شاهد العجلتين الخلفيتين للشاحنة قد خرجتا عن الطريق بمقدار قدم وتدوران حول الحافة، وتتهاوى من تحتها الحجارة نحو النهر السحيق. وكلما كانت العجلتان تبتعدان عن الحافة أكثر، كان المعاون يصدر صفيراً حاداً فتستدير الشاحنة إلى جهة اليسار.

فعاد مورتنسون إلى الاستلقاء كي لا يتشتت محمد عن التركيز. عندما أتى ليتسلق جبل كيه2 كان منهكاً من تحقيق هدفه فلم يلق بالاً للطريق الذي سلكته الحافلة التي أوصلته إلى الإندوس. وفي رحلة العودة إلى الوطن، كان مستغرقاً في خططه الرامية إلى جمع التبرعات. أما الآن، فقد شاهد هذه البراري الشرسة، والشاحنة تكدّ لتشق طريقها فوق هذه المسماة "فريقاً دولية" بسرعة لا تتجاوز الخمسة عشر ميلاً في الساعة. وأصبح لديه إدراك جديد لقدرة هذه الجبال والدروب الطاغية في عزل بالتستان عن بقية العالم.

وفي بقعة انفتحت فيها الممرات على مساحة كافية. حيث نشأت قرية صغيرة متشبثة بالحواف، توقفوا لتناول طعام الإفطار المكون من (تشاباتيز ودودهو) الشاي الأسود المحلى بالحليب والسكر. وبعد أن فرغوا منه، لم يكتف محمد بالطلب من مورتنسون أن يجلس في كبينة السائق، بل أصرّ بنبرة أقرب إلى الأمر، جعلت مورتنسون يذعن. فاتخذ مكانه بين محمد والمعاونين. وبقدر ما كانت شاحنته ضخمة، كان محمد ضئيل الحجم ويجاهد كي تصل قدماه إلى الدواسات. أما أحد معاونيه فقد كان ضخم الجسم ويقوم بنفث دخان غليونه الذي لا ينطفئ في وجه المعاون الآخر، الصبي النحيل الذي مازال يحاول جاهداً أن يكون له شاربان.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يكن داخل الشاحنة مختلفاً عن خارجها، فقد ازدان بأنوار حمراء صارخة ومنحوتات خشبية من كشمير، وصور ثلاثية الأبعاد لنجوم مشهورين، وعشرات من الأجراس الفضية البراقة، وباقة من الزهور الصناعية كانت تنخز مورتنسون في وجهه كلما داس محمد فرامل السيارة. "شعرت بأنني داخل ماخور يتحرك على عجلات. لكن ذلك لا يعني بأننا كنا نتحرك بمعنى الكلمة. لقد كان الأمر أشبه بدودة تزحف إلى الأمام" وعند أشدّ أجزاء الطريق صعوداً كان المعاونان يقفزان من الشاحنة ليضعا صخوراً كبيرة وراء العجلتين الخلفيتين، فتترنح الشاحنة بضعة أقدام نحو الأمام، ثم يعاودان وضع الصخور مرة أخرى. وتستمر تلك العملية حتى ينبسط الطريق أمام الشاحنة مجدداً. ومن حين إلى آخر، كانت تمر بهم سيارة جيب خاصة أو حافلة تقل نساء التصقت وجوههن المتغضنة بزجاج النافذة التي علاها الغبار، ويسترق النظر إليهن الركاب الذكور. وفيما عدا ذلك، فقد كانت الطريق خالية.

غابت الشمس باكراً وراء حواف الوادي العميق وعند وصولهم إلى قعر الواهاد، كان الظلام الدامس قد أحاط بهم. انعطفت الشاحنة حول منحنى محتجب وضرب محمد الفرامل بقدمه ليتجنب بأعجوبة الاصطدام بمؤخرة حافلة ركاب كانت قد سبقتهم. وعندما تجاوزوها، كانت أمامهم أرتال من سيارات الجيب والحافلات والشاحنات تحتشد عند مدخل جسر اسمنتي، فنزل محمد يرافقه مورتنسون ليستطلعا الأمر. وعندما اقتربا من الجسر، وبدا أن سبب ذلك التأخر القسري لم تكن واحدة من تلك الإنهيارات الصخرية أو الجليدية المألوفة على تلك الطريق الدولية، بل كان هناك العشرات من الرجال الملتحين ذوي وجوه همجية يعتمرون عمامات سوداء اللون وقد وجهوا قاذفات الصواريخ والبنادق الرشاشة نحو مجموعة من الجنود

الباكستانيين كانوا واقفين أمامهم بلا حراك وأسلحتهم في جرابها. استجمع محمد كل المفردات التي يعرفها من اللغة الإنكليزية وقال بصوت خفيض: "ليس جيداً".

أنزل أحد الرجال المعممين سلاحه وأشار لمورتنسون كي يقترب. ونظراً لطبقات القذارة التي كسته خلال هذين اليومين والبطانية الصوفية التي عصب بها رأسه. لم يكن مورتنسون متأكداً بأنه مازال يبدو أجنبياً. سأله الرجل باللغة الإنكليزية: "من أين أنت؟ أميركي؟" ورفع مصباحاً غازياً نحو الأعلى وتفرّس في وجهه. وعلى ضوء المصباح استطاع مورتنسون أن يرى عيني الرجل الزرقاوين الضاريتين، يخطهما الكحل الأسود الذي يضعه المسلحون الملتزمون، ويدعوهم البعض بالمتعصبين، أولئك الذين تخرجوا من المدارس الأصولية، ويدؤوا بالتدفق إلى الباكستان من جهة الحدود الغربية.خلال هذا العام، أي سنة 1994، كجنود شاه تابعين للقوة العسكرية التي توشك أن تسيطر على أفغانستان. إنهم جماعة طالبان.

"نعم، أميركي" أجاب مورتنسون بحذر.

"أميركا ذات الصدارة" علّق الرجل الذي كان يستجوبه، ووضع سلاحه على الأرض وأشعل لفافة تبغ محلية الصنع. وعرض واحدة عليه. مورتنسون لم يكن مدخناً بالأصل إلا أنه قبل العرض بامتنان، فلاشيء أفضل من تدخين لفافة في ظرف كهذا. اقترب محمد وسحب مورتنسون من كوعه وهو يقدم شتى أنواع الأعذار الممكنة دون أن يرفع عينيه عن الأرض، وعاد به إلى الشاحنة.

بينما بدأ محمد بتخمير الشاي خلف الشاحنة تحت ناظري عمران شاه، وإعداد كل مايلزم لقضاء الليل، تمكن أيضاً من التسلل إلى طاحونة الشائعات الدائرة بين بقية المسافرين المعوقين. لقد قام هؤلاء


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرجال بإغلاق مدخل الجسر منذ الصباح، فتم إرسال فرقة من الجنود من قاعدة عسكرية تقع في باتان وتبعد خمسة وثلاثين كيلومتراً بهدف إعادة فتحه.

وبسبب معرفته الضحلة للغة الأوردية، وتضارب الروايات، لم يتمكن مورتنسون من معرفة ما حدث بالضبط لكنه استطاع أن يستشف بأنهم في قرية تدعى واسو، في إقليم كوشيستان وهي أكثر المناطق شراسة عند الحدود الباكستانية الشمالية الغربية.

وكوشيستان سيئة السمعة عبارة عن مرتع لقطاع الطرق ولم تكن يوماً تحت سيادة إسلام آباد إلا نظرياً.وفي السنوات التي تلت أحداث الحادي عشر من أيلول، ومنذ شنّت أميركا الحرب من أجل الإطاحة بحركة طالبان، بدأ زعماء تنظيم القاعدة وعصابات طالبان، الذين يعرفون مدى سهولة الاختفاء بين مرتفعاتها الوعرة بالتوافد إلى هذه الوديان النائية.

كان المسلمون الذين يعيشون في وادٍ قريب قد ادّعوا بأن الحكومة أرسلت إليهم متعهد بناء يحمل ملايين الروبيات لتحويل بقعهم الجرداء إلى غابات مشجرة يستطيعون أن يستفيدوا من بيع أخشابها فيما بعد. لكن المتعهد سرق النقود وفرّ هارباً دون أن ينفذ ذلك، وهم مستمرون في إغلاق الجسر حتى يتم تسليمهم ذلك السارق إليهم كي يقوموا بإعدامه شنقاً على هذا الجسر.

وبعد أن تناولوا الشاي وعلبة من البسكويت تقاسمها مورتنسون مع الآخرين، قرروا أن يذهبوا إلى النوم. وبالرغم من تحذيرات محمد بأن النوم داخل الشاحنة أكثر أماناً، فقد صعد مورتنسون إلى عشه في أعلى الشاحنة. ومن مكمنه قرب الدجاجات الغافية، استطاع أن يرى المسلحين الأفظاظ يرطنون باللغة الباشتية. أما الجنود الباكستانيون الذين جاؤوا للتفاوض معهم فكانوا يتحدثون باللغة الأودرية وأشكالهم توحي

بأنهم صنف مختلف من البشر، بهندامهم الحسن وقبعاتهم الزرقاء النظيفة وأحزمة الرصاص المربوطة بإحكام حول خصورهم النحيلة. ومرة أخرى تساءل مورتنسون إن لم تكن الباكستان سراباً أكثر منها بلداً.

ألقى مورتنسون رأسه على كومة من القش وهو على يقين بأنه لن يتمكن من النوم في تلك الليلة، واستيقظ في ضوء النهار الساطع على أصوات الرصاص. وكان أول ما شاهده عندما انتصب جالساً عيون الدجاجات الغائمة الوردية تحدّق فيه مشدوهة، ثم المسلحون يقفون على الجسر ويطلقون نيران رشاشاتهم في الهواء.

شعر مورتنسون بمحرك السيارة يعود إلى الحياة وشاهد الدخان الأسود يتصاعد من العوادم، فمدّ رأسه نحو نافذة السائق الذي ابتسم في وجهه قائلاً: "جيد!" ثم ضغط بقدمه على الدواسة ودفع ناقل الحركة "إنهم يطلقون النار ابتهاجاً، إنشاء الله!".

وتدفقت على الدروب والممرات الضيقة مجموعات من النساء المحجبات يحثثن الخطى نحو مركباتهن، من داخل المكامن التي اخترنها للتواري عن الأنظار خلال ليلة الانتظار الطويلة تلك.

وبدؤوا بعبور جسر داسو ضمن رتل طويل من المركبات المعفرة بالتراب يسير بتثاقل، ورأى مورتنسون ذلك المسلح الذي عرض عليه لفافة التبغ وصحبه يرفعون قبضاتهم في الهواء ويطلقون النار باهتياج من أسلحتهم الأتوماتيكية. لم يشاهد مورتنسون طيلة حياته، ولا حتى في مجالات الرمي العسكرية إطلاق نار بمثل هذه الكثافة. كما لم يشاهد جثة المتعهد تتدلى على عوارض الجسر، لا بد أن المسلحين قد نجحوا في انتزاع عهود بالتعويضات من الجنود فيما كانوا يشقون طريقهم صعوداً، كانت جدران الممر الجبلي ترتفع بدوزها حتى حجبت عنهم السماء باستثناء شقّ ضيق أبيض بفعل سديم القيظ.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

دارت الشاحنة حول خاصرة (ناني باربات) الذي يستند على الحافة الغربية لجبال الهيملايا ويعتبر تاسع أعلى قمة في العالم بارتفاعه البالغ 26658 قدماً، لكن ما أطلقت عليه تسمية "الجبل العاري" كان محجوباً عن ناظري مورتنسون في قلب الأعماق السحيقة لمجرى نهر الإندوس.

متسلق الجبال الوله الذي يكمن في داخله جعله يرى الجبل منحرفاً بشكل حاد نحو الشرق. وليتأكد من ذلك، أمعن النظر في سطح النهر حيث التيارات تحمل الثلوج الذائبة من الأنهار الجليدية التي تنحدر من (تانجا باربات) لتنصهر في الوهاد من فوق الكتل الصخرية التي تعلوها الطحالب ثم تصب في نهر الإندوس، وتزركش سطحه الطيمي ببرك من مياه زبرجدية اللون.

وعندما اقتربوا من جيليت أكثر مدينة مأهولة بالسكان في المنطقة الشمالية للباكستان، انعطفوا عن طريق كاراكورام الدولي الذي يباشر من هناك مساره المتعرج الطويل نحو الصين على أعلى طريق ممهدة في العالم، أي (معبر خونجيراب) الواقع على ارتفاع قدره 15520 قدماً، وسلكوا باتجاه شرق الإندوس نحو سكاردو. وبالرغم من الصقيع المتزايد من حوله، شعر مورتنسون بدفء حميم. طريقهم كانت عبارة عن دهليز نهري مشقوق بين ذرا يبلغ ارتفاعها عشرين ألف قدم، وعديدة إلى درجة أن الدهليز لم يحصل على تسمية. ذلك الدهليز كان المدخل إلى بالتيستان. وبالرغم من أن هذه البقعة الصخرية الممتدة على شكل هلال تبدو للعيان بغيضة ومنفّرة، إلا أن مورتنسون أحس بأنه قد عاد إلى وطنه. الضباب المغبّر على طول أخاديد الممر الجبلي والشمس التي ارتفعت في السماء لتلامس حواف البروج الصوّانية كانت موطنه الطبيعي أكثر من البيوت

المزخرفة بالجص في بيركلي. تلك الفترة الفاصلة التي أمضاها في أميركا والتوتر الذي راح يتفاقم في علاقته مع مارينا، ونضاله من أجل الحصول على المال اللازم لبناء المدرسة، ومناوباته المؤرقة في المستشفى، باتت كلها الآن بعيدة كحكم زائل، فهذه النتوءات والصدوع قد أخذته في أحضانها من جديد.

منذ عقدين من الزمن، كان انجذاب مماثل قد استحوذ على ممرضة إيرلندية تدعى (ديرفلا موروفي) التي كانت تتحلى روح (إيزابيلا بيرد) الجسورة نفسها. وبالرغم من النصائح الحكيمة التي أسداها المغامرون المخضرمون باستحالة عبور بالتستان أثناء موسم الثلوج، فقد جابت جبل (كاراكورام) في ذروة فصل الشتاء على ظهر حصان، ترافقها ابنتها ذات الأعوام الخمسة.

وفي مؤلفها عن تلك الرحلة الذي عنونته: "حيث يصبح الإندوس يافعاً" يغيب أسلوب مورفي الرزين البليغ، لتحل محله عبارات لاهثة تحاول أن تعبِّر عن تفاصيل رحلتها عبر الممرات الجبلية وتكّد كي تقدم الوصف الذي يعطي المكان حقّه.

"الصفات التي تطلق عادة على المناظر الجبلية لا يمكن أن تفي بالغرض هنا، حتى أن كلمة "مناظر" بحد ذاتها تبدو تافهة. أما "أبهة" و"جلال" فهي أيضاً قاصرة في أن تعبر عن هذا الوهد الهائل الذي يتلوى نحو الأمام ضيقاً ومظلماً وأمرد وسحيق العمق الميل تلو الآخر وأجرد من أي حشائش أو أعشاب أو غصن أخضر يمكن أن يوحي بأن مملكة النبات موجودة.

لا شيء سوى نهر الإندوس الأخضر المزرق، الذي يتدفق في بعض الأماكن ليشكل ألقاً من الزبد الناصع يضفي الحيوية على اللون البني المتجهم للجروف العمودية والمنحدرات الحادة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعندما كانت مورفي تخب على ظهر حصانها بمحاذاة الضفة الجنوبية للنهر، استطاعت أن تفكر ملياً بالرعب الذي يكتنف اجتياز دروب الماعز المهيب هذا بواسطة وسيلة نقل. فعلى السائق الذي سيقود سيارة جيب مهلهلة، غير متوازنة، تنوء بحملها الثقيل، أن يكون مؤمناً بالقضاء والقدر وإلا فلن يقدر على أن يستجمع ما يكفي من الشجاعة لكي يسير دون توقف حيث أدنى هفوة يمكن أن تودي بالسيارة من على ارتفاع آلاف الأقدام وصولاً إلى لجة الإندوس، وبما أن النهر لم يجد لنفسه مجرى سوى العقدة الجبلية المهولة، فليس من سبيل سوى اتباعه. وإن لم تسلك ذلك السبيل، فلن تستوعب قط مدى جبروت ممر نهر الإندوس. وفي الحقيقة فإن الوسيلة العقلانية الوحيدة لعبور بقعة كتلك هي السير على الأقدام".

كان مورتسون جالساً في أعلى الشاحنة المترنحة تحت أحمالها الثقيلة وهو يتأرجح مع التلة العالية للوازم المدرسة التي كانت تضطر إلى فغر فاها نحو حافة الوهد في كل مرة تميل فيها الشاحنة أثناء مرورها فوق ركام الصخور المتناثرة على الطريق. وهناك في الأسفل من على ارتفاع يبلغ مئات الأميال رأى الهيكل المسجّى لحافلة محطمة وقد علاه الصدأ. أما فوق الطريق، فكانت تبرز على التوالي نصب بيضاء تخلّد ذكرى الشهداء من عمال الطرق الذين لقوا حتفهم وهم يتعاركون مع هذه الصخور العنيدة. فبفضل سواعد الآلاف من الجنود الباكستانين، فإن الطريق المؤدية إلى سكاردو قد تم تحسينها بعد الرحلة التي قامت بها مورفي بحيث تتمكن الشاحنات التي تحمل المؤن إلى القوات المرابطة لمواجهة الهند من مواصلة طريقها. لكن الانهيارات الصخرية والثلجية

وعوامل الحت والتعرية التي جعلت الإسفلت يتآكل، وعرض الطريق المحدود الذي لا يسمح بحركة مرور كثيفة، كانت تؤدي إلى سقوط عشرات المركبات نحو الهوّة في كل عام. وبعد عقد من الزمن وقبل بداية حقبة الحادي عشر من أيلول، كان الأميركيون يستفسرون من مورتنسون عن الأخطار التي واجهته في مناطق الإرهاب تلك، وكان دائماً يجيب:

"إن وافتني المنية في الباكستان فذلك سيكون نتيجة حادث سير وليس بسبب قنبلة أو رصاصة. الخطر الحقيقي هناك يتربص على الطرقات".

شعر باشتداد الضوء قبل ينتبه إلى المنطقة التي وصلوا إليها. فبينما كانت الشاحنة تشق طريقها بصعوبة نحو الأسفل بعد ظهيرة ذلك اليوم، بدأت الجدران الخانقة للوهد بالاتساع حتى لاح المدى وقد اصطفت حوله حلقة من العمالقة المكللين بالثلوج الذين يحيطون بوادي سكاردو. وحين وصلوا إلى الأرض المنبسطة وزاد محمد من سرعة الشاحنة، أرخى نهر الإندوس قبضته وتحوّل إلى توسع ملتوٍ من الطمي أشبه بالبحيرة. وبمحاذاة قعر الوادي، شاهد مورتنسون الكثبان الرملية السمراء تلظى تحت الشمس وقال لنفسه: "لولا هذه الذرى ناصعة البياض، لظننت أنني في الخليج العربي".

ضواحي سكاردو الراقدة في أحضان بساتين (قارينج وستارجا) الجوز والمشمش دلّت على أن رحلة العناء على ضفاف نهر الإندوس قد شارفت على النهاية. كان مورتنسون يأخذ بيد مدرسته إلى قلب سكاردو، ويلوح بالتحية للرجال المعممين بالقلنسوات البيضاء


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأليفة، المنهمكين في حصاد الفاكهة، ويردون التحية بدورهم وهم يبتسمون ببهجة. وتراكض الأولاد حول الشاحنة، يهتفون لصورة عمران خان وللرجل الأجنبي الذي يتربع فوقها. هذه هي العودة المظفرة التي كان يحلم بها منذ جلس ليكتب أول رسالة من أصل الخمسمئة والثمانين. وحالما يلتف حول أول منعطف، ستبدأ بالتأكيد النهاية السعيدة التي كدّ من أجلها.

# الفصل الثامن

# "لكمة (برالدو) الصاعقة"

"اعقل ناقتك ثم توكل على الله"
لافتة كتبت بخط اليد وعُلّقت على
مدخل قاعدة السرب الخامس في (سكاردو)

تلقى مورتنسون صفعة أغصان شجرة الحور الأولى في وجهه قبل أن تسنح له الفرصة للانحناء، أما الثانية فقد مزّقت البطانية عن رأسه وأطاحت بها نحو عجلات الشاحنة. فتمدد على السطح وأخذ يراقب سكاردو وقد لاحت في نهاية صف الأشجار التي التفت حول جذوعها قطع من القماش لحمايتها من قطعان الماعز الجائعة.

حلّقت حوامة تابعة للجيش فوق الشاحنة على ارتفاع منخفض في طريقها من نهر (بالتورو) الجليدي باتجاه القاعدة الجوية للسرب الخامس، وتدلى من مزلقة الهبوط جثمان بشري مكفّن بالخيش. لقد قام إيتيان بالرحلة نفسها ذات مرة بعد إنقاذه، لكن الفارق أنه ظلّ على قيد الحياة.

وعند سفح (كاربوتشو) المتجهم، أي صخرة سكاردو، حيث ينتصب فوق المدينة الحصن المهدّم وكأنه خفير حراسة، خففت الشاحنة من سرعتها لتفسح الطريق لقطيع من الخراف يعبر السوق. وعلى طرفي الشارع المزدحم، اصطفت الأكشاك الصغيرة التي تبيع الكرات والكنزات الصوفية الصينية زهيدة الثمن والتذكارات الأجنبية


https://telegram.me/maktabatbaghdad

المرتبة على شكل هرم أنيق، رأى فيها مورتنسون بهجة شرحت صدره بعد الخواء الأبكم لممر نهر الإندوس.

هذا الوادي الشاسع يصبح خصباً في البقاع التي لا تنجرف عنها التربة، وتعتبر مفرجاً من قسوة الكتل الجليدية الوعرة، وكانت في الماضي نقطة توقف للقوافل المسافرة على الطريق التجارية التي تنطلق من كارجيل التي تقع الآن في كشمير الهندية باتجاه آسيا الوسطى. لكن سكاردو أصبحت معزولة ومجدبة على حافة الباكستان البربرية منذ تجزأت البلاد وأغلقت الحدود حتى أعيد اكتشافها كمركز تبضع ومؤن للمجموعات الاستكشافية الوافدة لتسلق القمم الثلجية العملاقة على جبل كاراكورام.

أوقف محمد الشاحنة إلى جانب الطريق، دون أن يعنى بترك مساحة كافية لسيارات الجيب التي تسير وراءه كي تتجاوزه، ثم أخرج رأسه من النافذة نحو مورتنسون يسأله أين يتجه وسط الزعيق الساخط لأبواق السيارات. هبط مورتنسون من أعالي عرشه المتحرك وحشر نفسه داخل كبينة الشاحنة.

"لمن ألجأ؟" الوصول إلى كورف يعني السير لمدة ثماني ساعات بواسطة سيارة جيب، ولا توجد طريقة للاتصال كي يخبرهم أنه قد عاد لكي يفي بوعده. وبدا له أن تشانغزي، وكيل رحلات التسلق الذي سبق وأن نظم رحلتهم إلى كيه 2 هو الشخص الوحيد القادر على تنظيم هذه الرحلة أيضاً وإيصال لوازم المدرسة صعوداً نحو برالدو. توقفوا أمام مجمع مكاتب تشانغزي المطليّة بالكلس الأبيض الصارخ، وطرق مورتنسون أحد الأبواب العديدة ذات اللون الأخضر.

كان محمد علي تشانغزي بذاته هو من فتح الباب، يرتدي قميصاً أنيقاً أبيض اللون وكأنه يعلن على الملأ أن صاحبه يترفع عن ممارسة

الأعمال القذرة. يعتبر تشانغزي رجلاً طويل القامة بالمقارنة مع بقية الرجال البلطيين، وله لحية مشذبة وأنف نبيل، وعينان تبرقان بلونهما البني المؤطر بالأزرق مما يضفي عليه سيماء الهيبة.

أما اسمه "تشانغزي" فيعني "يتحدر من عائلة جنكيز خان" ويتداوله العوام كإيماء للقسوة المرعبة. ويصفه مورتنسون بقوله: "تشانغزي شخص منظم بكل معنى الكلمة ولكنني لم أكن قد أدركت ذلك بعد".

احتضن تشانغزي القدر الذي يستطيعه من جسده الضخم في عناق طويل وهو يهتف: "دكتور جريغ، ما الذي تفعله هنا وموسم التسلق قد انتهى؟".

ابتسم مورتنسون بمكر قائلاً: "لقد أحضرت المدرسة!" ومع أنه توقع أن يغمره بالتهاني فقد كان واضحاً أن تشانغزي لم يفقه ما سمعه، رغم أنهما سبق وأن تحدثا بالأمر مطولاً بعد محاولة مورتنسون في كيه2، وساعده تشانغزي في وضع ميزانية لشراء مواد المدرسة. فأوضح له مورتنسون: "لقد اشتريت كل ما يلزم لبناء المدرسة وأحضرته إلى هنا من راولبندي" لكن الأمر كان ملتبساً على تشانغزي: "لقد تأخر الوقت على بناء المدرسة. ثم لماذا لم تشترها في سكاردو؟" بالفعل! لماذا؟ وبينما راح مورتنسون يفتش عن الإجابة، زعق نفير الشاحنة ليعلن أن محمداً يريد أن يفرغ الحمولة ليبدأ رحلة العودة إلى راولبندي، وأن طاقمه قد باشر فكّ الحبال. نظر تشانغزي بإعجاب إلى الأكداس الثمينة التي تطلّ عليهم من الأعلى وقال: "نستطيع أن نخزّن كامل الحمولة في مكتبي وبعدها نتناول الشاي لنناقش ما سنفعله بخصوص مدرستك" ثم تفحص مورتنسون من رأسه حتى أخمص قدميه، وكشّر باشمئزاز لرؤية قميصه المبقع بالشحوم، وجهه الذي اسود لونه من شدّة القذارة وشعره الملبّد وقال: "اغتسل أولاً أو افعل أي شيء حيال مظهرك هذا!".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

قام المساعد ذو الجسم الضخم بتسليم الشاقول وميزان الخط العمودي اللذين استودعهما عبد الشاه داخل كبينة الشاحنة وما زالا ملفوفين بإتقان بقطعة القماش في حين كان تشانغزي يتقد حماسة وهو يشاهد أكياس الإسمنت وألواح الخشب الصلبة تهبط من الشاحنة الواحدة تلو الأخرى.

نزع مورتنسون الغلاف عن قطعة الصابون التي زوده بها مضيفه وراح يكشط عن جسمه أكوام غبار الرحلة التي دامت أربعة أيام مستعيناً بدلو الماء الذي سخنه يعقوب خادم تشانغزي على موقد غازي، من الجائز أنه اختُلس من ممتلكات بعثة استكشافية ما.

إلا أن القلق انتابه فجأة وأراد أن يقوم بجردٍ للحمولة، لكن تشانغزي أصرّ على أن ذلك الأمر يمكن تأجيله، وقاده إلى مكتبه يرافقهما صوت أذان صلاة العشا. فوضع له الخدم فراشاً جديداً وثيراً بين الطاولة وخريطة قديمة للعالم وقال له تشانغزي بلهجة آمرة: "عليك أن تستريح الآن، وسأراك بعد صلاة العشاء".

استيقظ مورتنسون على أصوات جلبة عالية تأتي من الغرفة المجاورة، فنهض من الفراش ليكتشف أن شعاع النور الباهر الذي يرتد عن الجبال قد اقتحم النافذة، وبأنه قد غطّ في نوم عميق طوال الليل. ومن الغرفة الأخرى كان يجلس متربعاً على الأرض وبجانبه كوب الشاي البارد الذي لم يلمسه، رجل بلطي ضئيل الحجم مفتول العضلات استطاع مورتنسون أن يتعرف عليه. إنه (أخمالو) الطباخ الذي رافقه أثناء رحلته الاستكشافية لقمة كيه2 وكان يعد له الطعام.وقف (أخمالو) على قدميه وتظاهر بأنه يبصق عند قدمي تشانغزي، وهي أكبر إهانة يمكن أن توجه لشخص بلطي وفي اللحظة نفسها، انتبه إلى وجود مورتنسون، واقفاً عند الباب فهتف قائلاً: "دكتور جريك" وأشرقت ملامح وجهه فجأة وهرع إلى مورتنسون مبتهجاً وضمه إلى

صدره بكلتا يديه كما يفعل البلطيون، ثم جلسوا لتناول الشاي وشرائح من الخبز الأبيض مع مرطبان من مربى التوت النمساوي الطازج قدمه تشانغزي بفخر، لا علاقة له بالطريقة الغامضة التي حصل بها عليه.

استطاع مورتنسون أن يستنتج بأن بوادر نزاع وشيك تلوح في الأفق. لقد انتشرت أخبار وصول معدات البناء في كل أنحاء سكاردو، وربما أنه الرجل الذي كان أميناً على إعداد الطعام لمورتنسون طوال أشهر، فقد جاء أخمالو يطالبه بالوفاء بالوعد "دكتور جريك لقد وعدتني ذات مرة بأن تأتي لتلقي التحية على قريتي" أجل، سبق وأن وعد بذلك" وأنا أحضرت سيارة الجيب وهي بالانتظار كي تأخذنا إلى قرية "خان" وسنذهب الآن".

"دعنا نؤجل ذلك ليوم الغد أو بعد الغد" أجابه مورتنسون وهو يجيل النظر في مبنى تشانغزي. لقد وصلت حمولة شاحنة كاملة من لوازم المدرسة، تتجاوز كلفتها سبعة آلاف دولار وهو الآن لا يرى لها أثراً في هذه الغرفة، أو في الغرفة المجاورة ولا في الفناء الذي كان مكشوفاً أمامه عبر النافذة "لكن كل فرد في قريتي بانتظارك، وقد أعددنا وليمة عشاء على شرفك". لم يكن مورتنسون قادراً على احتمال الشعور بالذنب إزاء وليمة أعدتها قرية بلطية بالكاد تجد ما يسد رمقها، فسار باتجاه سيارة الجيب المستأجرة يرافقهما تشانغزي الذي صعد إلى المقعد الخلفي غير آبه بأنه غير مدعو بالأصل.

اتجهت بهم سيارة الجيب الحمراء بفعل الصدأ باتجاه الشرق خارج سكاردو وبدأت تتقافز فوق الحجارة التي لم تكن أصغر حجماً من عجلاتها، صاعدة الطريق المتعرجة نحو خيد يقع فوق نهر الإندوس، وسأل مورتنسون: "كم تبلغ المسافة إلى قرية خان؟ "أجابه تشانغزي عابساً: "إنها بعيدة جداً". فرد اخمالو معترضاً: "بل قريبة جداً بالكاد ست أو سبع ساعات".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

عدّل مورتنسون من جلسته في مقعد الشرف قرب السائق وبدأ يضحك، فالاهتمام بأمر الزمن غير مجدٍ عندما يتعلق الامر برحلة في بالتستان. أما بالنسبة للرجل القابع خلفه في مكان الأمتعة، فقد شعر مورتنسون بالتوتر الملموس بينه وبين الآخر الجالس بجانبه، وهو أمر واضح تماماً كوضوح البطء الذي تتحرك به السيارة. لكنه نظر من النافذة الأمامية وتأمل الصدوع المتداخلة كأنها شبكة عنكبوت والمشهد المتكامل الآسر للأنياب المتكسرة في أعلى جبل كاراكورام تشق عباب زرقة السماء النقية، وشعر بسعادة طاغية.

تقافزت سيارة الجيب على طول أحد روافد نهر الإندوس لمدة ساعات، ثم انعطفت نحو الجنوب باتجاه الهند وباشرت في صعود وادي هاش على ضفاف نهر شيوك المحتجب تحت كتل جليدية زرقاء تزمجر فوق الكتل الصخرية التي تهاوت إليه منذ عصور جيولوجية ليست بالبعيدة من فوق القمم المتآكلة. التي تقع على حافتي الوادي النحيل. وعندما ازدادت وعورة الطريق، راح المجسم المعلق على مرآة السيارة الخلفية الذي يمثل الكعبة المجللة بالسواد في مكة، يطرق الزجاج الخلفي بحماسة وكأنه يؤدي فروض الصلاة. الحجر الأسود، تلك الصخرة السوداء الضخمة الراقدة داخل الكعبة التي يسود الاعتقاد بأنها كويكب، يؤمن الكثير من المسلمين بأنها نزلت في عهد النبي آدم كهبة من الله وبأن سوادها الفاحم يدل على قدرتها على استخلاص ذنوب المؤمنين الذين يحالفهم الحظ بأن يلامسوا سطحها الذي كان يوماً أبيض اللون. وعندما نظر مورتنسون إلى الأعلى نحو الجروف الصخرية المتناثرة المتدلية صوب الطريق، صلّى بدوره كي لا تختار هذه اللحظة بالذات كي تنهار فوقهم.

كانت جدران محززة بنية اللون تهدّب النسيج المخطط لحقول القمح والبطاطا وهم يواصلون الصعود وكأنها شرفات مدافع تطل من

قلاع ولا يستطيع العقل البشري أن يفهم سرّ بنائها. وعند مغيب الشمس بدأ وادي هاش يضيق وقد غطاه السديم. لكن مورتنسون الذي درس الخرائط المجسمة لجبل كاراكورام وهو ينتظر أن تهدأ العواصف ليتابع سيره كان يعرف أن قمم (ماشربروم) المهولة والتي يصل ارتفاعها إلى 25660 قدم، تقع خلفه مباشرة، على نقيض معظم قمم جبل كاراكورام الأوسط، فإن قمة ماشربروم كانت مكشوفة من جهة الجنوب، حيث تقع كشمير الهندية التي كانت ذات يوم جوهرة التاج البريطاني. ولهذا، فقد أطلق المهندس البريطاني مورنتغمري على ذلك الجدار الرمادي السامق فوق الثلوج تسمية كيه1 عام 1856 لأنها كانت القمة الأولى في تلك البقعة النائية التي استطاع أن يتفحصها بدقة، أما جارتها الأطول المحتجبة عن الأنظار حوالي عشرين كيلومتراً نحو الشمال الشرقي، فقد أعطيت تسمية "كيه2" لأنه افترض أنه تمكن من اكتشافها في تاريخ لاحق.

توقفت سيارة الجيب قرب (زامبا)، أحد تلك الجسور المجدولة من وبر الثور وكان يتأرجح فوق نهر شيوك. خرج مورتنسون من السيارة وقد أحس بالقلق الذي يساوره كلما اضطر إلى عبوره لأنه صنّع بالأصل للبلطين الذين لا يتجاوز حجمهم نصف حجمه. وعندما تبعه أخمالو وتشانغزي، وبدأ الجسر يهتز بعنف، أطبق بكلتا يديه على الحافتين وراح يجرجر قدميه على الحبل المجدول الزلق بفعل رذاذ المنحدرات النهرية التي تهدر تحته مباشرة. وكان قد صب تفكيره على قدميه، فلم ينتبه إلى الحشد الذي يقف لاستقباله عند الضفة الأخرى من النهر حتى وصل إليهم.

استقبله رجل ملتحٍ صغير الحجم يرتدي بنطالاً من مخلفات متسلقي الجبال وكنزة قطنية برتقالية اللون تعلن على الملأ "المتسلقون يذهبون نحو الأعلى" وساعده على وضع قدميه فوق الأرض الثابتة


https://telegram.me/maktabatbaghdad

لقرية خان. لم يكن ذلك الرجل سوى (جانجونجبا) الحمّال المتمرس بالمرتفعات الشاهقة الذي رافق بعثة استكشافية هولندية إلى قمة كيه2 أثناء تواجد مورتنسون في الجبال، والذي كان يتمتع بقدرة عجيبة على زيارتهم في المعسكر الرئيسي تماماً في الوقت الذي يقدم فيه أخمالو وجبة الغداء. وبما أنه قد اكتسب شيئاً من الأعراف الغربية فقد اكتفى (جانجوجبا) بمسيره نحو مورتنسون وصافحه دون أن يجد حاجة لاستحضار الله، وقاده عبر الأزقة الضيقة، بين بيوت خان المبنية من الطوب والحجر فوق المجاري المفتوحة الطافحة بالقاذورات.

كان (جانجوجبا) يقود ضيفه الأجنبي الضخم على رأس موكب يتألف من عشرات الرجال وزوج من الماعز لونهما بني وأعينهما صفراء وفضولية، ثم انعطف بالجميع باتجاه منزل مرتب مطلي بالكلس الأبيض وصعدوا درجاً من الخشب المحفور، نحو رائحة الدجاج المطبوخ.

أجلسوا مورتنسون على الحشايا التي نفض مضيفه عنها الغبار بعض الشيء، بينما تحلّق باقي الرجال حوله فوق سجادة باهتة اللون. ومن مجلسه، حظي مورتنسون بإطلالة واضحة لسقوف المنازل المجاورة، والمجرى الحجري للجدول الذي ينحدر باتجاه قرية خان ليمنحها مياه الشرب ويسقي حقولها.

مدّ ابن (جانجوجبا) سماطاً بلاستيكياً وردي اللون في وسط الدائرة ثم وضع عند قدمي مورتنسون أطباق الدجاج المشوي وسلطة اللفت الطازج وحساء مكوّناً من نخاع وكبد الخروف. انتظر المضيف حتى قضم مورتنسون قطعة من الدجاج ليباشر حديثه: "أريد أن أتوجه بالشكر إلى السيد جريغ مورتنسون الذي شرّفنا بحضوره إلينا لكي يبني مدرسة لتعليم التسلق في قرية خان".

تحشرج مورتنسون بقطعة الدجاج التي توقفت في منتصف حلقه وتساءل بصوت مخنوق: "مدرسة في قرية خان؟!" وجاءه رد جانجوجبا: "نعم، مدرسة واحدة كما سبق ووعدتني" وهو يجول ببصره بين الرجال المتحلقين حوله كمن يقدم محضر دفاع إلى هيئة محلفين "مدرسة لتعليم التسلق".

تسارع تفكير مورتنسون وتفحص وجوه الرجال من حوله الواحد تلو الآخر بحثاً عن أية إشارة توحي بأن ما سمعه للتو ضربٌ من المزاح. لكن الوجوه كانت جامدة تماماً مثل الذرا التي تجثم في الخارج بلا حراك تحت أشعة الشمس الغاربة واستعاد أحداث الأشهر التي أمضاها في كيه2. إنه يذكر تماماً أحاديث كانت قد جرت بينه وبين جانجوجبا حول الحاجة الماسة لتعليم الحمّالين البلطين أصول ممارسة تسلق الجبال لأنهم يجهلون أبسط مبادئ عمليات الانقاذ، وكيف أسهب جانجوجبا في شرح حجم المخاطر التي يتعرض لها الحمالون مقارنة بالأجور الضئيلة التي يتقاضونها.كما يذكر بوضوح كيف شرح له وضع قرية خان ودعوته لزيارتها لكنه على يقين تام بأنه لم يأت على ذكر أية مدرسة ولم يتعهد له بأي شيء.

وغمره شعور بالارتياح عندما قال اخمالو وهو يهز رأسه بعنف "ياسيد جريغ، لا تصغ إلى ما قاله جانجوجبا فهو رجل مختل. إنه يريد مدرسة لتعليم التسلق. لكن ما تحتاجه قرية خان حقاً هو مدرسة لتعليم أبنائها، وليس منزلاً فخماً يقطنه جانجوجبا" وتبخر ارتياح مورتنسون بنفس السرعة التي أتى بها.

كان تشانغزي يجلس إلى الجهة اليسرى من مورتنسون منهمكاً في التهام فخذ دجاجة وعلى وجهه طيف ابتسامة. حاول مورتنسون أن يلفت انتباهه علّه يقول شيئاً يضع حداً لهذا الجنون الذي أحاط به.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكن نقاشاً حامياً باللغة البلطية كان قد اندلع بين الرجال الذين انقسموا إلى زمرتين إحداهما بقيادة جانجوجبا والأخرى يترأسها أخمالو، وصعدت النساء إلى الاسطح المجاورة، يقبضن على أغطية رؤوسهن بإحكام كي لا تطير بها الرياح القوية الآتية من الجبال ويحاولون استراق السمع إلى الجدال الذي كانت وتيرته تتعالى أما مورتنسون فكان يحاول أن يقول: "أنا لم أعط وعوداً لأحد" تارة باللغة الإنكليزية وأخرى باللغة البلطية، لكن أحداً لم يسمع، وبدا الأمر وكأن أضخم رجل داخل تلك الغرفة قد تبخر من الوجود. استسلم مورتنسون للأمر وحاول أن يتابع ما يقال قدر استطاعته وسمع أخمالو ينعت جانجوجبا بالجشع مراراً، بينما أخذ الاخير يرد التهم عن نفسه وهو يكرر ادعاءه بالوعد الذي أعطاه إياه مورتنسون.

وبعد انقضاء أكثر من ساعة، هبّ أخمالو واقفاً وسحب مورتنسون من ساعده وجرّه خلفه وكأنها الطريقة التي ستحسم الأمر لصالحه، وهبط به السلمٍ، يترأس المجموعة الصاخبة نفسها وعبروا قناة ري موحلة، صعوداً نحو منزله. وداخل غرفة جلوس أصغر من سابقتها، عاود الرجال الجلوس على الحشايا وأحضر ابن أخمالو المراهق، الذي كان مستخدماً في المطبخ أثناء رحلة مورتنسون الاستكشافية، تشكيلة أخرى من أطباق الطعام ووضعها عند قدمي مورتنسون، طبق حوافه مزخرفة برسوم من الزهور البرية يطفح بسلطة اللفت وأخر بحساء أحشاء الخروف الطافية على الوجه بزهو إلى جانب الكلاوي اللامعة، أما بقية الأطباق فكانت تشبه إلى حدٍ كبير الأصناف التي قدمت في وليمة جانجوجبا.

غرف ابن أخمالو أكبر قطعة من طبق الكلاوي ووضعها فوق صحن من الأرز وقدّمه إلى مورتنسون وهو يبتسم باستحياء. أزاح مورتنسون قطعة الكلاوي جانباً وراح يتناول الأرز العائم في المرق

المشبع بالدهون، لكن أحداً لم يلحظ ذلك. لقد تبخر من الغرفة من جديد، فرجال قرية خان يأكلون بالحمية نفسها التي يتجادلون بها، وكأن الوجبة السابقة والجدال الذي تخللها لم يحدث قط. فقد راحوا يفتتون كل نقطة نقاش تطرح مهما صغرت، بالدقّة نفسها التي ينتفون فيها اللحوم عن العظام بأسنانهم.

وعندما دخل النقاش الدائر ساعته الرابعة، كانت عينا مورتنسون تلسعانه بفعل دخان السجائر الذي كاد أن يخنق الغرفة بمن فيها، فصعد إلى سطح المنزل وجلس متكئاً إلى حزمة من سنابل القمح الطازجة التي حجبت بزوغ القمر المستكين خلف سلسلة الجبال الشرقية. أما جبل ماشربروم فقد بدا صافياً بعد أن هدأت الريح، وراح مورتنسون يتأمل حواف قمته المدببة التي زاد ضوء القمر من هيبتها الشرسة.

مورتنسون يعلم، بل يحسّ بوجود هرم كيه2 الجليل وراء تلك القمة مباشرة. كم كان الأمر هيناً عندما أتى إلى بالتستان بصفة متسلق جبال. كان السبيل واضحاً، ولم يكن عليه سوى أن يضع قمة معينة نصب عينيه، كما يفعل الآن، وأن ينظم الرجال ويعدّ ما يلزم حتى ينجح في الوصول أو يخفق.

كان دخان السجائر وأبخرة روث الحيوانات المشتعل يتصاعد إليه من فتحة السقف الكبيرة لتفسد جلسته، وتتصاعد معها صيحات رجال قرية خان الذين لم يخفت جدالهم، لتعكر صفوة مزاجه. أخرج من حقيبته سترة خفيفة واستلقى على حزمة السنابل، وغطى صدره بالسترة. القمر الذي قارب على الاكتمال، شقّ طريقه صِعوداً من وراء الجبال المثلّمة وتربع فوق الجرف وكأنه جلمود صخر يتوعد بأن يسقط فوق قرية خان ويسحقها.

"هيا، اسقط" همس مورتنسون للقمر، ثم غطّ في نوم عميق.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الصباح، كان الوجه الجنوبي لجبل ماشربروم قد احتجب من جديد وراء الغيوم، عندما هبط مورتنسون من السطح بساقين متيبستين ووجد شانغزي يرتشف الشاي بالحليب وألح عليه بأن يعودا إلى سكاردو قبل أن تبدأ سلسلة جديدة من الولائم وجلسات النقاش. وانضم إليهما في سيارة الجيب كل من جانجوجبا وأخمالو اللذين لن يسمحا لمورتنسون بالفرار قبل أن يحاول كل منهما أن يكسب النقاش لصالحه، وخلال طريق العودة إلى سكاردو، كانت ابتسامة تشانغزي الماكرة مرسومة على وجهه طوال الوقت، في حين كان مورتنسون يلعن نفسه لأنه هدر كل هذا الوقت، وعلاوة على ذلك، فإن الطقس الملائم لبناء المدرسة بات مهدداً هو الآخر حيث كانت سكاردوا، عندما عادوا إليها، واقعة تحت قبضة صقيع شتائي، وغيوم تتوعد بالمطر تلتف حول القمم المحيطة بها، وتتشبثّ هناك بدلاً من أن تهطل وتضع حداً لذلك الوعيد.

وبالرغم من قطع البلاستيك المثبتة على نوافذ السيارة، فإن قميص مورتنسون، ترابي اللون بالأصل كان قد غرق تماماً بالوحل عند توقفهم قبالة مكاتب تشانغزي، حدّق تشانغزي بملابس مورتنسون التي أصبحت وحلاً فوق وحل وقال: "سأطلب من يعقوب أن يعدّ لك ماء ساخناً" أجابه مورتنسون وهو يكاد يتميز من الغيظ: "قبل أن تفعل أي شيء، دعني أستوضح عن بعض الأمور. أولاً، أين ذهبت معدات مدرستي، فانا لا أراها في أي مكان؟".

انتصب تشانغزي بشموخ صنم إلهي وأجاب: "أمرت بنقلها إلى مكتبي الآخر".

"أمرت بنقلها؟!".

وبسيماء رجل يائس عليه تفسير مالا يحتاج إلى تفسير أجابه: "نعم، أمرت بنقلها إلى مكان آخر اكثر أمناً".

"وما العيب في هذا المكان؟".

"توجد الكثير من العصابات في الجوار".

هبّ مورتنسون واقفاً أمام تشانغزي قائلاً: "أريد أن أذهب لأراها كلها بأم عيني وعلى الفور" أغمض محمد علي تشانغزي عينيه وجمع أصابعه إلى بعضها البعض ثم فرقع بإبهامه، وكله أمل بأن يفتح عينيه ليرى بأن الأرض قد انشقّت وابتلعت مورتنسون" لقد تأخر الوقت الآن ومساعدي عاد إلى المنزل وبحوزته المفاتيح. كما أنه يجب علي أن أغتسل وأجهز نفسي لصلاة العشاء. ولكنني أعدك، غداً ستكون راضياً كل الرضى، سنتخلص معاً من جلبة هذين القرويين الصاخبين ونباشر العمل على مدرستك".

استيقظ مورتنسون مع خيوط الفجر الأولى والتف بكيس النوم الذي قدمه إليه تشانغزي وخرج إلى الشوارع الندية بالمطر. إكليل القمم المتعالي على ارتفاع ثمانية عشر ألف قدم ويتوج البلدة، مازال محتجباً وراء الغيوم المنخفضة، وبدونها بدت بلدة سكاردو بساحتها المتشعبة التي تعج بالقمامة وأبنيتها الخفيضة القائمة من الطوب والأحجار البركانية غاية في القبح. خلال فترة غيابه في كاليفورنيا، جعل مورتنسون من سكاردو العاصمة الوهمية لمملكة جبلية أسطورية، وكان يتذكر البلطين الذين يستوطنونها على أنهم شعب نقي ورائع. وها هو الآن يقف تحت رذاذ المطر ويتساءل إن كان هو الذي اختلق تلك البالتستان التي آمن بها. هل النشوة التي غمرته بعد نجاته من الموت في كيه2 هي التي دفعته إلى إضفاءِ أطياف بهيجة على هذا المكان وهؤلاء الناس لا علاقة له بواقعهم الفعلي؟

هزّ برأسه وحاول أن يبعد تلك الشكوك، ولم يفلح. كورف لا تبعد عنه سوى 112 كيلومتراً لكنها تبدو وكأنها في عالم آخر.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

سيعثر على معدات مدرسته وسيجد وسيلة كي يذهب بها إلى كورف. فهو لم يبلغ هذه المرحلة عبثاً، وعليه أن يؤمن بما سيفعله من أجل ذلك المكان الموبوء المتشبث بخاصرة ممر جبلي وعر. وعليه أيضاً أن يصل إلى هناك قبل أن يحبطه اليأس.

أثناء تناول طعام الإفطار، كان تشانغزي غاية في اللباقة على غير عادته، يعبد سكب الشاي لمورتنسون كلما فرغ الكوب، ويؤكد له أنهما سينطلقان حالما تصل السيارة التي ستقلهما.

وحالما وصلت سيارة الجيب ذات اللون الأخضر وصل أيضاً جانجوجبا وأخمالو إلى منزل تشانغزي، من المكان القذر المخصص لاستراحة سائقي الشاحنات حيث أمضيا ليلتهما، وانطلقت المجموعة معاً بصمت.

سارت السيارة بهم نحو الغرب فوق الكثبان الرملية وعبرتها نحو حقول زراعية اصطفت على أطرافها أكياس الخيش الملأى بحصاد محصول البطاطا تنتظر نقلها.كانت الأكياس متطاولة وكأنها أجساد بشرية حتى أن مورتنسون ظنّها رجالاً ينتظرون بإذعان تحت رذاذ المطر.اشتدت سرعة الرياح ودفعت بشذرات الغيوم جانباً، فظهرت في أعلى الأفق حقول ثلجية تلّوح بالأمل، وشعر مورتنسون بأن روحه المعنوية قد بدأت تنتعش.

وبعد مغادرتهم سكاردو بساعة ونصف، انعطفت السيارة عن الطريق الرئيسي وراحت تتأرجح فوق دربٍ مليء بالحفر حتى وصلوا إلى تجمع بهيج من بيوت مبنية من الطوب والحجر، تظللها أشجار كثيفة من الصفصاف. تلك كانت (كوادرو) قرية تشانغزي، الذي قاد المجموعة المتنافرة عبر حظيرة للخراف، وهو يدفع الخراف جانباً بقدمه نحو الطابق الأعلى لأكبر منزل في القرية. وداخل غرفة

الجلوس جلس الجميع متكئين، ليس على المساند التي تكسوها عادة زهور مغبّرة، بل على الوسائد ذات اللون الوردي الأخضر التي تنفتح من تلقاء نفسها وتستعمل بالأصل في معسكرات تسلق الجبال.

كانت الجدران تزدان بعشرات من الصور المؤطرة لشانغزي وهو يقف مزهواً بقميصه ناصع البياض بين أعضاء معفري الملابس لبعثات فرنسية ويابانية وإيطالية وأميركية. ورأى مورتنسون صورة له وقد وضع يده بجذل على كتف تشانغزي، وهما في طريقهما نحو كيه2، ووجد صعوبة في أن يصدق بأن تلك الصورة قد التقطت له منذ سنة واحدة فقط. فذلك الوجه الذي يطل عليه الآن يبدو أصغر سناً منه بعشرة أعوام على الأقل. وعبر الباب، كان يرى نسوة في المطبخ يقمن بإعداد الطعام على موقدين كانا في السابق يعودان لَبعثة استكشافية ما.

اختفى تشانغزي داخل غرفة أخرى ثم عاد وقد ارتدى قميصاً من الكشمير رمادي اللون له قبة عالية إيطالي الصنع، ودخل من بعده خمسة رجال أكبر سناً لهم لحى مشعثة، ويضعون على رؤوسهم قلنسوات ذات لون بني كالح وصافحوا مورتنسون بحرارة قبل أن يتخذوا مجالسهم فوق الوسائد. ثم حضر خمسون رجلاً آخرون من رجال كواردو، واحتشد الجميع حول سماط الطعام البلاستيكي.

كان تشانغزي يصدر أوامره لموكب من الخدم الذين أحضروا أطباقاً من الطعام لا حصر لها وحشروها بين الجلوس حتى أن مورتنسون اضطر إلى ثني قدميه لإيجاد بعض المتسع لها، في حين كانوا يحضرون المزيد. نصف دزينة من الدجاج المشوي، أطباق من الفجل واللفت مقطعة على شكل زهور، هضبة من أرز البرياني مكسوة بالمكسرات والزبيب، قنبيط مقلي بالزبدة مع الأعشاب. وطبَق كبير من أفضل لحوم الثور تسبح في المرق مع الفلفل الأحمر والبطاطا.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم ير مورتنسون من قبل هذه الوفرة من الطعام في بالتستان والفزع الذي كان يحاول طوال الرحلة ان يزدرده تصاعد إلى حلقه ولسعه بحموضته الآسنة. وسأل قائلاً: "ماذا نفعل هنا يا تشانغزي وأين لوازم مدرستي؟". ملأ تشانغزي طبقاً كبيراً من أرز البرياني، وتوجه بلحم الثور ووضعه أمام مورتنسون ثم أجاب: "هؤلاء هم زعماء قريتي" وهو يومئ برأسه إلى الشيوخ الخمسة الذاوين، وأعدك بأنك لن تسمع أي جدال هنا في كوادرو لأنني حصلت على موافقتهم بأن يسمحوا لك ببناء مدرستك هنا قبل حلول فصل الشتاء".

ودون أن ينبس ببنت شفة، هبّ مورتنسون واقفاً، وخطا من فوق الطعام. كان يعلم مدى الوقاحة الكامنة في أن يرفض كرم الضيافة ذاك، وأن يمر هكذا من فوق طعامهم بقدميه غير الطاهرتين وفي أن يدير ظهره لكبار رجال القرية بصفاقة لا تغتفر، لكن حاجته الماسة لمغادرة الغرفة كانت فوق كل اعتبار وبدأ يركض حتى خلّف كوادرو وراءه واندفع صاعداً درباً يؤدي إلى فسحة من المراعي. شعر بأن سكيناً تخترق صدره، لكنه أجبر نفسه على الصعود حتى صفى ذهنه وأحس بالأرض تميد تحت قدميه. كان يطل على قرية كواردو بأكملها عندما تهاوى أرضاً، وقد عجز عن التقاط أنفاسه. هو الذي لم يبك أبداً بعد موت كريستا. دفن وجهه بين كفيه وانخرط في بكاء مرير ودموعه الغزيرة تنهمر دون توقف. وعندما رفع رأسه بعد حين، وجد مجموعة من الصبية يقفون تحت شجرة توت بري بعيدة ويحدقون فيه. لقد حضروا ومعهم قطيع من الماعز بحاجة لأن يرعى. لكن المشهد الغريب لهذا الرجل (الإنجريزي) القابع هنا يبكي في وسط الوحول جعلهم يتجاهلون القطيع الذي تابع الطريق وحده نحو الأعلى. نهض مورتنسون ونفض ملابسه ثم سار باتجاههم.

ركع عند أكبرهم سناً، وهوولد يبدو في الحادية عشرة من العمر، فسأله متلعثماً: "من أنت؟" وهو يمد يده التي اختفت داخل كف مورتنسون الضخمة عندما صافحه "أنا جريغ، وأنا شخص صالح" فردد الصبية بصوت واحد "أنا جريغ، وأنا شخص صالح" وكرر مورتنسون المحاولة: "لا، أنا جريغ، ما اسمك؟" وردد الأولاد من جديد وهم يتضاحكون: "لا، أنا جريغ، ما اسمك؟" فقال لهم باللهجة البلطية: "اسمي جريغ، وأنا أميركي. ما اسمك؟" صفقّ الأطفال بحبور لأنهم فهموا ما قاله (الإنجريزي) صافح مورتنسون الأولاد كلاً بدوره، وقاموا بالتعريف عن أنفسهم، أما الفتيات اللواتي برفقتهم، فقد وضعن أكفهنّ داخل وشاح رؤوسهن بحذر قبل أن يصافحن ذلك الغريب الكافر. نهض مورتنسون واستند إلى جذع شجرة التوت وباشر دروسه "أجنبي" قال لهم باللغة الإنكليزية، وهو يشير إلى نفسه "أجنبي" رددوا وراءه بالنبرة نفسها، ثم أشار إلى انفه وشعره وأذنيه وعينيه وفمه، وفي كل مرة كان كورس الأولاد يرددون وراءه المصطلحات الغريبة على أسماعهم ثم ينفجرون ضاحكين. وعندما وجده تشانغزي بعد نصف ساعة، كان مورتنسون راكعاً على الأرض مع الأولاد يكتبون جداول الضرب على التراب بواسطة غصن قطعوه من شجرة الزيتون "دكتور جريغ تعال معي. عد إلى المنزل وتناول كوباً من الشاي فلدينا الكثير كي نناقشه" توسل إليه تشانغزي.

"ليس لدي ما أناقشه معك حتى تأخذني إلى كورف" أجابه مورتنسون دون أن يزيح بصره عن الأولاد. كورف بعيدة جداً وغاية في القذارة. لقد أحببت هؤلاء الأطفال، فلم لا تبني مدرستك هنا؟".

محى مورتنسون بكفه عملية حسابية قامت بها فتاة في التاسعة من عمرها يبدو عليها الذكاء، وكتب العدد الصحيح وهو يقول: "لا، عندما يتضاعف العدد (6) ست مرات يكون ناتجه ستة وثلاثون" "يا سيد جريغ، أرجوك".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

"كورف، ليس لدي ما أقوله لك حتى نصل إلى هناك".

كان النهر إلى جهتهم اليمنى يتلاطم فوق كتل صخرية هائلة يضاهي حجمها حجم البيوت. وراحت سيارة الجيب التي تقلهم تثب وتندفع كأنها تسابق تلك المنحدرات المائية الطينية على ما يسمى طريقاً، يحاذي الضفة الشمالية لنهر برالدو.

كان أخمالو وجانجوجبا قد يئسا وتوقفا عن المحاولة، وتمتما ببضع عبارات وداع مقتضبة وخائبة، وقد تصادف وجود سيارة جيب عادت بهما إلى سكاردو. لقد قررا أن يكفا عن ملاحقة مورتنسون عبر وادي نهر برالدو. وخلال الساعات الثماني التي استغرقتها رحلتهم إلى كورف، كان لدى مورتنسون وقت وافر للتفكير، بينما استلقى تشانغزي في المقعد الخلفي مستنداً إلى كيس من أرز البسمتي وقلنسوته البيضاء مسدلة فوق عينيه ونام، أو تظاهر بالنوم، طوال رحلتهم الرجراجة.

كان مورتنسون يشعر بشيء من الشفقة حيال أخمالو. فالرجل لا يريد سوى أن يحظى أطفال قريته بالمدرسة التي تقاعست حكومة الباكستان عن بنائها لهم. لكن غضب مورتنسون من مكائد جانجوجبا وتشانغزي وكذبهما فاق شعوره بالامتنان الذي يحمله نحو خدمات أخمالو الصبورة طوال الأشهر التي أمضاها معه في معسكر كيه 2، وقد تفاقم ذلك الغضب حتى أصبح قاتماً مزبداً كسطح أقبح الأنهار.

كان عليه ألا يكون بهذه الفظاظة مع هؤلاء الناس لأن التفاوت الاقتصادي بينه وبينهم واسع للغاية. هل يعقل أن مواطناً أميركياً خرج من مسكنه المزري داخل مستودع بائس وعاش بتقشف على دخله المتواضع الذي يمنحه إياه عمل جزئي يساوي قيمة الدولار الاميركي في نظر شعب يعيش الفقر المدقع في أكثر البلدان فاقة؟ وقرر أنه إذا نشب نزاع آخر بين سكان كورف من أجل (ثروته) كما حدث فعلاً، فسوف يكون

أكثر حلماً، وسيصغي إليهم وسيتناول الوجبات التي توضع أمامه جميعها قبل أن يعبّر لهم عن تصميمه على أن المدرسة ستكون لصالح الجميع، وليس من أجل جلب الثراء للزعيم حاج علي، أو أي شخص آخر.

كان الظلام قد حل منذ ساعات عندما وصلوا قبالة كورف. قفز مورتنسون من سيارة الجيب وأمعن النظر في ضفة النهر البعيدة لكنه لم ير شيئاً. وبناءاً على تعليمات تشانغزي، أطلق السائق بوق السيارة وأضاء أنوارها الأمامية. وقف مورتنسون تحت الأنوار وبدأ يلوّح بيده حتى سمع صوت صياح من الجهة الجنوبية للنهر. حرف السائق اتجاه السيارة حتى أضاءت أنوارها سطح النهر ولمحوا رجلاً صغير الحجم يترنح داخل صندوق معلق بحبل عبر الصدع الجبلي ويدفع به باتجاههم.

وعند وصول الصندوق، لاحظ مورتنسون بأن ذلك الرجل هو ابن الحاج علي "تواها" الذي قفز من الصندوق وهجم عليه واحتضنه واعتصر خاصرته، ورأسه ملقىً على صدر مورتنسون وعندما حرره، نظر إليه نحو الاعلى وهو يقهقه قائلاً: "والدي الحاج علي قال أن الله سوف يعيدك إلينا ذات يوم. الحاج علي يعرف كل شيء يا سيدي".

حشر مورتنسون جسده الضخم داخل الصندوق بمساعدة تواها. "لقد كان صندوقاً بالفعل" يصفه مورتنسون.

"ويشبه صندوق فاكهة كبير مثبت ببعض المسامير، وعليك أن تدفع به نحو الأمام فوق ذلك الحبل الزلق وألا تفكر بما هو جليّ بأن تحطم الصندوق يعني بانك ستهوي نحو القاع، وأن ذلك يعني الموت المحتم لا محالة".

قاد مورتنسون نفسه على الحبل البالغ طوله 350 قدماً وهو يتأرجح نحو الأمام ونحو الخلف في خضم ريح عاتيه. كان يشعر برذاذ الماء حوله، ويسمع دون أن يرى هدير نهر برالدو الجبار يزمجر


https://telegram.me/maktabatbaghdad

فوق الجلاميد ويحيلها إلى صخور مصقولة، ثم شاهد مئات من الناس، ربما شعب قرية كورف بأكمله، واقفين فوق جرف يعلو ضفة النهر البعيدة، تظلّهم أنوار سيارة الجيب المضاءة، وقد تأهبوا لاستقباله وعلى مبعدة منهم، وفوق أعلى نقطة من الجرف رأى تلك الهيئة التي لا يمكن أن تخطئها عينه. كان الحاج علي واقفاً متباعد الساقين، ثابتاً كمنحوتة من الصخر ورأسه العريض الملتحي يشمخ فوق منكبيه الصلبين، يراقب تقدم مورتنسون الأخرق عبر النهر.

جيهان، حفيدة الحاج علي، تتذكر تلك الأمسية جيداً "الكثير من المتسلقين يغدقون بالوعود على سكان برالدو ثم ينسونها عندما يصلون إلى بلادهم. لكن جدي ظل يردد بأن الدكتور جريغ ليس من تلك الطينة وبأنه سوف يعود. ومع ذلك، فقد فوجئنا برؤيته عائداً دون تأخير، وراودتني الدهشة نفسها حيال قامته المديدة. لا أحد من رجال برالدو يمكن أن يبدو مثله. إنه.... مذهل!".

وعلى مسامع جيهان وباقي سكان كورف توجه الحاج علي بالشكر إلى الله الذي أعاد إليه ضيفه سالماً ومعافى، ثم عانق قامته المديدة، وانشد مورتنسون لأن رأس ذلك الرجل لم يصل سوى إلى صدره، في حين أمضى العام السابق وهو يتراءى له بنياناً ضخماً.

قرب مدفأة متأججة في منزل الحاج علي، وفي المكان نفسه الذي تلمس مورتنسون طريقه إليه تائهاً وخائر القوى فوجد الملاذ والمأوى، شعر مورتنسون بأنه بين الناس الذين لم يفارقوا تفكيره طوال الأشهر التي أمضاها وهو يكتب الرسائل ويطلب الهبات وتتعثر خطاه كي يجد السبل ليعود إليهم ويخبرهم بأنه أصبح قادراً على الوفاء بوعده. ويكاد الآن أن ينفجر من الرغبة لإخبار الحاج علي بذلك، لكن أصول الضيافة يجب أن تأخذ مجراها.

ومن فجوة خفية في منزلها، أخرجت سكينة لفافة قديمة مهترئة تحتوي على كعك محلى وقدمتها لمورتنسون على صينية صدئة إلى جانب كوب من الشاي بالزبدة المعتاد. أخذ مورتنسون منها قطعة وقدم الباقي إلى رجال كورف المحتشدين حوله كي يتشارك الجميع في تناولها.

انتظر الحاج علي حتى ارتشف مورتنسون من كوب الشاي ثم صفعه على ركبته باسماً وهو يقول: "ما الذي تريده بحق الجحيم؟" تماماً كما قالها له في المرة الاولى التي وصل فيها مورتنسون إلى منزله. لكن الوضع الآن كان مختلفاً كلياً فمورتنسون لم يتعثر بقرية كورف هزيلاً وتائهاً هذه المرة. لقد كدح لمدة عام كامل وعاد إلى هذه البقعة بكامل إرادته يحمل في جعبته الأنباء التي يتحرق شوقاً كي يخبرهم إياها.رد عليه باللغة البلطية بالعبارات التي ظل يرددها لنفسه حتى حفظها عن ظهر قلب: "لقد ابتعت كل ما يلزمنا لبناء مدرسة. الأخشاب، الإسمنت، الأدوات، اشتريتها كلها وهي موجودة الآن في سكاردو. ونظر إلى تشانغزي الذي كان يغمس كعكة في كوب الشاي.وفي حميمية الموقف، شعر تجاهه بشيء من المحبة هو الآخر. لا شك بأنه كان محتالاً معه، لكن المحصلة الأخيرة هي أنه أوصله إلى هنا.

"لقد عدت لكي أفي بوعدي" قال للحاج علي وهو ينظر في عينيه. "وكلي أمل أن نبدأ في بناء المدرسة على الفور إنشاء الله" بدا الحاج علي شارد الذهن وهو يدسّ يده في جيب صدرته ويتحسس علبة التبغ. ثم قال باللغة البلطية: "دكتور جريغ لقد عدت سالماً إلى كورف بفضل عون الله تعالى ورأفته، كنت أعلم أنك ستعود، وقد أكدّت على ذلك للجميع بعدد المرات التي تهب فيها الرياح في وادي نهر برالدو.ولهذا قمنا جميعاً بمناقشة أمر المدرسة أثناء وجودك في أميركا" ثم أضاف وهو ينظر بثبات في عيني مورتنسون: "نحن نتوق


https://telegram.me/maktabatbaghdad

للحصول على مدرسة في كورف، لكننا بتتنا في الامر لكي يتمكن تيس الجبل من الوصول إلى كيه2 عليه أن يتعلم كيف يعبر النهر. ولكي نتمكن نحن من بناء مدرسة علينا أن نشيّد جسراً وهذا ما تحتاجه كورف الآن.

"جسر؟" ردد مورتنسون بالبلطية، وهو يأمل بأنه قد أساء الفهم، فهو في النهاية ليس ضليعاً باللغة البلطية، ولكي يتأكد ردد باللغة الإنكليزية: "جسر؟".

أجابه تواها: "نعم، الجسر الكبير، الجسر الحجري، لكي نستطيع أن ننقل لوازم المدرسة إلى قرية كورف.

أخذ مورتنسون رشفة طويلة من الشاي وراح يفكر، هل ما زالت لديه القدرة على التفكير؟ وأخذ رشفة أخرى.

# الفصل التاسع

# الشعب قال كلمته

"أيها الرفاق، ألا يتربص الفسق في العينين الساحرتين لسيدة جميلة؟ إنهما تخترقان الرجال كطلقة رصاص، وتوقعان الجراح كنصل سيف قاطع"

**قول مكتوب على اقدم نقش حجري بوذي في وادي ساتبارا في بالتستان**

كان مطار سان فرانسيسكو يعج بأمهات فزعات يتشبثن بأولادهن، فعيد الميلاد أصبح وشيكاً وهناك الألوف من المسافرين النزقين الذين يدفعون بعضهم البعض وهم يهرولون باتجاه الرحلات التي يجب أن تصل بهم إلى عائلاتهم في الوقت المناسب.

لكن وتيرة الهيجان كانت لا توصف في تلك الصالة المختنقة بهلع المسافرين وسط مكبرات الصوت الضائع في خضم الضجيج وهي تعلن عن المزيد والمزيد من تأجيل مواعيد الإقلاع.

سار مورتنسون باتجاه المنطقة المخصصة لتسليم الحقائب، ووقف ينتظر وصول حقيبته شبه الفارغة والبالية على السير الناقل المكتظ بالحقائب. رماها فوق كتفه، وأجال النظر في الحشود، آملاً أن تكون مارينا بينهم، كما سبق وأن شاهدها من الطابق العلوي وهو يغادر الطائرة التي أقلته من بانكوك في رحلته السابقة. وكان على وجهه طيف الابتسامة التي ترتسم عادة على وجوه كل الذين يعودون على أمل أن يجدوا أحبة باستقبالهم، لكنه لم يجد شعرها الأسود بين مئات الرؤوس المحتشدة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

لقد اتصل بها منذ أربعة أيام من كشك هاتف عمومي في راولبندي، وكان اتصالاً مشوشاً للغاية، لكنه متأكد بأنها قالت له "سألقاك في المطار". ومكالمة الدقائق الست التي دفع ثمنها كاملة انقطعت قبل أن يتمكن من تأكيد موعد وصوله، وقلقه المتزايد من إنفاق المال منعه من إعادة الإتصال. توجه إلى كشك للهاتف وأدار رقم هاتف مارينا. ردت عليه المسجلة فقال وهو يسمع هتافه المتشنج: "هذا أنا، جريغ، عيد ميلاد سعيد، كيف حالك؟ أنا مشتاق إليك.لقد وصلت إلى مطار سان فرانسيسكو بخير وأنوي أن أستقل حافلة كهربائية لكي أحضر إلى....".

رفعت سماعة الهاتف من الجانب الآخر وأتاه صوتها: "جريغ، مرحباً".

"مرحباً بك. هل أنت بخير؟ صوتك يوحي بأنك...".

"أصغي إلي، هناك أمور يجب أن نناقشها لأن بعض التغيرات طرأت أثناء غيابك، أيمكننا ذلك؟".

شعر بقطرات من العرق تتجمع تحت إبطيه، فهو لم يستحم منذ ثلاثة أيام: "بالتأكيد، أنا في طريقي إلى المنزل" وأغلق الهاتف. لقد كان خائفاً من العودة إلى الوطن بعد إخفاقه في إحراز خطوة واحدة لبناء المدرسة. لكن تفكيره في مارينا وبليز ودانا هدأ من روعه أثناء رحلته الطويلة فوق المحيط، فقد كان يبتعد عن إخفاقه عائداً إلى أحضان أحبابه.

استقل حافلة، ثم قطاراً أوصله إلى المدينة ومن هناك سيارة أجرة إلى منزلها.قلّب في ذهنه ما قالته مارينا على الهاتف وهو يحاول أن يستخلص منها معنى آخر غير الذي قصدته بوضوح، مارينا لم تعد تريده. وانتبه إلى أنه لم يتصل بها منذ شهور طويلة. ولكن عليها أن

تتفهم بأن تكلفة المكالمات الدولية عالية، وبأنه لا يستطيع المساس بالميزانية التي وضعت لبناء المدرسة أليس كذلك؟ وسوف يعوضها عن ذلك. سوف يسحب ما تبقى من النقود في الحساب المصرفي ويأخذها في إجازة مع ابنتيها إلى مكان ما.

الوصول إلى حي مارينا استغرق ساعتين، وبدأت الشمس تغيب وراء المحيط الذي أخذت الظلمة تكتنفه. سار بمحاذاة منازل مزخرفة بالجص، تشع بأنوار شجيرات عيد الميلاد يصفعه هواء البحر اللزج وصعد الدرجات باتجاه منزلها.

فتحت مارينا الباب وعانقته بذراع واحدة وظلت واقفة في مدخل منزلها، لتشير بوضوح بأنه ليس بموضع ترحيب في الداخل. انتظر وحقيبته مازالت معلقة على كتفه، حتى تكلمت: "لدي شيء واحد أقوله، وهو أنني عدت للقاء ماريو".

"ماريو؟".

"أنت تعرف ماريو، طبيب التخدير الذي عملت معه في المستشفى. سبق وأن أخبرتك عنه، لقد كان صديقي وهو..." وقف مورتنسون هناك يحدق فيها ببلاهة، فيما استرسلت هي في سرد تفاصيل يقصد منها تذكيره بالمرات العديدة التي التقى فيها ماريو، والأمسيات التي أمضاها معه في قسم الإسعاف، لكن ذلك الاسم لم يعنِ له شيئاً، واستغرق في تأمل شفتيها وهي تتكلم، هاتين الشفتين الممتلئتين هما أجمل ما فيها. لم يكن قادراً على استيعاب الكلمات حتى سمعها تقول: "لقد حجزت لك غرفة في نزل" كانت مارينا ما زالت تتحدث عندما أدار ظهره لها وسار عائداً باتجاه لسعات الهواء البحري.

كان الليل قد هبط والحقيبة الملقاة على كتفه التي لم يشعر بها من قبل أصبحت فجأة ثقيلة الوزن وتساءل إن كان يستطيع مواصلة السير


https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى الشارع المجاور، عندما أسعفه الحظ وشاهد عند الزاوية اللافتة المشعة بالضوء الأحمر القاني لنزل الشاطئ، وكأنها جرح ينزف وتحتاج إلى إسعاف فوري. دخل إلى الغرفة ذات الجدران الخشبية الرديئة وروائح دخان السجائر. بعد أن سدد إيجارها بالبقية الباقية من النقود، واستحم وفتح حقيبته ليبحث عن قميص قطني نظيف يرتديه أثناء النوم. اختار أقلها قذارة، وغطّ في النوم تاركاً الأنوار مضاءة وجهاز التلفاز يعمل.

وبعد ساعة من النوم العميق المكدود، حتى أن أي حلم لم يراوده، جاءت أصوات طرقات على الباب لتنتزعه منه. هبّ جالساً ونظر حوله وهو يظن أنه مازال في الباكستان لكن التلفاز كان يبث مفردات إنكليزية ويحتل الشاشة نقش موشى بالنجوم يحمل عبارات بعيدة كل البعد عن اللغة الإنكليزية التي يعرفها مورتنسون عن استلام أقلية جمهورية للحكم، أو شيئاً من هذا القبيل. قام من الفراش مترنحاً وكأن الغرفة تتأرجح في خضم بحر هائج، وسار نجو الباب وفتحه كانت مارينا تقف هناك متدثرة بسترته الصفراء المحببة لديه. "لقد أتيت لأعتذر.لم أتخيل أن الامور ستكون هكذا، هل أنت بخير؟" سألته وهي تضغط السترة إلى صدرها.

"أنا..أعتقد.. لا، لست بخير".

"هل كنت نائماً؟".

"أجل".

"أنظر إلي، لم أكن أرغب في أن تجري الأمور على هذا النحو ولكنني لم أجد وسيلة أتواصل بها معك في الباكستان" كان البرد يلسعه أمام باب الغرفة المفتوح، ووقف يرتجف بملابسه الداخلية. قال: "لقد أرسلت لك بطاقات بريدية".

"لتخبرني بكل تفاصيل أسعار الأسقف، آه، وأيضاً عن تكلفة النقل إلى سكاردو وقد كان ذلك في منتهى الرومنسية! أنت لم تأت على ذكر أي شيء يتعلق بنا، إلا إذا استثنينا تأجيلك الدائم للعودة إلي".

أرغم نفسه على تجاهل النظر إلى شفتيها، وأمعن النظر في عينيها، وما لبث أن خفض بصره لأن هاتين أيضاً لم تكونا أقل خطورة من سابقتيهما وسألها:

"متى بدأت في مواعدة ماريو؟".

"لا علاقة لذلك بخلافنا، لقد شعرت من خلال البطاقات البريدية التي كنت تكتبها بأنه لم يعد لدي وجود في حياتك منذ غادرتني".

"هذا غير صحيح" أم أنه صحيح؟.

"لا أريدك أن تكرهني.أنت لا تكرهني أليس كذلك؟".

"ليس بعد".

أرخت مارينا ذراعيها وتنهدت. كانت تحمل في يدها اليمنى زجاجة خمر نصف ممتلئة مدت بها إليه فأخذها منها.

"أنت إنسان عظيم يا جريغ، وداعاً".

رد مورتنسون: "وداعاً" وأغلق الباب قبل أن يتفوه بكلمة قد يندم عليها فيما بعد.

وقف في منتصف الغرفة يحمل بيده الزجاجة نصف الممتلئة، أم أنها نصف فارغة؟ على أية حال، فهو ليس الصنف الذي يشربه عادة، ولا بد أن مارينا تعرف ذلك.كما أنه لا يعاقر الخمر كثيراً، خصوصاً إن كان وحده، ثم إن تلك الخمور المحلاة بالسكر تقع في دائرة الأشياء القليلة التي يشمئز منها.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان على التلفاز رجل متفاخر حاد الصوت يقول لأحد المذيعين بنبرة عالية: "لقد باشرنا الثورة الأميركية الثانية وها أنذا أعاهدك عهداً قطعياً بأن أغلبية جمهورية جديدة في الكونغرس ستحدث تغيراً جذرياً في حياة الأمريكيين. لقد قال الشعب كلمته".

عبر مورتنسون الغرفة بخطوات واسعة باتجاه سلة المهملات، التي كانت كبيرة ومصنوعة من معدن باهت ومكتظة بدنس آلاف التعساء الذين مروا بالغرفة من قبله. رفع يده التي تمسك بزجاجة الخمر عالياً وأفلتها لترتطم بالحاوية محدثة دوي باب فولاذي ينصفق، ثم انهار على سريره.

كان الألم الذي يعتصره، وحاجته الماسة إلى النقود يتنافسان على احتلال الصدارة في حياة مورتنسون بعد انقضاء عطلة الأعياد، ذهب إلى المصرف كي يحصل على مئتي دولار من حسابه هناك، لكن أمين الصندوق أخبره أن المبلغ المتبقي من رصيده لا يتجاوز ثلاثة وثمانين دولاراً. فاتصل برئيسه في المستشفى قبل أن تتحول مشكلته المالية إلى أزمة خانقة، أملاً في الحصول على مناوبة ليلية فورية، لكن الردّ كان: "لقد قلت بأنك ستعود لتغطي مناوبة عشية عيد الميلاد ولم تفعل، كما أنك تغيبت خلال عطلة الميلاد. أنت واحد من أفضل عناصرنا يا جريغ، ولكن عدم التزامك يجعلك عديم الفائدة بالنسبة إلي. أنت مطرود".

تلك العبارة التي سمعها من التلفاز ظلّت عالقة في ذهنه وكان يرددها باستمرار بينه وبين نفسه "لقد قال الشعب كلمته".

أجرى مورتنسون عدة اتصالات بمعارفه القدامى من حلقة متسلقي الجبال حتى وجد لنفسه مأوى بائساً يستطيع أن يقيم فيه ريثما يجد له مخرجاً.

وهكذا، أمضى مورتنسون شهراً يفترش الأرض في الرواق العلوي لمنزل متداعٍ مدهون باللون الأخضر يعود بناءه إلى العصر الفكتوري، حيث يأتي طلاب الجامعة وأولئك الذاهبون لتسلق قمة (يوزميت) أو العائدون منها ليقيموا في الطابق الأرضي حفلات ماجنة تستمر الليل كلّه بينما يتقلب مورتنسون داخل كيس نومه وهو يحاول دون جدوى ألا يسمع الأصوات الداعرة التي تصل إليه عبر الجدران الرقيقة، وكانوا يمرون من فوقه أثناء نومه للذهاب إلى الحمام.

الممرض المتمرس لا يبقى طويلاً دون عمل عندما تتوجد الدوافع اللازمة. فقد أمضى مورتنسون بضعة أيام مضنية داخل وسائط النقل جيئة وذهاباً إلى مقابلات عمل يراوده حنين مبرح إلى لابامبا كلما سار تحت وابل الأمطار حتى وجد عملاً ليلياً لا يرغب به أحد في مركزين طبيين.

تمكن من ادخار ما يكفي من المال واستأجر غرفة تقع في الطابق الثالث من مبنى ليس له مصعد يقع في زقاق ترابي ويتعهد تأجيره عامل بولندي الأصل يدعى "ويتولد دودزينسكي". أمضى مورتنسون بضع أمسيات أنيسة برفقة "دودزينسكي" الذي كان يدخن بشراهة ويشرب دون توقف من زجاجات الفودكا البولندية ذات اللون الأزرق التي كان يشتريها بالصناديق. ورغم استمتاع مورتنسون بمناجاة دودزينسكي الشجية للبابا جون بول، فقد استنتج أن دودزينسكي في الواقع لا يتحدث إلى أحد معين بعد تناوله ما يكفي من الفودكا. ولهذا فقد كان مورتنسون ينسحب إلى غرفته في معظم الأمسيات ويحاول أن يبعد مارينا عن تفكيره.

يقول مورتنسون عن تلك المرحلة: "لقد سبق وأن هجرتني صديقات أخريات من قبل. لكن هذه المرة كانت مختلفة تماماً. لقد تألمت كثيراً ولم يكن لدي حل سوى أن أعيش ذلك الألم حتى نهايته التي لم تبدُ قريبة".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

في بعض الليالي الرحيمة، كان مورتنسون ينسى نفسه وهمومه في خضم العمل. فعندما يواجه طفلة في الخامسة من عمرها تغطي جسدها الصغير حروق من الدرجة الثالثة، يستحيل عليه أن ينغمس في الرثاء للذات. وكذلك، فقد كان يشعر بالرضى عن نفسه عندما يعمل بخفة وبراعة، ويخفف من آلام الناس في ذلك المستشفى المتكامل بأدويته وأدواته ومستلزمات التضميد، وكل ما يمكن أن يحتاجه أي مريض. لا بد أن ذلك يجدي نفعاً أكثر من هدر ثماني ساعات لهبوط منحدر عصي على سيارة الجيب، كما كانت حاله خلال الأسابيع السبعة التي أمضاها يتسكع في كورف.

كان جالساً هناك بين البلطيين في منزل الحاج علي عندما أذاع ذلك العجوز النبأ الصاعق بخصوص الجسر وبدأ ذهنه يتسارع مسعوراً كطريدة تحاول الفكاك من الشرك الذي وقعت فيه، ثم ما لبث أن استرد رباطة جأشه وشعر بسكينة عجيبة. لقد وصل إلى نهاية المطاف، إلى مقصده قرية كورف التي لا يوجد بعدها سوى امتدادات الجليد الأزلي. ومعاودة الخروج منها يعني مواجهة تلك التعقيدات التي أعاقته في كوادرو من جديد. وذلك لن يشكل حلاً. لقد سدت السبل في وجهه. نظر إلى تشانغزي وشاهد ابتسامته الماكرة تزداد اتساعاً، وأدرك أن ذلك الرجل كان يعتقد أنه قد فاز في لعبة شدّ الحبل القائمة حول مدرسة مورتنسون. وبالرغم من خيبة أمله، لم يستطع أن يشعر بالحنق على شعب كورف. إنهم يحتاجون جسراً بالفعل. ثم كان أصلاً يخطط لبناء مدرسته. هل كان ينوي أن ينقل كل لوح خشب، وكل رزمة من الحديد، والمعدات وباقي اللوازم داخل صندوق مخلع آيل للسقوط في نهر برالدو في أي لحظة؟ الحقيقة أنه كان غاضباً من نفسه ومن سوء تخطيطه. وقرر أن يبقى في كورف حتى يعرف كل ما يتوجب فعله كي ترى مدرسته النور. كثيرة هي المنعطفات التي أتت به إلى هذه القرية، ولن يسمح لمنعطف آخر بأن يثنيه عن عزمه.

كان صمت مرتقب معلقاً في هواء الغرفة المزدحمة بكل زعماء كورف الشيوخ، فكسره مورتنسون قائلاً للحاج علي: "حدثني عن ذلك الجسر، ما الذي نحتاجه؟، وكيف نبدأ العمل؟".

في البداية كان مورتنسون يأمل بأن الجسر يمكن أن ينجز بسرعة وبأقل التكاليف. أجابه تواها ابن الحاج علي: "بادئ ذي بدأ علينا أن نفجر الكثير من الحجارة". ونشب جدال جماعي باللغة البلطية بخصوص قصّ الحجارة التي في القرية أو جلبها بواسطة سيارات الجيب من أسفل الوادي. وأصبح الجدال حامي الوطيس حول سفوح التلال التي تحتوي على أفضل أنواع الصوان. أما باقي التفاصيل، فقد وافقوا عليها بالإجماع. الأسلاك الفولاذية وعوارض الخشب يجب أن تشترى وتنقل من سكاردو أو جيلجيت وتبلغ تكلفة ذلك ألوف الدولارات والتعاقد مع العمال المهرة سوف يحتاج إلى ألوف أخرى. ألوف وألوف من الدولارات التي لا يملكها.

أخبرهم مورتنسون أنه أنفق كل النقود على شراء لوازم المدرسة، وأن عليه أن يعود إلى أميركا مجدداً في محاولة لجمع النفقات التي استجدت من أجل الجسر. كان يتوقع أن يراهم محبطين مثله لدى سماعهم ما قاله، لكن الانتظار كان جزءاً من تكوينهم، تماماً مثل الاكتفاء بالهواء الضئيل المتوفر على ارتفاع عشرة آلاف قدم. فهم ينحشرون نصف العام داخل غرف تكاد تختنق بدخان روث الحيوانات الذي توقد به مدافئهم بانتظار أن يتكرم الطقس عليهم ويصبح مقبولاً كي يخرجوا من منازلهم. صائد الطرائد البلطي مستعد لأن يطارد تيساً جبلياً واحداً لأيام عديدة ويراوغه لساعات طويلة بلا كلل حتى يتمكن من الاقتراب منه ويجازف بإطلاق رصاصته الوحيدة الثمينة التي لا يستطيع شراء غيرها. كما أن العريس البلطي لا يرى أي ضير في أن ينتظر عروسه ذات الأعوام الاثني عشر التي اختارها له


https://telegram.me/maktabatbaghdad

والداه حتى تصبح ناضجة بما يكفي كي تعيش بدون أهلها. كان شعب برالدو ينتظر منذ عقود أن تفي حكومة الباكستان النائية بالوعد الذي قطعته لهم لبناء مدرسة لأبنائهم. وما زالوا بالانتظار. الصبر هو أعظم ميزة يتحلى بها هؤلاء القوم.

أراد الحاج علي أن يعرب عن امتنانه لمورتنسون فقال بإنكليزية ركيكة: "شكراً جزيلاً". أن يتلقى ذلك الثناء مقابل خراقته في التخطيط للمشروع كان فوق تصور مورتنسون، فهبّ يحتضن الحاج علي ويشده إلى صدره ويشم فيه ذلك المزيج من عبير الغابات والصوف المبلل ضحك الحاج علي بحبور واستدعى سكينة من عند موقد الطبخ لكي تسكب لضيفه كوباً طازجاً من الشاي بالزبدة الذي صار يستسيغه أكثر من ذي قبل.

وجه مورتنسون الأمر لتشانغزي أن يعود إلى سكاردو وحده وشعر بالرضى وهو يرى إمارات الصدمة التي اعتمرت وجه تشانغزي قبل أن يكبحها بسرعة. أما مورتنسون فلن يغادر القرية عائداً إلى أميركا حتى يحفظ عن ظهر قلب التفاصيل المتعلقة ببناء الجسر كلها.

استقل مورتنسون والحاج علي سيارة جيب هبطت بهما إلى الأراضي الواطئة من نهر برالدو لدراسة وضع الجسور هناك. وعند العودة إلى كورف وضع مورتنسون على دفتره رسماً تخطيطياً للجسر الذي يريده أهل القرية، ثم اجتمع إلى شيوخ القرية وناقش معهم موقع بناء المدرسة حين يعود من أميركا "إنشاء الله".

عندما هبت الرياح عبر الجبال تحمل معها ندف الثلج التي كست كورف لتنذر ببداية الأشهر الطويلة التي سيقضيها أهل القرية محتبسين في منازلهم. بدأ مورتنسون مراسم الوداع. لقد أصبحوا في أواسط شهر كانون الأول، أي أن شهرين قد انقضيا منذ وصوله مع تشانغزي، والأمر بات غير قابل للمزيد من التأجيل. وبعد أن قام بزيارة نصف بيوت القرية

لتناول شاي الوداع، غادر مورتنسون وهو يتأرجح داخل سيارة جيب مكتظة بنصف دزينة من رجال كورف أصروا على مرافقة مورتنسون حتى سكاردو. وكلما تأرجحت السيارة فوق حجر على الطريق الموازي للضفة الجنوبية من برالدو كان الحشد المتلاصق بهدف الدفء والحفاظ على التوازن، يتأرجح وكأنه كتلة واحدة.

كان مورتنسون عائداً من مناوبته الليلية في المستشفى إلى غرفته الخاوية في شقة دودرينسكي التي تعبق برائحة السجائر. عند الشفق المعتم الذي يقع بين الليل والنهار الذي يوحي بأن الجنس البشري قد هجر العالم وشعر بأنه مثقل بالوحدة. هناك مسافات محبطة تفصله عن حميمية الحياة في قرية كورف. وأيضاً فإن مجرد التفكير بالاتصال بجان هويرني، الشخص الوحيد الذي يمكن أن يموّل عودته إليها، يبعث فيه قشعريرة رعب لا يوصف. أمضى فصل الشتاء برمته وهو يتدرب على التسلق في نادي "روك سيتي" الذي يقع ضمن منطقة للمستودعات بين بيركلي وأوكلاند. لقد كان الوصول إلى هناك أقل صعوبة برفقة لابامبا لكن الذهاب بالحافلة يوفر له فرصة التواجد بين البشر إلى جانب ممارسة الرياضة. عندما كان يتدرب هناك فيما مضى كي يصبح لائقاً جسدياً ومستعداً لتسلق كيه2، كان بطلاً في أعين كل أعضاء النادي. أما الآن، فهو لا يفتح فمه إلا لكي يندب إخفاقاته: قمة لم يصل إليها، حبيبة هجرته، جسر لا يملك نفقاته، ومدرسة لم تُبنَ.

ذات ليلة، كان مورتنسون عائداً من عمله في وقت متأخر عندما هاجمه من الخلف أربعة من الصبية لا تتجاوز أعمارهم الرابعة عشرة. وجه أحدهم مسدساً إلى صدره بيد مرتجفة، بينما كان شريكه يفرغ محفظة مورتنسون وهو يشتم: "ياللعنة، هذا البائس لا يحمل سوى دولارين!" ثم دسّ النقود في جيبه وأعاد المحفظة الفارغة إلى مورتنسون "لماذا تعسرنا بهذا الأبيض المتأنق المعدوم؟".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

معدم، معدم، إنه معدم! وبحلول الربيع كان مورتنسون قد غرق تماماً في الكآبة تتراءى له الوجوه المستبشرة لرجال كورف وهم يودعونه عند الحافلة التي ستقله إلى إسلام آباد وبالتأكيد، وبمشيئة الله سيعود إليهم عما قريب حاملاً في جعبته التمويل اللازم كيف يضعون فيه تلك الثقة كلها في حين لا يملك هو منها ذرة واحدة؟

وفي إحدى ظهيرات يوم من شهر أيار، كان مورتنسون مستلقياً على كيس نوم يفكر كم أصبح الفراش بحاجة إلى الغسيل، ويتجادل مع نفسه فيما إذا كان قادراً على احتمال المسافة التي عليه أن يقطعها للوصول إلى المحلات المخصصة للتنظيف، عندما رنّ الهاتف وكان المتصل الدكتور لويس ريتشاردت الذي تسلّق مع رفيقه جيم ويكواير جبل كيه2 عام 1978 وكانا أول أمريكيين ينجحان في الوصول إلى القمة، وقد سبق لمورتنسون أن اتصل به قبل أن ينطلق نحو كيه2 طالباً منه المشورة، وبقي الرجلان يتواصلان بمودة من حين لآخر. قال ريتشاردت: "أخبرني جان بما تحاول أن تفعله بمدرستك، كيف تجري الأمور؟".

أخبره مورتنسون بكل شيء، ابتداءاً من الرسائل الخمسمئة والثمانين التي كتبها وانتهاءاً بحجر العثرة التي وضعها أمامه الجسر. وما لبث أن انخرط في بث همومه الشخصية لهذا الرجل الناضج الذي يحدثه بصورة أبوية. عن حبيبته التي خسرها وعمله الذي فقده وأخيراً كابوسه الأسوأ، لقد أضل سبيل هدفه. "تمالك نفسك يا جريغ. لاريب أنك تعرضت لبعض الصدمات القاسية، ولكن ما تحاول إنجازه أشد وعورة من تسلق كيه2".

وقد علّق مورتنسون على ذلك فيما بعد قائلاً: "عندما تأتي تلك العبارات من شخص مثل ريتشاردت فإنها تعني الكثير. لقد كان مثلي الأعلى".

المشقات التي مرّ بها ريتشاردت وويكواير كي يصلا إلى القمة تعد أسطورية في عالم تسلق الجبال. في البداية، حاول ويكواير أن يتسلق الجبل عام 1975، وقام جالن راوول، المصور الفوتوغرافي وأحد أعضاء البعثة، بتدوين كتاب حول جهود المجموعة الجبارة والمصاعب الجمّة التي واجهتهم، وكان الكتاب بمثابة وثيقة عن أشرس إخفاق في تسلق الجبال سجله التاريخ. وبعد ثلاث سنوات، عاود ريتشاردت وويكواير المحاولة وتمكنا من الوصول على مبعتدة ثلاثة آلاف قدم من القمة عبر ممر الحافة الغربية المهولة، عندما دفع بهما نحو الأسفل انهيار جليدي. وبدلاً من الشعور بالإحباط والكف عن المحاولة اجتازا جبل كيه2 على ارتفاع خمسة وعشرين ألف قدم من المعبر التقليدي المدعو حافة أبروتيري الذي سبق وأن جربه معظم المتسلقين، ليصبحا بذلك الرجلين الاستثنائيين اللذين نجحا في بلوغ القمة من هناك. كانت نسبة الأكسجين لدى ريتشادرت تتناقص بسرعة، فاتخذ القرار الحكيم بالعودة نحو الأسفل دونما إبطاء. أما ويكواير فقد ظلّ واقفاً على القمة يحاول أن يمسح غشاوة الضباب عن عدسة كاميرته لكي يلتقط صوراً ويتلذذ بطعم نجاحه في إحراز هدف عمره.

لم يكن ويكواير يحمل مصباحاً رأسياً، فلم يتمكن من الهبوط بالطريقة المتعارف عليها بسبب الظلام، وكان مجبراً على احتمال مبيت ليلة في العراء الجليدي على ذلك العلو الشاهق. نفذ الاكسجين لديه وعانى من ضربة صقيع حادة، وأصيب بذات الرئة وذات الجنب وتشكلت مجموعة من العقد المميتة في رئتيه. ناضل ريتشاردت مع باقي الفريق لإبقائه حياً بالعناية الطبية المتواصلة ريثما وصلت طوافة أسعفته إلى المستشفى ومن هناك إلى منزله في سياتل حيث خضع لعملية جراحية خطيرة في صدره لاستئصال العقد التي كانت في رئتيه.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ريتشاردت يعرف الكثير عن المعاناة والكدح اللازمين في سبيل الوصول إلى الأهداف الصعبة. لذا فإن إقراره بأن الطريق التي يريد مورتنسون أن يسلكها وعرة للغاية، جعل مورتنسون يشعر بأنه لم يخفق. كل ما في الامر أنه لم يتابع الصعود نحو الأعلى لكنه سيفعل.

" تحدث إلى جان وأخبره بكل ما اخبرتني إياه، وأطلب إليه أن يعطيك نفقات بناء الجسر، وصدقني إنه يملك ما يكفي من المال".

شعر مورتنسون وللمرة الأولى منذ عودته بأنه بدأ يسترد شيئاً من نفسه. أغلق سماعة الهاتف وراح يتصفح الدفتر الذي يدوّن عليه أرقام الهواتف حتى وجد قصاصة الورق التي تحمل أسم هويرني ورقم هاتفه، وتحمل أيضاً تلك العبارة "إياك والإخفاق". إن كان حقاً قد أخفق أم لا، فهذا ما سيقرره الرجل الذي ينوي أن يفاتحه بالأمر، وراحت أصابعه تدير قرص الهاتف وما لبث أن سمع رنينه من الطرف الآخر.

# الفصل العاشر

## بناء الجسور

"على هذه الجبال المتطاولة عند أطراف الكون، حيث قد يحضر البشر للزيارة، لكنهم لا يستطيعون العيش، تتخذ الحياة أهمية جديدة. إنها جبال غدارة، والذي يسهى عن جبروتها ويتجرأ على الخوض في تشعباتها، يتلقى تلك الصفعة اللامبالية والقاضية من الثلوج والصخور والرياح والبرد"

جورج شالر في كتابه "حجارة الصمت"

كان الرجل على الطرف الآخر من الهاتف يصق بكلماته وكأن عليها أن تصل إلى النصف الآخر من الكرة الأرضية، مع أن مورتنسون كان يعلم بأنه لا يبعد عنه أكثر من مئتي كيلومتر "كرر ما قلته" أمره الصوت.

فصاح مورتنسون في غمرة التشويش الهاتفي: "السلام عليكم. أريد أن أشتري خمس بكرات بطول أربعمئة قدم من الكابلات الفولاذية ثلاثية الضفائر. هل أجد عندك تلك الكمية يا سيدي؟".

راق خط الهاتف فجأة عندما رد عليه الرجل:

"بالتاكيد ويبلغ سعرها خمسمئة ألف روبيه للكبل الواحد، أيناسبك هذا السعر؟".

"وهل لدي خيار آخر؟".



https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضحك البائع قائلاً: "كلا، فأنا الشخص الوحيد في أنحاء المنطقة الشمالية جميعها الذي لديه تلك الكمية من الكابلات. هل لي أن أسألك عن اسمك الكريم؟".

"مورتنسون، جريغ مورتنسون".

"من أين تتصل يا سيد جريغ؟ هل أنت في جيلجيت؟".

"أنا في سكاردو".

"وهل لي أن أسأل عما ستفعله بهذه الكمية؟".

"قرية أصدقائي التي تقع في وادي برالدو الأعلى لا يوجد فيها جسر. وأريد أن أساعدهم في بنائه".

"آه. أنت أميركي.أليس كذلك؟".

"لقد سمعت عن ذلك الجسر. وهل الطرق الفرعية المؤدية إلى قريتك صالحة لعبور سيارة جيب؟".

"إن لم يهطل المطر. أتستطيع إيصال الكابلات؟".

"إنشاء الله".

لم يقل "لا" بل ترك الأمور لمشيئة الله. لقد كان رداً رائعاً بالنسبة لمورتنسون بعد سلسلة الاتصالات الفاشلة التي قام بها إنه الرد العقلاني الوحيد عندما يكون الأمر متعلقاً بنقل البضائع في المنطقة الشمالية. لقد حصل على الكبلات، اللوازم الأخيرة، ونادرة الوجود، التي يحتاجها للمباشرة في بناء الجسر. مازال الوقت في بدايات شهر حزيران وإن لم تظهر عقبات أخرى فإن الجسر سيكون قد اكتمل قبل حلول فصل الشتاء، وهكذا يمكن المباشرة في بناء المدرسة في فصل الربيع القادم.

لم تكن مخاوف مورتنسون حول الاتصال بجان هويرني في

مكانها، فقد كان الرجل غاية في اللطف وهو يحرر له شيكاً آخر بمبلغ عشرة آلاف دولار "أريدك أن تعرف أن بعضاً من زوجاتي السابقات كنّ ينفقن أكثر من هذا خلال عطلة أسبوعية واحدة" إلا أنه انتزع وعداً من مورتنسون "احرص على بناء المدرسة بأسرع وقت ممكن، وعندما تكتمل أرسل لي صورة عنها. فلم يتبق لي الكثير من الوقت" قالها بلهجة آمرة لكن مورتنسون كان يطفح بالسعادة وهو يؤكد له انه سيفعل.

"والكبلات متوفرة عند ذلك الرجل؟" سأل تشانغزي

"أجل".

"وكم يبلغ ثمنها؟".

"المبلغ نفسه الذي ذكرته لي، ثماني مئة دولار للبكرة الواحدة".

"وسنستلمها عند الموقع في الأعلى؟".

"إنشاء الله" أجابه مورتنسون وأعاد سماعة الهاتف إلى مكانها على الطاولة في مكتبه.

النقود التي حصل عليها من هويرني، وعودته إلى المسار الصحيح، غمرت مورتنسون بالحيوية والحماسة حتى أنه كان سعيداً بصحبة تشانغزي من جديد.

أما تلك المبالغ التي كان تشانغزي يضعها في جيبه خلسة عند كل صفقة تجري بالروبية، فلم تكن تساوي شيئاً أمام شبكة الاتصالات الواسعة التي يملكها ذلك الرجل، إذ يبدو أن عمله السابق في سلك الشرطة جعله يعرف الناس جميعهم تقريباً.

كما أن تشانغزي وضع له قائمة مذيلة بتوقيعه عن كل مواد المدرسة الموجودة في مستودعاته. وهكذا فلم يعد هناك مسوّغ للإستغناء عن إمكانياته البارعة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

أقام مورتنسون لمدة أسبوع في مكتب تشانغزي ينام عند الحائط الذي يحمل خارطة قديمة للعالم ماتزال تحمل اسم تانجانيقا فوق البلد التي تعرف الآن باسم تنزانيا، مما دغدغ أحاسيسه حيال جماليات مضت ولن تعود ابداً أما رفقة تشانغزي فقد كانت مسلية للغاية، إذ كان يحدثه عن أساليب المكر والاحتيال التي يمارسها. وبما أن الطقس خلال فصل الصيف كان معتدلاً على غير العادة، فقد تمكن تشانغزي من أن يؤمن التجهيزات لعدة مجموعات استكشافية ومنها، على سبيل المثال، مجموعتان ألمانية ويابانية تخططان لتسلق كيه2، وأخرى إيطالية تستعد للقيام بمحاولتها الثانية في تسلق (جاشربروم) الرابع. وبالتالي، فقد أصبح بحوزة تشانغزي الآن ألواح من الشوكولا ألمانية الصنع محشورة في جميع شقوق جدران المكتب، وكأنه سنجاب يجمع مؤونة الشتاء، وصندوق يحتوي على علب مشروب طاقة صنع في اليابان ويحمل اسم (بخارى الحلوة) وضعه خلف الطاولة، مستنداً إلى نصف دزينة من علب البسكويت.

لكن أطايب الأصناف الأجنبية التي كان تشانغزي يتلذذ بها فعلاً فكانت تحمل أسماء مثل (هيلديجونز وإيزابيلا). هذا الرجل الذي لديه زوجة وخمسة أولاد يبقيهم بعيداً عن الأنظار داخل بيته في راولبندي القصية، وزوجة ثانية منبوذة في شقة مستأجرة تقع قرب مخفر الشرطة في سكاردو، يمضي موسم الاصطياف وهو يندس بين الموائد المفتوحة للسائحات ومتسلقات الجبال اللواتي يتوافدن إلى سكاردو بأعداد هائلة.

وراح تشانغزي يخبر مورتنسون عن الطريقة التي يجعل فيها عبثه ذاك شرعياً في نظر الديانة الإسلامية حرصاً على تعاليمها، فعندما يجد الرياح مواتية لدى إنجريد أو ربما آيكو، يتوجه إلى مسجده ويلتمس لدى الإمام إذناً شرعياً كي يعقد زواج المتعة. عِرف الزواج

المؤقت ذاك مازال سائداً في بعض أنحاء الباكستان الشيعية، وهي من أجل إضفاء صفة شرعية لعلاقات يحتاجها الرجال الذين يغيبون عن زوجاتهم لفترات طويلة ولأسباب موجبة مثل الحرب أو تجارة القوافل المديدة. لكن تشانغزي كان قد حصل على الأحقية في زواج المتعة مرات عديدة خلال موسم التسلق الذي بدأ منذ فترة وجيزة، والسبب في ذلك، كما تبرع تشانغزي وأوضح له بمزاج رائق، هو أن تصبح المعاشرة، مهما كانت قصيرة، حلالاً في أنظار الله بدلاً من أن تكون عملية جنسية صرفة. فسأله مورتنسون إن كان عقد زواج المتعة من حق النساء اللواتي يتركهن أزواجهن أيضاً.

"أعوذ بالله، لا، أبداً!" أجابه تشانغزي وهو يهز برأسه استنكاراً أمام جهل هذا الرجل الساذج ثم أعطاه بسكوتة كي يغمسها في الشاي.

بما أن طلبية الكابلات الفولاذية أصبحت جاهزة وستصل عما قريب، فقد استأجر مورتنسون مكاناً له في سيارة جيب متجهة إلى (أسكول)، شقت السيارة طريقها إلى أعلى وادي (شيجار) بين أشجار التفاح والمشمش الناضجة. كان الجو صافياً لدرجة أن الشقوق المسننة ذات اللون الصّدى المذهب لسفوح جبل (كاراكورام) الواقعة على ارتفاع ثمانية آلاف قدم بدت متقاربة وتكاد تلامس بعضها البعض. أما الطريق فقد كان أفضل ما يكون عليه حال درب ترابي محفور على حافة الجبل وتتناثر عليه كتل الانهيارات الصخرية.

لكن الحال تغير عند نهاية وادي نهر (برالدو) إذ تراكضت غيوم منخفضة وخيمت فوق سيارة الجيب قادمة من جهة الجنوب، إنها الرياح الموسمية التي تهب من الهند. وفي الوقت الذي وصلوا فيه إلى (أسكول) كان كل ركاب سيارة الجيب المكشوفة غارقين بالبلل وملطخين ببقع من الطين رمادية اللون.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ترجل مورتنسون عند المحطة الأخيرة لسيارة الجيب قبل الوصول إلى قرية (أسكول) تحت وابل المطر الذي كان يفتح حفراً في الطريق الموحلة. مازالت كورف تبعد ساعات سيراً على الأقدام، ولم يفلح في إقناع السائق بإكمال الطريق نحو الأعلى بسبب الظلام. فأمضى مورتنسون ليلته على مضض، مفترشاً أكياس الأرز داخل دكان ملحق بمنزل الحاج مهدي، مختار قرية (أسكول)، ويطرد عنه الجرذان التي كانت تحاول تسلق الاكياس هرباً من المياه التي غمرت أرض المكان.

عندما حلّ الصباح، كان المطر ما يزال يهطل بغزارة وكأن يوم القيامة قد حل، وسائق السيارة قد اتفق مع أحدهم لإيصال حمولة ما إلى سكاردو، فانطلق مورتنسون باتجاه كورف سيراً على الأقدام. مازال مورتنسون يحاول أن يتصالح مع قرية (أسكول) لأنها نقطة الانطلاق لأي مجموعة استكشافية ستتجه إلى الشمال الشرقي نحو (بالتورو)، فقد ابتليت بأخس أنواع التواصل بين المتسلقين الذين يحتاجون إلى حمالين أو إلى شراء بعض من اللوازم التي فاتهم شراؤها وبين النصّابين الذين يريدون استغلالهم. وبما أنه لا توجد بدائل أخرى لدى الشاري، فمن البديهي أن يضاعف تجار (أسكول) الأسعار وأن يرفضوا بعنادٍ بغل أي نوع من المساومة. خاض مورتنسون في وحل الطريق وغاص لعمق قدمين في مياه الأمطار بين الجدران المستديرة لأكواخ الحجر والطوب حتى شعر بأن أحدهم يشد قميصه من الخلف. وعندما استدار شاهد صبياً رأسه يعج بالقمل يمد يده نحو هذا (الإنجريزي). كانت تعوزه المفردات الإنكليزية ليعبر عن حاجته للنقود، لكن المطلب كان واضحاً. اخرج مورتنسون تفاحة من حقيبته وناولها للصبي، لكن هذا رمى التفاحة في المزراب وانصرف عنه.

وصل إلى حقل يقع شمال (أسكول) وعبره بعد أن كمم أنفه بطرف قميصه لصد الروائح الخانقة. بما أن الحقل كان موقعاً أقامت فيه عشرات من المجموعات الاستكشافية، فقد امتلأ بأكوام لا تحصى من فضلات البشر.كان مورتنسون قد قرأ منذ فترة كتاباً تحت عنوان "مستقبليات موغلة في القدم" لمؤلفته هيلينا نورنبرج هودج، ولم يزل حاضراً في ذهنه. مؤلفة الكتاب عاشت لمدة سبعة عشر عاماً في المنطقة التي تقع مباشرة إلى الجنوب من هذه الجبال في بقعة شبيهة بالتستان تدعى (لاداخ)، اقتطعت من الباكستان ضمن حدود اعتباطية رسمها المستعمرون عبر الهيملايا. وبعد دراسة للثقافة اللاداخلية استمرت ما يقارب عقدين من الزمن، توصلت هودج إلى نتيجة مفادها أن الحفاظ على طريقة العيش التقليدية في لاداخ بسلالاتها المديدة التي تحيا بانسجام مع الارض تمنح الناس السعادة والاستقرار الذي يعجز عنه مايسمى بتحسين مستوى المعيشة بواسطة وسائل تطوير غير مدروسة.

وقد كتبت عن ذلك موضحة "في السابق كنت أفترض أن مسيرة التقدم حتمية ولا رجوع عنها فاخترت لنفسي دون تفكير مساراً جديداً عبر حديقة غناء، وبناء من الفولاذ والزجاج احتل موقع كنيسة كان عمرها قرنين من الزمن، وقناعة تؤكد أن الحياة تزداد صعوبة وتسارعاً يوماً بعد يوم. لكن الأمر مختلف الآن بالنسبة لي. لاداخ علمتني أنه يوجد أكثر من سبيل نحو المستقبل، ولقد كنت محظوظة لأنني شاهدت بأم عيني طريقة أخرى للحياة أكثر عقلانية: نموذج للعيش مبني على الشراكة التنموية بين البشر والأرض.

وتتابع هودج بسط أرائها بأنه لا يحق للعاملين على تطبيق أساليب التطوير المصنعة في الغرب في أن يفرضوا ما يسمونه رفعاً لمستوى المعيشة على الحضارات القديمة، بل على البلدان الصناعية أن


https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتعلموا دروساً عن كيفية بناء مجتمعات راسخة من اللاداخيين وأمثالهم. "ما شاهدته هو ان مجتمعاً لديه رابطة وثيقة مع الأرض، يستطيع أن يرفد الحياة البشرية بثراء تعجز عنه الإمكانيات المادية المجرّدة وتعقيدات التكنولوجيا".

كان مورتنسون يصعد الممر الجبلي المنزلق بوحول الأمطار ويؤدي إلى كورف، حريصاً على أن يظل مجرى نهر برالدو إلى يمينه، وقلقاً في الوقت ذاته حيال التغيرات التي سيحدثها الجسر عندما يكتمل على حياة تلك القرية المعزولة. وشرح مورتنسون سبب قلقه: "الناس في كورف يعيشون حياة شاقّة، لكنها بالمقابل تتمتع بنقاء يندر وجوده. كنت أعلم أن الجسر سيجعلهم قادرين على الوصول إلى المستشفى خلال ساعات بدلاً من أيام، كما أنهم سيتمكنون من تسويق محاصيلهم بسهولة كبيرة. مصدر قلقي كان العالم الخارجي سيتدفق إليهم عبر الجسر، وما يمكن أن يفعله بتلك القرية الوادعة".

كان رجال كورف بانتظار مورتنسون عند ضفة النهر، ونقلوه إليهم بواسطة الصندوق المترنح نفسه، وعلى ضفتي النهر حيث سينتصب برجا الجسر، تكومت ألواح الصوان الخشنة، جاهزة لمباشرة البناء. كان الحاج علي قد نجح في إقناع مورتنسون بالحصول على الأحجار اللازمة من سفوح التلال القريبة من ضفتي النهر، تفادياً لإشكاليات نقلها عبر النهر وفوق الطرق ذات الأخاديد العميقة. خصوصاً وأن كورف تفتقر إلى كل شيء ماعدا الصخور والحجارة.

قاد مورتنسون الموكب عبر القرية الغارقة في المطر نحو منزل الحاج علي، حيث سيعقدون اجتماعاً بخصوص بداية العمل على الجسر. لكن تيساً جبلياً يكسوه وبر أسود طويل كان يعترض درباً يقع بين منزلين، فيما راحت طاهرة ذات السنوات العشر وابنة حسين،

الرجل الذي حظي بأرقى قسط من التعليم في كورف تشد التيس بواسطة حبل معقود بالقرط المثبت في أنفه، وتلاطفه كي يخلي الدرب. لكن التيس كانت لديه مشاريع أخرى، وراح على مهل يفرغ من أمعائه كومة ساخنة، تجمعت فوق الوحل، ثم غادر بإجلال ودخل إلى منزل طاهرة. أزاحت طاهرة غطاء رأسها الأبيض عن وجهها بلهفة وسارعت إلى صنع أقراص من روث التيس وحشرتها داخل شقوق المنزل الأقرب إليها كي تجف قبل أن تجرف الأمطار تلك الغنيمة من مصدر الطاقة.

في منزل الحاج علي، أخذت سكينة يد مورتنسون في راحتيها مرحبة به، وانتبه إلى أن هذه هي المرة الأولى التي تلامسه فيها أنثى بلطية، ثم نظرت نحو الأعلى وابتسمت في وجهه ابتسامة عريضة وكأنها تحثه على اتخاذ مبادرة مماثلة. ولم يتردد مورتنسون، بل عبر عتبة الباب الذي يفضي إلى ما تدعوه مطبخها، والذي لم يكن سوى نار تشتعل داخل دائرة من الأحجار وبعض الرفوف ولوح طويل من الخشب المعوّج يستعمل لتقطيع اللحوم ملقى على الأرضية الترابية. انحنى مورتنسون فوق حلقة النار وألقى التحية على جيهان حفيدة سكينة، التي ابتسمت بخفر ودسّت غطاء رأسها الخمري بين أسنانها لتختبئ وراءه.

كانت سكينة تضحك وهي تحاول أن تزيح مورتنسون من مطبخها، لكنه أخذ قبضة من التامبوروك، شاي الجبال الأخضر الذي يحمل نكهة الأعشاب. من داخل جرة نحاسية كامدة، وملأ إبريق الشاي الذي يكسوه السواد من صفيحة من الماء المعبأ من النهر، وأضاف بضع حجرات إلى موقد النار المتأرجح، ثم وضع إبريق الشاي فوقه كي يغلي. سكب الشاي الأخضر المرّ وقدمه بنفسه لمجلس كبار القرية، ثم أخذ لنفسه كوباً وجلس على وسادة بين الحاج علي والمدفأة المشتعلة بروث تيس الجبل ودخانه الذي يعمي العيون.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

تقول جيهان: "في البداية، أصيبت جدتي بالذعر عندما دخل دكتور جريغ إلى مطبخها، لكنها سرعان ما تقبلت الأمر لأنها كانت تعتبره ابناً لها، وصارت تناكف جدي بأن عليه أن يتعلم التعاون من ابنه الأميركي" إلا أنّ الحاج كان يقظاً على الدوام في إشرافه على مصالح كورف، ويقول مورتنسون عن ذلك: "ما كان يدهشني هو أن الحاج علي الذي لم يكن لديه هاتف أو كهرباء أو أي وسيلة اتصال، كان يعرف كل شيء يحدث في وادي برالدو ومحيطه" أعلن الحاج علي بأنّ سيارتي جيب تحملان الكبلات الفولاذية اللازمة لبناء الجسر قد نجحتا في الوصول إلى مسافة تبعد ثمانية عشر كيلومتراً عن كورف، لكن انزلاقاً صخرياً تسبب في سدّ ماتبقى من الطريق. وبما أن الانزلاق يمكن أن يبقي الطريق مسدوداً لبضعة أسابيع، والرافعات الثقيلة المتواجدة في سكاردو صعبة المنال خلال فصل الشتاء، فإن الحاج علي يقترح بأن يتبرع كل رجل قوي البنية في القرية بحمل الكابلات الفولاذية إلى القرية كي يباشروا ببناء الجسر على الفور. وبابتهاج وجده مورتنسون غير قابل للتصديق حيال تلك المهمة الشاقة، قام خمسة وثلاثون بلطياً من شبان في سن المراهقة إلى رجال في عمر الحاج علي ابيضت لحاهم، بالسير تحت المطر لمدة يوم كامل وأعادوا الكرة ولمدة نصف يوم آخر كي ينقلوا الكابلات الفولاذية صعوداً نحو كورف. كانت كل لفة من الكابلات تزن ثمانين رطلاً، فأدخلوا في وسطها ألواحاً من الخشب الغليظ وتعاون على حمل كل واحدة منها عشرة رجال.

مورتنسون، الذي كان يفوق كل رجال كورف طولاً وعرضاً، حاول أن يساهم في العمل، لكن اللفة كادت تسقطه أرضاً فاكتفى بمراقبة الرجال وهم يعملون. لم يكن الأمر شاقاً بالنسبة لهم لأن عملهم السابق كحمالين عند مجموعات الاستكشاف الغربية، كان

يتطلب منهم حمل أوزان مماثلة والصعود بها إلى أعالي (بالتورو).
سار الرجال نحو الأمام يهللون ويمضغون التبغ الذي وزعه الحاج علي عليهم من جيوب صدرته العامرة على الدوام. ابتسم تواها ابتسامة عريضة من تحت النير وهو يسير جنباً إلى جنب مع والده. وقال لمورتنسون أن الكدح في سبيل قريتهم معطاء أكثر من الركض وراء الغايات المبهمة للمتسلقين الأغراب. وفي كورف حفر الرجال أساسات عميقة على كلا الضفتين الغارقتين بالوحل، لكن الرياح الموسمية كانت ما تزال تهب والإسمنت لم يثبت بسبب الأمطار. فاقترح تواها مع مجموعة من الشبان أن يذهبوا لاصطياد تيس جبلي ريثما يتوقف المطر ووجهوا الدعوة لمورتنسون كي يرافقهم.

لم يكن مورتنسون على ثقة بأنه مستعد لرحلة تسلق إلى الأعالي لأنه انتعل حذاء رياضياً خفيفاً ويستر جسمه قميص وسترة رقيقة ابتاعها من سوق سكاردو بثمن بخس لكنه رأى أن بقية رفاقه الستة لم يكونوا أفضل منه جاهزية. فاثنان منهم كانت تلتف على أقدامهما أشرطة جلد حيواني مدبوغ وتواها ينتعل حذاء لا يناسب سوى الحفلات الأرستقراطية، كان متسلق عابر قد أعطاه إياها، أما بقية الأقدام فكانت تنتعل صنادل من البلاستيك.

غادروا كورف متجهين نحو الشمال تحت المطر المسترسل في الهطول وعبروا حقول الحنطة الناضجة التي تتشبث بالتربة حيث تكون المياه وفيرة، كانت حبات القمح المكتملة التي تشابه أكواز ذرة مصغرة تتمايل عند أطراف سنابلها المترنحة تحت سياط الأمطار، في حين سار تواها يحمل بافتخار السلاح الوحيد الذي بحوزتهم والذي لم يعدُ بندقية قديمة تعود إلى بدايات عهد المستعمرات. كان صعباً على مورتنسون أن يصدق بأنهم ينوون اصطياد تيس جبلي بقطعة السلاح تلك التي لا تصلح إلا للمتاحف.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجد مورتنسون الجسر الذي تاه عنه في طريق عودته من كيه2 ذلك الممر المجدول من صوف تيس الجبل المتراخي بين كتلتين صخريتين على طرفي نهر برالدو. كم أبهجه مشهد ذلك الجسر الـذي يـؤدي إلى أسكول الذي حوله عن الدخول إلى المكـان الـذي بـدأ يعتـبره وطنـه الثاني. إنه ممر كان سيفضي به إلى حياة أخرى ليست عامرة كتلك التي يعيشها الآن والفضل فيها يعود إلى تيهه الذي قاده إلى كورف.

أطبقت عليهم جدران الوادي وهم يصعدون تحـت المطـر الغزيـر ورذاذ نهر برالدو المتكافلة على إغراقهم بالبلل على الطريق المتـشبث بحافة الجرف الذي قامت أجيال وأجيال مـن البلطـيين بدعمـه بـألواح من الصخر المسطح لمنعه مـن الـسقوط، رفـاق مورتنـسون البلطيـون عبروا الحيد الذي لا يتجاوز عرضه قدمين وكـأنهم يـسيرون في سـهل منبسط، أما هو فكان يتحسس موضع كل موطئ قدم ويتكئ إلى جدار الوادي بكلتا يديه، لأنه يعي تماماً معنى السقوط عن ارتفاع مئتي قـدم إلى لجة برالدو. قبح النهر في ذلك الموقع كان مناقـضاً تمامـاً لجمـال الذرا الجليدية التي انجبته. برالدو الذي يجرف الطمي نحو الأمام وهو يزمجر عبر سرداب من الجلاميد الداكنة المنحوتة بجبروتـه، تقبـع في الأعماق الأسنة التي لا تعرف أشعة الشمس، كان أشبه بـأفعى تتلـوى وتنفث سمومها. كيف يمكن للمرء أن يصدق بأن هذا السيل المـتجهم هوالذي يمنح الحياة لتلك السنابل الذهبية وجميع محاصيل كورف!.

عندما وصلوا إلى خطم نهر بيافو الجليدي، كان المطر قد توقـف. اخترق وميض البرق حجب الغيوم وأضاء قمة (بـاخورداى) الـتي تقـع إلى جهة الشرق بنور أصفر ساطع. هؤلاء الرجال يعرفون ذلـك الهـرم البالغ ارتفاعه تسعة عشر ألف قدم باسم كيه2 التي تنتمي لقرية كـورف لأن بنيانه الصافي كبنيان أخيه الأكبر في أعـالي بـالتورو، يبـسط قامتـه المهيبة فوق منازلهم كعناية إلهية.

في وديان مثل برالدو الاعلى، مازالت الديانة الإسلامية متمسكة بمعتقدات روحانية، وهكذا فقد وجد رجال كورف في هذه الرؤية الوضاءة لجبلهم بشير فأل لرحلة صيدهم، وراحو يرددون وراء تواهـا ابتهالات دينية نذروا على أنفسهم من خلالها بألا يصطادوا أكثر من تيس واحد. ولكن لكي يعثروا على ذلك التيس كان عليهم أن يتسلقوا نحو الأعلى. كان عالم الأحياء الميداني الشهير جورج شاللر قد لاحق جماعات تيس الجبل وسلالتها في أنحاء الهيملايا جميعها، أما رحلة الاستكشاف التي قام بها بيتر ماتثيسن برفقة شاللر عام 1973 عبر نيبال الغربية لإجراء دراسة على "البهارال" أي الخروف الأزرق، فقد وضعت حجر الأساس الذي قامت عليه رائعة ماتثيسن المتكاملة "نهر الثلج" والتي أضفت عليها تفاصيل سيرهم الطويل عبر الجبال الشاهقة روح من يمارس طقوس حج مقدس.

الجبال العظيمة تتطلب أشياء أخرى إلى جانب المقدرة البدنية القوية. وقد أقرّ شاللر في كتابه "أحجار الصمت" أن تجواله عبر كاراكورام الذي وصفه "بأشد المناطق وعورة على سطح الكرة الأرضية" كان بالنسبة إليه طوافاً روحياً إلى جانب كونه رحلة علمية. ويقول في كتابه: "المعاناة وخيبات الأمل كانتا سمتين ملازمتين لهذه الأسفار "ولكن" الجبال تفتح الشهية، وصرت أريد المزيد من كاراكورام".

لقد طاف شاللر هذا الممر الجبلي تحديداً منذ عقدين من الزمن، يجمع المعلومات عن تيوس الجبل، نعاج ماركو بوللو، ويستكشف المواقع التي كان يأمل في أن تحولها الحكومة الباكستانية إلى "متنزه كاراكورام الوطني". وبعد أيام طويلة قضاها منحنياً فوق منظاره الكاشف، وجد نفسه مذهولاً أمام البراعة التي تمكن فيها تيس الجبل من التأقلم مع أشد مناطق الطبيعة شراسة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

تيس الجبل الأبيني عبارة عن نوع ضخم من الماعز متين البنية ويمكن تمييزه بسهولة عن طريق قرونه الطويلة المعقوفة التي يبجلها البلطيون بالدرجة نفسها التي يتمتعون فيها بمذاق لحمه. اكتشف شاللر أن تيس الجبل يرعى في مناطق عالية من كاراكورام لا تقدر بقية الحيوانات على الوصول إليها لأن قوائمها الثقيلة تساعدها على الطواف في الحيود الضيقة على ارتفاع يصل إلى سبعة عشر ألف قدم حيث تكون بأمان بعيداً عن مخالب مفترسيها من الذئاب ونمور الثلج. وضمن الحدود الضيقة التي يمكن أن يتوافر فيها النبات، يقتات تيس الجبل على البراعم والحشائش وجذورها، وتمضي نصف كل نهار تبحث عن الكلأ من أجل الحفاظ على بقاء كامل المجموعة.

توقف تواها عن المسير عند لسان الثلج الموحل الذي يدلّ على بداية حافة نهر بيافو الجليدي، وأخرج من جيب السترة ذات اللون الخمري التي سبق وأن أعطاه إياها مورتنسون كتلة صغيرة مستديرة يدعونها تومار "أي تعويذة الشجاعة. البلطيون يضعون التومار حول رقبة المواليد الجدد لطرد الأرواح الشريرة التي كانوا يلقون عليها اللوم في وفيات الأطفال الكثيرة والمفجعة في مجتمعهم. وبالطبع، فلن يفكر أحد بأن يخوض غمار رحلة خطيرة بمحاذاة نهر هادر من الجليد دون أن يتخذ احتياطات كهذه. ربط تواها الكتلة المبهمة المنسوجة من خيوط صوفية قرمزية وحمراء داكنة فوق سترته وحذا الآخرون حذوه، ثم وضعوا أقدامهم على الحافة.

التنقل مع رجال يبحثون عن طريدة كي يأكلوها، كان أمراً مغايراً للحركة مع قوم من الغرب يبحثون الخطى نحو القمم لغايات أكثر تعقيداً. ورأى مورتنسون البراري الجليدية بأعين جديدة. ليس من المستغرب أن قمم الهيملايا الضخمة لم تطؤها قدم بشرية حتى

أواسط القرن العشرين، فالناس الذين يعيشون بجوارها منذ آلاف السنين لن تخطر لهم فكرة كهذه لأن عليهم أن يكونوا على الدوام للحصول على ما يسد رمقهم ويمنحهم ما يكفي من الدفء كي يبقوا أحياء على سطح الكرة الأرضية. ومن هذه الناحية، لا يوجد اختلاف كبير بين الشعب البلطي وبين تيس الجبل الذي يطاردونه.

شقوا طريقهم نحو الغرب بين ألواح الجليد المتأرجحة والتجمعات المائية خفيفة الزرقة. رجع صدى التيارات التي تتلاطم أسفل النهر كان يصل إلى مسامعهم عبر الشقوق ويكسر جدار الصمت انهيار الصخور التي تشققت بفعل المناخ دائم التقلب بين البارد والحار. وعلى مقربة منهم من جهة الشمال في بقعة مابين الغيوم المنخفضة، يجثم (أوجر)، ذلك الحائط العمودي البالغ ارتفاعه (23900) قدم الذي لم يقدر أحد على قهره حتى عام 1977 عندما تسلقه البريطانيان كريس بونينغتون وداغ سكوت. لكن (أوجر) تمكن من الأخذ بثأره أثناء رحلة الإياب وعاد سكوت إلى المعسكر المركزي زاحفاً، يجر وراءه ساقيه المكسورتين.

يرتفع جبل بيافو بمقدار (16600) قدم عند بحيرة الثلج، قبل أن ينضم إلى نهر (هيسبار) الجليدي الذي ينحدر باتجاه وادي (هونزا). ويطوله البالغ سبعمئة وستة أميال من المنبع حتى المصب، يشكل أطول بقعة جليدية متكاملة بعد قطبي كوكب الأرض. هذا الممر الطبيعي كان عبر التاريخ الطريق التي تتخذها عصابات (هونزا) كي تغزو وتنهب وادي (برالدو) أما الآن، فهو متاح كلياً لهؤلاء الصيادين الذين لم يعترض سبيلهم شيء باستثناء آثار أقدام نمر جليدي دلهم عليها تواها بحماسة، وزوج حزين من النسور يحلقان بحب استطلاع في طبقات الهواء الحار العليا من فوق رؤوسهم.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد السير الطويل فوق الثلج الناعم وهو ينتعل حذاءه الرياضي الرقيق، شعر مورتنسون بأن قدميه قد بدأتا تتجمدان، فأخرج حسين، والد طاهرة، من صرته بعضاً من القش وبطّن به حذاء مورتنسون، مما جعل الصقيع محتملاً إلى حدٍ ما. لكنه كان يتساءل كيف سيمضون الليالي القارصة وهم لا يحملون خياماً ولا أكياساً للنوم. وما لبث أن ذكر نفسه أن البلطيين بدؤوا بممارسة الصيد فوق (بيافو) قبل أن يفكر العالم الغربي بالحضور إلى هنا محملاً بمعداته المتطورة بزمن طويل. كانوا يمضون الليل داخل سلسلة من الكهوف تمتد بمحاذاة الطمي الموازي للنهر، يستدل إليها البلطيون بالبساطة نفسها التي يمكن لقبيلة بدوية أن تستدل بها على مكامن المياه ويوجد داخل كل كهف مخزون من الأغصان الجافة وعيدان المريمية والعرعر من أجل إيقاد النار. ومن تحت أكوام الصخور الثقيلة أخرج الرجال أكياساً من العدس والرز كانوا قد أودعوها هناك خلال زيارتهم السابقة وقاموا بإعداد أرغفة الخبز التي تشبه الجماجم فوق الأحجار المجمّرة. وهكذا، تزودوا بالطاقة التي تلزمهم لمتابعة رحلة الصيد.

صادفوا أول تيس جبلي بعد مرور أربعة أيام وكان عبارة عن جيفة هامدة ملقاة على الصخور المسطحة لم يبق فيها سوى عظام ناصعة كبياض الثلج، بعد أن أتى على كل نقطة من لحمها النمور والكواسر وعلى حيد مرتفع يقع أعلى الجيفة شاهد تواها قطيعاً يتألف من ستة عشر تيساً يرعى وصاح باللغة البلطية (سكيين، سكيين!) تيوس، تيوس!

كانت قرونها الضخمة الملتوية شامخة نحو السماء المتقلبة، لكن اصطيادها على ذلك الارتفاع الشاهق لم يكن وارداً. خمن تواها بأن التيس النافق قد اسقطه انهيار ثلجي لأن المسافة التي تفصله عن المرعى كانت طويلة، ونزع الرأس بقرونه المدمّاة مع العمود الفقري، ورمى به في حقيبة مورتنسون. هدية ثمينة!

توجد وهاد مجوفة في القمم العالية لجبل بيافو يفوق عمقها عمق الوهاد الموجودة في وادي النهر الكبير. فسلكها الرجال صعوداً نحو الشمال حيث تلتقي بالسلسة الشمالية لجبل (لاتوك) الذي مازال عصياً بعد عشرات المحاولات التي قامت بها العديد من المجموعات الاستكشافية. واستطاعوا مرتين أن يقتربوا خلسة من القطيع، لكن تلك الحيوانات أحست بالمحاولتين بدهاء أذهل مورتنسون، وتمكنت من النجاة قبل أن يطلقوا رصاصة واحدة.

وعند وقت الغسق في يومهم السابع، لمح تواها أيلاً ضخماً يقف عند نتوء صخري على ارتفاع ستين قدم منهم فأفرغ علبة من مسحوق البارود في بندقيته وأضاف رصاصة واحدة من الفولاذ ثم دكّها نحو الأسفل. زحف مورتنسون والآخرون وراءه، منبطحين على سفح ذروة شاهقة على أمل أن تحجبهم عن أنظار الأيل. أخرج تواها ركيزتين من داخل الماسورة وثبتهما على رأس صخرة كبيرة ثم سحب الزناد بهدوء لم يكن كافياً إذ سمع الأيل الصوت واستدار نحوهم. ومن مكمنهم القريب، شاهدوا لحية الأيل الطويلة تنتصب خوفاً، ورأى مورتنسون شفاه تواها تتمتم بالدعاء وهو يضغط زناد البندقية.

كان دوياً يصم الآذان، أمطرهم بوابل من الحصى تطاير من الأعلى فوق رؤسهم، واكتسى وجه تواها برذاذ مسحوق البارود وصار يشبه رجال المناجم.

كان مورتنسون متأكداً بأن تواها قد أخطأ هدفه لأن الأيل مازال منتصباً على ساقيه. لكن قائمتيه الأماميتين ما لبثتا أن انثنتا من تحته، ورأى مورتنسون البخار الحار يتصاعد في الهواء الجليدي من جرح في رقبة الأيل الذي حاول مرتين جاهداً أن يعاود الوقوف على قائمتيه، وخرّ بعدها ساقطاً على جنبه "الله أكبر!" هتف الرجال البلطيون بصوت واحد.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

بوشرت عملية الجزارة في الليل، ثم حمّلوا بعضاً من عظام الجثة إلى داخل الكهف وأوقدوا بها ناراً واستخدم حسين بمهارة العارف سكيناً معقوفة يضاهي طولها طول ساعده في تقطيع الكبد إلى شرائح وزعها على الجميع وتشاركوا في تناولها، ووجد مورتنسون في دفء الطعام لذّة تضاهي طعمه الشهي.

تأمل مورتنسون وجه حسين المتطاول الذي يوحي بالذكاء لكنه يشي بالحزن أيضاً. فمن بين سكان كورف كلهم كان حسين الشخص الوحيد الذي غادر برالدو ليتلقى التعليم في لاهور النائية لغاية المرحلة الثانية عشرة. وهاهو الآن ينحني فوق الذبيحة داخل هذا الكهف تغطي الدماء ساعديه مُبعداً عن أيام الدراسة التي كانت في سهول البنجاب القائظة، سيكون خير معلم في مدرسة كورف وسيشكل صلة الوصل الفضلى بين العالمين.

عندما عاد فريق الصيادين إلى كورف، كانت الرياح الموسمية قد تراجعت وأصبح الطقس منعشاً وصافياً ولاقاهم أهل القرية لقاء الأبطال. سار تواها في المقدمة يحمل رأس الأيل الطازج عالياً أما مورتنسون الذي حافظ على هديته، فقد أخرج العمود الفقري لتيس الجبل الذي راح ضحية الانهيار الثلجي ورفعه فوق رأسه متوجاً بالقرون المنتصبة التي بدت وكأنها تنبت من رأسه.

وزع الرجال مكعبات من شحم الأيل على الأطفال الذين احتشدوا حولهم فراحوا يلتقطونها وكأنها قطع من الحلوى أما أرطال اللحم الوفيرة التي أحضروها بالسلال، فقد وزعت بالتساوي بين عائلات الصيادين. وبعد سلق اللحوم، وتناول النخاع المطهو بالبطاطا والبصل، أضاف الحاج علي قرون الأيل التي عاد بها ابنه إلى رموز الانتصارات الأخرى المعلقة عند مدخل منزله التي تشير باعتزاز إلى الأيام الغابرة عندما كان قادراً على الصيد بنفسه

أخذ مورتنسون مخططات الجسر التي تغطي أراضي برالدو السفلى إلى مهندس يعمل لدى الجيش الباكستاني في جيلجيت عاصمة الإقليم وقام المهندس بدراسة مخططات مورتنسون واقترح بعض التعديلات لدعم بنيان الجسر ثم وضع له تصميماً مفصلاً مع علامات لتحديد مواقع الكابلات الفولاذية بدقة. كان التصميم يقتضي تشييد برجين يبلغ ارتفاع كل واحد منهما أربعة وستين قدماً تعلوهما أقواس من الإسمنت المسلح يصل عرضها إلى المسافة اللازمة لعبور العربات التي تجرها الثيران. أما الجسر، فيبلغ ارتفاعه 284 قدماً عن المستوى الأعلى لمياه النهر.

استأجر مورتنسون مجموعة بنائين متمرسين في سكاردو للإشراف على بناء البرجين، وانقسم رجال كورف إلى ورديات عمل يتألف كلٌ منها من أربعة رجال وبدؤوا يصقلون أحجار المقالع ويبذلون قصارى جهدهم لتثبيتها فوق طبقات الإسمنت التي مدّها البناؤون في مكانها. أما الأطفال فكانوا يحضرون للفرجة ويهللون بعبارات التشجيع لآبائهم وأقاربهم الذين احتقنت وجوههم تحت ثقل الأحجار.

وحجراً فوق حجر، اكتمل بنيان البرجين المؤلفين من ثلاث طبقات وانتصبا شامخين على ضفتي النهر وقد استدق طرفاهما في الأعلى.

الطقس الخريفي الصافي جعل أيام العمل الطويلة بهيجة، ومورتنسون، الذي كان يحصي ما تبقى من أحجار البناء كل مساء يكاد يرقص فرحاً أمام العمل الذي يسير قدماً. وفي حين كان الرجال منهمكين بالعمل على الجسر طيلة شهر تموز، أدّت النساء مهمة العناية بالمحاصيل الزراعية، ومراقبة البرجين وهما يعلوان بالتدريج من فوق أسطح منازلهن. قبل أن تطبق عليهم قبضة الشتاء المتوحش يعيش سكان كورف في الهواء الطلق قدر ما يستطيعون، ويتناولون الوجبتين اليوميتين على أسطح المنازل.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

في معظم الأوقات كان مورتنسون يجد متعة كبرى عندما يستدفئ فوق السطح بأشعة الشمس الغاربة، تحيط به عائلة الحاج علي، يأكلون معاً الأرز ويحتسون الشاي ويتجاذبون أطراف الحديث عبر الأسطح مع باقي العائلات، بعد انتهاء يوم عمل آخر في البناء.

كانت نوربرج هودج قد أوردت في كتابها قولاً لملك يُدعى بهوتان يحكم مملكة في الهيملايا أثار إعجابها وهو أن المعيار الحقيقي لأمة سعيدة لا يقاس بإجمالي الدخل القومي بل بإجمالي السعادة القومية".

جلساتهم فوق أسطح المنازل الدافئة بين أكوام الفاكهة النضرة التي جنوها بأيديهم، يأكلون ويدخنون ويتسامرون ولديهم حس الترف الذي يتلذذ به الباريسيون على مقاهي الرصيف، جعلت مورتنسون على ثقة بأن البلطيين، ورغماً عن أنف كل العوز الذي يعانون منه. يملكون المفتاح لنوع من السعادة خالٍ من التعقيدات كان يتلاشى من حياة البلدان المتطورة، تماماً مثل غاباتها القديمة.

أما في الليل، فكان الرجال العازبون من أمثال تواها ومورتنسون يستغلون الطقس المعتدل وينامون في العراء تحت السماء المرصعة بالنجوم. وبما أن مورتنسون أصبح متمكناً من اللغة البلطية، فقد كان يطيل السهر برفقة تواها بعد أن ينام الجميع ويتحدثان بأمور شتى، إلا أن النساء كن موضوعهما المفضل. لقد أصبح مورتنسون على مشارف سن الأربعين، فيما قارب عمر تواها الخامسة والثلاثين.

كانا يستلقيان قرب بعضهما يتأملان درب اللبان الذي تمطّى حتى بدا وكأنه شال يلتف حولهما. وبدأ تواها يحدثه عن شوقه الجارف لزوجته رقية التي فقدها منذ تسعة أعوام وهي تنجب جيهان ابنتهما الوحيدة: "لقد كانت في غاية الجمال، وجهها صغير مثل وجه

جيهان، تضحك وتغني وتتقافز مثل العصفور طوال الوقت"
سأله مورتنسون: "أتنوي الزواج من جديد؟".

فشرح له تواها الأمر قائلاً: "ذلك سهل للغاية بالنسبة لي، لأنني سأصبح زعيم القرية ذات يوم وأملك الكثير من الأراضي، لكنني لم أستطع أن أحب امرأة أخرى غير زوجتي بعد" ثم أضاف بصوت خفيض ونبرة متكتمة: "إلا أنني... أمنح نفسي بعض المتعة بين الحين والآخر".

"وهل تستطيع أن تفعل ذلك دون زواج؟".

وهو سؤال كان يراود ذهن مورتنسون منذ مجيئه إلى كورف ولم يملك الجرأة على طرحه حتى الآن. "بالطبع، مع الأرامل.لدينا الكثير من الأرامل في كورف".

فكّر مورتنسون بالمسكن المكتظ الذي في الأسفل حيث جميع أفراد الأسرة متلاصقون فوق فراش واحد "وأين نجد مكاناً لكي.....؟".

"في السقيفة طبعاً!" وتذكر مورتنسون أنه توجد سقيفة على سطح كل منزل في كورف مخصصة لخزن أكياس القمح.

"هل أبحث لك عن أرملة؟ أعتقد أن البعض منهن يستهويهن دكتور جريغ".

"لا، شكراً، لا أعتقد بأنها فكرة جيدةً".

"ألديك حبيبة في قريتك؟" فلخص له مورتنسون إخفاقاته مع مارينا، ولاحظ أثناء حديثه أن الجرح الذي كان بداخله قد بدأ يندمل.

علّق تواها قائلاً: "هي هجرتك إذاً لأنك لا تملك منزلاً.غالباً ما يحدث في بالتستان، ولكنك تستطيع أن تخبرها الآن أن لديك منزلاً وجسراً سيكتمل عما قريب في كورف".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

"لم أعد أريدها" وكان يعني ما يقول.

"من الأفضل لك إذاً أن تشحذ الهمة وتجد لنفسك امرأة قبل أن تشيخ وتزداد ترهلاً".

كانوا يعلقون أول حبل فولاذي بين البرجين، عندما جاء الحمالون العائدون من بالتورو بنبأ اقتراب وصول مجموعة من الأميركيين. جلس مورتنسون فوق صخرة كبيرة قرب ضفة برالدو الشمالية ممسكاً بالتصميم الذي وضعه المهندس، يراقب مجموعتين من الرجال يمدون الحبل الفولاذي بمساعدة مجموعات من الثيران ويربطونها بالعزم التي تعينهم عليها قدرتهم البدنية، نظراً لعدم توفر الأداة التي تقوم بذلك. ثم صعد أكثرهم رشاقة فوق الحبل يتأرجح نحو الأمام ونحو الخلف وهو يعقد حبالاً داعمة عبر الأمكنة التي حددها المهندس ويثبت البراغي بقوة بواسطة الملزم.

من أسفل الضفة الشمالية للنهر اقترب رجل أميركي ضخم الجسم يرتدي قبعة بيسبول بيضاء اللون ويتكئ على عكاز، وإلى جانبه دليل من السكان المحليين، بادي الوسامة، مفتول العضلات ويحاول أن يظهر بمظهر الحامي للرجل الأميركي.

يتحدث جورج مكاون عن مورتنسون قائلا: "أول خاطر جاء ببالي كان (يا له من رجل ضخم ذاك الذي يجلس فوق الصخرة) ولم استطع أن أتكهن بشيء فقد كان شعره طويلاً ويرتدي الزي المحلي، لكنه لم يكن باكستانياً بالتأكيد" انزلق مورتنسون عن الصخرة ومدّ يده متسائلاً: "هل أنت جورج مكاون؟" صافحه مكاون وهو يهز رأسه بالإيجاب ولم يصدق أذنيه "إذاً، عيد ميلاد سعيد" قال مورتنسون مبتسماً وهو يناوله مغلفاً مختوماً.

كان جورج مكاون عضواً في مجلس إدارة مؤسسة الهيملايا

الأميركية، مع متسلقين مخضرمين آخرين من أمثال ريتشاردت وهيلاري، وتصادف يوم عيد ميلاده الستين مع تواجده برفقة أولاده دان وآمي في رحلة إلى كيه2 يزورون خلالها المعسكر الرئيسي لمجموعة استكشافية يساهم مكاون في دعمها. وصلت بطاقة عيد الميلاد التي أرسلها مجلس الإدارة في المؤسسة إلى أسكول، وأوقعت السلطات المحلية في حيرة. لكنهم ما لبثوا أن بتوا في أمرها فأرسلوها بدورهم إلى مورتنسون، لأن رجلاً أميركياً سيجد وسيلة لإيجاد رجل أميركي آخر.

كان مكاون رئيساً لمؤسسة تعمل في مجال الرياضات الجبلية وعمل جاهداً حتى رفع رأسمالها من مئة مليون دولار ألى ستة مليارات، لكن المؤسسة انهارت وتشرذمت إلى أشلاء، وقد لقنه ذلك درساً قاسياً. وفي الثمانينيات، غامر مكاون بتأسيس شركة خاصة به في كاليفورنيا وأخذ يشتري حصصاً من شركات أخرى كانت قد تضخمت حتى عجزت عن إدارة نفسها. أما الآن، فقد كان مكاون في طور النقاهة إثر الخضوع لعملية جراحية في ركبتيه ويتساءل إن كانتا قادرتين على إعادته إلى الحياة الحضارية، حتى التقى بمورتنسون واستبشر بالكثير من الخير، ويتحدث مكاون عن ذلك بقوله: "كنت قد أمضيت شهراً هناك، ووجدت نفسي فجأة أمام رجل جدير بالثقة في هذه البقعة العدوانية. لا أستطيع ان أصف مدى سعادتي عندما التقيت بمورتنسون".

روى له مورتنسون حكاية الجسر والمدرسة، وكيف لم تنجح حملة التبرعات لبنائهما إلا عندما نشر توم فوجن تلك المقالة في صحيفة مؤسسة الهيملايا الأميركية. كان كلاهما غاية في السعادة لهذه المصادفة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

جريغ شخص تقع في حبه وتضع ثقتك به على الفور. إنه عملاق دمث لا يعرف الرياء ولا المكر. وعندما شاهدت كل هؤلاء الناس يعملون معه حتى يبنوا جسراً، عرفت كم يحبونه لأنه يتصرف كواحد منهم، وتساءلت كيف يمكن، بحق الله، لرجل أميركي أن يحقق ذلك؟".

قدم مورتنسون نفسه لمرافق مكاون باللغة البلطية، فرد عليه المرافق باللغة الأوردية وأخبره بأنه من قبيلة (واخي) التي تقطن وادي (تشاربرسون) النائي الذي يقع على الحدود الأفغانية، وبأنه يدعى فيصل بيج.

طلب مورتنسون من الأميركي أن يسدي له معروفاً. ويعلل ذلك بقوله: "كنت أتلمس طريقي المتعثر في كورف وأدير العمل كله وحدي. كنت بحاجة لأن يشعر هؤلاء الناس بأن هناك في أميركا أشخاصاً آخرين يشاركونني التصميم على مساعدتهم".

"دسّ لي مورتنسون خلسة حفنة كبيرة من الروبيات وطلب مني أن أمثل دور مدير ذي شأن قدم من أميركا لتفقد سير العمل" فلعبت الدور ورحت أدور بين الرجال وكأنني زعيم، أدفع لكل واحد أجره وأخبرهم بأنني راضٍ عن العمل العظيم الذي يقومون به، وأطلب منهم أن يكرسوا كل جهودهم لإكمال الجسر بأقصى سرعة" ثم تابع مكاون السير للحاق بأسرته إلا أن ذلك اليوم الذي امتدت فيه الكابلات الفولاذية بين البرجين لم يشهد ربط ضفتي برالدو إلى بعضهما البعض فقط.فقد رأى فيصل بيج أن حياة الأجانب في الباكستان قد أصبحت في خطر وتطوّع بأن يكون الحارس الشخصي لمورتنسون، أما مكاون فسوف يتحول من فوق عليائه في كاليفورنيا إلى أقوى مناصر لمورتنسون.

مع نهاية شهر آب، وبعد انقضاء عشرة أسابيع على الخوض في تلك الضفاف التي تكون موحلة في ذلك الوقت من السنة، وقف مورتنسون في منتصف الامتداد المتأرجح البالغ طوله 284 قدماً يتأمل بإعجاب الأقواس الإسمنتية القوية على الجانبين والأساسات بطبقاتها الثلاث الراسخة وشبكة الكابلات الفولاذية التي تشدها كلها إلى بعضها البعض. حاول الحاج علي أن يناول مورتنسون اللوح الخشبي الأخير كي يضعه في مكانه إيذاناً باكتمال الجسر، لكن مورتنسون رفض ذلك وأصرّ على أنه من حق زعيم القرية. رفع الحاج علي لوح الخشب نحو الأعلى وشكر الله الرحيم الذي أنعم عليه فأرسل له هذا الأجنبي الشهم، ثم انحنى وسد الفتحة الأخيرة فوق النهر المزبد، فيما كانت النساء والأطفال يطلون عليهم من الضفة الجنوبية للنهر ويهللون فرحين.

لقد أفلس من جديد، ولا ينوي أن يبذر دون حساب ما تبقى معه من تمويل، لذا فعليه أن يستعد للعودة إلى بيركلي ليقضي فصلي الشتاء والربيع في جني ما يلزم من المال كي يتمكن من العودة. في ليلته الأخيرة في كورف جلس مورتنسون فوق سطح المنزل برفقة تواها وحسين والحاج علي ووضعوا اللمسات الأخيرة على المخططات المتعلقة بالأرض التي ستبنى عليها المدرسة خلال فصل الصيف. كان حسين جاهزاً للتبرع بقطعة أرض منبسطة تملكها زوجته حواء تمتد أمام كيه2 العائدة للقرية، وهي البقعة المنفتحة التي يبغيها مورتنسون كي تجعل الطلاب يتطلعون نحو الأعلى. قبل مورتنسون العرض شريطة أن يكون حسين المعلم الأول في مدرسة كورف. صادق الجميع على الإتفاق بالمصافحة وتناولوا الشاي المحلي بإسراف نظراً لأهمية المناسبة، وراحوا يتناقشون بحماسة حتى هبط الظلام.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

على مبعدة ثماني مئة قـدم نحـو الأسـفل، كانـت أنـوار القناديـل تتراقص في وسط برالدو حيث ذهب الناس يتنزهون بوجل عبر ما كان عقبة منيعة تعزلهم عن العالم الواسع، ذلك العالم الـذي سـيعود إليـه مورتنسون مكرهاً.

# الفصل الحادي عشر

# "ستة أيام"

"هناك شمعة في قلبك تتوق إلى الضياء، هناك خواء في روحك يتوق إلى الامتلاء، وأنت تشعر بها أليس كذلك؟"

جلال الدين الرومي

في وحدة الحروق التابعة للمستشفى الذي يعمل فيه، كانت أضواء حمراء وخضراء تومض عبر صف عدسات المراقبة.ورغم أن الساعة قد شارفت على الرابعة صباحاً وأن الكرسي البلاستيكي الواقع خلف المنضدة المخصصة للمرضى قد صنع لاستيعاب أجساد أصغر حجماً، أحس مورتنسون بشيء كان يفتقده منذ تلك الأمسية عندما رمى بزجاجة النبيذ في صندوق القمامة.إنه يشعر بالسعادة.

في بداية المساء، أتاه صبي يبلغ الثانية عشرة من العمر، قام زوج والدته بإلصاق كفيه على موقد الطبخ، عالجها مورتنسون بمراهم الحروق ووضع عليهما الضماد، وكانت حالته قابلة للشفاء، من الناحية الجسدية على الأقل.وفيما عدا ذلك، فإنها ليلة هادئة، ليس بحاجة لأن يسافر إلى الطرف الآخر من العالم كي يكون ذا منفعة، يمكن تقديم يد المساعدة هنا أيضاً. لكن كل مناوبة ليلية يقوم بها وتلك الدولارات التي تتزايد في حسابه المصرفي، تختصر الزمن اللازم كي يستأنف بناء مدرسة "كورف".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان قد عاد للعيش في غرفته المستأجرة لدى ويتولد دودزينسكي، لكنه يستمتع بهذه الليلة المسالمة في هذا الجناح شبه الفارغ، بعيداً عن روائح السجائر والفودكا النتنة. زي العمل الواسع الذي يرتديه يشبه بيجاما للنوم، وتحيط به أنوار خافتة تدعوه لأخذ غفوة، لكن الكرسي الذي يجلس عليه لم يكن ليسمح بذلك.

بعد انتهاء مناوبته، سار مورتنسون نحو منزله وهو يترنح، كانت السماء قد بدأت تتحول إلى الزرقة بمحاذاة خط الأفق عندما توقف عند كشك الحلويات الكمبودية يتناول الفطائر المحلاة والقهوة المركزة ذات الطعم المر. وهناك، أمام منزله، شاهد سيارة من طراز "ساب" سوداء اللون تقف بعكس السير أمام شاحنة دودزينسكي، أما في مقعد السائق المرتد نحو الخلف، فكانت ترتمي الدكتورة مارينا فيلارد وقد تساقط شعرها الغزير على وجهها وحجب شفتيها الممتلئتين. لعق مورتنسون بقايا السكر من على أصابعه، ثم مد يده وفتح الباب الذي من جهة السائق.

هبت مارينا جالسة وأخذت تتمطى وتحرك ذراعيها لكي تصحو: "لم لا ترد على الهاتف؟".

"كنت في العمل".

"تركت لك رسائل عديدة على مسجلة الهاتف، عليك أن تمحوها".

"ماذا تفعلين هنا؟".

"ألست سعيداً برؤيتي؟".

"كلا لست سعيداً برؤيتك".

"بالطبع، كيف حالك؟".

"في الحقيقة، ليست جيدة" وسحبت المرآة التي على الزجاج الأمامي وأعادت طلي شفتيها باللون الأحمر.

"كيف سارت الأمور مع ماريو؟".

"كانت غلطة".

احتار مورتنسون بما يفعله بذراعيه، فوضع كوب القهوة فوق سقف السيارة، ووقف متيبساً.

قالت مارينا: "لقد اشتقت إليك" وشدت الساعد القريب منها لإعادة المقعد إلى مكانه، فارتطم المسند العلوي بمؤخرة رأسها.. "آخ! هل اشتقت إلي؟".

أحس مورتنسون بيقظة تجتاح كيانه لا يمكن أن تتأتى من تناول كوب من القهوة. تظهر في حياته مجدداً بهذه البساطة، بعد كل هذا الوقت، وكل هذه الليالي التي جافاه خلالها النوم وهو يتقلب في فراشه فوق أرض الغرفة القذرة، يحاول أن يبعدها عن تفكيره، وحسّ الأسرة الذي ظن بأنه حظي به ثم فقده....

"لقد أغلقت الباب" وأغلق باب السيارة في وجه مارينا ڤيلارد. وصعد إلى روائح الدخان الرخيص والفودكا المسفوحة على الأرض، وتهاوى على فراشه ليغط في نوم عميق.

كان مورتنسون يشعر بكامل الرضى. فالجسر الآن يمتد فوق (برالدو) العليا بأكملها، والمواد اللازمة لبناء المدرسة التي جعل "تشانغزي" يسلمه بياناً تفصيلياً بها باتت على وشك التحول إلى مدرسة، وقد فارقه ذلك الحس القديم بأنه سجين غرفة لدى دودزينسكي، فهو يقيم هناك لأن عليه أن يتقشف في العيش في سبيل العودة لبناء مدرسته. هذا التحرر جعله يرغب في رؤية كل من له صلة بجبال (كاراموورام).

اتصل بجان هويرني الذي أرسل له بطاقة طائرة تأخذه إلى سياتل، وطلب منه أن يحضر معه الصور التي أخذت للجسر. وفي منزله العالي الذي يشرف على كامل بحيرة واشنطن والشلالات التي تقع


https://telegram.me/maktabatbaghdad

خلفها، التقى موتنسون مجدداً بالرجل الذي ظنّه شخصاً ساخطاً يملؤه الوعيد عندما حدثه على الهاتف فيما مضى. بدا هويرني ضئيل الحجم بشاربين متهدلين وعينين داكنتين كانتا تروزان مورتنسون من خلال نظارتين كبيرتي الحجم. وبالرغم من أعوامه السبعين، فإن تلك الحيوية الصلبة التي يتمتع بها متسلق جبال عتيد لم تفارق الرجل. وقد قال مورتنسون: "كنت خائفاً من جان في البداية، لأن له سمعة شخص بغيض، لكنه كان بغاية اللطف معي".

بعد أن أفرغ مورتنسون حقيبته، جلس الرجلان إلى منضدة مستديرة، يتأملان الصور والتصاميم المعمارية والخرائط التي غطّت سجّاد الغرفة الفاخر. كان هويرني قد ذهب مرتين إلى المعسكر الرئيسي في "2 كيه" وناقش مع مورتنسون كل القرى بما فيها "كورف" التي لم تظهر على الخارطة. شعر هويرني بمتعة بالغة وهو يضيف إلى إحدى الخرائط إشارة كبيرة باللون الأسود عند موقع الجسر الجديد الذي امتدّ بجسر (برالدو) العليا.

أرملة أم طليقة هويرني "جينفر ويلسون"، والتي أصبحت فيما بعد عضو مجلس إدارة في مؤسسة آسيا الوسطى، قالت عنهما: "انسجم هويرني مع مورتنسون على الفور. لقد أعجب بسذاجته وعفويته، وأحب فيه أنه لا ينتظر مقابلاً لما يفعله. جان كان إنساناً ملتزماً ويحترم الجهود الفردية أمام المهام الصعبة. وعندما قرأ ما ورد في صحيفة مؤسسة الهيملايا الأميركية حول مشروع جريغ، قال لي: "الأمريكيون يهتمون بالبوذيين لكنهم لا يكترثون بالمسلمين ولن يحصل هذا الشاب على أي نوع من المساعدة. سيكون عليّ أن أؤمنها له".

وقالت ويلسون أيضاً: " لقد انجز جان الكثير خلال حياته، لكن ذلك التحدّي الكامن في بناء مدرسة "كورف" أوقد فيه ذلك الحماس الذي لا

يتأتى إلا عن تجاربه العلمية. كان يشعر برابطة وثيقة مع تلك البقعة من العالم، وعندما غادرنا جريغ قال لي: "ذلك الشاب لديه فرصة تبلغ خمسين بالمئة، إن عرف كيف يستغلها. يا له من إنسان جبار!".

بعد مغادرته لمنزل جان، اتصل مورتنسون "بجورج مكاون" وتحدثا مطولاً عن مصادفات القدر التي جمعت بينهما على الطرف الآخر من الكرة الأرضية فوق درب يقع على (برالدو) العليا. وجه مكاون دعوة إلى مورتنسون لحضور أمسية في مقر مؤسسة الهيملايا الأمريكية سيلقي خلالها السير إيدموند هيلاري محاضرة في أوائل شهر أيلول، وقَبِل مورتنسون الدعوة.

وفي يوم الأربعاء الواقع في الثالث عشر من شهر أيلول عام 1995، ارتدى مورتنسون سترة صوفية رياضية كانت لوالده، وبنطالاً من الخاكي، وانتعل حذاء بالياً بدون جوارب وذهب إلى فندق فيرمونت.فوق هضبة نوب، يتربع فندق فيرمونت الفخم عند المركز الذي تتقاطع من حوله شوارع المدينة جميعها، أي الموقع المناسب لأمسية سوف تربط كل تشعبات حياة مورتنسون إلى بعضها البعض. في العام 1945، حضرت شخصيات دبلوماسية من أربعين بلداً واجتمعوا في فندق فيرمونت لوضع مسودة لدستور الأمم المتحدة. والآن، وبعد مرور خمسين عاماً جاء حشد مماثل إلى القاعة الذهبية للفندق لحضور حفل العشاء السنوي الذي تقيمه مؤسسة الهيملايا الأميركية من أجل جمع التبرعات، والذي سيشهد ذات التنوع الثقافي للحضور.

جلس رجال الأعمال وأصحاب رؤوس الأموال بأناقتهم المفرطة إلى البار، جنباً إلى جنب مع متسلقي الجبال الذين كانوا يتململون داخل بزاتهم وربطات العنق الرسمية التي لم يألفوها. أما سيدات مجتمع سان فرانسيسكو المخملي، فكنّ يتبخترن بأثوابهن الحريرية


https://telegram.me/maktabatbaghdad

السوداء ويتضاحكن لسماع النكات التي يرويها رهبان التيبت البوذيـون المكتسون بأردية الكهنوت برتقالية اللون.

أحنى مورتنـسون ظهـره عنـدما دخـل الغرفـة لكـي تـتمكن لجنـة الاستقبال من وضع (كاتا) وشاح الصلاة الحريري حـول رقبتـه كبـاقي الضيوف. ثم رفع هامته وأخذ يلف الوشاح حول أصابعه ريثمـا يـصبح قـادراً علـى احتمـال الحـشد الـذي يتمـاوج حولـه. إنـه مكـان يعـج بأشخاص بارزين، أي ذلك الصنف الذي يجد نفسه تائهاً فيه وضئيلاً. أنقذه جورج مكاون الذي لوّح له بيده من عند البار حيث كـان منحنيـاً ينصت إلى ما يقوله رجل قصير القامـة ولم يكـن ذلـك الرجـل سـوى جان هويرني. سار مورتنسون باتجاههما وعانقهما.

قال هويرني: "كنت أطلب من جورج ان يمدك بشيء من المال".

أجابه مورتنسون: "أعتقد أنه لدي مـا يكفـي إذا أبقيـت نفقـاتي في الحدود الدنيا".

"انا أتحدث عنك وليس عن المدرسة. كيف تنوي أن تعـيش ريثمـا تنتهي من بنائها؟".

تدخل مكاون في الحديث وسأله: "ما رأيك بعشرين ألف؟".

لم يكن مورتنسون قادراً على الرد، وشعر بالـدماء الحـارة تـصعد إلى وجنتيه.

"هل يعني ذلك بأنك موافق؟".

قال هويرني ضاحكاً: "اطلب لغريغ كأساً مزدوجة لأنه على وشك الإغماء".

خلال العشاء جلـس إلى طاولـة مورتنـسون مـصور صـحفي أنيـق يحدق مرتاعاً بكاحلي مورتنسون العاريين خـلال مأدبـة رسميـة كهـذه حتى أنه فكر في أن يشتري له زوجاً من الجوارب من محلات الفنـدق.

وفيما عدا ذلك، فلا يتذكر مورتنسون من تلك الوجبة سوى أنّه قد تناول طعامه مذهولاً وهو يتعجب كيف تلاشت مشكلاته المالية بغمضة عين.

إلا أن الاستماع إلى واحد من أيقوناته وهو يتحدث بعد العشاء كان تجربة لا تنسى بالنسبة إليه. السير ادموند هيلاري الذي صعد إلى المنصة بتثاقل، بدا أشبه بمربي النحل الذي كان عليه في السابق منه بالشخصية المرموقة التي خلعت عليه ملكة بريطانيا لقب فارس. كانت تعلو رأسه كتلة من الشعر المتصب. في أسفله حاجبان مشعثان وأسنان غاية في القبح. أعوامه الخمسة والسبعون أسبغت عليه كرشاً صغيراً بحيث لم يعد يبدو قادراً على الصعود نحو قمة الثمانية آلاف متر. إلا أنه يبقى الكنز المفعم بالحياة بالنسبة لحشد عشاق الهيملايا الذي تحلّق حوله.

افتتح هيلاري خطابه بعرض صور لاستكشافه الرائد لقمة إفريست عام 1953، تشوبها الظلال الوهمية التي تخلفها آلات التصوير القديمة، لكنها خزّنت له شباباً أبدياً بتقاسيمه التي لوحتها الشمس ونظراته الحادّة. ثم استعرض صعوده الأول برفقة تينزنغ نورجاي قائلاً أنه كان يمكن لكثير من المتسلقين ان يسبقوهما إلى قمة إفريست: "فأنا كنت مجرد متسلق مفعم بالحماس بقدرات متواضعة، مستعد لبذل ما يلزم من جهد ويملك الأفق والإرادة الضروريين".

وران الصمت بين الحضور فيما تابع كلامه قائلاً: "كنت فتىً عادياً، لكن وسائل الإعلام حاولت أن تحولني إلى شخصية بطولية، وقد علمتني السنون أن الذي لا يؤمن بهذه الترهات، يبقى بمنأى عن أي أذى".

وبعد بضع لقطات من إيفريست لا بد منها، توقف هيلاري مطولاً عند صور التقطت في الستينات والسبعينات عن رجال أقوياء البنية من العالم الغربي يعملون جنباً إلى جنب مع رجال هزيلين من الهيملايا في بناء المدارس والمراكز الصحية في نيبال. وكانت هناك صورة


https://telegram.me/maktabatbaghdad

التقطت لهيلاري خلال تشييد أول مشروع إنساني له والمكوّن من مدرسة ذات ثلاث غرف اكتملت في عام 1961، يظهر فيها بجذع عار يجلس متباعد الساقين فوق عارضة خشبية على السطح ويحمل مطرقة بيده. في العقود الأربعة التي تلت تغلبه على أعلى قمّة في العالم، لم يتراخَ هيلاري في ترف صيته الذائع، بل عاد إلى منطقة الإفريست مراراً يرافقه شقيقه ريكس، ليبني سبعاً وعشرين مدرسة واثني عشر مركزاً صحياً ومطارين كي تصل لوازم البناء الضرورية بدون عائق إلى مناطق خومبو.

التهب مورتنسون حماسة ولم يعد قادراً على الجلوس. فاستأذن من المجموعة التي إلى طاولته، وسار بخطى واسعة إلى آخر الصالة وراح يمشي جيئةً وذهاباً يتابع ما يقوله هيلاري ممزقاً بين الرغبة في سماع كل كلمة يقولها وبين اللحاق بأول طائرة قادرة على إعادته إلى "كورف" ليباشر العمل على الفور.

وسمع هيلاري وهو يقول: "لست متأكداً بأنني أرغب في أن أبقى في أذهان الناس. صعودي إلى قمة إفريست كان متعة عظيمة، لكنني أرى عظمة لا تضاهى في بناء المدارس والمراكز الصحية. ذلك منحني شعوراً لا تقدر عليه آثار أقدام وطئت جبلاً".

شعر مورتنسون بنقرة على كتفه، وعندما استدار رأى سيدة جميلة ترتدي ثوباً أسود اللون شعرها أحمر قصير تبتسم في وجهه. لقد سبق وأن التقى بها، لكنه لم يذكر المكان أو الزمان.

تقول تارا بيشوب عن ذلك اللقاء: "كنت أعرف من هو جريغ، والحقيقة أنني تحرشت به لأنني سمعت عما يحاول أن يفعله، بالإضافة إلى أن لديه ابتسامة ساحرة". وبدأا يتحدثان بعفوية ودون انقطاع. وكلما التقيا عند نقطة معينة يتولد رافد آخر من الاهتمامات المشتركة. ومازالا يتحدثان بالطريقة نفسها حتى اليوم.

ولكـي لا يزعجا بـاقي الحـضور الـذين يـستمعون إلى مـا يقولـه هيلاري، تحدثا بصوت هامس في أذني بعضهما البعض. "أقسم لـك يا جريغ أنني كنت أضع رأسي على كتفه. وأنا لا أذكـر ذلـك، لكـنني لا أسـتبعده أيـضاً. لقـد كنـت مفتونـة بـه وأحـدق بكفيـه الـضخمتين القويتين وأتمنى لو أستطيع احتضانهما".

والد تارا هو بـيري بيـشوب المـصور الـصحفي لمجلـة ناشـيونال جيوجرافيك، الذي وصل إلى أعلى إيفرست في الثاني والعـشرين مـن شهر أيار عام 1963 ضمن أول مجموعة استكشافية أميركية للقمة.

كان قد اختار الطريـق الـتي سيـسلكها نحـو الأعلـى بعـد دراسـة الصور الفوتوغرافية التي التقطها صديقه ادموند هيلاري للمعـابر. وفي البحث الذي قدمه لناشـيونال جيوغرافيـك عـن رحلتـه القاسـية كتـب يقول: "وما الذي نفعله عنـدما نـصل أخـيراً إلى أعلـى القمـة ونرتمـي أرضاً؟ ننخرط في البكاء. يتلاشى الكبت الـذي لازمنـا طـوال الوقـت ونبكي كالأطفال من فرط السعادة لأننا نجحنا في تسلق أعلى الجبال، ومن الشعور بالفرج أن تلك الرحلة المضنية قد وصلت إلى نهايتها.

لكن شعوره بالفرج كان سابقاً لأوانه ففي رحلة العودة، انزلقت قـدما بيشوب عن حيد شاهق وسقط داخل صدعٍ صخري وانقطع عنه الأوكـسجين وعانى من ضربة صقيع حادة إلى درجة أن حمّـالي الهملايـا اضـطروا إلى وضعه على حمّاله لنقله إلى قرية نوماك ـ بازار، حيث جاءت طوافة وطـارت به إلى مستشفى يقع في كاتاماندو. وعند نهايـة الرحلـة الاستكـشافية كـان بيشوب قد فقد طرفي خنصريه وكل أصابع قدميه، لكنه لم يفقـد احترامـه لمتسلقي الجبال من أمثال هـيلاري الـذي سبقه إلى قمـة إفريـست "مـن خلال ذلك الـسكون الـذي أحـاط بي في المستـشفى، كنـت أفكـر مليـاً بالدروس التي تعلمناها. إفريست عبـارة عـن عمـلاق جلـفٍ وعـدواني، وعلى كل من يتحداه أن يعرف بأنه قد أعلن الحرب عليه، ولكن عليـه أن


https://telegram.me/maktabatbaghdad

يشن الهجوم بكلّ الحذق والدراية اللازمين لخوض معركة عسكرية. وعندما تنتهي المعركة يظلّ الجبل عصياً على الهزيمة إذ لا يوجد منتصرون، ما يوجد هو أولئك الذين نجوا من الموت".

نجا بيشوب من الموت وعاد إلى واشنطن حيث استقبله كيندي مع باقي أفراد مجموعته استقبال الأبطال في حديقة البيت الأبيض. ظلّ بيشوب على قيد الحياة. وفي عام 1968 وضع زوجته ليلا وابنه برينت وابنته تارا داخل سيارة كارافان وسار بهم من أمستردام إلى كاتاماندو. واستقرت الأسرة في (جومالا) الواقعة في نيبال الغربية لمدة عامين ريثما أتم بيشوب رسالة الدكتوراه حول المعابر التجارية القديمة. وأثناء ذلك. كان جورج بيشوب يقوم بزيارتهم خلال ذهابه وإيابه من الرحلات التي يعاني فيها مشكلة تراجع الحياة البرية في نيبال.

وظلّ بيشوب على قيد الحياة ليعود إلى واشنطن العاصمة حيث أصبح رئيساً للجنة ناشيونال جيوغرافيك للدراسات والأبحاث. تصف تارا حياة أبيها في واشنطن حيث كان إد هيلاري يأتي لزيارته ويمضي هذان المتسلقان، اللذان لا يعرفان التعب، أمسيات طويلة وهما يتمددان أمام التلفاز، يحتسيان البيرة الرخيصة ويستغرقان تارة في استعراض ذكريات إفريست، وتارة أخرى في البحث بين أكوام الأفلام السينمائية القديمة المستأجرة التي يعشقها كلاهما. وظلّ بيشوب على قيد الحياة وانتقل برفقة زوجته عام 1994 إلى بوزمان في مونتانار حيث أسس في قبو منزله مكتبة غنية عن جبال الهملايا. لكن بيري بيشوب توقف عن الحياة أثناء رحلة له إلى سان فرانسيسكو. منذ سنة، كان بيشوب يقود سيارته بسرعة عالية إلى جانبه زوجته لإلقاء محاضرة في مثل هذه الأمسية تحديداً، العشاء السنوي الذي تقيمه مؤسسة الهملايا الأميركية من أجل جمع التبرعات، عندما انحرفت السيارة عن الطريق العام، وانقلبت أربع مرات لتتوقف أخيراً.

عند خندق رملي خرجت والدة تارا حية من الحادث بجروح طفيفة لأنها كانت تضع حزام الأمان بعكس والدها الذي طار من حطام السيارة وتوفّي نتيجة إصابات مميتة في رأسه.

وجدت تارا تروي حكايتها كاملة للغريب الواقف بقربها والذي لم تكن تعرفه منذ لحظات. روت له عن أعمالها الفنية التي ظهرت في المجلات التي كان والدها يحضرها لها، وعن الغرباء المتواجدين في مكان الحادث الذين قاموا بجمع تذكاراتها الصغيرة الغالية التي تبعثرت على الطريق العام وأعادوها إليها، وكيف ذهبت برفقة أخيها برينت لزيارة موقع الحادث، حيث علّقا مسابح الصلاة على الشجيرات، وسكبا زجاجات من مشروب الجن المفضل لدى والدهما فوق بقعة دمه التي صبغت الرمال.

"أغرب ما في الأمر هو أنني لم أجد غرابة في أن أبوح بمكنونات قلبي لجريغ، بل بدا وكأنه أكثر شيء منطقي فعلته تلك السنة التي مرّت على وفاة والدي".

عندما أضيئت الأنوار في القاعة التي أطلق منها طوني بينيت أغنيته الشهيرة "تركت قلبي في سان فرانسيسكو" شعر مورتنسون بقلبه يشدّه إلى السيدة التي التقى بها للتو. "كانت تارا تنتعل نوعاً من تلك الأحذية ذات الكعوب العالية التي لم تعجبني قطّ. لكنها كانت تؤلم قدميها، فخلعتها في نهاية الأمسية واستبدلت جزمة عسكرية بها.

نظرتُ إليها بثوبها الأسود اللطيف وقدميها الضخمتين وكاد ذلك يقتلني وكأنني مراهق غِرّ. وأصبحت متأكداً من أنها المرأة التي تناسبني".

توجها معاً لإلقاء التحية على هيلاري الذي عبّر لتارا عن مدى أسفه لوفاة والدها "كان شيئاً لا يصدق، كنت سعيداً بلقاء تارا أكثر من سعادتي بالحديث مع الرجل الذي أؤلهه منذ زمن طويل". وبعد أن


https://telegram.me/maktabatbaghdad

قدمها إلى جان هويرني وجورج مكاون، انضما إلى الجموع التي بدأت تغادر المكان باتجاه بهو الفندق، عندئذٍ عرفت تارا أنني لا أملك سيارة وعرضت عليّ أن توصلني بسيارتها. كنت قد اتفقت مع أصدقاء لي أن أرافقهم، لكنني لم أذكر لها ذلك وتخلصت من أصدقائي كي أكون برفقتها. عندما وصل مورتنسون إلى فندق فيرمونت، كان ذلك الرجل الذي أَلِف الإفلاس والوحدة. أما في تلك اللحظة فقد كان يغادر موعوداً بنفقات عام كامل. وزوجة المستقبل إلى جانبه.

شقت بهما سيارة تارا الفولفو ذات اللون الفضي شوارع سان فرانسيسكو الرحبة المزدحمة، فيما كان مورتنسون يخبرها عن نفسه، عن طفولته في موشي وعن شجرة الفلفل ومستشفى والده ومدرسة والدته عن كريست وموتها وعن ديمبسي أيضاً.عالياً فوق المياه الداكنة لخليج سان فرانسيسكو، وباتجاه أضواء التلال التي تومض بتواطؤ خفي، كان مورتنسون يمدّ جسراً آخر كي تنغزل حياة شخصين لتصبح واحدة.

أوقفت تارة السيارة أمام منزل دودزينسكي، فقال لها مورتنسون "أودّ لو أدعوك للدخول لكن المكان أشبه بكابوس" وجلسا داخل السيارة التي ظلّ محركها يعمل، وتحدثا لمدة ساعتين عن بالتيستان والعقبات التي واجهته لبناء المدرسة وعن برينت شقيق تارا الذي يخطط للقيام برحلته الاستكشافية الخاصة به إلى إفريست "كنت جالسة إلى جانبه في السيارة عندما تبلور في داخلي ذلك التصميم. لم نكن قد تلامسنا بعد لكنني قررت: سأظلّ قرب هذا الرجل طيلة حياتي، وغمرني شعور بالسكينة والسعادة".

قالت له: "هل تجد مانعاً في أن أختطفك؟" وفي شقتها الصغيرة البهيجة التي كانت مرآب سيارة في السابق، سكبت تارا بيشوب كأسين من النبيذ وتبادلا قبلتهما الأولى الطويلة على مهل، في حين

كان تاشي كلب تارا الصغير يتراكض بين أقدامهما وهو ينبح بعنف احتجاجاً على وجود هذا الرجل الغريب. أبعدت تارا وجهها ونظرت في عينيه قائلة: "أهلاً بك في حياتي". وجاء رده: "أهلاً بك في قلبي" وضمها إلى صدره

في صباح اليوم التالي، أي يوم الخميس، اجتازا جسر الخليج نحو مطار سان فرانسيسكو الدولي. كان مورتنسون قد حجز مقعداً على رحلة الخطوط البريطانية المتجهة إلى الباكستان يوم الأحد القادم. ومعاً رويا قصتهما لموظفة الحجز التي لانت أمام العاشقين وقامت بتأجيل الحجز إلى يوم الأحد الذي يليه وتغاضت عن التكلفة.

كانت تارا قد أنهت دراستها الجامعية وتحضّر رسالة دكتوراه في كلية كاليفورنيا للطب النفسي الاحترافي قبل أن تباشر مهنتها كطبيبة نفسانية. وبما أنها أكملت كلّ صفوفها فقد كانت حرّة كلّ الوقت. وبما أنّ مورتنسون أيضاً أنهى ارتباطه مع المستشفى فقد أمضيا كل لحظة معاً ثملين تملؤهما السعادة.

وبسيارة تارا التي بدأت تهرم، سافرا لمدة ثلاث ساعات إلى سانتا كروز وأقاما مع أقارب مورتنسون في منزلهم قرب الشاطئ "لقد كان جريغ رائعاً وهو يقاسمني حياته وأسرته بعفوية مطلقة. كنت قد مررت بعلاقات سابقة مريعة وأدركت أن الأمور تكون هكذا عندما يظهر الشخص المناسب".

وفي يوم الأحد الذي يليه، غادرت طائرة الخطوط البريطانية متجهة إلى الباكستان ولم يكن مورتنسون على متنها بل كان عائداً مع تارا إلى منطقة الخليج عبر التلال السمراء التي تكللها خضرة أشجار السنديان المتعانقة التفتت تارا نحو الرجل الذي التقته منذ أربعة أيام وسألته "متى سنتزوج؟" أجابها "ما رأيك بيوم الثلاثاء؟".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

في يوم الثلاثاء الواقع في التاسع عشر من شهر أيلول ارتدى جريغ مورتنسون بنطالاً من الكاكي وقميصاً حريرياً بلون العاج وصدرة مطرزة من التيبت، وأمسك بيد خطيبته تارا بيشوب وصعدا معاً الدرجات المؤدية إلى دار القضاء في مدينة أوكلاند. وكانت العروس ترتدي قميصاً فضفاضاً من الكتان فوق تنورة قصيرة مزدانة بالأزهار. وفي مراعاة طول الرجل الذي سيصبح زوجها بعد لحظات تركت خفيها في المنزل وسارت نحو زفافها بصندل له كعب قصير.

"اعتقدنا أننا سنقوم فقط بالتوقيع على بعض الأوراق، نحصل بعدها على وثيقة الزواج الرسمية، على أن نقوم بباقي المراسم بحضور عائلتينا بعد عودة جريغ من الباكستان" لكن دار القضاء كانت مجهزة بكل ما تحتاجه طقوس الزفاف. فبعد أن تقاضوا منهما ثلاثة وثمانين دولاراً، اصطحب قاضي المدينة العروسين إلى قاعة كبيرة وطلب منهما ان يقفا عند حائط يعلوه قوس من الورود البيضاء الصناعية المثبتة على لوحة البلاغات الرسمية، وتبرعت سيدة أسبانيّة تعمل في طاقم القاضي الإداري بأن تكون شاهدة على عقد القران، وظلّت تبكي حتى انتهاء المراسم.

بعد ستة أيام من حديثهما الهامس في قاعة فيرمونت المعتمة ردد جريغ مرتنسون وتارا بيشوب نذور الزواج. تقول تارا: "وعندما وصل القاضي إلى الفقرة التي تقول «في الغنى وفي الفقر» انفجر كلانا بالضحك. كنت قد شاهدت مقرّ سكن جريغ عند دودزينسكي وكيف كان ينزع الوسادات عن الأريكة ليحصل على مضطجع طري لكيس نومه. وأذكر أن فكرتين خطرتا لي في تلك اللحظة "أنني أتزوج رجلاً لا يملك سريراً ويا إلهي كم أحبه!".

اتصل العروسان ببعض الأصدقاء وصعقوهم بنبأ زفافهما ودعواهم للاحتفال بالمناسبة في مطعم إيطالي يقع في سان فرانسيسكو. كان لدى مورتنسون صديق يدعى جيمس بولـلوك يعمل كسائق لعربة تلفريك.ألحّ جيمس عليهما لكي يحضر لملاقاته عند الواجهة المائية لسان فرانسيسكو خلال وقت تشغيل العربة، وحشرهما داخل العربة الزاهية بالطلاء القرمزي والذهبي في ساعة الازدحام وانطلق الجميع وهو يقرع الجرس ويعلن لباقي الركاب نبأ الزفاف. وفي حين سارت العربة تقعقع في طريقها أمطرتهم سان فرانسيسكو بالسيجار والنقود والتهاني. وعند التوقف الأخير اقفل بوللوك الأبواب وأخذ العروسين في نزهة خاصة بجسر سان فرانسيسكو وهو يقرع الأجراس طوال الطريق. ارتفعت العربة كالسحر فوق الليل الخفي فوق ذروة هضبة (نوب) واجتازت فندق فيرمونت نحو الشوارع الملتوية حيث تمتدّ مناظر سان فرانسيسكوا الأخاذة في جهة الشمال. أمسك جريغ مورتنسون بيد زوجته يشاهدان الشمس الغاربة تُقبّل المحيط الهادئ وراء جسر (جولدن جين)، وتلتقي على جزيرة (إنجل) أطياف من لون وردي ما زال مورتنسون يعتبره لون السعادة. وعندما شعر بتشنج غير مألوف في فكيه، لاحظ أنه لم يتوقف عن الابتسام منذ ستة أيام.

"يذهل الناس عندما يسمعون قصّة زواجي من تارا، أما أنا فلا أجد غرابة أننا تزوجنا بعد ستة أيام من تعارفنا. لقد فعل والدي الشيء نفسه وكان زواجهما ناجحاً. الشيء الوحيد المذهل بالنسبة إليّ هو أنني التقيت بتارا. إنها المرأة الوحيدة في العالم التي يمكن أن تكون لي".

في يوم الأحد التالي، حزم مورتنسون حقيبته ودسّ المحفظة التي تحتوي مئات الدولارات في جيب سترته واصطحبته تارا إلى المطار. وعندما توقفا عند باب المغادرين، عجز عن إخراج نفسه من السيارة. التفت مورتنسون نحو زوجته التي ابتسمت له بتواطؤ. فقال لها: "سأذهب


https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأتأكد إن كانوا سيسمحون لي بفعلها مرّة أخرى" قام مورتنسون بتأجيل رحلته مرتين وهو يحمل أمتعته إلى المطار في كلٍّ مرةٍ تحسباً لأي رفض لتأجيل آخر. لكن الحقيقة أنه لم يكن هناك من داعٍ للقلق لأن حكاية جريغ وتارا صارت أسطورة رومانسية تتناقلها ألسنة موظفي الحجز في الخطوط البريطانية، الذين كانوا دائماً يتحايلون على الأنظمة كي يطيلوا مدة إقامة مورتنسون مع عروسه الجديدة. يقول مورتنسون: "كانا أسبوعين متميزين، إذ لم يكن أحد يعرف أنني لم أغادر المدينة بعد. فتحصنّا داخل شقة تارا نحاول أن نعوّض الأيام التي لم نعرف فيها بعضنا البعض".

تقول تارا: "عندما قررت أخيراً أن أعود إلى عالم الواقع، اتصلت بوالدتي التي كانت في نيبال تستعد لرحلة تسلق".

بينما تقول والدتها ليلا بيشوب: اتصلت بي تارا في كاتامندو وطلبت مني أن أجلس. لقد كانت مكالمة لا تنسى إذ كانت ابنتي تردد كلمة: "رائع" مراراً وتكراراً، وكل ما تمكنت من استيعابه هو "ستة أيام" وعندما قلت لها: "أمي لقد تزوجت برجل رائع" شعرت بصدمتها، وأيضاً بأنها لم تكن راضية، لكنها استجمعت شجاعتها وحاولت أن تعبر لي عن سعادتها قائلة: "لقد بلغت الواحد والثلاثين من العمر وأظن أنك قد قبّلت ما يكفي من الضفادع. وإن كنت تعتقدين بأنك قد وجدت أميرك، فلا بد أن تكوني على صواب".

في المرّة الرابعة التي توقفت فيها سيارة الفولفو الفضية أمام الخطوط الجوية البريطانية، قبّل مورتنسون زوجته التي شعر أنه يعرفها منذ ولادته وجرّ حقيبته إلى مكتب التذاكر. قالت له موظفة الحجز مداعبة: "أتريد حقاً السفر هذه المرة؟ هل أنت واثق أنك اتخذت القرار الصحيح؟".

التفت مورتنسون إلى الوراء ولوّح لزوجته التي وقفت خلف اللوح الزجاجي مودعاً إياها وأجاب: "أنا واثق انني اتخذت القرار الصحيح ولم أشعر بهذه الثقة حيال أي شيء آخر طوال حياتي".

# الفصل الثاني عشر

# "دروس الحاج علي"

"قد يبدو من اللامعقول أن نصدّق بان ثقافة بدائية غارقة في جبال الهملايا يمكن أن تملك شيئاً تعلّمه لمجتمعاتنا المتحضرة. لكن بحثنا الدؤوب عن مستقبل فعّال لا ينفك عن الدوران عائداً إلى روابط قديمة تشدّ بيننا وبين الأرض، وهذا الترابط لم تتبذه الثقافات القديمة قطّ"

هيلينا ترويبيرج ـ هودج

عند البوابة المؤدية إلى مكاتب تشانغزي، وقف حارس هزيل البنية حتى ضمن معايير الأجسام البشرية البلطية ومنع مورتنسون من دخول البناء. يعقوب مساعد تشانغزي ذاك، بدا فتىً لم يتجاوز الثانية عشرة من العمر بوجهه الأمرد وبنيته الضئيلة، مع أنّه في أواسط الثلاثينات. وانزرعت تلك الكتلة الصغيرة أمام مورتنسون لتعترض سبيله.

فتح مورتنسون حقيبة القماش وأخرج منها الحافظة التي يضع فيها الوثائق المهمة جميعها، وأخرج القائمة التي تحمل مواد المدرسة والتي كان تشانغزي قد أعدّها لمورتنسون عند رحلته السابقة وقال للحارس: "أريد أن أسترد هذه المواد" ورفع القائمة أمام وجه يعقوب كي يتأكد منها.

أجابه يعقوب: "السيد تشانغزي ذهب إلى راولبندي".

"ومتى سيعود؟".



https://telegram.me/maktabatbaghdad

"بعد شهر واحد أو شهرين لا أكثر. يمكنك أن تعود في ذلك الوقت".

أجابه يعقوب وحاول أن يغلق البوابة، لكن مورتنسون أوقفه بيده قائلاً: "دعنا نتصل به الآن".

"لا نستطيع أن نفعل ذلك لأن خطوط الهاتف إلى راولبندي مقطوعة".

حذّر مورتنسون نفسه من إظهار غضبه وهو يتساءل إن كان كلّ من يعملون لدى تشانغزي يملكون المعين نفسه الذي لا ينضب من الأعذار الواهية. وأخذ يوازن بين إكراه يعقوب على فتح البوابة بطريقة ما أو إحضار الشرطة، عندما ظهر من وراء يعقوب رجل أكبر سناً، مهيب الطلعة يرتدي قلنسوة بنية اللون منسوجة من صوف فاخر على غير المعتاد وله شاربان مشذبان بعناية.

ذلك الرجل كان غلام بارفي المحاسب الذي يلجأ إليه تشانغزي من أجل تدقيق دفاتر الحسابات. ويحمل شهادة في إدارة الأعمال من جامعة كراتشي التي تعتبر من أرقى الجامعات في الباكستان. ذلك الإنجاز العلمي كان نادراً بين البلطيين، بالإضافة إلى أنه يحظى بالاحترام والتقدير في أنحاء (سكاردو) كلها كمثقف شيعي ورع. أفسح يعقوب الطريق بتوقير ظاهر للرجل الأكبر سناً الذي توجه لمورتنسون بالسؤال: "أي خدمة أؤديها لك يا سيدي؟" بإنكليزية بليغة لم يسبق لمورتنسون أن سمعها من قبل في (سكاردو).

قدّم مورتنسون نفسه وشرح مشكلته ثم قدم له الإيصال كي يتفحصه. هزّ بارفي رأسه باستغراب قائلاً: "يا له من أمر غريب، إنك رجل يسعى جاهداً من أجل بناء مدرسة للأطفال البلطيين ولم يذكر لي تشانغزي الأمر قطّ بالرغم من معرفته الأكيدة بأنه لدي نفس الاهتمام العميق في مشروع كهذا. يا له من أمر لافت!".

شغل غلام بارفي لمدة معينة منصب مدير جمعية بالتستان للإنعاش الاجتماعي نجح خلالها في تشييد مدرستين ابتدائيتين في ضواحي (سكاردو) قبل أن تنضب الموارد المالية التي كانت الحكومة الباكستانية قد وعدت بها، وبات مكرهاً على قبول أعمال محاسبية كيفما اتفق. والآن يقف إلى جانب البوابة الخضراء إنسان غريب يحمل المال اللازم لجعل حلم مدرسة في كورف واقعاً ملموساً. وإلى الجانب الآخر يقف أكثر الرجال كفاءة في أنحاء باكستان الشمالية، مؤهلاً كلّ التأهيل لتقديم يد العون ويحمل أهدافه نفسها. لف بارفي حول رقبته منديلاً ترابي اللون وقال لمورتنسون: "كنت على وشك أن أهدر أسبوعين آخرين في تسوية دفتر حسابات تشانغزي الميؤوس منها. هيا معي لنتفقد أحوال موادك".

يعقوب الذي انكمش أمام بارفي قاد بهم السيارة إلى موقع بناء رثّ يقع على ضفة نهر الإندوس، ويبعد مسافة ميل إلى الجنوب الغربي من المدينة، وهو عبارة عن هيكل لبناء فندق باشرهُ تشانغزي ولم يكمله لأنه أفلس. كان البناء الواطئ بدون سقف ويقع في وسط بحر من الفضلات التي ترمى من فوق السور البالغ ارتفاعه عشرة أقدام وتعلوه أسلاك شائكة. ومن خلال النوافذ الخالية من الزجاج استطاعا أن يشاهدا أكوام المواد ومن فوقها أغطية من البلاستيك الأزرق. أمسك مورتنسون بالقفل الكبير المعلّق على بوابة السور ونظر نحو يعقوب الذي خفض بصره وتمتم قائلاً: "لا يحمل المفتاح سوى السيد تشانغزي".

وبعد ظهيرة اليوم التالي عاد مورتنسون يرافقه بارفي ويحمل بيده قاطعة مزلاج يلوّح بها في الهواء وهما يتجهان نحو البوابة. ظهر من فوق البناء حارس كان يأخذ غفوة وسدد نحوهما بندقية صيد يعلوها الصدأ وتبدو أقرب إلى العصا وقال مورتنسون لنفسه: "يبدو أن الاتصال براولبندي لم يعد مستحيلاً" في حين صاح بهم الحارس باللغة البلطية قائلاً: "ممنوع الدخول، هذا البناء مباع".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

فقال بارفي بنبرة اعتذار: "قد يرتدي تشانغزي ملابس بيضاء، لكن روحه غارقة في السواد".

إلا أن تلك النبرة ما لبثت أن تلاشت عندما استدار لمواجهة المرتزق الذي يحرس البوابة، وبدا يقذفه بوابل من المفردات البلطية وقعها على الأذن يوحي بمدى فظاظتها، وبدا بارفي كأنه يُعمل إزميلاً في كتلة من الصخر لن تملك سوى أن تتشظى لتفتح لهما السبيل. وعندما انتهى من كلامه ورفع القاطعة نحو المزلاج وضع الحارس بندقيته أرضاً وأخرج مفتاحاً من جيبه ورافقهما إلى داخل المبنى.

وداخل الغرف الرطبة للفندق المهجور، رفع مورتنسون أغطية البلاستيك الزرقاء ليجد تحتها ما يقارب ثلثي الاسمنت والأخشاب وألواح السقف الحديدية، ولن يتمكن قط من تفسير ما حدث لكامل الحمولة التي صعد بها طريق (كاراكورام) لكن ما تبقى منها سيكون كافياً لمباشرة أعمال البناء.

ساعده بارفي مجدداً لإرسال ما تبقى من مواد البناء كورف بواسطة سيارة جيب. ويتحدث مورتنسون عن ذلك بقوله: "لم أكن لأنجز أي شيء في باكستان لولا وجود غلام بارفي. لقد سبق وأن نجح والدي في بناء مشفاه لأن جون موشي ذلك التنزاني الذكي المتمكن كان إلى جانبه، أما أنا فكان لديّ جون موشي آخر. وعندما باشرت ببناء المدرسة الأولى، لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا يجب القيام به. بارفي هو الذي قاد خطواتي".

وقبل أن يستقل مورتنسون سيارة جيب أخرى لينطلق إلى كورف صافح بارفي بحرارة وشكره، فأجابه بارفي: "إن كنت أستطيع تقديم المزيد من المساعدة فما عليك سوى إخباري. ما تفعله من أجل تلامذة بالتستان هو الجدير بالشكر".

كان شكل الأحجار أقرب إلى صخور آثار قديمة أكثر منها أحجاراً معدّة لبناء المدرسة الجديدة. وبالرغم من أنه كان وقفاً فوق منبسط يعلو نهر (برالدو). ومن أن الطقس الخريفي المثالي جعل هرم "كيـه2" يتوهج، فلم يوحِ ذلك كله لمورتنسون إلا بالإحباط.

ففي الشتاء المنصرم وقبل أن يغادر كورف غرس مورتنسون أوتاد خيام في أعماق التربة المتجمدة وربط إليها شرائط مجدولة من اللونين الأحمر والأزرق كنقاط علّام لمساحة تتسع الغرف الخمس التي خطط لها كمبنى للمدرسة. وترك مع الحاج علي مبلغاً كافياً من المال لجلب عمال من القرى التي تقع أسفل الوادي لينقبوا عن الحجارة ويأتوا بها إلى الموقع. وعند وصوله كان يتوقع أن يجد أساس البناء على الأقل جاهزاً. لكن ما شاهده لم يكن سوى كومتين من الأحجار متراصة فوق بعضها في وسط الحقل. وعندما تفحص الموقع مع الحاج علي، كان يجاهد كي يكظم غيظه. فبين تأجيله المستمر لعودته، وصراعه لاسترداد مواد البناء لم يصل إلى هنا إلا في أواسط شهر تشرين الأول، أي بتأخر قدره شهر كامل عن الموعد الذي أعطاه للحاج علي. وعليهم ان يباشروا ببناء الجدران هذا الأسبوع. ازدرد مورتنسون غضبه وراح يلوم نفسه. لا يستطيع أن يبقى في الباكستان إلى الأبد. فهو رجل متزوج الآن وعليه أن يؤسس لنفسه عملاً ثابتاً. عليه أن ينتهي من بناء المدرسة كي يتفرغ للتفكير بذلك والذي يحدث الآن هو أن فصل الشتاء سيؤجل عملية البناء من جديد. ورفس بحنق حجرة بقدمه. سأله الحاج علي باللغة البلطية: "ما بك؟ تبدو وكأنك كبش فتي يتوق إلى المناطحة" اخذ مورتنسون نفساً عميقاً وردّ عليه بسؤال آخر: "لماذا لم تباشروا العمل؟".

أجابه الحاج علي "يا دكتور جريغ، لقد ناقشنا مخططاتك بعد أن غادرتنا عائداً إلى قريتك. وارتأيت أن هدر أموالك في دفع أجور


https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأولئك العمال الكسولين سيكون ضرباً من الحماقة لأنهم يعرفون بأن رجلاً أجنبياً ثرياً هو الذي يسدد نفقات بناء المدرسة ولذلك فهم سيعملون قليلاً ويساومون كثيراً. لذا قمنا بقطع الأحجار بأنفسنا وذلك استغرق فصل الصيف بأكمله لأن العديد من الرجال كان عليهم أن يغادروا القرية لممارسة أعمالهم حمّالين. ولكن لا تقلق لأن نقودك موجودة في منزلي بالحفظ والصون".

"أنا لست قلقاً بشأن المال، كنت أريد أن أبني سقفاً قبل حلول فصل الشتاء ليؤوي الأطفال أثناء دراستهم".

وضع الحاج علي يده على كتف الأمريكي اللجوج بحنوٍّ أبوي وابتسم في وجهه قائلاً: "أشكر الله الرحيم لكل ما فعلته لكن أهل كورف يعيشون منذ ستمئة عام بدون مدرسة. وشتاء آخر لن يضيرهم في شيء".

وعندما سارا معاً عائدين إلى منزل الحاج علي بين ممرات حزم القمح التي تنتظر أن تُدرس، كان مورتنسون يتوقف كل بضع خطوات لإلقاء التحية على أهل القرية الذين يرمون بأحمالهم أرضاً كي يرحبوا بعودته. والنسوة ينحنين فتتساقط سويقات القمح من السلال التي يحملنها على ظهورهن، قبل العودة إلى الحقول لحصاد حمولة أخرى بمناجلهن. ومن فوق القلنسوات المجدولة من الصوف فوق رؤوسهن تتمايل بجذل الاشرطة الحمراء والزرقاء التي كان قد ربطها إلى الأوتاد، وتبدو بهية إلى جانب عيدان القش الباهتة التي علقت بالجدائل. لا شيء يذهب هباء في "كورف".

استلقى مورتنسون تحت النجوم على سطح منزل الحاج علي وفكّر كم كان يشعر بالوحدة في المرة الأخيرة التي نام فيها على هذه البقعة بالتحديد. أشرق وجه تارا في ذهنه وتذكر كم كانت جميلة

وهي تلوح له بيدها من ورا الزجاج في مطار سان فرانسيسكو. شعر بسعادة غامرة تجتاحه وكان عليه أن يشارك أحداً بها.

"تواها، هل أنت مستقيظ؟".

"نعم أنا مستيقظ".

"هناك شيء أودّ أن أقوله لك. لقد تزوجت".

سمع مورتنسون صوت طقطقة ثم أغمض عينيه أمام الضوء الباهر الآتي من مصباح البطارية الذي أحضره لصديقه من أميركا. كان تواها يجلس ملاصقاً له يحدق في وجهه تحت نور المصباح كي يتأكد بأن ما قاله ليس مزاحاً. ووقع المصباح على الأرض عندما بدأ تواها يوجه سلسلة لا تنتهي من لكمات التهاني والتبريك إلى ذراعيه وكتفيه، ثم ارتمى على فراشه وهو يتنهد بسعادة.

"الحاج علي قال بأن الدكتور جريغ يبدو مختلفاً هذه المرة" ثم استغرق في الضحك وهو يضيف "إنه يعرف كل شيء حقاً. أيمكن أن أسأل عن اسمها الكريم؟".

"تارا".

"تا...را" ردد تواها الاسم الذي يعني نجمة في اللغة الأوردية، وأخذ يتدرب على إضاءةو إطفاء المصباح الجديد، ثم سأله: "امرأتك تلك.. أهي جميلة؟".

احمر وجه مورتنسون خجلاً وهو يجيبه "أجل، إنها جميلة".

"وكم رأساً من الماعز والكباش عليك أن تدفع لوالدها؟".

"والدها متوفى مثل والدي، ونحن في أمريكا لا ندفع ثمناً مقابل العروس".

"وهل بكت عندما تركت والدتها؟".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

"لم نخبرها بالأمر إلا بعد أن تزوجنا".

واستغرق تواها في صمت عميق وهو يفكر كم هي متطرفة عادات الزفاف في أمريكا.

لقد دعي مورتنسون لحضور عشرات حفلات الزفاف منذ مجيئه إلى الباكستان، حيث تتنوع تفاصيل الطقوس بين قرية وأخرى، لكن العامل المشترك الذي شاهده فيها جميعاً هو الكرب الذي ينتاب العروس عندما تغادر منزل أهلها.

"الجزء الكئيب الذي تشاهده خلال الزفاف هو العروس ووالدتها وقد تشبثتا ببعضهما البعض وانخرطتا في بكاء مرير. ما يحدث عادة هو أن والد العروس يقف مكتوف الأيدي وقد أدرا ظهره لوالد العريس الذي كدّس على الأرض أكياس الطحين والسكر وراح يغدق الوعود عن رؤوس الماعز والكباش التي سيقدمها له، في حين يطلب والد العروس المزيد، وعندما يجد أن السعر بات منصفاً، يستدير نحو والد العريس ويومئ بالموافقة، وفي تلك اللحظة بالذات تنفتح جميع أبواب الجحيم. وقد شاهدتُ بأم عيني رجالاً أشداء من أهل العريس يحاولون أن يفصلوا العروس عن أمها بكل ما يملكون من قوة، في حين تتعالى أصوات باقي النساء بالعويل والنحيب. عندما تغادر عروس قرية منعزلة مثل "كورف"، فهي تعرف مسبقاً أنها قد لا تلتقي بأهلها بعد ذلك أبداً".

في صبيحة اليوم التالي وجد مورتنسون في طبقه بيضة مسلوقة تعتبر ثمينة من حيث المبدأ إلى جانب إفطاره المعتاد المكون من الخبز والشاي بالحليب، وابتسمت له سكينة من داخل مطبخها بافتخار، وفي حين قام الحاج علي بتقشير البيضة له وهو يشرح الأمر قائلاً "ستعطيك الطاقة الكافية لإنجاب الكثير من الأولاد" وكانت سكينة تقهقه من خلف شالها.

ظلَّ الحاج علي جالساً إلى جانبه ينتظر بصبر حتى أنهى مورتنسون الكوب الثاني من الشاي بالحليب. ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة أضاءت لحيته الكثّة عندما قال: "هيا بنا، سنبني مدرسة".

وصعد إلى سقف منزله ونادى جميع رجال "كورف" للاجتماع في مسجد القرية، وحمل مورتنسون خمسة رفوش كان قد استردها من فندق تشانغزي المتداعي وسار وراء الحاج علي عبر الأزقة الموحلة باتجاه المسجد. في حين كان رجال القرية جميعهم يتدفقون من أبواب منازلهم.

كان مسجد "كورف" قد تأقلم مع المناخ المتقلب شأنه شأن المؤمنين الذين يؤمونه. وبما أن اللغة البلطية لا تملك أبجدية، فقد عوّض متحدثوها عن ذلك بالحفاظ على تراث شفهي دقيق بحيث يستطيع أي فرد من البلطيين أن يسرد سلسلة نسبهِ بدءاً من عشرة أو عشرين جيل سابق. ولا يوجد أحد في القرية لا يعرف أسطورة هذا المسجد الخشبي المائل المدعّم بجدران من الطوب الصامد منذ خمسمئة عام والذي كان معبداً بوذياً قبل أن تجد الديانة الإسلامية موطئ قدم لها في بالتستان.

خطا مورتنسون إلى داخل المسجد لأول مرة منذ مجيئه إلى "كورف" إذ كان يبقي مسافة محسوبة بينه وبين المسجد وزعيم "كورف" الديني (شيرتاخي) احتراماً للشعائر الدينية، كما أنه لم يكن واثقاً من رأي الإمام في ذلك المارق الذي يعيش بين أهل القرية وينادي بتعليم إناث "كورف". لكن (شيرتاخي) ابتسم له بمودّة وقاده إلى الجلوس على سجادة صلاة في إحدى الزوايا. كان نحيلاً ولحيته يشوبها الشيب وكشأن رجال "كورف" جميعهم فقد بدا أكبر عمراً من سنواته الأربعين بعقود عديدة؟


https://telegram.me/maktabatbaghdad

(شيرتاخي) الذي كان يصل صوته إلى مسامع مصلّي القرية المتباعدين خمس مرات في اليوم دون حاجة إلى مكبر صوت، ملأ الغرفة الصغيرة بصوته الجهوري وهو يدعو إلى إقامة الصلاة وتوجيه الدعاء إلى الله طلباً للمباركة والتوفيق في بناء المدرسة. وعندما وقف (شيرتاخي) يؤم الصلاة. أدى مورتنسون صلاته كما سبق وأن علمه إياها الخياط، فعقد ذراعيه على خاصرته وثنى خاصرته. أما رجال "كورف" فقد ضمّوا أذرعتهم إلى جنوبهم والتصقوا بالأرض شبه منبطحين. إذن الخياط الذي علّم مورتنسون الصلاة كان من الطائفة السنّية وهو الآن يصلي بين رجال من الطائفة الشيعية.

كان مورتنسون قد قرأ في صحف إسلام آباد منذ بضعة شهور عن موجة العنف الطائفي التي تجتاح الباكستان. إذ كانت حافلة ركّاب متجهة إلى (سكاردو) تعبر جسر نهر الإندوس نحو طريق (كاراكورام) وفور مرورها من تشيلاس وهي منطقة تهيمن عليها الطائفة السنّية، اعترض رجال ملثمون يحملون بنادق كلاشنكوف طريق الحافلة، فأوقفوها وأخرجوا الركاب منها. ثم فرزوا السنّة عن الشيعة وقاموا بذبح ثمانية عشر رجلاً من الشيعة تحت أنظار زوجاتهم وأطفالهم الذين أجبروهم على مشاهدة المجزرة.

إنه يصلي على طريقة الطائفة السنية في قلب باكستان الشيعية وهو يدرك بأنّ رجلاً قد يقتل بسبب أقلٍ من ذلك بكثير. يتحدث مورتنسون عن ذلك بقوله: "كنت ممزقاً بين أن أتعلم بسرعةٍ طريقة الصلاة الشيعية وبين الإفادة من هذه الفرصة للتمتع بالنظر إلى المنحوتات الخشبية البوذية البديعة الموجودة على الجدران. ولكن إن كان البلطيون يوقرون الديانة البوذية إلى درجة ممارسة طقوس ديانتهم الصارمة بمحاذاة رسوم الصليب المعقوف وعجلة الحياة البوذية الصرفة، فلن يجدوا ضيراً في التسامح مع هذا المارق الذي يؤدي الصلاة بالطريقة التي كان خياط قدّ علّمه إياها".

الحاج علي قام بنفسه بإحضار الحبال هذه المرة، وكانت عبارة عن خيوط من القنب المغزول يدوياً، وليس مجرد شرائط زرقاء وحمراء. وقام مع مورتنسون بقياس الأطوال اللازمة، ثم غمس الحبال في مزيج من الكلس والجير وطبق طريقة القرية المعهودة في وضع علامات لأبعاد موقع البناء وتواها من الطرف الآخر وقاما بشدّ الحبل بإحكام ثم ضربا بالأرض فخلّف خطوطاً بيضاء واضحة تدلّ على موقع جدران المدرسة. وزع مورتنسون الرفوش على الرجال وبدأ ومعه خمسون رجلاً عملية الحفر بالتناوب بدأب. استغرقت فترة بعد الظهر كلها حتى توصلوا إلى إحداث خندق بعمق ثلاثة أقدام وعرض ثلاثة أقدام أخرى يحيط بموقع بناء المدرسة.

وعندما أصبح الخندق جاهزاً، أومأ الحاج علي برأسه إلى كتلتين ضخمتين من الحجارة جاهزتين لهذا الغرض.فقام ستّة من الرجال برفعها نحو الخندق وهم يئنون وأنزلاهما إلى زاوية حفرة الأساس بمواجهة "كيه 2"، وبعدها نادى الحاج علي يطلب الأضحية باللغة البلطية.

سار تواها باعتداد لمسافة قصيرة ثم عاد برفقة بهيمة هائلة الحجم لها لون الرماد وقرنان معقوفان يشمخان نحو الأعلى وكأنهما تيجان ملكية وقد وصف مورتنسون المشهد قائلاً: "ما يحدث عادة هو أنه عليك أن تجرّ الكبش من قرنيه كي تجعله يتحرك، لكن هذا كبش القرية الكبير وما حدث أنه هو كان يجر تواها الذي، من جانبه، يحاول جاهداً أن يظلّ متشبثاً بالكبش الذي اندفع قدماً نحو مصيره المحتوم".

أوقف تواها الكبش عند حجر الأساس وامسك قرنيه بإحكام ثم أدار رأسه نحو مكة فيما كان شريتاخي يتلو السورة القرآنية التي تتحدث عن الله عندما طلب من إبراهيم أن يضحي بابنه ثم سمح له بافتدائه بكبش بعد أن تأكد من صدق إيمانه. ووجد مورتنسون تشابها


https://telegram.me/maktabatbaghdad

بين الرواية القرآنية وقصة إبراهيم وإسحاق التي وردت في التوراة والإنجيل "كنت أشاهد أمامي مجريات الأحداث التي قرأت عنها في دروس الأحد الدينية ولمست صدى التشابه والعناصر المشتركة بين الأديان المختلفة وكيف يمكن أن تنسب كلها إلى جذر واحد".

حسين وهو حمّال تسلق ضليع، ولديه ابنه مصارع سومو من الحجم البلطي، كان جزار القرية. وإذا كان حمالو بالتورو يتقاضون أجورهم عن حمولة يبلغ وزنها خمسة وعشرين كيلو غراماً، فإن سمعة حسين ذائعة الصيت تفيد بأنه حمل ضعف ذلك خلال رحلات التسلق، ولا يكون أبداً أقل من سبعين كيلو غراماً دفعة واحدة. سحب حسين سكيناً يبلغ طولها ستة عشر إنشاً من غمده ووضعه على وبر الكبش المنتصب فوق حنجرته. رفع شيرتاخي كفيه نحو السماء وهو يردد "بسم الله الرحمن الرحيم" ثم أومأ بالموافقة للرجل الذي يحمل السكين بيد مرتعشة. ثبت حسين قدميه. ودفع بنصل السكين مباشرة في قصبة الكبش الهوائية ومنها إلى الوريد وتدفق الدم الحار وتناثر فوق حجر الأساس ثم تحول تدريجياً إلى قطرات أخذت تتناقص مع تباطؤ ارتعاشات قلب البهيمة. أعمل حسين سكينه وهو يئن في النخاع الشوكي ثم رفع تواها رأس الأضحية من قرنيها نحو السماء. حدّق مورتنسون في عيني البهيمة التي أحس وكأنها تحلّق في عينيه بدورهما، ولم يجد انهما أقل حياة قبل أن يبدأ حسين بنحرها.

أعدّت النسوة الأرز والـ"دال" بينما قام الرجال بسلخ فروة الأضحية وتقطيع لحمها. يصف مورتنسون ذلك اليوم قائلا: "لم ننجز شيئاً يذكر في ذلك اليوم. في الحقيقة، لم ننجز شيئاً يذكر في ذلك الخريف. الحاج علي كان على عجلة في إضفاء الشرعية الإسلامية على المدرسة، وليس في بنائها. كل ما فعلناه هو أننا أقمنا وليمة هائلة، وبالنسبة لأولئك الناس الذين لا يحصلون على وجبة من اللحوم إلا نادراً، فإن تلك المأدبة كانت حدثاً أهم بكثير من الحصول على مدرسة".

لم يبق مواطن من كـورف لم يحـصل علـى حـصته مـن اللحـوم، وبعد أن انهالوا على ما تبقى من نخاع داخل العظم، انضم مورتنـسون إلى الرجال الذين أضرموا النار وتحلقوا حولها في المكان الـذي يأمـل ذات يوم أن يصبح باحة للمدرسة بعد اكتمالها.

وعندما بدأ القمر يصعد من وراء "كيه 2" الخاصة بقريتهم، اخـذوا يرقصون حول النار ويعلمون مورتنسون قصائد مـن ملحمـة الهميلايـا العظيمـة الـتي وضـعها (جيـسار) المحبـوب في كـل أصـقاع العـالم وأطلعوه على معينهم الذي لا ينضب من الأغاني البلطية الفولكلورية.

وقد أدى البلطيون والرجـل الاميركـي الـضخم رقـصة الـدراويش وأنشدوا أغنيات عـن ممالـك جبـال الألـب الإقطاعيـة وعـن وحـشية محاربي الأفغان الهنديين الذين يتـدفقون إلـيهم مـن أفغانـستان وعـن المعارك التي دارت بين راجـات البلطـيين والغـزاة الأوربـين الغـربيين الذين قدموا في البداية من الغـرب مـع الإسـكندر، ومـن ثم بمرافقـة المرتزقة من الهند البريطانيـة نحـو الجنـوب والـشرق. نـساء "كـورف" اللواتي ألفن وجود ذلك الرجل الملحد بينهن، تحلقن حول النار التي أضاءت وجوههن السعيدة وهن يصفّقن ويردّدن الأغاني مع رجالهنّ.

لقد أدرك مورتنسون أن البلطين يملكون تاريخاً عريقاً وتراثـاً غنيـاً. اللغة البلطية لا تملك أبجدية، لكن ذلـك لـن يطمـس وجودهـا أبـداً. هذه الوجوه التي تحلقت حـول النـار لا تحتـاج إلى مـن يعلمهـا. بـل بحاجة إلى من يدعمها والمدرسة هي المكان الذي سيجعل من هـؤلاء الناس شعباً قادراً على دعم نفسه.

نظر مورتنسون إلى موقع البناء فلم يـر سـوى خنـدق محفـور في الأرض ولطخاً بدماء الكبش. قد لا ينجز الكثير قبل أن يعـود إلى تـارا ولكن المدرسة اتخذت حجماً حقيقياً في ذهنه خلال ليلة الرقص تلـك


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وها هي تقف أمامه مكتملة وراسخة تماماً مثل جبل "كيه2" يضيئها نور القمر الفضي. واستدار ليواجه حلقة النار من جديد.

رفض مالك شقة تارا بيشوب أن يعيش الزوجان فيها، فنقل مورتنسون من متاع زوجته ما يمكن أن تتسع له غرفته المأجورة لدى دودزينسكي ووضع الباقي في المستودع المخصص لمتاعه. وعندما رأى كتبها ومصابيحها تتكئ على فيلة أبيه المنحوتة من خشب الأبنوس، شعر كم أصبحت حياته مجدولة مع حياتها.

ومن الميراث المتواضع الذي تركه لها والدها، سحبت تارا مبلغاً من المال يكفي لشراء سرير كبير، ما لبث أن احتل معظم أرضية غرفة النوم وأثار تعجب مورتنسون حول المؤشرات الإيجابية للزواج على حياته. فقد هجر كيس النوم الذي لم يعرف سواه منذ مجيئه إلى كاليفورنيا وصار ينام على سرير. ولأول مرة منذ سنوات أصبح لديه من يروي لها تفاصيل ترحاله الذي بدأ منذ وطئت قدمه "كورف" لأول مرة ولم ينته بعد.

وتقول تارا: "كلما حدثني جريغ عن عمله أكثر، كنت أشعر كم أنا محظوظة لزواجي به. لقد كان هائماً يحب باكستان، وذلك الهيام كان يضفي الدفء على كل شيء آخر يفعله".

جان هويرني الذي كان مشبعاً هو الآخر بالفضول لمعرفة سرّ هيام مورتنسون بالناس في كاراموراm، دعا مورتنسون وزوجته لقضاء عطلة عيد الميلاد في منزله في سياتل، وجبة العشاء المفرطة في بذخها التي قدمها هويرني وزوجته جينيفر ويلسون، ذكّرت مورتنسون بالولائم التي أعدت خصيصاً من أجله في بالتستان خلال جولات الكرّ والفرّ التي عاشها من أجل المدرسة. كان هويرني حريصاً على معرفة التفاصيل كلها، فأخبره مورتنسون عن الرحلات المضنية بسيارات

الجيب إلى أماكن نائية ووليمتي العشاء التي أقيمت على شرفه خلال ليلة واحدة في قرية خانا، والثور المشوي الكامل الذي قدمه تشانغزي في كواردو، وكلٍ تفصيلٍ آخر وصولاً إلى الأحداث الأخيرة. ولم يكن مورتنسون يتناول شيئاً من طبقهِ بل أخذ يروي لهويرني كيف وضع حجر الأساس لمدرسة كورف ونحر أكبر كبش في القرية وسهرة الرقص المديدة أمام حلقة النار.

عيد الميلاد ذاك كان نعمة لمورتنسون، إذ قال له هويرني بعد أن جلسا أمام المدفأة مع قدحين مترعين بالنبيذ الأحمر: "أصغ إليّ جيداً، انت تحب ما تفعله في الهيملايا ويبدو أنك تبلي بلاءً حسناً. لم لا تؤسس لك مهنة هناك؟ القرى الأخرى كانت تحاول أن تستميلك إلى جانبها لأن أطفالهم أيضاً يحتاجون إلى مدارس. ولعلمك، فلا أحد في عالم تسلق الجبال سيرفع إصبعاً لمساعدة المسلمين. لأنهم غارقون حتى ذقونهم في مساعدة بوذيي التيبت الذين لا يحصون. ما رأيك أن أنشئ لك مؤسسة تكون أنت مديرها؟ يمكنك بذلك أن تبني مدرسة كل عام".

ضغط مورتنسون يد زوجته. لقد كانت فكرة صائبة لدرجة أنه لم يتجرأ على قول شيء وأخذ رشفة من قدحه وهو خائف أن يغير هويرني رأيه.

حملت تارا بطفلها الأول في ذلك الشتاء، وحياة طفل داخل شقة دودزينسكي العابقة بدخان السجائر لم تكن واردة على الإطلاق.

والدة تارا، ليلا بيشوب، كانت تسمع أخباراً عن شخصية مورتنسون تبعث على الفخر من دائرة معارفها في عالم تسلق الجبال، فوجهت دعوة للزوجين لزيارتها في منزلها الأنيق الزاخر بالأعمال الفنية والمنحوتات البديعة الذي يقع في قلب بلدة بوزيمان


https://telegram.me/maktabatbaghdad

القديمة في مونتانا. وما لبث مورتنسون أن وقع في غرام تلك البلدة البسيطة المستلقية عند سفوح سلسلة جالاتين. لقد كان يشعر أن بيركلي التي خلفها وراءه تنتمي إلى عالم التسلق الذي لم يعد ينتمي إليه. فعرضت عليهم ليلا قرضاً مالياً يكفي كدفعة أولى لشراء منزل صغير لهم في الجوار.

وفي بدايات فصل الربيع أغلق مورتنسون باب مستودع سكناه في بيركلي إلى الأبد وقاد سيارته إلى مونتانا وزوجته إلى جانبه. وانتقلا للعيش في منزل أرضي أنيق يقع على مبعدة بنائين من منزل والدة تارا، له فناء واسع مسوّر حيث يستطيع الأولاد أن يلعبوا بعيداً عن نتانة دخان السجائر الرخيصة التي تنبعث من الأجراء البولنديين وعن عصابات الأولاد المراهقين الذين يحملون البنادق.

عندما وصل مورتنسون إلى مطار إسلام آباد في شهر أيار عام 1966 وبدأ يملأ استمارة الدخول، توقف قلمه عند الخانة التي تحمل ترويسة "المهنة" لعدة سنوات كان يملؤها بكلمة "متسلق جبال" أما الآن فقد خربش عليها بخطه العريض الرديء "مدير مؤسسة آسيا الوسطى" وفقاً للاسم الذي اقترحه هويرني. ذلك العالم لديه تصور عن مشروع يمكن أن ينمو بالسرعة نفسها التي تعمل بها شركاته وأن ينتشر ليبني المدارس ومشاريع إنسانية أخرى تمتد إلى خارج الباكستان نحو حشود البلدان الأخرى المجاورة التي تتناثر حول المعابر المندثرة لطريق الحرير، لكن مورتنسون لم يكن بمثل هذه الثقة، فقد عانى الأمرين كي يرى مدرسة واحدة تقف على قدميها ولا يستطيع أن يخطط وفقاً لمعايير هويرني. ومع ذلك فقد أصبح لديه راتب سنوي يقارب 22.000 دولار يستطيع أن يعتمد عليه بالإضافة إلى ما يكفي من الوقت كي يبدأ بالتفكير في مخططات طويلة الأجل.

وفي سكاردو بعث مورتنسون برسالة إلى مظفر في قريته يعرض عليه راتباً ثابتاً مقابل حضوره إلى "كورف" لمساعدته في بناء المدرسة. كما قام بزيارة إلى غلام بارفي قبل أن ينطلق صاعداً نحو الأعلى في منزله المحاط بالحدائق الغنّاء الذي يقع على تلال سكاردو الجنوبية. كان منزل بارفي يقع داخل بناء مسوّر إلى جانب مسجد مزخرف ساهم بارفي في بنائه فوق الأرض التي تبرع بها والده. وأثناء تناول الشاي داخل حديقة المنزل المحاطة بأشجار التفاح والمشمش المزهرة، وضع مورتنسون أمام بارفي مشاريعه المستقبلية، أي إتمام مدرسة "كورف" والمباشرة في بناء مدرسة أخرى في مكان ما في بالتستان العام القادم وطلب منه أن يساهم في تلك المشاريع. وبموجب الصلاحية التي منحه إياها هويرني، عرض عليه راتباً ثابتاً متواضعاً لدعم مدخوله الحالي باعتباره محاسباً.

ويقول بارفي: "لمست العظمة التي في روح مورتنسون على الفور. وكان كلانا يسعى إلى الهدف نفسه من أجل أطفال بالتستان، فكيف يمكنني أن أرفض طلباً لرجل كهذا؟".

وهكذا وصل مورتنسون إلى كورف بعد ظهيرة يوم الجمعة يرافقه محمد، البنّاء الماهر الذي قدمه إليه بارفي في سكاردو. كانا يسيران فوق الجسر الجديد، حين فوجئ مورتنسون بعشرات من نساء القرية قادمات باتجاهه وقد ارتدين أفضل ما لديهن من ملابس وشالات وانتعلن الأحذية المخصصة للمناسبات ينحنين أمامه ترحيباً بعودته، ثم يسارعن المسير لزيارة عائلاتهن في القرى المجاورة لأن يوم الجمعة مقدس ومخصص لصلة الأرحام.

ويتحدث مورتنسون عن ذلك قائلاً: "بما أنهن يستطعن أن يعُدن إلى منازلهن في اليوم نفسه، فقد انتظمت زيارات نساء "كورف" إلى


https://telegram.me/maktabatbaghdad

أهاليهن كل يوم جمعة. ذلك الجسر أعاد الروابط الأسرية إلى ما كان يجب أن تكون عليه، وقدم للنساء الشعور بالسعادة والانطلاق. من كان يتصور أن مجرد جسر يمكن أن يشد من عود النساء؟".

كان الحاج علي واقفاً، منتصب القامة، كشأنه دوماً، فوق أعلى ذروة للجرف على الضفة الأخرى من نهر برالدو، محاطاً بتواها وجيهان. وضمّ ابنه الأميركي إلى صدره بحرارة مرحباً بعودته وصافحه بمودة الضيف الذي أحضره معه من المدينة الكبيرة.

وكان سرور مورتنسون بالغاً عندما شاهد صديقه القديم مظفر يقف وراء الحاج علي بحياء جمّ، أخذه مظفر في أحضانه ثم وضع يده فوق قلبه وهما يحدّقان ببعضهما البعض. بدا مظفر طاعناً في السنّ ومعتلّ الصحة بالنسبة لآخر مرة التقاه فيها مورتنسون فسأله باللغة البلطية قلقاً: "كيف حالك؟".

وبعد عشر سنوات من ذلك اللقاء، ردّ مظفر على السؤال بإيقاع الصوت الخفيض الذي يتحدثّ به رجل بدأ يفقد حاسة السمع: "الحمدلله، كنت على ما يرام ذلك اليوم، وأشعر فقط ببعض التعب". عند المساء وأثناء تناول العشاء المكون من الأرز و"دال"، أخبروا مورتنسون بأن مظفر قد أكمل لتوه رحلة أسطورية دامت ثمانية عشر يوماً. كان قد عاد من رحلة تسلق بلغت مسافتها مئة وثلاثين ميلاً في أعالي بالتورو مع مجموعة يابانية، عندما علم بأن انهياراً صخرياً قد سدّ من جديد الطريق الوحيد الذي يصل بين "كورف" وسكاردو، فقاد مجموعة صغيرة من الحمالين وحملوا على ظهورهم أكياس الرمل التي يبلغ وزن كل واحد منها تسعين رطلاً لمسافة ثمانية عشر ميلاً وصعدوا بها إلى "كورف". ذلك الرجل الضئيل الذي أصبح في أواسط الستينات من العمر، قام بذلك خلال عشرين رحلة وعلى

ظهره تلك الحمولة الثقيلة، لا يأكل ولا ينام ويصل الليل بالنهار لكي يكون الإسمنت في موقع البناء عند وصول مورتنسون، ويقول مظفر: "عندما التقيت بالسيد جريغ مورتنسون للمرة الأولى على ضفاف بالتورو، وجدته رجلاً حلو المعشر يتجاذب أطراف الحديث معنا ويمازح الحمالين الفقراء من أمثالي. وحين فقدته وافترضت أنه قد يلقى حتفه فوق الجليد، بقيت مستيقظاً طوال الليل أدعو الله أن يوفقني إلى إنقاذ حياته. ولما عثرت عليه أخيراً أقسمت أن أحميه إلى الأبد بكل ما أملك من قوة. ومنذ ذلك الحين، وهو يمنح الكثير للبلطين لكنني رجل فقير، ولا أستطيع أن أمنحه سوى دعواتي وعضلات ظهري القوية وقد أعطيتها بامتنان لكي يتمكن من بناء المدرسة" ثم يضيف مظفر وهو يقهقه عالياً "وعندما عدت إلى قريتي بعد ذلك نظرت زوجتي إلى وجهي الهزيل وقالت: ما الذي حدث لك؟ هل كنت في السجن؟".

مع خيوط فجر اليوم التالي الأولى، راح مورتنسون يذرع سطح منزل الحاج علي جيئةً وذهاباً. فهو مدير مدرسة الآن، وبالتالي فإن المسؤوليات التي اضطلع بها جسيمة وأكثر من مجرد بناء مدرسة واحدة في إحدى القرى النائية. وتلك الثقة التي أولاه بها هويرني تثقل على كاهله العريض، وقد صمم أن ينفذ عملية البناء بسرعة، ولا مزيد من الاجتماعات والمآدب المطوّلة.

وعندما احتشد أهل القرية عند موقع البناء، التقاهم مورتنسون وهو يحمل مقياس الأبعاد والشاقول ودفتر الحسابات. يصف مورتنسون ذلك قائلاً "إدارة عملية البناء كان أشبه بإدارة فرقة موسيقية. في البداية استعملنا أصابع الديناميت لتفجير الكتل الصخرية الضخمة وتحويلها إلى حجارة صغيرة. ثمّ انطلق عشرات من الرجال وانسلوا كالأفاعي كأنهم لحن


https://telegram.me/maktabatbaghdad

موسيقي متسّق عبر كتل الركام ليعودوا بالأحجار إلى البنائين، التي يقوم مخمل بتشكيلها ببعض ضربات من إزميله. كانت مجموعات من النساء يحضرن الماء من النهر ويخلطنه مع الإسمنت في حفر كبيرة أحدثناها في الأرض والبناؤون يسوون الإسمنت ثم يضعون فوقه أحجار البناء في صفوف كانت ترتفع على مهل. وأخيراً، يتراكض العشرات من أطفال القرية كي يحشروا قطع الحصى في الشقوق التي بين الأحجار".

تقول طاهرة ابنة المدرس حسين التي كانت في العاشرة من عمرها حينئذٍ: "أخبرني ابي أن المدرسة ستكون شيئاً متميزاً، لكنني لم أكن أعرف عندها ما تعنيه كلمة مدرسة، فجئت لأرى ذلك الشيء الذي أسعد الجميع، وساعدت في العمل لأن كل أفراد أسرتي فعلوا ذلك".

وتقول جيهان حفيدة الحاج علي التي كانت في التاسعة من عمرها، والتي تخرجت مع طاهرة ضمن أول دفعة لمدرسة كورف: كان دكتور جريغ قد أحضر الكتب المدرسية من بلده وفيها صور عن المدارس، فتمكنت إلى حدٍ ما من فهم ما نحن بصدد بنائه. وكنت أعتقد أن الدكتور جريغ يبدو متميزا بملابسة النظيفة، كما ان النظافة كانت بادية على الطلاب الذين في الصور. فقلت حينها لنفسي "إن ذهبت إلى تلك المدرسة فقد أصبح انا أيضاً متميزة ذات يوم".

خلال شهر حزيران كانت جدران المدرسة تواصل الارتفاع، لكن الاحتمال القائم بأن يتخلف نصف طاقم البناء عن الحضور دون سابق إنذار لأن عليهم أن يهتموا بشأن محاصيلهم وقطعانهم. جعل العمل يسير على نحو أبطأ مما يريد مورتنسون. ويتحدث مورتنسون عن ذلك بقوله "حاولت أن أكون مشرفاً صارماً وعادلاً في آن معاً. كنت أبقى في موقع البناء منذ شروق الشمس حتى غروبها وبيدي الشاقول ومقياس الابعاد. أتفقد بهما الجدران لكي أتأكد بأنها مستوية

ومستقيمة، كما كنت أحمل دفتري معي طوال الوقت، أراقب كل فرد من العمال وأحرص على أنْ كلّ روبية تنفق لا تـذهب هـدراً. لم أكـن أريد أن أخيب ظنّ هويرني فأثقلت عليهم".

بعد ظهر ذات يوم صافٍ في بدايات شهر آب، حضر الحاج علـي إلى موقع العمل وربت على كتف مورتنسون وطلـب منـه أن يرافقـه. صعد الرجل المسنّ بمتسلّق الجبال السابق نحو أعلى التلة لمدة سـاعة من الزمن بساقيه القويتين لم يستطع مرافقه الشاب أن يجاريهمـا. كـان مورتنسون منشغلاً بالقلق حول الوقـت الـثمين الـذي يهـدره، عنـدما توقف الحاج علي عن المسير فوق حافة ضيّقة تشرف على القريـة مـن الأعلى. كان مورتنسون يلهث وقد انقطعت أنفاسه مـن الإرهـاق ومـن المهام التي انقطع عن تنفيذها خلال هذه الفترة معاً.

انتظر الحاج علي فترة كافية كي يلتقط مورتنسون أنفاسه ثم طلـب منـه أن ينظر من حوله. الهواء المحيط بهما كان يعبق بالنقاء الـذي لا يتـأتى إلا عن المرتفعات الشاهقة وفيما وراء "كيه 2" الخاصة بـ كـورف، كانـت ذرا كاراكورام المتجمدة تشق بلا هوادة وجه السماء المـستكينة. وعنـدما نظـر نحو الأسفل شاهد كورف القابعة على انخفاض ألف قدم، تعـج بخـضرة حقول الشعير الناضجة وتبدو ضئيلة ومستضعفة كطـوف إنقـاذ جـنح نحـو كومة من الصخور. وضع الحاج علي يـده علـى كتـف مورتنـسون وقـال "نحن وهذه الجبال موجودن هنا منذ زمن بعيـد" ثم مـدّ يـده إلى قلنـسوته الصوفية ذات اللون البني الداكن، رمز السلطة الوحيد الذي ارتـداه زعـيم كورف وثبتها فوق شعره الفضّي، واستطرد قائلاً بنبرة وقـار أخـذت لـبّ مورتنسون تماماً كالمشهد الذي كان أمامـه: "لا يمكنـك أن تخـبر الجبـال بما عليها أن تفعله، بل عليك أنت أن تصغي إليها. وأنا الآن أطلـب منـك أن تصغي إلي. أشهد الله أنك فعلت الكثير من أجل شعبي ونحن ممتنـون لك.ولكن لديّ مطلب آخر أرجو منك أن تلبيه".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

"أطلب ما تشاء".

"اخرس واجلس في مكانك. إنك تدفع بهم إلى الجنون".

ويقول مورتنسون: "ثم مدّ الحاج علي وأخذ مني مقياس الأبعاد والشاقول ودفتر الحسابات وأدار ظهره يهبط المرتفع عائداً إلى "كورف". تبعته حتى وصلنا إلى منزله وأنا أسأل نفسي بنزق عما ينوي أن يفعله. وهناك أخرج المفتاح الذي يحتفظ به حول عنقه في سير جلدي.

وفتح باب خزنة خشبية مزخرفة بنقوش بوذية قديمة ووضع هناك أشيائي، جنباً إلى جنب مع اللحم المقدد ومسبحة صلاته وبندقيته البريطانية القديمة ثم طلب من سكينة أن تعدّ الشاي".

وفيما أمضى مورتنسون نصف ساعة من التوتر ينتظر سكينه وهي تحضر الشاي، كان الحاج علي يتصفح القرآن وهو أثمن ممتلكاته ويتلو آيات باللغة العربية وتسبح عيناه في آفاق غيبية. وعندما أصبحت أكواب الشاي الخزفية التي يتصاعد منها البخار بين أيديهما، تحدث الحاج علي وهو ينفخ فوق كوبه وقال: "إن كنت تريد أن تثبت أقدامك في بالتستان، فعليك أن تحترم طريقة عيشنا عندما تحتسي الكوب الأول من الشاي مع البلطي فأنت غريب، وعند الكوب الثاني أنت ضيف مبجّل، أمّا الكوب الثالث فيعني أنك أصبحت فرداً من أسرتنا وبأننا سنفعل أي شيء من أجلك إلى درجة الموت في سبيلك" ثم وضع يده فوق يد مورتنسون بحنو وقال: "دكتور جريغ، عليك أن تنال الرضى لكي تتناول أكواب الشاي الثلاثة. نحن أميّون ولكن لسنا أغبياء. لقد عشنا الصراع على البقاء هنا منذ وقت طويل".

في ذلك اليوم، لقنني الحاج علي أهم درس في حياتي، نحن الأميركيين نعتقد أنه علينا أن ننجز كلّ شيء بسرعة، نحن بلد الوجبات السريعة والدورات التدريبية الموجزة الذي ظنّ قادته أن

هجوما خاطفا على العراق سوف يضع حداً للحرب قبل أن تبدأ. الحاج علي علمني أن أشارك الناس ثلاثة أكواب من الشاي، أن اتروى وأسس العلاقات الإنسانية التي تضاهي في أهميتها تأسيس المدارس وأيضاً أنه أمامي الكثير لأتعلمه من الناس، وهي حرفة أوفر وأغنى ما لدي لأعلمهم إياه".

وبعد ثلاثة أسابيع بعد أن أنزلت مرتبة مورتنسون من مشرف عمال إلى متفرج، ارتفعت جدران المدرسة لتصبح أعلى من قامة الأميركي، ولم يتبقى سوى وضع السقف. ربما أن العوارض الخشبية التي اختلسها تشانغزي لم تسترد أبداً، فقد عاد مورتنسون برفقة بارفي إلى سكاردو حيث اشرفا على شراء وإعداد عوارض خشبية متينة يمكن أن تصمد تحت ثقل الثلوج التي تحنط قرية "كورف" خلال فصل الشتاء بأكمله، وكما يمكن أن يحدث دائماً، فإن انهياراً صخرياً آخر سدّ الطريق أمام سيارات الجيب التي تحمل العوارض الخشبية على مرمى ثمانية عشر ميلاً من وجهتهم، "وبينما كنا انا وبارفي نتناقش لإيجاد الحلول، شاهدنا سحابة كبيرة من الغبار تتجه نحونا من أسفل الوادي. لا أدري كيف سمع الحاج علي بالورطة التي كنا فيها، فسار رجال كورف الليل برمته ووصلوا إلينا يصفقون ويغنون غير آبهين بذلك السهر المضني" لكن المفاجأة التي أذهلت مورتنسون بالفعل هي أن شيرتاخي قد حضر مع الرجال وهو يصرّ على أن ينقل الحمولة الأولى.

"لم يكن من المفترض أن يحط رجال الدين من قدرهم بأداء مهام تستلزم جهداً عضلياً، لكن شيرتاخي أبى أن يتراجع وسار في مقدمة موكبنا الطويل المؤلف من خمسة وثلاثين رجلاً وهو ينقل على ظهره تلك الحمولة الثقيلة وتعلو وجهه ابتسامة رضى مسافة ثمانية عشر ميلاً وصولاً إلى كورف رغم أنه أصيب بشلل الأطفال في صغره ولديه عرج في ساقه، ولا بد أنه كان يعاني ألماً مبرحاً.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

تلك كانت طريقة ذلك الفقيه المحافظ في التعبير عن تأييده لتعليم أطفال كورف بما فيهم الإناث".

لكن ذلك لم يكن رأي جميع سكان برالدو. فبعد أسبوع كان مورتنسون واقفاً وقد وضع يده على كتف تواها، يشاهدان بإعجاب المهارة التي يضع فيها محمد وطاقم عماله عوارض السقف الخشبية عندما تعالت صيحات الإنذار من الصبية المنتشرين فوق سطوح منازل كورف بأن عصبة من الرجال الغرباء يعبرون الجسر في طريقهم إلى القرية. لحق مورتنسون بالحاج علي في وقفته فوق الجرف الذي يطلّ على الجسر ورأى خمسة رجال يقتربون منهم ويسير في مقدمة الموكب رجل يبدو أنه قائدهم. كان أربعة من الرجال الأشداء يسيرون وراءه وهم يحملون هراوات من أغصان الحور يضربون بها كفوفهم بطريقة متزامنة مع إيقاع خطاهم. أما قائدهم المسن النحيل الذي يبدو معتلّ الصحة، فقد صعد نحوهم وهو يتكئ على عكازه وعندما وصل، توقف بوقاحة على مبعدة من الحاج علي، وأجبر زعيم كورف على قطع المسافة التي تفصل بينهما كي يرحب به، وهمس تواها في أذن مورتنسون قائلاً "إنه الحاج مهدي وهو إنسان شرير".

كان مورتنسون قد سمع عن الحاج مهدي، زعيم قرية أسكول "كان يلعب دور المسلم الورع، في حين يمسك بزمام شؤون برالدو الاقتصادية برمتها ويديرها كزعيم مافيا، إذ يتقاضى نسبة أرباح عن كلّ راس غنم أو ماعز أو دجاجة يبيعها البلطيون، ويتلاعب بأسعار المؤن التي يبتاعها متسلقو الجبال. وإذا قام أحد ما ببيع شيء مهما كان بخس الثمن إلى مجموعة استكشافية دون أن يسدد له حصته، يرسل أتباعه ليشبعوه ضرباً بالهراوات".

وبعد أن عانقه الحاج علي، رفض زعيم أسكول دعوته لتناول الشاي وخاطب الحشد الذي اجتمع فوق الجرف قائلاً: "سأقول ما لدي هنا في العراء لكي يسمعه الجميع" ثم زعق الحاج مهدي: "لقد تناهى إلى سمعي بأن رجلاً مارقاً جاء إلى هنا ليبث سموم تعاليمه في أذهان أطفال المسلمين ذكوراً وإناثاً. لقد نهانا الله عن تعليم الإناث. وأنا لن أسمح لكم ببناء هذه المدرسة".

أجابه الحاج علي بهدوء: "سوف نكمل بناء مدرستنا سواء سمحت بذلك أم لم تسمح".

خطى مورتنسون نحو الأمام على أمل تهدئة الأجواء التي تنذر بالعنف:

"لم لا نتناول الشاي ونبحث الأمر معاً؟".

"أعرف من أنت أيها الكافر" ردّ عليه الحاج مهدي بأسوأ نعت يمكن أن يوصف به غير المسلم "وليس لديّ ما أقوله لك".

ثم استدار نحو الحاج علي والشرر يتطاير من عينيه: "وأنت ألست مسلماً؟ لا يوجد سوى إله واحد. أتعبد الله أم هذا الكافر؟".

ربت الحاج علي على كتف مورتنسون وجاء ردّه "لم يسبق أن جاءني أحد ليعرض المساعدة على شعبي. كنت أدفع الأموال إليك كل عام لكنك لم تفد قريتي بشيء. هذا الرجل مسلم أكثر منك ويستحق إخلاصي أكثر مما تستحقه أنت بكثير".

كان رجال الحاج مهدي يتحسسون هرواتهم بتحفز لكنه رفع يده بعدم الموافقة، ثم أسدل جفنيه وقال: "إن كنت مصراً على الاحتفاظ بمدرستك الكافرة، فعليك أن تدفع الثمن، وأطالبك باثني عشر رأساً من أضخم الكباش التي لديكم".

أجابه الحاج علي: "كما تريد" ثم أدار ظهره للحاج مهدي كدليل احتقار لطلبه الرشوة على هذه الشاكلة الوضيعة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

"أحضروا أضخم الكباش" ويوضح مورتنسون ذلك الموقف بقوله: علينا أن ندرك أن الكبش في تلك القرى له مكانة الولد البكر، والدابة الرئيسية، وحيوان الأسرة الأليف، كلها مجتمعة. ورعاية الكبش عبارة عن مهمة مقدسة لا يتولاها إلا الابن الأكبر في الأسرة. ولهذا، فإن أوامر الحاج علي نزلت عليهم كالصاعقة.

بقي الحاج علي واقفاً في مكانه وظهره لزائره حتى عاد إليه اثنا عشرة صبياً يجرون البهائم بقرونها السميكة وحوافرها الضخمة. أخذ الحاج علي لجام كل واحدة منها على حدة ثم ربطها إلى بعضها البعض بينما كان الصبية ينتحبون وهم يتنازلون عن أغلى ما لديهم إلى زعيمهم. ساق الحاج علي رتل الكباش وقد انحنى ظهره تحت وطأة الحزن ورمى بالرسن إلى الحاج مهدي دون أن ينطق بحرف، ثم استدار على عقبيه وسار ليعود شعبه إلى موقع المدرسة.

يصف مورتنسون ذلك قائلاً: "لم أشهد في حياتي كلها موقفاً بهذه المذلّة، فقد تنازل الحاج علي عن نصف أرزاق القرية إلى ذلك المحتال، ومع ذلك كان يبتسم راضياً كمن حاز على جائزة ثمينة".

توقف الحاج علي أمام البناء الذي وضع فيه أهل القرية جميعهم ما يملكونه كله من جهد. كان البناء يشمخ بثبات قبالة "كيه 2" العائدة للقرية بجدران حجرية صلبة ملساء تزهو بطلائها الأصفر، وبالأبواب الخشبية الثمينة المستعدة لصد كل عوامل الطقس.

خاطب الحاج علي شعبه كسير الفؤاد قائلاً: "منذ الآن وإلى الأبد لن يحتاج أطفال كورف إلى أن يركعوا على ركبهم فوق الأرض المتجمدة في صقيع العراء كي يتعلموا. لا تحزنوا. فبعد أن تنحر تلك الكباش وينهش لحمها، ستظلّ مدرستنا واقفة هنا تنبض بالحياة ولا تأبه لعاديات الزمن. الحاج مهدي لديه ما يكفيه من طعام اليوم، أما أطفالنا فلديهم العلم والمعرفة إلى الأبد".

وبعد أن حلّ الظلام، جلس الحاج علي قرب المدفأة وأشار إلى مورتنسون أن يأتي ليجلس قربه. وأمام الضوء المنبعث من ألسنة اللهب رفع الحاج علي نسخة القرآن التي يملكها، الملطخة بالدهون، وسأل مورتنسون: "أترى كم هو جميل هذا القرآن؟".

"نعم".

"ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أقرأه. لا أستطيع أن أقرأ أي شيء، وذلك هو أكبر إثم في حياتي. سأفعل أي شيء كي أحمي أطفال قريتي من هذا الإحساس، سأبذل الغالي والنفيس كي ينالوا قسط التعليم الذي يستحقونه".

"كنت جالساً بقربه عندما أدركت أن كل ما فعلته، وكل الصعاب التي واجهتها منذ أن قطعت العهد لكي أبني لهم المدرسة، مروراً بالصراع الذي عشته كي أفي بوعدي، لا يقاس أما التضحيات التي كان الحاج علي مستعداً لبذلها من أجل شعبه. هذا الرجل الأميّ الذي لم يغادر قط قريته التي غفل عنها العالم في قلب كاراكورام، كان أكثر حكمة من الرجال الذين قابلتهم جميعاً خلال حياتي".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

# الفصل الثالث عشر

# "الابتسامة جديرة أن تكون أكثر من مجرد ذكرى"

"الوزيريون هم أكبر قبيلة تعيش عند الحدود الأمامية، لكن تركيبتهم الاجتماعية منحطة للغاية. فهم سلالة من اللصوص والمجرمين، وكلمة (وزيري) وحدها كفيلة بأن تثير المقت والشجب في نفوس القبائل المحمدية المجاورة. وقد وُصف الوزيريون بأنهم ولدوا أحراراً لكنهم قتله، وبأنهم يحبون الحياة لكنهم متهورون، يحترمون أنفسهم لكنهم تافهون. والمحمديون الذي يسكنون في مناطق ذات سيادة يعتبرونهم همجاً بالمطلق"

مقطع من الموسوعة البريطانية الصادرة عام 1911

عند نافذة غرفة الفندق التي تقع في الطابق الثاني ضمن البناء المتداعي، وقف مورتنسون يراقب تقدم طفل مقطوع الساقين، كان يجرجر نفسه في فوضى سوق خيبر على زلاجة خشبية. بدا الصبي في العاشرة من العمر والندوب التي كانت على جذعه المجدوع جعلت مورتنسون يستنتج أنه ضحية لغم أرضي. أخذ الصبي يواصل سيره المنهك بين الزبائن المتجمعين حول عربة يقف عندها صاحبها المسن المعمّم يحرك مرجلاً يحتوي على الشاي بالهال.

كان رأس الصبي يحاذي مستوى أنابيب عوادم السيارات المارّة، ومن فوق مرمى بصره، شاهد مورتنسون رجلاً يصعد إلى شاحنة صغيرة محمّلة بأكوام من الأوصال الصناعية ويدير المحرّك. كان



https://telegram.me/maktabatbaghdad

مورتنسون يفكر كم أن الصبي بحاجة ماسة إلى ساقين من تلك الأوصال المكومة في الشاحنة، وكم أن فرصته للحصول عليها معدومة لأن شخصاً مثل تشانغزي من السكان المحليين قام بسرقتها من إحدى المؤسسات الخيرية، عندما لاحظ أنّ سائق الشاحنة يعود بها نحو الخلف باتجاه الصبي. مورتنسون الذي لا يتحدث بلغة الباشتو السائدة، صاح باللغة الأوردية يحذر الصبي من التهديد القادم باتجاهه. لكن التحذير لم يكن له من داعٍ لن الغريزة الضرورية للبقاء على قيد الحياة في شوارع بيشوار جعلت الصبي يحس بالخطر فانعطف بزلاجته مثل السرطان نحو الإفريز.

مدينة بيشاور هي عاصمة غرب الباكستان المتوحش. وبما أنّ مدرسة "كورف" قد اكتملت، فقد حضر مورتنسون إلى هذه البلدة الحدودية عبر الطريق العام القديم، ضمن مهام مركزه الجديد كمدير لمؤسسة آسيا الوسطى، أو هذا ما أقنع به نفسه على الأقل.

وتشكل بيشاور أيضاً بوابة الوصول إلى معبر خيبر. وعلى خط أنابيب النفط هذا الذي يصل بين الباكستان وأفغانستان مباشرة كانت تسير الجيوش قديماً، أما الآن فهي مجرد معبر لمجموعات مسلحة متمرسة، حيث يقوم طلاب "المدارس" أي مدارس المذهب الوهابي، بمقايضة كتبهم المدرسية برشاشات الكلاشينكوف وأحزمة الرصاص، يمضون بعدها قدماً للانضمام إلى الحركة المسلحة التي تتوعد بالإطاحة بحكّام أفغانستان الذين يمقتهم الجميع.

وفي شهر آب من عام 1966 قام ذلك الجيش المشكل بمعظمه من ثلّة من المراهقين الذي أطلق على نفسه اسم "طالبان" أي "تلامذة الإسلام" بشنٍّ هجوم مباغت واجتاحوا مدينة جلال آباد الرئيسية الواقعة في الجزء الأفغاني من معبر خيبر. وقف خفر الحدود موقف

المتفرج حيال الآلاف من الصبية الملتحين الذين تدفقوا من المعبر وقد اعتمروا العمائم وخطوا أعينهم بالكحل الأسود، على متن المئات من الشاحنات ذات المقاعد المزدوجة، يحملون الكلاشينكوف ونسخاً من القرآن.

وكان اللاجئون المنهكون الذين فرّوا من المعارك، يتدفقون نحو الشرق بأعداد فاقت استيعاب المخيمات الموحلة التي أقيمت على أطراف مدينة بيشاور، ومورتنسون الذي نوى السفر قبل يومين لاستكشاف مواقع صالحة لبناء مدارس جديدة، اضطر إلى تمديد إقامته في بيشوار لأن الأجواء العامّة كانت تنذر بالخطر. فالمقاهي تطنّ بالانتصارات الساحقة التي أحرزتها قوات طالبان، والإشاعات تتطاير مثل رصاص البنادق الذي يطلقه رجال طالبان عشوائياً ودون توقف احتفالاً بالنصر، وتفيد بأن كتائب طالبان بدأت تحتشد عند مشارف مدينة كابول العاصمة، في حين تقول أخرى بأنهم اجتاحوا المدينة بالفعل، أما الرئيس نجيب الله، قائد الطغمة الفاسدة للنظام السوفيتي السابق، فقد فرّ إلى فرنسا، أو أعدموه شنقاً داخل ملعب رياضي.

وفي قلب العاصفة، كان الابن السابع عشر لأسرة سعودية فاحشة الثراء، على متن طائرة خاصة. وعندما هبطت به الطائرة على أرض مطار عسكري مهجور يقع خارج جلال آباد، كانت ترافقه حقائب مكتظة بالدولارات مجهولة المصدر وبطانة من المقاتلين، نزل أسامة بن لادن المتمرّس بالقتال أصلاً من خلال الحملات العسكرية على السوفييت فوق أرض أفغانستان، وقيل أنه كان بمزاج شنيع. الضغوط التي مارستها الولايات المتحدة ومصر أدت إلى ترحيله من مقرٍّ إقامة باذخ يقع في السودان. وأثناء هروبه وجد بأن حرمانه من الجنسية السعودية يجعل من أفغانستان بديلاً مثالياً، فالفوضى العارمة التي تعمّها تناسبه تماماً. لكن افتقارها إلى المتع الجسدية ليس كذلك. وبعد أن اشتكى إلى مضيفه في


https://telegram.me/maktabatbaghdad

حركة طالبان عن المستوى غير اللائق للمقر الذي اختاروه له، صب جام غضبه على الذين اعتبرهم وراء نفيه، أي الأميركيين.

في الأسبوع نفسه الذي كان مورتنسون خلاله يتريث في مغادرة بيشوار المجاورة، أصدر بن لادن دعوته الأولى للنضال المسلّح ضد الأميركيين: "إننا نعلن الجهاد الصريح ضد الأميركيين الذين يحتلون البلد التي فيها الحرمان الشريفان" أي السعودية حيث يتمركز خمسة آلاف جندي أميركي، وحثّ أتباعه على مهاجمة الأميركيين أينما كانوا وأن يوقعوا بهم أشدّ الضربات إيلاماً. وكشأن معظم الأميركيين، لم يكن مورتنسون قد سمع عن بن لادن من قبل، وشعر بعدم الرغبة في مغادرة بيشوار، فهو من ناحية متواجد في قلب أحداث يمكن أن تغير وجه التاريخ، ومن ناحية أخرى لم يجد لنفسه مرافقاً مناسباً. وكان قد بحث ذلك مع الحاج علي قبل أن يغادر "كورف" وقال له الزعيم المسن عندها: "عليك أن تعدني بشيء واحد. لا تذهب إلى أي مكان بمفردك، وجد لنفسك مضيفاً جديراً بالثقة، ومن المستحسن أن يكون زعيم القرية، وتريث حتى يدعوك إلى منزله لتناول الشاي. تلك هي الطريقة الوحيدة كي تكون بمأمن".

لكنّ إيجاد شخص جدير بالثقة في بيشوار كان أمراً أكثر صعوبةً مما تصوره مورتنسون. فالمدينة التي تشكل محوراً لحركة السوق السوداء الاقتصادية في الباكستان، كانت تعج بحثالة البشر، والأفيون والأسلحة والسجّاد هي شريان الحياة فيها. أما الأشخاص الذين التقى بهم منذ وصوله فهم برداءة وحقارة الفندق الذي يقيم فيه، ذلك المكان المتداعي الذي أمضى فيه خمس ليالٍ كان في الماضي مقراً لسكن تاجر ثري، وغرفته كانت مركز المراقبة المخصص لنساء المنزل. فمن موقعه المطلّ على الشارع عبر الشعرية المبنية من الحجر الرملي المحفور، كنّ يستطعنّ أن يشاهدن حركة السوق في الأسفل، دون أن ينكشفن حاسرات الرؤوس أمام العامة.

كان مورتنسون ممتناً لموقعه المؤاتي من وراء ذلك الحاجب، فقد حذره المسؤول عن إدارة الفندق ذلك الصباح أنه من الأفضل لأي أجنبي أن يتوارى عن الأنظار هذا اليوم، أي الجمعة، لأن خطباء المساجد يطلقون العنان لعظاتهم المحمومة أمام حشود الشباب الهائمين الذين تكتظ بهم المساجد. فإذا أضفنا غليان يوم الجمعة إلى الأنباء المسعورة القادمة من أفغانستان، تكون النتيجة خطراً داهماً على حياة أي أجنبي يقع بين أيديهم.

سمع مورتنسون نقرة على باب غرفته، وعندما فتحه انسل إلى داخل الغرفة دون استئذان بادام جول، وقد تدلّت من بين شفتيه لفافة تبغ، يتأبط صرّةً ويحمل صينية عليها الشاي. كان مورتنسون قد التقى بذلك الرجل، وهو نزيل في الفندق، المساء الفائت عند جهاز الراديو في الردهة، حيث كان كلاهما يصغي إلى التقرير الذي تبثه قناة (بي بي سي) عن ثوار طالبان الذين يقصفون كابول بالصواريخ. أخبره جول أنه من وزيرستان وبأنه يدير تجارة مربحة فهو يجمع الفراشات النادرة في أنحاء آسيا الوسطى كلها ويقوم ببيعها إلى المتاحف الأوربية. كان ظنّ مورتنسون أن الفراشات ليست الحمولة الوحيدة التي يعبر بها جول الحدود ذهاباً وإياباً لكنه لم يدقق في التفاصيل. وعندما عرف جول أن مورتنسون يريد أن يزور منطقة قبيلته الواقعة إلى الجنوب من بيشاور، تطوع أن يكون دليلاً له إلى قريته لادها. من المؤكد أن الحاج علي لن يوافق على ذلك، لكن تارا ستضع مولودها في غضون شهر وظاهر هذا الجول حليق الذقن يوحي بالاحترام، كما أن مورتنسون لا يملك وقتاً للخيار.

سكب جول الشاي، ثم فتح الرزمة التي كان يتأبطها، الملفولة داخل أوراق صحيفة تبرز صوراً لصبية ملتحين متأهبين للإنطلاق نحو القتال. أمسك مورتنسون بالزي الباكستاني الفضفاض الذي لا ياقة له


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومطرز بخيوط فضية فاخرة على الصدر، بالإضافة إلى صدرة من اللون الرمادي الباهت. قال له جول وهو يشعل لفافة تبغ أخرى من عقب سابقتها: "إنه الزيّ الذي يرتديه رجال قبيلة الوزير وقد أحضرت لك أكبر مقاس وجدته بالسوق، ألن تسدد ثمنه؟".

قام جول بعدّ الروبيات بعناية قبل أن يضعها في جيبه واتفق الرجلان على أن يغادرا في الصباح الباكر. طلب مورتنسون من عاملة الهاتف مكالمة مدتها ثلاث دقائق وأخبر تارا أنه ذاهب إلى منطقة لا توجد فيها هواتف وسيغيب بضعة أيام، لكنه سيعود إليها بالتأكيد في الوقت المحدد كي يستقبلا معاً مولودهما الجديد. كانت سيارة رمادية اللون تقف بالانتظار، عندما هبط مورتنسون درجات السلم بحذر كي لا تتمزق درزات ملابسه. كان القميص يشدّ على كتفيه، أما البنطال فلم يصل سوى إلى منتصف ساقيه. وقف جول إلى جانب السيارة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة يفترض بأن تكون مطمئنة وأخبره بأنه قد استدعي إلى أفغانستان بمهمة لا تحتمل التأجيل. لكن لديه أخباراً ساره وهي أن سائق السيارة، السيد خان، ينتمي إلى قرية صغيرة مجاورة لقرية لاوها وقد وافق على أن يقلّه إلى هناك. فكر مورتنسون لبرهة وجيزة في العدول عن الأمر، لكنه ما لبث أن صعد إلى السيارة متوجساً.

مع شروق الشمس سارت السيارة نحو الجنوب، وأزاح مورتنسون الستارة الممزقة التي تحجب المقعد الخلفي عن نظرات الفضوليين، كي يتمكن من رؤية الطريق. ومع ابتعاد السيارة عن أطراف المدينة. شاهد المتاريس المقوسة لجبهة منع الحصار ترسل وهجها تحت أشعة الشمس وكأنها بركان خامد على حافة الاستيقاظ.

وبعد مسافة مئة كيلومتر إلى جنوب المدينة، وصلت السيارة إلى وزيرستان، أكثر المقاطعات تمرداً عند حدود الباكستان الشمالية الغربية والتي تشكل منطقة محايدة بين الباكستان وأفغانستان. الذي ألهب مخيّلة مورتنسون هو أن الوزيريين كانوا شعباً معزولاً ويقول مورتنسون: "أظنّ أن أحد الأسباب التي شدتني إلى البلطيين هو أنهم كانوا مضطهدين بشكل فاضح. الحكومة الباكستانية كانت تستغل قدراتهم ومصادر أرزاقهم دون أن تعطيهم شيئاً بالمقابل، إلى درجة أنها حرمتهم من حقّ الانتخاب".

شعر مورتنسون بأن الوزيريين أيضاً مضطهدون. ومنذ أن منحه جان هويرني لقب مدير مدير مؤسسة آسيا الوسطى، عاهد مورتنسون نفسه بأن يكون جديراً؟ بهذا اللقب، الذي لم يستطع حتى الآن أن يعتاد عليه. وخلال فصل الشتاء، عندما كان يرافق تارا لمراجعة القابلة القانونية، ويعملان على تجهيز الغرفة في الطابق العلوي والتي سينطلق منهما مولودهما نحو الحياة، وقد قرأ كتاباً تمكن من الحصول عليه حول آسيا الوسطى، وعرف المنطقة على حقيقتها. زمر من الزعامات القبلية حوِّلت إلى دويلات اختلقهما الأوربيون كيفما اتفق، دون أن يأخذوا بالحسبان حسّ الانتماء المبدئي لدى شعوبهم.

أولئك الوزيريون سلبوا لبّ مورتسون. إنهم من الباشتون وليسوا ملزمين بالولاء لباكستان أو لأفغانستان، ومناصرتهم لقبيلتهم الكبرى تفوق كل اعتبار. ومنذ عهد الإسكندر، واجه الأغراب مقاومة شرسة في كلّ مرة أرسلوا فيها جنودهم إلى تلك المناطق. وعند كل هزيمة تواجهها الجيوش التي كانت تعود بأفضل العتاد كانت رداءة سمعة الوزيريين تتفاقم. وبعد أن خسر الإسكندر مئات الرجال أمام هذه الثلّة الصغيرة من المحاربين، ولم يكن حال البريطانيين بالأفضل، فقد خسروا حربين خاضوهما ضد الوزيريين وقبيلة الباشتون الكبرى.



https://telegram.me/maktabatbaghdad

في عام 1893. تراجعت القوات المهزومة عن وزيرستان نحو خطّ دوراند وهو الخط الحدودي الذي أحدثوه في الهند البريطانية وأفغانستان. خط دوراند الذي كان يمر من قلب أراضي قبيلة الباشتون، كان محاولة من بريطانيا لتطبيق سياسة فرق تسد. ولكن لم يسبق لأحد أن فرض سيادته على الوزيريين. فوزيرستان أصبحت جزءاً من الباكستان منذ عام 1974 شكلياً فقط. والنفوذ القليل الذي تملكه إسلام آباد عليها لم يتعد تفشي خصلة الرشاوي التي يتقاسمها زعماء القبائل بالإضافة إلى حاميات عسكرية حصينة سلطاتها محصورة ضمن مرمى بنادق جنودها. هؤلاء الناس أثاروا احترام مورتنسون لأنهم تمكنوا من دحر قوى العالم العظمى بشراسة. لقد سبق له وأن قرأ آراء سلبية مشابهة عن البلطيين قبل أن يباشر في تسلّق "كيه2" وتساءل إن لم يكن الوزيريون أيضاً قد أسيء فهمهم، فهو تذكر ما قيل عن البلطيين بأنهم يعاملون الأغراب بفظاظة ولا يغفرون زلة لأحد. اما الآن فهو على يقين تام بأن ذلك بعيد كل البعد عن الحقيقة، وبأن لديه المزيد من المنبوذين الذين يحتاجون لمساعدته.

اجتازت السيارة ستّ نقاط تفتيش قبل أن تدخل أراضي وزيرستان، حيث كان مورتنسون يشعر بأنهم سيمنعونه من متابعة طريقه كي يعود من حيث أتى. وعند كل واحدة منها، يزيح الحراس الستارة ويحدّقون بالأجنبي الضخم الذي يتصبب عرقاً ويرتدي ملابس سخيفة يكاد أن ينفجر بداخلها، وفي كلّ مرة يمد خان يده إلى جيب سترة الطيارين الجلدية التي يرتديها رغم الحرّ الخانق ويناولهم ما يكفي من الروبيات كي تبقى السيارة على الطريق الذاهبة نحو الجنوب.

كان أول انطباع لدى مورتنسون عن وزيرستان هو إعجابه بأولئك الناس الذين تمكنوا من العيش في بيئة كهذه. السيارة سارت فوق طرق مفروشة بالحصى وأخرى مستوية، ووادٍ محدب تكسوه حصى

بلورية سوداء تمتص لظى شمس الصحراء وتنوس منـها لتـضفي علـى الأجواء حسّ حلم محموم.

وفقاً للخرائط فإن ملكية نصف الجبال ذاويـة الـشكل ذات اللـون البني والتي تقع في الجهـة الغربيـة تعـود للباكـستان، في حـين تعـود ملكية النصف الآخـر لأفغنـستان. وخطـر لمورتنـسون أنـه كـان لـدى البريطانيين حس كبير بالدعابة عندما قـرروا ان يـضعوا خطـاً حـدودياً عبر أرض اليباب العصية هذه.فبعـد خمـس سنوات تعلمـت القـوات الأميركية درساً عن استحالة اصطياد الرجال المحاربين الـذين يعرفـون تلك المرتفعات عن ظهر قلب، إذ توجد كهوف بعـدد الجبـال يحفـظ مواقعها المهربون الذين يجوبون تلك البقاع جـيلاً بعـد جيـل. ويقـول بعض السكان ممن يدعوّن أن أسامة بن لادن كان تحت حمايتـهم، أن متاهة تورا بـورا الـتي تقـع خلـف الحـدود مباشرة، تـسبب الإربـاك للقوات الأميركية التي باءت بالإخفاق عندما حاولت أن توقـف تـسلل بن لادن ورفاقه من تنظيم القاعدة إلى داخل وزيرستان.

وعندما اجتازت السيارة تلك الذراع الطويلة من الحـصى البلوريـة السوداء، شعر مورتنـسون بأنـه دخـل مجتمعـاً بـدائياً مـن الـدويلات المتحاربة. التحـصينات البريطانيـة الـسابقة احتلّهـا جنـود باكـستانيون يقضون عاماً من الخدمة الإلزامية المضنية بعد أن تمّ تدعيمها بإحكـام. أمـا منـاطق سـكن الـوزيريين، فقـد انتـصبت مـن قلـب المرتفعـات الصخرية على جانبي الطريق، واضحة ومكشوفة للعيـان، تحـيط بهـا الأسوار المجبولة من التراب على ارتفاع عشرين قدم، وتعلوها أبـراج للمراسلة. ظنّ مورتنـسون أن تلـك الأشـكال المنتـصبة عنـد الأبـراج ليست سوى فراغات حقول. وعندما أصـبحت الـسيارة قريبـة منـهم، شاهد رجلاً مسلماً يقف في الأعلى يتابع خطّ سير السيارة عبر عدسـة بندقيته. الوزيريون يلتزمون بالنقاب، ليس فقط على نسائهم، بل أيـضاً


https://telegram.me/maktabatbaghdad

في وجه جميع الأغراب ومنذ العام 600 قبل الميلاد علـى أقلّ تقـدير وقف الوزيريون في وجه أي سـلطة تكمـن خـارج أسـوارهم، لأنهـم يفضلون أن تظل كل أنحاء وزيرستان طاهرة ومستترة مثل نسائهم.

مرّا بالقرب مـن مـصانع للبنـادق المـصادرة، حيـث كـان حرفيـو وزيرستان يصنعون نسخاً مقلدة ببراعة عن الكـثير مـن أسـلحة الكـون الأوتوماتيكية، ثم توقفا لتناول الغداء في بانور أكـبر مـدن وزيرسـتان. كان عليهما أن يشقا طريقهما في الزحام الكثيف للعربات الـتي تجرهـا الحمير والشاحنات الصغيرة وفي مقهى للشاي مدد مورتنسون أطرافـه بالقدر الذي تسمح به ملابسه الضيقة، وحـاول أن يـستهل حـديثاً مـع مجموعة من المسنين الذين رشحهم الحاج علي، كانوا يجلسون علـى طاولة قريبة منه، بينما ذهب الـسائق يبحـث عـن مخـزن يـشتري منـه السجائر، ولكن اللغة الأوردية التي خاطبهم بها لم تفـده بـشيء وراح الرجال يحدّقون فيه بنظرات جوفاء. فقطع مورتنسون لنفسه بوعد، وهو أن يكرّس جزءاً من وقته لتعلم اللغة الباشتية حالما يعود إلى بوزيمان.

عبر ذلك الشارع المغبر وخلف أسوار عالية، تقع المدرسة العربية الأولى التي بناها رجل سعودي، حيث سيأتي بعد سنتين "جون والكـر لينده"، تلميذ طالبان الأميركي، لكي يدرس أصـول مـذهب إسـلامي متزمـت يـدعى "الوهابيـة".لكـن "لينـده" المعتـاد علـى طقـس المـدن البحرية المنعش، بدأ يذوي تحت سياط شمـس وزيرسـتان الحارقـة، فعبر الحدود إلى أفغانستان ليتابع تحصيله الدراسي ضـمن منـاخ أكثـر اعتدالاً، في مدرسة بناها رجل سعودي آخر وهو أسامة بن لادن.

أمضيا فترة بعد الظهر كلها وهما يتوغلان في أعمـاق وزيرسـتان، وأثناء ذلك كان مورتنسون يتدرب على بعض عبارات الترحيـب الـتي يعلمه إياها السائق. يقول مورتنسون: "كنـت في أكثـر المنـاطق إقفـاراً يمكن أن يتخيلها إنسان، ومع ذلك فقد كانت بالغة المهابة. لقد وصلنا

بالفعل إلى قلب بقاع القبائل وشعرت بسعادة بالغة لأنني تمكنت من قطع هذه المسافة كلها. وبعد أن تجاوز "لادها" وبينما أخذت الشمس في المغيب وراء أفغانستان، وصلا إلى كوت ـ لانجار خيل، مسقط رأس خان. كانت القرية برمتها عبارة عن متجرين كبيرين يحيطان بمسجد مبني من الحجر الرملي، وبدت لمورتنسون كأنها نهاية الكرة الأرضية. وفي وسط الشارع، استلقت معزاة مرقطة معفّرة بالتراب وبدا أنها راحت ضحية مركبة مسرعة. ألقى خان التحية على رجال يجلسون داخل مستودع يقع خلف أحد المتجرين، فعرضوا على السائق أن يترك سيارته في المستودع كي تكون بمأمن خلال الليل.

لكن المشهد داخل المستودع أثار توتر مورتنسون. كان هناك ستة من الرجال الوزيريين تتصالب على صدورهم أحزمة الرصاص يجلسون متراخين فوق بعض الصناديق المخصصة للشحن ويدخنون الحشيش من نرجيلة متعددة الأفواه. وعند الحائط شاهد مورتنسون أكداساً من بنادق البازوكا وقاذفات الصواريخ وصناديق من مسدسات جديدة لامعة. كما لاحظ بأن هوائيات لاسلكي ميدانية كانت ناتئة من خلف صناديق معبأة بمسحوق البارود، وأدرك أن خطاه قد تعثرت به إلى داخل مقر منظم وهائل لعمليات التهريب.

الوزيريون، كشأن جميع الباشتيين يعيشون تحت شعار "باشتون والي" أي الثأر بالدم عندما يكون المستهدفون هم "زان، زار أو زامين" العائلة أو الرزق أو الأرض، وهي الدعائم التي يقوم عليها معتقدهم. يضاف إليها "نيناواتاي" أي كرم الضيافة والملاذ للضيف الذي يحضر إليهم طلباً للمساعدة. وبما أن السرّ يكمن في الوصول كضيف وليس كغاز، فقد نزل مورتنسون من السيارة بزيه المضحك وبدأ يحاول أن يسلك سلوك الضيوف لأنه يدرك مدى الخطورة الكامنة وراء البحث عن مكان آخر لقضاء ليلته بعد أن حلّ الظلام.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

يقول مورتنسون: "استخدمت كل المهارات التي تعلمتها في بالتستان وألقيت التحية على جميع الرجال فرداً فرداً بكل اللباقة التي أعرفها. ورددت العبارات جميعها التي علمني إياها خان، أسأل عن أحوال عائلاتهم، وكم أتمنى أن يكون الجميع بخير" لقد حارب العديد من رجال وزيرستان إلى جانب القوات الأميركية الخاصة أثناء حملتها لإجلاء السوفييت من أراضي الباشتون في أفغانستان. وبما أن القصف الجوي الأمريكي لتلالهم لم يحدث إلا بعد مرور خمس سنوات، ولم يجدوا ضيراً بأن يستقبلوا رجلاً أمريكياً بمودّة أحد المهربين، وكان يبدو أكثرهم خسة وتفوح رائحة الحشيش من جميع مسامه، عرض على مورتنسون مجّة من النرجيلة لكن مورتنسون رفضها بتهذيب "ربما كان علي ألا أرفض كي أوطد صداقتي معهم، لكنني كنت فاقداً توازني بالأصل ولا داعي لأن أزيد الطين بلّة".

دار حوار ساخن باللغة الباشتية بين خان وزعيم العصابة الذي كان طويل القامة، يضع على عينيه واحدة من تلك النظارات التي يستعملها الطيارون، وردية اللون، ويجثم على شفته العليا شارب أسود كثّ يشبه الخفاش، حول ما يتوجب فعله بهذا الوافد الغريب لقضاء الليلة، وعندما انتهى النقاش، أخذ السائق مجّة طويلة من النرجيلة ثم قال لمورتنسون وهو ينفث الدخان من بين أسنانه "يسر الحاج ميرزا أن يدعوك إلى منزله" وتنفس مورتنسون الصعداء، وأخذ التوتر الذي كان يشدّ على عضلات كتفيه، سجينة القميص الضيق، يتلاشى عنه بأمان الآن لأنه ضيف.

صعد الجميع سفح تلّة لمدة نصف ساعة في الظلام بين أشجار التين الناضج حلوة الرائحة كأبخرة الحشيش التي كانت تفوح من الرجال الوزيريين. ساروا بصمت لم يقطعه سوى الصلصلة المتواترة الصادرة عن الطلقات التي بداخل أحزمة الرصاص، تحت خيط من

النور بلون الدم يعلن انحسار الضوء عن افغانستان، حتى وصلوا إلى أبنية سكنية تقع فوق التلة. نادى الحاج ميرزا بأعلى صوته يعلن عن وصوله، فرفعت المزاليج الداخلية عن الأبواب الخشبية الضخمة المنغرزة داخل سور من الطوب يبلغ ارتفاعه عشرين قدماً، وبدأت تُفتح على مهل. تفحص الحارس الشدوه مورتنسون تحت ضوء فانوس الكيروسين وبدا كأنه يوّد لو يفرغ رصاص بندقيته في ذلك الغريب من باب الاحتياط، لكن الزفرة الأجشة التي صدرت عن الحاج ميرزا جعلته يفسح الطريق للجميع.

"لم تسر بي السيارة لمدة تتجاوز اليوم الواحد، لكنني أحسست بأنني قد وصلت إلى العصور الوسطى. لم أجتز أي خندق مائي لكن هذا ما شعرت به عندما أصبحت في الداخل" الجدران كانت عملاقة داخل غرف شبيهة بالكهوف، والإنارة الآتية من الفوانيس ذات اللهب المتراقص كاد بالكاد ينيرها، وعلى ارتفاع خمسين قدماً من باحة المنزل ربض برج للحراسة يستطيع منه القناصون أن يلحظوا بوضوح قدوم أي شخص لم يعلن عن حضوره مسبقاً. اقتادوا مورتنسون وسائقه إلى غرفة تقع في وسط المنزل مكدّسة بالسجاد، وعند وصول الضيافة المعتادة من الشاي الأخضر المنكّه بالهال، كان السائق قد ارتمى فوق وسادة ورمى معطفه فوق وجهه وغطّ في سمفونية جهورية من الشخير أثارت حفيظة مورتنسون. وبعد أن ذهب حاج ميرزا للاطمئنان على تجهيزات وجبة العشاء، أمضى مورتنسون ساعتين من الزمن يرتشف الشاي وسط الصمت المقلق للأتباع الأربعة الذين كانوا بانتظار الطعام.

وحين أتاهم صوت الحاج ميرزا يعلن "العشاء جاهز"، استدرجت رائحة الحمل المشوي شهية خان من تحت معطفه. ورغم ما يوحي به ظاهره من تمدّن، فقد استلّ هو خنجراً كباقي الرجال الوزيريين المتواجدين، عندما رأى وليمة الشواء. جاء خادم الحاج ميرزا ووضع


https://telegram.me/maktabatbaghdad

طبقاً من الأرز المطهو مع الجزر والقرنفل والزبيب إلى جانب الحمل المشوي، لكن أعين الرجال لم تفارق الحمل الذي هجموا عليه بخناجرهم الطويلة وجردّوا العظام من اللحم الطري الذي كانوا يحشون به أفواههم بنصل الخناجر. ويعلق مورتنسون على ذلك بقوله: "كنت أعتقد أن البلطيين يتناولون اللحوم بشراهة، لكن تلك كانت أكثر وجبة طعام بدائية وسوقية شاهدتها بأم عيني. فبعد عشر دقائق من الالتهام والنخير، بات الحمل كومة من العظام، والرجال يتجشؤون ويمسحون بأيديهم الدهون التي سالت بين لحاهم".

اتكأ الرجال على الأرائك وهم يتأوهون، وأشعلوا لفائف وبيبات الحشيش. قبل مورتنسون لفافة تفوح منها رائحة اللحم المشوي من يد أحد الرجال، ودخنها بإذعان حتى عقبها مؤدياً بذلك واجب الضيف الجدير بالحفاوة.

وعند منتصف الليل، تثاقلت أجفان مورتنسون، فقام أحد الرجال ومدّ له فراشاً كي ينام عليه. "لم يكن أداؤه سيئاً" قال لنفسه وقد بدأ مشهد الرجال المعممين يغيب عنه شيئاً فشيئاً. لقد تمكن من التواصل مع واحد من زعماء القبائل، مخبول بفعل الحشيش، ولكن الزعيم، وابتداءً من الغد سيباشر بالإلحاح عليه كي يجمعه مع المزيد من الزعماء ليستكشف رأي القرية بخصوص المدرسة.

اختلطت الصرخات مع أحلام مورتنسون، وقبل أن يصحو من النوم عاد به الحلم إلى قرية خان وسمع "جانجونجبا" يزعق في وجهه "أخال بأن القرية بحاجة إلى مدرسة لتعليم تسلق الجبال وليس لتعليم الأطفال، ثم انتصب جالساً ليجد أمامه مشهداً لا تفسير له، مصباح غازي يتدلى أمام وجهه ويلقي على الجدران ظلالاً مفزعة، ومن خلفه ماسورة بندقية أوتوماتيكية. وبما أنه بدأ يصحو، فقد استطاع أن يستوعب أنها مسددة نحو صدره.

ومن خلف البندقية وقف رجل همجي له لحية متلبدة ويعتمر قلنسوة رمادية اللون يصرخ به بلغة لا يعرفها. كانت الساعة الثانية صباحاً ومورتنسون الذي لم ينم سوى ساعتين كان يجد مشقة بالغة في فهم ما يحدث له. والحقيقة أن حرمانه من النوم الذي هو بحاجة ماسة إليه، أزعجه أكثر من تواجد ثمانية رجال مجهولين وبنادقهم المصوبة نحوه. شدّه الرجال إلى الأعلى بفظاظة وسحبوه نحو الباب. جال مورتنسون بناظريه الغرفة المعتمة بحثاً عن خان أو رجال الحاج ميرزا، لكنه كان بمفرده بين أولئك الأغراب المدججين بالسلاح، وقبضاتهم الفولاذية التي كانت تشدّه من تحت إبطيه باتجاه بوابات البناء المفتوحة على مصاريعها.

غطى أحدهم رأس مورتنسون بكيس قماشي وربطه بإحكام من الخلف.

"أذكر أنني تساءلت حينها، كيف يتوقعون أن أرى شيئا في هذا الظلام الدامس؟" اقتاد الرجال المجهولون مورتنسون عبر طريق ترابية في قلب ظلامه المزدوج وهم يدفعونه من الخلف كي يمشي بسرعة فتعثرت قدماه وسقط فوق الصخور. وعند نهاية الطريق، تكاتف كمٌّ من الأيدي ودفع به إلى خلفية شاحنة كانت تقف هناك وتكدس الباقون من بعده.

"سارت بنا السيارة حوالي خمس وأربعين دقيقة، وكنت قد صحوت تماماً، وكنت أرتجف أيضاً، من ناحية بسبب الجلوس داخل سيارة مكشوفة في قلب برد الصحراء القارس، ومن ناحية أخرى لأنني شعرت عندها بخوف حقيقي" كان الرجال المحتشدون حوله يتجادلون بعنف باللغة الباشتية، وخمّن مورتنسون أن جدالهم يدور حول مصيره، ولكن لماذا أخذوه بالأصل؟ وأين كان حراس الحاج ميرزا عندما اقتحمت هذه العصبة المكان دون أن يطلقوا عليها رصاصة واحدة؟


https://telegram.me/maktabatbaghdad

مجرد التفكير بأن هؤلاء الرجال قد تآمروا مع ميرزا كان بمثابة لطمة مدوية على وجه مورتنسون. فاحت رائحة الدخان والقذارة من مختطفيه الذين أطبقوا على أنفاسه وكل دقيقة توغل بها الشاحنة في أعماق الليل، كانت بالنسبة لمورتنسون بمثابة ميل آخر يبعده عن زوجته.

انعطفت الشاحنة عن الطريق الرئيسي وبدأت تتخبط في صعودها على طريق مليء بالحفر. شعر مورتنسون بالسائق يدوس على فرامل الشاحنة التي استدارت بعنف قبل أن تتوقف. أذرع قوية شدّت مورتنسون إلى خارج الشاحنة وسمع أحدهم يعالج قفلاً، ثم صوت باب فولاذي ثقيل ينفتح. تعثرت قدما مورتنسون عند عتبة الباب، ثم قادته الأكفّ الصلبة التي تعصر ساعديه عبر دهليز يرجع صدى وقع أقدامهم حتى وصلوا إلى غرفة مظلمة، سمع صوت مزلاج الباب الخارجي ينغلق ورفعوا الكيس القماشي عن رأسه.

وجد نفسه داخل غرفة خالية من الأثاث، ذات سقف عالٍ يبلغ عرضها عشرة أقدام وطولها عشرين قدماً، فيها فانوس كيروسين معلّق على حافة النافذة الصغيرة الوحيدة المقفلة من الخارج. استدار نحو الرجال الذين أحضروه وهو يأمر نفسه بعدم إظهار فزعه ويحاول أن يستجمع بنات أفكاره لكي يخلق مناخاً فيه شيء من المودّة علّه يحظى بتعاطفهم، لكنه سمع صوت سقطة باب ثقيل، والطقطقة المحبطة بقفلٍ ضخم عزله عنهم.

في قلب العتمة، رأى مورتنسون حشية وبطانية ملقاة فوق الأرض المتربة في إحدى زوايا الغرفة. حدس غريزي أنبأه أن النوم خيار أفضل من ذرع الغرفة جيئةً وذهاباً مفعم بالقلق حول ما ينتظره. لذا فقد استلقى على الحشية الرقيقة التي تدلت قدماه من طرفها وغطّى صدره بالبطانية الصوفية البالية وغط في نوم عميق. وعندما فتح عينيه، رأى رجلين من خاطفيه يجلسان القرفصاء إلى جانب حشيته وضوء النهار يتسلل من خلال النافذة المضلعة.

أقرب الرجلين إليه قال: "الشاي" وسكب له كوباً فاتراً من الشاي الأخضر الرخيص. ارتشف مورتنسون الشاي من الكوب البلاستيكي وهو يبدي امتنانه ويبتسم في وجه الرجلين اللذين كان يتفحص ملامحهما. كانت لهما سيماء رجال مخشوشنين، هائمين على وجوههم، أمضوا معظم حياتهم في القفار يتآكلهم الحرمان لكليهما لحية متلبدة كثة كمعاطف من فراء الذئاب، خمنّ مورتنسون أنهما قد تجاوزا الخمسين من العمر، كانت ندبة حمراء طويلة تمتد على طول جبهة الرجل الذي قدّم له الشاي واستنتج مورتنسون أنها آثار قذيفة انفجرت قربه أو تعفّن خلفته رصاصة عابرة كادت أن تودي بحياته. لابدّ أنهما من المجاهدين، أولئك المقاتلين في حرب العصابات الأفغانية ضد السوفييت. ولكن أين هو الآن؟ وماذا ينوون أن بفعلوا به؟

أفرغ مورتنسون كوب الشاي حتى آخر نقطة، وعبّر عن حاجته للذهاب إلى المرحاض، فهيأ الحارسان بنادق الكلاشينكوف فوق كتفيهما واقتاداه إلى الفناء. الأسوار العالية التي يبلغ ارتفاعها عشرين قدماً حجبت عن عيني مورتنسون المناطق المحيطة ولمح عند نقطة بعيدة من السور طيف رجل يقوم بحراسة المبنى من داخل برج للحراسة أشار الرجل ذو الندبة إلى باب بماسورة بندقيته، فدخل مورتنسون إلى حجيرة فيها مرحاض أرضي. وعندما حاول أن يغلق الباب أوقفه الرجل الآخر بقدمه ودلف إلى الداخل مع مورتنسون، في حين وقف الأول يحدّق به من الخارج. "لقد سبق لي أن استعملت مراحيض أرضية بداخلها دلاء من الماء طوال الوقت، ولكن أن أفعلها أمام أعين الرجلين وأن أضطر للاغتسال وهما يحدقان بي، فقد كان أمراً مدمراً للأعصاب بالنسبة لي".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبعد أن انتهى، أعاد الرجلان مورتنسون إلى الغرفة وهما يلكزانه بماسورتي البندقتين المشهرتين. جلس فوق حشيته وحاول أن يتواصل مع الرجلين، لكنهما لم يكونا على استعداد لفك شيفرة الحركات والإيماءات التي يقوم بها، فاتخذا موقعيهما قرب الباب وراحا ينفثان البيبة تلو البيبة من الحشيش، وتجاهلاه تماماً "شعرت بالكآبة تغمرني وقلت في نفسي: "هذا الوضع يمكن أن يدوم لفترة طويلة" وكان ذلك أسوأ بكثير من الخلاص منه".

النافذة الصغيرة كانت مغلقة من الخارج، والضوء الذي بقي في الغرفة كان أشبه بالليل لأن نور الفانوس بدأ يذوي، فتغلّب اكتئاب مورتنسون على خوفه وغفا غفوات قصيرة امتدّت لساعات، وعندما استيقظ من غفوته جافلاً وشاهد شيئاً عند طرف حشيته. التقطها ليجد انها نسخة متآكلة لمجلة "التايم" صادرة في شهر تشرين الثاني عام 1979، أي قبل سبعة عشر عاماً، وتحت عنوان يقول: "اختبار النوايا" شاهد رسماً رديئاً لآية الله الخميني يعلو كنذير شؤوم صورة فوتوغرافية لجيمي كارتر الذي بدا عليه الإحباط.

تصفح مورتنسون المجلة البالية التي أعطت تفاصيل الأيام الأولى لأزمة الرهائن في إيران، وشعر بكلمة قاسية تسدد إلى قلبه عندما وجد نفسه وجها لوجه أمام مواطنيه الأميركين بلا حول ولا قوة، وقد عصبت أعينهم تحت رحمة الحشود العنصرية المستهزئة.هل تعمّد مضيفوه أن يرسلوا له رسالة عبر هذه النسخة بالتحديد؟ أم أنها لفتة كريمة منهم تجاه ضيفهم الذي لا يعرف سوى اللغة الانكليزية؟ اختلس نظره نحو الحارسين بحثاً عن أي إيحاء جديد في وجوههم، لكنهما تابعا الحديث بهدوء، يدخنان الحشيش ولا يكترثان به.

وبما أنه لا يملك أن يفعل شيئاً آخر، فقد اقترب مورتنسون نحو الفانوس وبدأ يقرأ. كان هناك تقرير ورد بالأسلوب الفاضح المعتاد لمجلة "تايم" يتحدث عن محنة الرهائن الأمريكيين في طهران. التفاصيل التي أوردتها جاءت من خمس سكرتيرات وسبعة من الجنود الأميركين الزنوج الذين كانوا يعملون داخل السفارة وأطلق سراحهم بعد احتلال السفارة. قرأ مورتنسون أن المحتجزين الزنوج أطلق سراحهم بعد مؤتمر صحفي رفع شعار: "الزنوج المضطهدون، حكومة الولايات المتحدة هي عدونا المشترك".

وأفاد أحد الجنود أنه كان مجبراً على الإدلاء بتصريحات تمجّد الثورة الإيرانية تحت تهديد القتل. وإحدى السكرتيرات التي تتحدث بعض اللغة الفارسية قالت بأنها قامت بنوع من التواصل مع حارستها الإيرانية وتساءلت إن لم يكن ذلك السبب في إطلاق سراحها.

وقرأ مورتنسون أيضاً عن كيفية إجبار الرهائن على النوم على الأرض بعد تقييد أرجلهم وأيديهم. كانوا يفكون قيودهم أثناء تناول الطعام والذهاب إلى المرحاض وللمدخنين من بينهم لتدخين لفافة تبغ. وأوردت "تايم" قولاً لإحدى السيدات: "كنا نتوق إلى نزع القيود لدرجة أن غير المدخنين بدؤوا بالتدخين".

فريق مراسلي مجلة "التايم" اختتم ذلك التقرير الخاص بعبارة تشاؤومية مفادها: "لقد استعد البيت الأبيض لحقيقة قاسية لكنها واقعية بأن الرهائن سوف يقضون عيد الميلاد مع مليشيات الخميني داخل السفارة الإيرانية".

لكن مورتنسون ومن خلال خبرة عمرها سبعة عشر عاماً كان يدرك ما لم يتوقعه الصحفيون أبداً في شهر تشرين الثاني من عام 1979 وهو أن أكثر من عيد ميلاد واحد سوف ينقضي قبل أن تنتهي محنة الرهائن التي دامت 444 يوماً.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وضع مورتنسون المجلة جانباً وأخذ يحدث نفسه. لم يضعوا قيوداً على يديه أو على قدميه، ولم يهدده أحد بالقتل.. ليس بعد. وكان يمكن أن يكون وضعه أسوأ بكثير. لكن قضاء 444 يوماً داخل هذه الغرفة المعتمة كان احتمالاً فظيعاً لا يقدر على استيعابه. صحيح أنه لا يتكلم اللغة الباشتية، إلا أنه يستطيع أن يحذو حذو تلك السيدة الأميركية التي تمكنت من التواصل مع حارستها وقرر أن يبتكر طريقة ما ليتمكن هو أيضاً من ذلك.

وبعد أن تناول بعضاً من الـ"دال" والأرز المطهو مع القرنفل والزبيب. استلقى على حشيته وأمضى معظم ليلته الثانية مستيقظاً يفكر ويدرس الاحتمالات ويضع الاستراتيجيات ويستبعد العديد منها. مجلة الـ"تايم" تحدثت عن اشتباه الآمرين الإيرانيين بأن بعضاً من رهائنهم عبارة عن مجندين استخدمتهم الـ"سي أي إيه" أيكون ذلك السبب وراء اختطافه؟ هل يشتبهون بأنه عنصر أرسلته الـ"سي أي إيه" للتجسس على هذه الظاهرة المجهولة نسبياً التي تدعى طالبان؟ ذلك ممكن لكن قدراته اللغوية المحدودة تجعل من فرصة شرح ما فعله لأطفال الباكستان أقرب إلى المستحيل، فوضع استراتيجية الإقناع جانباً.

هل اختطفوه طلباً للفدية؟ كان ولا زال متعلقا بحبال الأمل بأن الوزيريين لا يتعمدون الأذى وبأنه قد أسيء فهمهم، ومع ذلك فعليه أن يضع بعين الاعتبار بأن المال دافع قوي.وإن كان الأمر كذلك، فاي لغة إقناع محكية يملك كي يقنعهم بأن ما يحمله من المال لا يستحق هذا العناء؟ أم لأن كافراً وقحاً تجرأ على تدنيس أرضهم المقدسة؟ راح يقلب الأمر في رأسه بينما حارساه يغطان في نوم عميق من تأثير الحشيش. إنه احتمال وارد ومع جزيل الشكر لذلك الخياط، فسيجد وسيلة للتأثير على مختطفيه ولن يحتاج لمعرفة لغتهم.

وعند الصباحِ، عندما أيقظه حارساه يحملان الشاي، كان مورتنسون مستعداً "القرآن" بصوت رجل ورع يقلب صفحات الكتاب المقدس. فهم الحارسان ما قاله على الفور لأن اللغة العربية هي لغة العبادة للمسلمين كلهم في العالم كله. الحارس ذو الندبة قال شيئاً باللغة الباشتية لم يسع مورتنسون أن يستنتج منه سوى أن طلبه قد أخذ بعين الاعتبار.

لكن ذلك اليوم انقضى ولم يحدث شيء حتى ظهيرة اليوم الثالث حين حضر رجل متقدم في السن، خمّن مورتنسون بأنه إمام القرية يحمل نسخة من القرآن مجلّدة بقماش مخملي أخضر اللون ويعلوها الغبار. شكره مورتنسون باللغة الأوردية آملاً في ردة فعل، لكنه لم ير أي استجابة في عيني الرجل المثقلتين. أخذ مورتنسون نسخة القرآن واتجه نحو حشيته ووضعه فوقها ثم أدى طقوس التيمم فوق أرض الغرفة، أي البديل الشرعي للوضوء عندما لا يتوفر الماء، ثم فتح القرآن بخشوع وانحنى فوقه يتظاهر بقراءته وهو يتمتم بصوت خفيض الآيات التي علمه إياها الخياط داخل دكانه. أومأ الإمام الأشيب برأسه إيماءة تدل على الرضى، وغادر الغرفة تاركاً مورتنسون بمفرده مع حارسيه. وفكر مورتنسون بالحاج علي. كلاهما يجهلان اللغة العربية وكلاهما يقلبان صفحات القرآن بالرّقة نفسها.فابتسم ولاذ بدفء ذلك الشعور الحميم.

كان يؤدي الصلوات الخمس اليومية عندما يسمع صوت الآذان من مسجد قريب وفقاً للطريقة السنّية المتبعة على تلك الأرض السنّية ثم ينكب على قراءة القرآن، لكنه لم يعرف إن كانت تلك الاستراتيجية تجدي نفعاً، لأنه لم يلحظ أي تغيير في سلوك حارسيه. أما في الوقت الذي لم يتظاهر فيه بأنه يقرأ القرآن، فكان يعاود قراءة مجلة التايم اليتيمة المتوفرة له.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

قرر أن يتجنب إعادة قراءة التقارير التي تدور حول الرهائن، لأن رأسه كان يطنّ بالقلق والذعر في كلّ مرة، وحاول أن يحجب نفسه عمّا يدور حوله بقراءة التصريحات المتعلقة لمرشح شهير قرر أن يخوض غمار المعركة الانتخابية لرئاسة أميركا وهو رونالد ريجان: "لقد آن الأوان لنتوقف عن التساؤل إن كنا محبوبين، وأن نقرر استعادة هيبة أميركا في العالم" وفقاً لما جاء في تقرير مجلة الـ"تايم": "بحيث لا يجرؤ أي دكتاتور بعد الآن في أن يستولي على سفارتنا ويحتجز أبناءنا" وأخذ مورتنسون يفكر بأن هيبة أميركا خلال فترة كليتون الرئاسية، تراجعت إلى حدٍ كبير. ولكن ما الذي يفيده من ذلك؟ حتى وإن وجد دبلوماسي أميركي يرغب في أن يضطلع بتحريره، فلا أحد يعرف مكان وجوده.

مرّ اليومان الرابع والخامس ببطء، ولم يميزهما سوى تحول درجات الضوء الذي يتسرب إليه من النافذة، ودويُّ القصف العنيف أثناء الليل من خارج البناء الذي ترد عليه أبراج الحراسة بإطلاق نار متقطع.

كان مورتنسون خلال النهار يختلس النظر من شقوق النافذة، لكن مرأى الوجه الأبكم للأسوار الداخلية لم يعطه أي عزاء في رتابة حياته داخل الغرفة، وبات عاجزاً عن إيجاد أي وسيلة تلهيه عما هو فيه. لقد قرأ الدراسات البائتة في المجلة عشرات المرات، ولم يعد يحفل بآراء التايم حول الانحيازات الثقافية، ولا بالآراء المثيرة عن زراعة دوار الشمس باتت تجارة مربحة في شمال داكوتا. الإعلانات المصورة وحدها كانت نافذته إلى الوطن.

خمن مورتنسون أنها كانت منتصف ليلته الخامسة عندما شعر بموجة من الظلام تلتف حول قدميه كالأفعى وتصعد نحو ركبتيه وتتوعد بأن تغرقه في لجة اليأس. إنه يفتقد تارا وكأنها جزء منه، وقد أخبرها أنه سيعود خلال يومين، وعجزه عن طمأنتها الآن يسحقه

تماماً. سيهب أي شيء مقابل أن يرى الصورة الفوتوغرافية التي التقطت لهما يوم زفافهما أمام العربة التي أخذتهما في تلك الجولة الساحرة.كان يحملها بين يديه وابتسامة تارا المشرقة تملأ الصورة حبوراً.ولعن نفسه لأنه ترك محفظته داخل حقيبته في الفندق الذي يقيم فيه في بيشاور.

استجمع مورتنسون شتات إرادته وهو يحاول ألا ينهار أمام موجة القنوط التي اجتاحته وعاد يقلب صفحات المجلّة عله يجد مخرجاً في ذلك العالم الدافئ المنطقي الذي خلفه وراءه. وتوقف مطولاً عند إعلان عن سيارة يصوّر أماً جميلة مشرقة تجلس خلف المقود وتبتسم لمشهد يشير إليه بإصبعي ولدها الفاتنين من المقعد الخلفي ثم توقف لما يقارب الساعتين عند صفحة إعلانات لكاميرات الكوداك. كانت هناك شجرة عيد الميلاد تتدلى من أغصانها صور لعائلة سعيدة للغاية.جدّ وقور يرتدي برنُس حمام مريح أحمر اللون يعلم صبياً أشقر وسيماً كيف يستعمل حوض صيد السمك.أمٌّ يطفح وجهها بالسعادة وهي تنظر إلى أطفال متوردي الخدود ويفتحون علب الهدايا ليجدوا خوذ كرة القدم، ويتخاطفون بخشونة جراء حديثة الولادة. لقد أمضى مورتنسون أعياد الميلاد أثناء طفولته في أفريقيا، والمقاربة الوحيدة لشجرة العيد كانت عبارة عن صنوبرة اصطناعية يمسحون عنها الغبار كل عام، ومع ذلك فقد تشبث بهذا الرمز المنعش الآتي من عالم يعرفه، عالم لا علاقة له بهذه الغرفة المشبعة برائحة الكيروسين وأولئك الرجال الأفظاظ.

عند فجر اليوم السادس من أسرهِ، طفرت الدموع من عيني مورتنسون أمام إعلان عن جهاز لتطهير الفم. وكان الشعار يقول: "الابتسامة جديرة بأن تكون أكثر من مجرد ذكرى" فيما أورد النص شرحاً علمياً حول بكتريا تدعى "بلايك" تنمو وتتكاثر تحت اللّثة. ذلك لم يعنِ شيئاً لمورتنسون لأن مرأى ثلاثة رجال ينتمون إلى ثلاثة أجيال


https://telegram.me/maktabatbaghdad

من عائلة أميركية مستقرة، على شرفة منزل قرميدي متين كـان مـشهداً يفوق احتماله. ابتساماتهم التي تبعث على البهجة والطريقـة الـتي يتكئـون بها على بعضهم البعض كانت توحي بمشاعر الحـب والتكـاتف الأسـري التي يحملها تجاه زوجته، محبوبته، مشاعر لا يحملها تجاه أحد هنا.

أحس بوجود الرجل الواقف قرب حشيته قبل أن يراه. وعندما نظـر إلى نحو الأعلى، شاهد مورتنسون رجلاً ضخم الجسم له لحيـة فـضية مشذبة توحي بأنه شـخص مـتعلم. ابتـسم لمورتنـسون بلطـف وحيـاه بالباشتية ثم قال له باللغة الانكليزية "لابد أنك ذلـك الأميركـي" نهـض مورتنسون من الفـراش كـي يـصافحه فـدارت الـدنيا مـن حولـه، لأن الاكتئاب الذي كان يغوص فيه يوماً بعد يوم، جعله يـرفض تنـاول أي شيء ما عدا الأرز والشاي خلال الأيام الأربعة الأخيرة.

أسنده الرجل من كتفيه ونـادى طالبـاً طعـام الإفطـار. وبـين رشـفات الشاي الدافئ، راح مورتنسون يعوض عن صمت استمر لمدة سـتة أيـام، وعندما سأل الرجل العطوف عن اسمه، صمت برهة ثم أجابـه: "يمكنـك أن تناديني خان" وهو الوصف المرادف لكلمة صائغ أو حداد في وزيرستان.

خان كان وزيراً لكنه تلقى تعليمه في مدرسـة بريطانيـة في بيـشاور ويتحدث الانكليزية بتلك النبرة القاطعة الـتي تعلمهـا في مدرسـته. لم يفسّر خان سبب مجيئه، لكن من الواضح أنه قد اسـتدعي لكـي يـضع تقييماً لذلك الأميركي. احتـسى مورتنـسون الإبريـق تلـو الإبريـق مـن الشاي وهو يروي له أدقّ التفاصيل عن أدائه في بالتـستان وأنـه يخطـط لبناء المزيد والمزيد من المـدارس في أكثـر منـاطق الباكـستان عـوزاً، وبأنه قد جاء إلى وزيرستان ليفعل الشيء ذاته إن كانوا يرغبون به.

انتظر إجابة خان بقلق وهو يأمل بأن يسمع تـصريحاً بـأن احتجـازه تم عن طريق الخطأ وأنه سينطلق عمّا قريـب عائـداً إلى بيـشاور. لكـن

شيئاً من هذا لم يحصل، بل أمسك ذلك الرجل الضخم بمجلة الـ"تايم" وراح يتصفحها وهو شارد الذهن في مكان آخر، فأحس مورتنسون بالخطر. أشار الرجل إلى صورة لامرأة مموهة تعمل على جهاز بث عسكري "إذا، فإن جيشكم الأمريكي يرسل النساء إلى المعارك هذه الأيام، أليس كذلك؟".

حاول مورتنسون أن يكون لبقاً وهو يجيب: "ليس بالضرورة، لكن النساء في مجتمعنا يملكن حرية انتقاء المهنة التي يردنها" ومع ذلك فقد شعر بأن إجابته فيها شيء من الإساءة، وفكر بسرعة في موضوع للحديث فيه أرضية مشتركة ثم قال: "زوجتي على وشك أن تضع مولودنا الأول. إنه صبي وعليّ ان أكون في المنزل عندما يولد".

كانت تارا قد أجرت الصور الشعاعية المطلوبة منذ أشهر، وشاهد مورتنسون صورة غائمة لابنته وهي تسبح في مياه رحم أمها. "كنت أعرف أن قدوم مولود ذكر يعتبر حدثاً هاماً بالنسبة للمسلمين ولم أكن راضياً عن نفسي لأنني كذبت عليه، لكنني افترضت ان ولادة صبيّ قد تجعلهم يطلقون سراحي".

لكن خان ظلّ يحملق في صورة الجيش وكأنه لم يسمع شيئاً، فتابع مورتنسون حديثه بإصرار: "لقد قلت لزوجتي أنني لن أتأخر في العودة إلى المنزل. أيمكنني الاتصال بها كي أخبرها بأنني بخير؟".

"لا توجد هواتف هنا" أجاب الرجل الذي ادّعى بأن اسمه خان "لم لا تأخذني إلى إحدى مراكز الجيش الباكستاني؟ سأتصل من هناك!".

تنهد خان بعمقٍ وأجاب: "يؤسفني أن أقول لك أن ذلك غير ممكن" ثم نظر في عيني مورتنسون نظرةً مطولةً توحي بتعاطف محبط لا يملك حرية التصرف إزاءه ثم جمع أكواب الشاي وغادره وهو يقول: "لا تقلق، ستكون بخير".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد ظهيرة اليوم الثامن، جاء خان لزيارته من جديد وسأله: "أتحب كرة القدم؟" أدار مورتنسون السؤال برأسه يفكر في وجود احتمالات شائكة وراءه وقرر انه تساؤل بريء: "جداً، لقد كنت ألعب soccer أقصد كرة القدم في الجامعة" كي يعطيه المعنى البريطاني لتلك الرياضة.

"ونحن سنستضيفك لحضور مباراة" وأومأ خان برأسه نحو الباب وهو يضيف: "هيا بنا".

سار مورتنسون وراء ظهر خان العريض إلى خارج البوابة الخارجية المفتوحة وهو يشعر بالدوار أمام النور الساطع الذي أحاط به للمرة الأولى منذ أسبوع. في أسفل طريق منحدرة مفروشة بالحصى وقريبا من مآذن مسجد متداعٍ، استطاع أن يرى الطريق العام الذي يشطر الوادي إلى نصفين وعلى مبعدة أقل من ميل شاهد موقعاً للجيش الباكستاني. خطر بباله أن يركض باتجاهه لكنه ما لبث أن تذكر القنّاص المتمركز في أعلى المبنى.فتابع السير وراء خان نحو أعلى الهضبة حتي وصلا إلى منبسط صخري واسع حيث يقوم فريقان من الشبان الملتحين لم يسبق له أن رآهما بأداء لعبة كرة القدم ببراعة مدهشة. وهم يحاولون أن يسددوا الكرة نحو مرمى الأهداف الذي أحدثوه داخل صناديق ذخيرة فارغة.

قاده خان نحو كرسي من البلاستيك الأبيض وضعوه خصيصاً له إلى جانب الملعب جلس مورتنسون عليه بإذعان ليشاهد اللاعبين يثيرون سحابات الغبار الذي كان يلتصق بقمصانهم. حتى ندّت صيحة من برج الحراسة بأنهم استطلعوا حركة مريبة عند موقع الجيش الباكستاني. "آسف للغاية"، قال له خان وهو يدفع به بسرعة إلى ما وراء الأسوار العالية للمبنى.

في تلك الليلة، حارب مورتنسون بضراوة كي يحظى بالنوم لكنه باء بالإخفاق. لا بد أن خان قائد بارز عند طالبان، ذلك ما يدل عليه سلوكه والاحترام الفائق الذي أظهره الآخرون تجاهه. ولكن ما الذي يعنيه هو من الأمر؟، هل كانت دعوته لحضور المباراة إشارة إلى أنهم سيحررونه عمّا قريب؟ أم أنها بمثابة تلبية المطلب الأخير لرجل تقرر مصيره المحتوم؟

حصل مورتنسون على الإجابة عند الساعة الرابعة فجراً. لقد حضروا لاصطحابه، وربط خان بنفسه العصابة فوق عينيه، ثم وضع بطانية صوفية على أكتافه وقاده بلطف إلى خلفية شاحنة صغيرة تعج بالرجال. "في ذلك الوقت، أي قبل أحداث الحادي عشر من أيلول، لم يكن قطع الرؤوس وارداً بعد. ولم أجد حينها أن رصاصة في الرأس طريقة شنيعة للموت. ماكان شنيعاً حقاً بالنسبة لي هو أن تارا ستتولى مسؤولية تربية ابنتنا بمفردها ولن تعرف أبداً ما الذي حدث لي. تخيلت الألم واللايقين الذي سيتخلل كل حياتها، وذلك كان أفظع بكثير مما يمكن أن يفعلوه بي".

كانت الرياح تعصف حوله في مؤخرة الشاحنة المفتوحة، وقدم أحدهم لفافة من التبغ فرفضها. لم يعد مضطراً لأداء دور الضيف. ولا يرغب في أن يكون التبغ آخر طعم يذوقه في حياته. سارت بهم الشاحنة لمدة نصف ساعة وقد التف بالبطانية الصوفية التي لم تحمه من الارتعاش. وعندما انعطفت الشاحنة نحو طريق ترابية، باتجاه أصوات إطلاق نيران كثيف للأسلحة الأوتوماتيكية، بدا يتصبب عرقاً.

أوقف السائق الشاحنة في وسط إطلاق النيران المصمّ للأذنين الآتي من عشرات البنادق الأوتوماتيكية، وقام خان بنزع العصابة عن عينيه وضمه إلى صدره قائلاً: "ألم أقل لك أنك ستكون بخير؟" ومن فوق كتف خان، شاهد مورتنسون مئات من رجال قبيلة الوزير يرقصون حول حلقات النار وهم يطلقون نيران بنادقهم. أما على وجوههم المستنيرة بالنار فقد ذهل مورتنسون لرؤية النشوة وليس التعطش للدماء الذي كان


https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتوقعه. قفز الرجال الذين كانوا معه في الشاحنة وهم يهزجون، وأضافوا إلى الجمع وابلهم من الرصاص، كان الوقت فجراً، لكن مورتنسون رأى قدوراً تغلي ورؤوساً كثيرة من الماعز تشوى.

مورتنسون الذي لم يكد يصدق أن نذير أيام الموت الثمانية قد تلاشى، صاح من بين سعار الرجال المهتاجين: "ما هذا؟ لم أحضرتني إلى هنا؟".

وصاح خان بدروه: "من الأفضل ألا تعرف الكثير. لنقل بأننا رجحنا اعتبارات أخرى. لقد شبّ خلاف كان يمكن أن ينتج عنه كارثة. لكن الزعماء تولوا تسوية الأمر ونحن الآن نقيم حفلة لك قبل أن نعيدك إلى بيشاور".

ولم يصدقه مورتنسون، لكن حفنة الروبيات الأولى ساعدت في إقناعه بأن محنته قد ولّت أخيراً. ذلك الحارس ذو الندبة تقدم نحوه بخطى متعثرة ووجه باسم تعلوه الحمرة بفعل ضوء النيران والحشيش معاً، يلّوح برزمة من مئات الروبيات، قذرة وتعلوها البقع مثله تماماً، ودسّها في جيب قميص مورتنسون.

أصبح مورتنسون عاجزاً عن الكلام، فالتفت نحو خان يسأله تفسيراً. صاح خان في أذن مورتنسون: "من أجل مدرستك. وإن شاء الله سوف تبني الكثير من المدارس".

توقف بقية الوزيريين عن إطلاق النار وجاؤوا إليه كي يعانقوه. جلبو له شرائح من لحم الماعز المشوي وقدموا تبرعاتهم من أجل المدرسة. عندما انبلج الفجر، كانت معدة مورتنسون وجيب قميصه قد انتفخا، أما ذلك الخوف الذي أثقل على صدره لمدة ثمانية أيام فقد تلاشى.

دوخته السعادة، فانضم إلى الاحتفال ودهن الماعز المشوي يقطر من لحيته التي بلغ عمرها ثمانية أيام، يؤدي الرقصة التنزانية القديمة التي كان يظن بأنه نسيها، وسط هتافات تشجيع الوزيريين. ورقص مورتنسون بتلك السعادة الصافية وحس الانعتاق الجامح الذي لا تمنحه سوى الحرية.

# الفصل الرابع عشر

## "التوازن"

"التضاد الظاهري الذي كان بين الحياة والموت قرّ قراره. لا تتدفع، لا تترد ولا تقرّ. لم يعد هناك حاوية أو محتوى. الكلّ تطود في حرية مبهرة لا حدود لها"

"من اغنية المحارب لـ King Gezar"

السيارة المتوقفة أمام منزل مورتنسون كانت موحلة إلى درجة أن لون دهانها يكاد لا يظهر، وتحمل لوحة كتب عليها "صائدة المواليد". دخل مورتنسون إلى منزله الأنيق بذلك الشعور الذي يرافقه دائماً بأنه يملك هذا البناء غير المألوف. وضع على طاولة المطبخ مشتريات البقالة حتى الفاكهة الطازجة والمعلبات التي طلبتها زوجته، ثم ذهب يبحث عنها.

كانت في غرفة نومها الصغيرة التي تقع في الطابق العلوي وبرفقتها امرأة ضخمة الجسم. "أقدم لك روبرتا يا عزيزي" قالت تارا المستلقية فوق السرير. لقد أمضى مورتنسون ثلاثة أشهر في الباكستان، ولم يمض على عودته إلى المنزل سوى أسبوع واحد، لذا فقد كان عليه أن يعتاد على مشهد زوجته صغيرة الحجم وقد أصبح شكلها كفاكهة حان موعد قطافها. أومأ مورتنسون برأسه وللقابلة التي جلست على طرف السرير.



https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبلكنتها المحلية، قالت روبيرتا: "كيف حالك؟" ثم التفتت نحو تارا: "سوف أعطيه لمحةً بما كنا نتحدث عنه، لقد كنا نتناقش بخصوص المكان الذي ستولد فيه الطفلة، وتارا تريد أن ترى طفلتكما النور في هذه الغرفة تحديداً وأنا أوافقها الرأي لأن للغرفة طاقة إيجابية" أمسك مورتنسون بيد تارا قائلاً: "لا مانع لدي" وهو يعني ما يقوله، لأن خبرته السابقة كممرض جعلته يريد أن تبقى زوجته بعيداً عن أجواء المشافي. فأعطتها روبيرتا رقم هاتف كوخها الخشبي الذي يقع في الجبال خارج المدينة كي يتصلوا بها في أي وقت ليلاً أم نهاراً، يبدأ فيه المخاض.

أمضى مورتنسون بقية الأسبوع منكباً على رعاية زوجته حتى كادت تختنق وطلبت منه أن يخرج للريف كي تتمكن من أخذ غفوة. تنزه مورتنسون بين الأشجار وارفة الظلال. في الشوارع المحاطة بالخضرة وشاهد التلامذة اليافعين يلعبون مع كلابهم داخل الحدائق المنمّقة، وكان ذلك بمثابة الترياق الذي يحتاجه بعد الأيام الثمانية التي أمضاها في تلك الغرفة التي كانت تطبق على أنفاسه.

بعد أن أعادوه سالماً إلى فندقه في بيشاور بجيوب ممتلئة بالروبيات وردية اللون تعادل قيمتها أربعمئة دولار، قيمة التبرع الذي قدمه الوزيريون لبناء المدارس، اصطحب مورتنسون صورة زوجته إلى كشك عمومي للهاتف ووضعها أمام عينيه وهو يتصل بزوجته في موعد يتزامن مع منتصف ليلة أحد في أميركا، لكن تارا كانت مستيقظة. قال لها عبرالاتصال المتقطع: "مرحباً يا حبيبتي، أنا بخير".

"أين أنت؟ ما الذي حدث؟".

"لقد كنت معتقلاً".

"معتقلاً؟ ما الذي تعنيه بذلك؟ أكنت معتقلاً من قبل الحكومة؟".

انهمرت عليه أسألة تارا بصوت يخنقه الخوف.

أجاب وهو يحاول ألا يفاقم من ذعر زوجته "من الصعب أن أشرح لك الأمر الآن. لكنني عائد إلى المنزل في غضون أيام قليلة". خلال عودته على متن ثلاث رحلات مديدة، كان يخرج من جيبه صورة تارا مرة بعد مرة ويتأملها مطولاً، وكان ذلك بمثابة جرعات مهدئة لروحه المنهكة.

وعندما وصل إلى منزله، وجد أن زوجته أيضاً في طور النقاهة. "خلال الأيام الأولى لانقطاعه عن الاتصال بي، قلت لنفسي: هكذا هو جريغ الفاقد لحس الزمن. وبعد أن انقضى الأسبوع الأول شعرت بالضياع. فكرت في البداية أن أتصل بوزارة الخارجية، وناقشت الأمر مع والدتي. لكن جريغ كان موجوداً في منطقة محاصرة، ويمكن لاتصال كهذا أن يخلق أزمة دولية. أحسست بعجز كامل وبأنني وحيدة مع حَملي ومكبلة بكل مشاعر الخوف التي يمكن أن تتملك كائناً بشرياً. وعندما اتصل من بيشاور، كنت قد بدأت أجبر نفسي على تقبل فكرة موته".

وعند الساعة السابعة من صباح الثالث عشر من أيلول عام 1993، أي تماماً بعد مرور سنة واحدة من لقائهما المصيري في فندق فيرمونت، بدأ مخاض تارا. وعند الساعة السابعة واثنتي عشرة دقيقة من مساء ذلك اليوم. شهد كوكب الأرض قدوم أميرة إيليانا مورتنسون على أنغام شريط تسجيلي اختاره لها والدها يبث ترتيلة لرهبان التيبت. أميرة لأنها تعني (الزعيمة) باللغة الفارسية أما إيليانا التي تعني (هبة الله) بلغة قبائل كليمنجارو، وتيمناً بالغالية الراحلة شقيقة مورتنسون، كريستا إيليانا مورتنسون.

وبعد أن غادرت القابلة، استلقى مورتنسون على السرير محاطاً بزوجته وابنته التي وضع حول عنقها "تومار" ملون كان الحاج علي قد أهداه إياه، ثم بدأ يصارع لنزع سدادة أول زجاجة شمبانيا ابتاعها


https://telegram.me/maktabatbaghdad

طوال حياته. قالت تارا ضاحكة "أعطني إياها" وأخذ ابنته في حضنه بينما كانت تارا تنزع سدادة الزجاجة. رقد الرأس الصغير الطري في كف مورتنسون الضخمة وشعر بسعادة غامرة جعلت عينيه تدمعان. أيعقل أن تكون الأيام الثمانية التي أمضاها في تلك الغرفة العابقة برائحة الكيروسين وهذه اللحظات التي يعيشها الآن داخل غرفة نومه الدافئة في منزله المحاط بالخضرة والأشجار جزءاً من العالم نفسه؟

سألته تارا: "ما الأمر؟".

"اهدئي" قالها همساً وهو يمسح بيده الأخرى العبوس الذي ظهر على جبينها ويتناول منها كأس الشمبانيا.

الاتصال الهاتفي من سياتل أعطى برهانا آخر على مسير الكوكب بلا هوادة نحو التوازن. جان هويرني يريد موعداً دقيقاً لمشاهدة الصور الفوتوغرافية لمدرسة كورف المكتملة. أخبره مورتنسون بقصة اختطافه وعن مخططاته للعودة إلى باكستان بعد أن يمضي بضعة أسابيع مع ابنته حديثة الولادة.

لكن هويرني كان يزعق ويلّح لمعرفة المرحلة التي وصلت إليها المدرسة مما دفع مورتنسون لسؤاله عمّا يؤرقه. تذمر هويرني بعض الشيء ثم أفصح له بأنه مصاب بتليف في النخاع الشوكي، وهوصنف قاتل من أمراض سرطان الدم وبأن الأطباء أخبروه بدنو أجله في غضون أشهر قلائل. "يجب أن أرى تلك المدرسة قبل أن أموت عليك أن تعطيني وعداً بأنني سأراها بأسرع وقت ممكن".

" أعدك بذلك" قال مورتنسون من قلب غصّة الحزن التي أطبقت على حنجرته تجاه هذا الرجل العنيد، هذا المشاكس الذي، ولسبب لا يعرفه سوى الخالق، علّق آماله عليه هو بالتحديد، أي أقل الناس قدرة على إحراز الانتصارات.

فصل الخريف ذاك في كورف كان صافياً، لكن البرد أتى مبكراً ودفع بسكان القرية عن الأسطح فدخلوا منازلهم وتحلّقوا حول مدافئهم الفائحة بالدخان ينشدوون الدفء. اضطر مورتنسون أن ينزع نفسه عن أسرته الجديدة بعد أسابيع قليلة كي يفي بوعده نحو هويرني. وفي كل يوم، كان مورتنسون ورجال القرية يربطون البطانيات الصوفية حول ملابسهم ويصعدون إلى سقف المدرسة كي يثبتوا ما تبقى من الألواح الخشبية في مكانها، بينما يراقب مورتنسون السماء بقلق خشية أن يهطل الثلج ويقذف بهم نحو الأرض.

يتحدث تواها عن دهشته إزاء السهولة التي تأقلم بها مورتنسون مع المناخ البارد في كورف بقوله: "كنا جميعاً نشعر بالقلق حول دكتور جريغ الذي كان يمضي الليل نائماً في وسط الدخّان وبين الحيوانات، لكنه لم يبدِ أي اكتراث تجاه ذلك. وكان رأينا أن لديه عادات متفردة ومختلفة كلياً عن عادات الأشخاص الغربيين الذين عرفناهم. إذ لم تكن لديه مطالب بخصوص الأطعمة. كما أنه لم يتذمر قط من أحوال الطقس. كان يأكل أي شيء تضعه له أمي وينام إلى جوارنا وسط الدخان وكأنه منّا. وبفضل سلوك دكتور جريغ الدمث وصدقه الدائم، فقد أحببناه أنا ووالداي كثيراً".

وذات مساء، وبعد أن وضع زعيم القرية في فمه مضغة التبغ الأولى بعد وجبة العشاء، كشف له مورتنسون خجلاً عن قصة اختطافه. بصق الحاج علي مضغة التبغ التي كان يلوكها إلى النار لكي يكون ما سيقوله مسموعاً بشكل واضح وقال مؤنباً "ذهبت بمفردك! لم تلجأ إلى حماية زعيم القرية! أريد منك أن تتعلم مني درساً واحداً لا غير، لا تذهب أبداً إلى أي مكان في الباكستان بمفردك.أبداً، أبداً! أتعدني بذلك؟!".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

"أعدك". أجابه مورتنسون، يزيد من حمولة العهود التي جعله المخضرمون من الرجال يقطعها على نفسه.

قطع الحاج علي مضغة أخرى من التبغ ووضعها في فمه وراح يلوكها وهو يفكر. ثم سأل: "أين تنوي أن تبني مدرستك القادمة؟".

"كنت أنوي السفر إلى وادي هاش لأزور بعض القرى وأستكشف من...".

قاطعه الحاج علي قائلاً: "أتسمح لي بأن أسدي لك النصح مرة أخرى؟".

"بالطبع".

"لم لا تترك الأمر لنا؟ سوف أدعو شيوخ برالدو جميعهم إلى اجتماع لاستكشاف القرية المستعدة للتبرع بالأرض وباليد العاملة. وبهذا، لن تعود مضطراً لأن تصفّق بجناحيك كغراب فوق أراضي باكستان كلها، تلتقط طعامك هنا وهناك" واستغرق الحاج علي بالضحك.

"ومرة أخرى، لقنَّ مسنّ بلطي أمّي رجلاً من الغرب درساً عن أفضل السبل لتحسين بلاده التي يتهمها العالم بالتخلف. ومنذ ذلك الحين وفي المدارس التي بنيتها جميعها، وضعت نصح الحاج علي بين عيني وتوسعت بأناة من قرية إلى أخرى ومن وادٍ إلى وادٍ، أذهب إلى حيث وطدنا علاقتنا وأقلعت عن التقافز بين أمكنة لا صلات لي فيها، كما سبق لي وأن فعلت في وزيرستان".

عند أوائل شهر كانون الثاني، كانت نوافذ مدرسة كورف جاهزة وسُبّورات الصفوف الأربعة معلّقة، ولم يتبق سوى تثبيت ألواح السقف الحديدية في مكانها وكان مورتنسون يحمل معه علبة الإسعافات الأولية كيفما تحرك، لأن ألواح الحديد تلك لها حواف حادة كنصل المنشار، وتتطاير كلما هبت الرياح الآتية من الدهليز

الجبلي وتسببت بالكثير من الحوادث والإصابات التي كان عليه أن يعالجها على الفور.

سمع مورتنسون صوت إبراهيم، أحد عمال البناء، يناديه كي ينزل من على السقف. تفحص مورتنسون ذلك الرجل الوسيم متين البنية بحثاً عن أي إصابة لكن إبراهيم أمسكه من رسغه وهو يقول بقلق "إنها زوجتي يا سيد جريغ، إنها ليست على ما يرام".

كان إبراهيم يملك دكان البقالة الوحيد في كورف، وهو عبارة عن غرفة بسيطة ملحقة بالمنزل يبتاع منه أهل القرية الشاي والصابون والسجائر وحاجيات أخرى. دخل مورتنسون إلى الاسطبل الذي يقع تحت منزل إبراهيم ليجد زوجته رقية مستلقية فوق فراش من القش يسبح في الدماء، تحيط بها الخراف وبقية نساء الأسرة. أخبروه بأن رقية أنجبت مولودة منذ يومين لكنها لم تتعافَ من آثار الولادة بعد. طلب مورتنسون الإذن من إبراهيم وفحص نبضها. "رائحة اللحم الفاسد كانت تفوح في المكان، ورقية كان وجهها شاحباً وغائبة عن الوعي لأن مشيمة الجنين لم يلفظها الرحم بعد الولادة وباتت على وشك الموت جراء التسمم".

شقيقة رقية الهلعة وضعت الطفلة بين يدي مورتنسون لأن الأسرة التي يئست من حالة رقية تريد أن تنقذ ابنتها.

ولم يكن حال الوليدة بالأفضل لأنها كانت غائبة عن الوعي وتوشك أن تموت بدورها. ويقول مورتنسون "إرضاع الطفل ينبه رحم الأم ويحرضه على التخلص من المشيمة. ولذلك فقد ألححت عليهن أن ترضع الأم طفلتها وأعطيت رقية دواءاً مضاداً للالتهاب يخرجها من الغيبوبة. بدأت الطفلة تسترد قوتها، لكن رقية التي استفاقت من سباتها كانت ما تزال تئن من الألم".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

"كنت أعرف ما علي أن أفعله لكنني قلقت حول ردّة فعل إبراهيم" ذلك الرجل كان من أكثر الحمالين انفتاحاً ويصفف شعره الطويل ويبقي لحيته حليقة على طراز الرجال الأجانب الذين عمل معهم، لكنه مازال رجلاً بلطياً. شرح له مورتنسون بتأنّ أنّ عليه أن يدخل يده داخل المنطقة الحساسة لزوجة إبراهيم كي يستخرج المخلفات التي تبقيها مريضة.

فشدّ إبراهيم على كتف مروتنسون بمودة وطلب منه أن يقوم بكل ما يلزم كي ينقذ حياتها. وكان إبراهيم يرفع مصباح الكيروسين بيده عندما غسل مورتنسون يديه بالمياه الساخنة ثم وضع يده داخل رقية وحررها من المشيمة المهترئة.

وفي صباح اليوم التالي، شاهد مورتنسون من فوق سطح المدرسة رقية وهي تمشي في شوارع القرية تحتضن ابنتها التي تعافت وتناجيها.

"كنت سعيداً للغاية لأنني استطعت أن أنقذ عائلة إبراهيم. ولكن الأكثر خطورة أنه عندما يسمح رجل بلطي لشخص أجنبي، أي كافر بنظرهم، أن يقوم بتماس جسدي مباشر مع زوجته ففي ذلك تجاوز لا يصدق للمحرمات. وثقة أولئك الناس المفرطة بي أخجلت تواضعي إلى حدٍ لا يوصف".

ومنذ ذلك اليوم، لاحظ مورتنسون أن نساء كورف يرسمن حلقات في الهواء بأذرعهن كلما مرّ بمنازلهن كي يباركن خطواته.

وبعد ظهيرة العاشر من شهر كانون الثاني عام 1996، جلس مورتنسون القرفصاء فوق سطح مدرسة كورف محاطاً بتواها وحسين وطاقم العمل المبتهج ليدق المسمار الأخير في المبنى الذي أصبح جاهزاً مع تحليق بواكير ندف الثلج فوق أصابعه المحمرّة المتشققة. هلل لهم الحاج علي من الأسفل قائلاً بابتسامة عريضة "كنت أدعو الله تعالى أن يؤخر هطول الثلج حتى تنتهوا من العمل. وقد استجاب الحكيم القدير لدعائي". والآن اهبطوا إلي كي نتناول الشاي معاً.

عند ذلك المساء استنار الحاج علي بالضوء الآتي من نـار المـدفأة يخرج من داخل خزنته معدات البناء التي أحضرها كلها مورتنسون مـع دفتر المحاسبة الرسمي. بـدأ مورتنـسون يتـصفح الـدفتر وذهـل أمـام الحسابات المدرجة بإتقان على كل الصفحات. إنـه إثبـات يـستطيع أن يضعه أمام عيني هويرني بافتخار "القرية قـدمت كـشف حـساب دقيـق لكل روبية أنفقت على المدرسة، فقـد قـاموا بجمـع ثمـن كـل أجـرة ومسمار وكل لوح خشبي مع الأجور الـتي سـددت للعمـال. بواسـطة العمليـات الحـسابية البريطانيـة القديمـة الـتي كانـت سـائدة في زمـن الاستعمار وبدقة متناهية أعترف بأنني أعجز عنها".

في أسفل وادي برالدو كان مورتنسون متجهاً إلى سكاردو ثم إسلام آباد، ثم إلى بيته داخل سيارة جيب تحاول أن تـشّق طريقهـا زحفـاً في العاصفة الثلجية التي أعلنت بصراحة أن الشتاء قد حلّ على كـاراكورام بكامل عتاده، بينما كان السائق المسن ذو العين الكمداء يمد يده مراراً لكي ينزع الجليد الذي يحجب عنه الرؤية عن الزجاج الأمامي المفتقـر إلى مساحات. وفي كلّ مرة يخرج فيها الـسائق يـده مـن نافـذة سـيارة الجيب التي كانت تنزلق فوق الحيد المتجلد المعلق فوق علـو شـاهق من الأودية المكسوة بالثلج. كـان الركـاب يتـشبثون ببعـضهم الـبعض ويتضرعون إلى الله بدعوات واجفة بأن ينجيهم من هذه العاصفة.

الثلج الذي كان يعصف بسرعة خمـسين مـيلاً في الـساعة حجـب الطريـق عــن أنظـار مورتنـسون، فتـشبث بمقـود سـيارته بكلتـا يديـه الكبيرتين يحاول أن يبقيها ضمن نطاق الطريق الإسفلتية.

أودع هويرني في المستشفى في إيـداهو والمـسافة مـن منزلـه إلى هناك لا تستغرق أكثر من سبع سـاعات. غـادر مورتنـسون منزلـه منـذ اثنتي عشرة ساعة حـين كانـت نـدف خفيفـة مـن الـثلج تتـساقط عـبر


https://telegram.me/maktabatbaghdad

أغصان الشجيرات.أما الآن وقد بلغت الساعة العاشرة مساءً فهم في قلب عاصفة ثلجية بلغت أوجها وما زالت مسافة سبعين ميلاً تفصلهم عن وجهتهم.

ألقى مورتنسون نظرة خاطفة على الكرسي الصغير المثبت على المقعد الخلفي الذي كانت أميره نائمة فيه، وقال لنفسه: "مخاطرتك بنفسك خلال العواصف الثلجية في بالتستان كانت شأناً يخصك وحدك، أما الآن فأنت تجرجر معك زوجتك وطفلتك في أمكنة مقفرة يكسوها الثلج وتغزوها العواصف فقط لكي تسلم صورة فوتوغرافية إلى رجل يحتضر، وذلك تصرف مشين خصوصاً أن موقع الحادث الذي لقي فيه والد تارا مصرعه لا يبعد سوى بضعة أميال.

وعندما استطاع مورتنسون أن يميز حافة الطريق، ركن سيارته تحت ستار لوحة إعلانية موجهاً خلفيتها نحو الرياح وانتظر هدوء العاصفة. لقد نسي أن يضيف مضاداً للتجمد إلى وقود السيارة في غمار لهفته للوصول إلى هويرني قبل فوات الأوان، وهذا يعني أنه لا يستطيع أن يطفئ محرك السيارة لأنه قد لا يعمل من جديد. وقبع لمدة ساعتين يراقب بعين تارا وأميرة المستغرقتين في النوم، وعينه الأخرى على مؤشر الوقود، حتى هدأت العاصفة إلى درجة تسمح لهم باستئناف المسير.

أودع مورتنسون زوجته وابنته الناعستين في منزل هويرني، ثم استدل على المستشفى الذي نُقل إليه، والذي كان عبارة عن مبنى فيه ثماني غرف ومخصص لتجبير كسور السياح الوافدين لممارسة رياضة التزلج على الثلج. وبما أن موسم التزلج لم يحن بعد، فقد كانت سبع منها فارغة. اجتاز مورتنسون على أطراف أصابعه الممرضة الليلية الغافية فوق طاولتها باتجاه الرواق المضيء الذي يفضي نحو الجهة اليمنى.كانت الساعة الثانية صباحاً، وهويرني كان جالساً في سريره.

"لقد تأخرت من جديد".

وقف مورتنسون عند الباب بارتباك وقد أذهله التفاقم السريع لوضع هويرني فقد ذوى ذلك الوجه الممتلئ حتى بانت عظامه، وشعر مورتنسون بأنه يتحدث إلى جمجمة وهو يضع يده على كتف هويرني ويسأله: "كيف حالك يا جان؟".

"هل أحضرت تلك الصورة اللعينة؟".

وضع مورتنسون حقيبته برفق عند ساقي هويرني الهشتين، ساقيّ متسلق الجبال العتيد اللتين صعدتا به في جولة فوق أعالي جبال التيبت منذ عام واحد فقط، ووضع مغلفاً بين يديه المعرورقتين وأخذ يراقب وجهه وهو يفتح المغلف.

أخرج جان هويرني الصورة الكبيرة التي التقطها مورتنسون وأمسكها بيديه المرتجفتين يحدق بإمعان في الصورة الفوتوغرافية لمدرسة كورف وهتف بإعجاب: "شيء رائع" لدى رؤيته للمبنى الراسخ والزخارف الخشبية ذات اللون القرمزي. ومر بأصابعه على رتل فيه سبعون تلميذاً، يرتدون ملابس رثّة ويبتسمون بسعادة لأنهم على وشك أن يباشروا تعليمهم النظامي داخل ذلك المبنى.

التقط هويرني سماعة الهاتف واستدعى الممرضة وطلب منها أن تحضر له مطرقة ومسماراً سألته بصوت نائم: "وما حاجتك إليهما أيها الوسيم؟".

"لكي أعلق صورة المدرسة التي أقوم ببنائها في باكستان".

أجابته بتلك النبرة اللطيفة التي يستعملونها عادة مع المرضى الميؤوس منهم: "اعذرني لكن القوانين لا تسمح بذلك".

انتصب هويرني في جلسته ونبح في وجهها: "سأشتري المشفى بأكمله إن لزم الأمر. هيا اذهبي وأحضري تلك المطرقة اللعينة".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

عادت الممرضة المذعورة بعد قليل وفي يدها خرازة ورق: "لم أجد أداة أقوى". وأصدر هويرني الامر: "انزع تلك عن الحائط وضع هذه بدلاً عنها".

مزّق مورتنسون عن الحائط صورة بالألوان المائية تمثّل قطتين تلعبان بكرة من الصوف ونزع المسمار ودقّه من جديد وعلّق الصورة بحيث تكون أمام عيني هويرني الذي لم يكترث للجصِّ المتطاير من الجدار.

وعندما استدار نحو هويرني من جديد رآه منكباً على الهاتف يطلب مكالمة دولية إلى سويسرا كي يتحدث إلى صديق له منذ أيام الطفولة يعيش في جنيف: "مرحباً، هذا أنا جان. لقد بنيت مدرسة في كاراكورام في الهيملايا" قالها بافتخار وتباهٍ "فما الذي فعلته أنت خلال السنوات الخمسين المنصرمة؟".

كان هويرني يملك عدة منازل في سويسرا وفي أمكنة أخرى، لكنه اختار أن يمضي أيامه الأخيرة ويفارق الحياة في سياتل، وعند حلول عيد الميلاد، أودِع هويرني مستشفىٍ يقع فوق هضبة سياتل ومن هناك، وعندما يكون الجوّ صحواً، كان يقف وراء نافذة الغرفة المخصصة له ليتأمل خليج إليوت الممتد في الأسفل والحواف الناتئة لشبه جزيرة أولمبيك. لكن وضعه الصحي الذي كان يتدهور بسرعة جعله يقضي معظم الوقت يحدق في الوثائق القانونية التي يبقيها دائماً إلى جانبه فوق طاولة صغيرة.

يقول مورتنسون: "لقد أمضى هويرني الأسابيع الأخيرة من حياته يجري تعديلا على وصيته. فإذا أغضبه أحدهم، ولا بد أن يتواجد ذلك الأحدهم الذي يثير غضب هويرني، استل قلمه الأسود الثخين وشطب اسمه من الوصية، ومن ثم يستدعي المحامي الموكل بأملاكه في أي وقت وأي ساعة ويأمره بأن يحرمه من الميراث.

للمرة الأخيرة في حياته قام مورتنسون بدور الممرض المقيم كي يعتني بهويرني، فترك عائلته في المنزل، وظلّ إلى جانب هويرني على مدار الساعة ليغسله ويبدل له النونيات ويضبط جهاز القسطرة وهو يشعر بالسعادة لأنه يملك المهارات اللازمة ليجعل أيام هويرني الأخيرة مريحة.

وضع مورتنسون صورة فوتوغرافية أخرى لمدرسة كورف داخل إطار وعلّقها فوق سرير هويرني في المستشفى. كما أحضر جهاز تصوير الفيديو الذي أهداه إياه قبل رحلته الأخيرة إلى الباكستان وكبل توصيل لجهاز التلفاز وعرض له اللقطات التي أخذها للحياة اليومية في قرية كورف هويرني لم يتقبل وضعه وكان غاضباً للغاية تجاه فكرة موته، لكن الاستلقاء في السرير وهو يمسك بيد مورتنسون ومشاهدة أطفال كورف ينشدون أهزوجة بلكنتهم الانكليزية الركيكة، كانت تجعل حنقه يتلاشى.

اعتصر هويرني يد مورتنسون وقال "أحبك وكأنك ولدي" وفاحت من بين أنفاسه تلك الرائحة الحلوة التي تنبعث من مسكنات الألم لرجل يحتضر، وعرفت أن أيامه باتت معدودة.

وقد قالت أرملته جينفر ويلسون: "هويرني كان ذائع الصيت بسبب إنجازاته العلمية. أما أنا فأعلم أنه أولى الاهتمام والرعاية نفسيهما لتلك المدرسة الصغيرة في كورف التي أعطته الإحساس بأنه سيخلف وراءه إنجازاً عظيماً".

كما أراد هويرني أن يطمئن على أن مؤسسة آسيا الوسطى ستبقى قائمة على أرضية صلبة شأنها شأن مدرسة كورف فتبرع للمؤسسة بمبلغ مليون دولار قبل أن يدخل المستشفى.

وفي اليوم الأول من سنة 1997، عاد مورتنسون من كافيتريا المستشفى ليجد هويرني قد ارتدى سترة فضفاضة من الكشمير وبنطالاً، ويحاول أن ينزع إبرة المصل من ساعده "علي أن أذهب إلى منزلي لبعض الوقت. استدع سيارة ليموزين".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

أقنع مورتنسون الطاقم الطبّي الواجف أن يسمحوا لهويرني بالمغادرة على كفالته وطلب سيارة ليموزين سوداء اللون أقلتهما إلى منزل هويرني الواقع عند ضفاف بحيرة واشنطن. كان هويرني خائر القوى ولا يستطيع أن يستعمل الهاتف ففتح مفكرة مغلفة بالجلد وأعطاه عناوين لأصدقاء قدامى راحلين وطلب منه أن يرسل إليهم باقات من الزهور.

وبعد أن اطمأن إلى أن الباقات جميعها سوف ترسل، قال لمورتنسون: "حسناً، يمكنني أن أموت الآن. عد بي إلى المستشفى".

وبتاريخ الثاني عشر من شهر كانون الثاني عام 1997، انتهت الحياة الإشكالية الطويلة لذلك الحالم الذي ساهم في تأسيس صناعة الإلكترونيات ومؤسسة آسيا الوسطى. وبعد ذلك بحوالي شهر ابتاع مورتنسون بذلة فخمة للمرة الأولى في حياته وألقى خطبة تأبين أمام حشد يتألف من عائلة هويرني وزملاء سابقين اجتمعوا من أجل إقامة قدّاس جنائزي عن روح هويرني أمام المصلى القائم في قلب المركز الثقافي الذي أوجده هويرني.

وخاطب جمهور المعزين قائلاً: "امتلك جان هويرني البصيرة النافذة التي ستقودنا إلى القرن الحادي والعشرين بواسطة أحدث التقنيات، لكنه امتلك أيضاً تلك الرؤيا النادرة التي جعلته يلتفت نحو الوراء ويبسط يده نحو ناس لم تتغير طريقة حياتهم منذ قرون".

# الفصل الخامس عشر

# مورتنسون يباشر العمل

"رقصات مياه الجداول هي التي تصقل الحصى
حتى الكمال وليست ضربات الإزميل"

طاغور

عند الساعة الثالثة صباحاً، وداخل مكتب مؤسسة آسيا الوسطى، والذي أسسه مورتنسون داخل غرفة كانت مخصصة للغسيل في قبو منزله، تلقى نبأ يفيد أن الزعيم الديني لـ تشابكو وهي قرية تقع في وادي برالدو، قد أصدر فتوى تقضي بهدر دم مورتنسون.

كان التوقيت يصادف بعد الظهر في سكاردو ومن هناك كان غلام بارفي يزعق بنبأ عبر الهاتف الذي دفع مورتنسون المال مقابل أن يصل إلى منزل الغلام.

جأر بارفي: "هذا الإمام لا يكترث بالإسلام، إنه رجل وضيع لا يهمه سوى المال ولا يحقّ له أن يصدر فتوى".

استطاع مورتنسون أن يستنتج من الضغينة التي تحملها كلمات بارفي أن للفتوى شأناً خطيراً، لكنه كان في منزله الواقع في النصف الآخر من الكرة الأرضية وهو يسند قدميه العاريتين فوق فتحات المدفأة باسترخاء يتأرجح بين النوم واليقظة، فوجد صعوبة في إعطاء الاهتمام الجدير بتطور مقلق كهذا.

سأل مورتنسون: "ألا يمكنك أن تذهب إليه وتسوي الأمر معه؟".



https://telegram.me/maktabatbaghdad

"عليك أن تحضر إلى هنا. إنه يرفض مقابلتي إن لم أذهب إليه بحقيبة محشوة بالروبيات. أتريدني أن أفعل ذلك؟".

" لم ندفع أية رشاوى من قبل ولن نبدأ بذلك الآن" اجابه مورتنسون وهو يكتم تثاؤبه كي لا يحرج مشاعر بارفي "علينا أن نجد إماماً سلطته أعلى. أتعرف أحداً؟".

"ذلك ممكن. سأتصل بك غداً في الوقت نفسه، أيناسبك ذلك؟".

"نعم يناسبني.إذهب برعاية الله".

"وأنت أيضاً، حفظك الله يا سيدي" وانتهت المكالمة

كان مورتنسون قد اضطّر للالتزام بروتين يومي فرضه فرق التوقيت البالغ ثلاث عشرة ساعة بين بلده وباكستان. إذ يأوي إلى الفراش عند الساعة التاسعة مساء بعد أن يجري اتصالاته (الصباحية) بالباكستان، ويستيقظ عند الساعة الثانية أو الثالثة فجراً لكي يتواصل مع الباكستان قبيل انتهاء ساعات العمل هناك.

لقد استغرقته إدارة مؤسسة آسيا الوسطى إلى درجة أن الساعات التي ينامها لا تتجاوز الخمس في الليلة الواحدة. صعد مورتنسون إلى المطبخ بخطى خفيفة وصنع إبريقاً من القهوة ثم عاد إلى القبو ليسطر أول رسالة الكترونية لذلك اليوم.

"إلى: أعضاء مجلس إدارة مؤسسة آسيا الوسطى جميعهم.

الموضوع: فتوى صادرة بحق جريغ مورتنسون.

النص: تحياتي للجميع. لقد أنهيت لتوي مكالمة هاتفية مع غلام بارفي، المدير الجديد لمشروع مؤسسة لآسيا الوسطى في الباكستان، ويقول لكم شكراً وأن هاتفه يعمل بشكل ممتازا بارفي قال: إنّ زعيماً دينياً لإحدى القرى يعارض مشروعنا الهادف لتعليم الإناث، قد أصدر بحقي فتوى في محاولة منه لمنع مؤسسة آسيا

الوسطى من بناء مدارس أخرى في الباكستان. لمعلوماتكم، الفتوى عبارة عن حكم ديني. صحيح أن الباكستان يحكمها القانون المدني، لكن هناك أحكام الشريعة وهو نظام قائم على القوانين الإسلامية مثل ذلك السائد في إيران. وفي القرى الجبلية الصغيرة التي نعمل فيها، فإن الإمام حتى وإن كان خسيساً، يتمتع بسلطة تفوق سلطة الحكومة الباكستانية نفسها. لقد سألني بارفي عن إمكانية رشوته لكنني رفضت الفكرة بشكل قاطع. في الأحوال جميعها، ذلك الرجل قادر على أن يسبب لنا متاعب جمة، وقد طلبت من بارفي أن يبحث عن إمام آخر سطوته أعلى ويستطيع أن يتغلب عليه وسأعلمكم بكل ما يستجد. لكن هذا يعني أنني قد أضطر إلى العودة إلى هناك عما قريب إن شاء الله.

سلام

جريغ

كان جان هويرني قد ترك لمورتنسون في وصيته مبلغ 23000 دولار وهو الرقم الذي ارتأى ذلك العالم العجوز أن صديقه الشاب قد أنفقه من ماله الشخصي في الباكستان. كما ترك له وضعاً شائكاً، أي أن يكون مسؤولاً عن منظومات خيرية قدم لها دعماً مادياً يعادل مليون دولار. طلب مورتنسون من أرملة هويرني جينفر ويلسون أن تنضم إلى عضوية مجلس الإدارة الذي كان يتشكل حديثاً، إلى جانب عضوية صديقه القديم توم فوجن المتسلق السابق وطبيب الأمراض النفسية الذي كان خير معين لمورتنسون خلال الفترة العصيبة التي مرّ بها أثناء عمله في المستشفى. كما وافق الدكتور اندرو ماركوس، رئيس مجلس الإدارة في دائرة العلوم الأرضية بولاية مونتانا على الانضمام إليهم لكن الإضافة المدهشة حقاً تمثلت في عضوية جوليا بيرجمان قريبة جينيفر ويلسون.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

في شــهر تــشرين الأول عــام 1996، كانــت بيرجمــان تجــوب الباكستان برفقة مجموعة من الأصدقاء على متن حوّامة ضخمة روسـية الصنع على أطراف سـكاردو لإلقـاء نظـرة علـى "كيـه2"، وفي طريـق العودة، اقترح عليهم قائد الطائرة أن يزوروا قرية نموذجية وهبط بهـم قرب كورف. وعندما عرف صبية القرية أن بيرجمـان أميركيـة الجنـسية أمسكوا بيدها وقادوها نحو موقع سياحي غريب من نوعه والـذي كـان عبارة عن مبنى متين أصفر اللون بناه اميركي آخر فوق موقع لم يعـرف أي مبنىً آخر من قبل في قرية صغيرة تـدعى كـورف تقـول بيرجمـان: "شاهدت أمام مبنى المدرسة نصباً مغروساً في الأرض يقول أنها عطية من جان هويرني، زوج قريبتي جينيفر. كنت قد سمعت منـها أن جـان يحاول أن يبني مدرسة في مكان ما في الهيملايـا، ولكـن أن تهـبط بي الطائرة تحديداً في ذلك المكان ضمن بقعة من الهملايا الممتـدة آلاف الأميال، لم يكن محض مصادفة. لست متدينة بطبعي، لكنني شـعرت أن قوة خفية أرسلتني إلى هنا لهدف معين وانخرطتُ بالبكاء".

بعد ذلك ببضعة أشـهر، اقتربـت بيرجمـان مـن مورتنـسون أثنـاء القداس الجنائزي الذي أقيم على روح هويرني لتعانق بحميمية الرجـل الذي التقت به للتو وتقول له "لقد كنت هناك، لقد رأيت المدرسة!".

أجابها مورتنسون وهو يهز رأسه بتعجب: "أنت إذا السيدة الـشقراء التي أتت على متن المروحية! لقد سمعت بأن سيدة أجنبية أتت لزيـارة القرية لكنني لم أصدّق".

"إنهـا رسـالة إلي ومـا حـدث كـان مقـدراً، وأنـا أريـد أن أقـدم المساعدة، فماذا أستطيع أن أفعل؟".

أجاب مورتنسون: "إنـني بحاجـة إلى كتـب لأنـشئ مكتبـة داخـل مدرسة كورف".

وعاود بيرجمان حس القضاء والقدر ذاته وهي تقول: "وأنا أعمل خبيرة مكتبات".

وبعد أن أرسل مورتنسون الرسالة الإلكترونية إلى بيرجمان وباقي أعضاء مجلس الإدارة، كتب مورتنسون رسائل إلى وزير في الحكومة الباكستانية كان قد التقاه وأبدى استعداده للتعاون معه، وإلى محمد نياز مدير التعليم في سكاردو يسألهما النصح بخصوص الفتوى الصادرة بحقه. ثم انحنى نحو أكداس الكتب المتكئة على الجدران وفتش بينها حتى وجد كتاباً يبحث في تطبيق القوانين الإسلامية على المجتمعات الحديثة مترجم عن الفارسية، جلس يقرؤه بإمعان تحت النور الخافت الذي يعلو طاولة مكتبه ويزدرد القهوة كوباً بعد الآخر حتى سمع وقع خطى تارا على أرضية المطبخ من فوقه.

كانت تارا جالسة إلى طاولة المطبخ ترضع أميرة، وأمامها كوب طويل من القهوة، وكم كره مورتنسون أن يعكر صفو الجلسة بما لديه من أنباء، لكنه لم يكن يملك إلا أن يطبع على خدها قبلة الصباح ويعلن النبأ "عليّ أن أذهب إلى هناك بأسرع مما كنا نتوقع".

في صقيع صباح من شهر آذار في سكاردو، اجتمع مورتنسون مع مؤيديه لتناول الشاي في بهو فندق الهندوس، الذي ناسب مورتنسون إلى حدٍ بعيد. فبعكس بقية المنتجعات السياحية القليلة المتوفرة والمخبوءة في أحضان مناطق ريفية وديعة، يقبع هذا الفندق النظيف زهيد الأسعار دون تكلّف على قارعة الطريق الرئيسي الذي تمر من فوقه الشاحنات عائدة إلى إسلام آباد بين مكاتب تشانغزي ومحطة للوقود.

في ذلك البهو الذي يشكل المقر غير الرسمي لاجتماعات مورتنسون هناك، وتحت الصور التي وضعها متسلقون سبق لهم أن مروا بالمكان، كانت توجد طاولتان متطاولتان من الخشب السميك


https://telegram.me/maktabatbaghdad

تناسبان تماماً جلسات الشاي المديدة اللازمة لإجراء أي صفقة هناك.وفي ذلك الصباح، جلس ثمانية رجال من مؤيدي مورتنسون يضعون المربى الصيني الفاخر فوق شرحات الخبز الطازج ويتناولون الشاي بالحليب كما يحبه بارفي، اي محلى إلى درجة الغثيان، بينما كان مورتنسون يتعجب من قدرته على استدعاء هؤلاء الرجال كلهم من أوديتهم النائية في شمال الباكستان حيث لا يوجد هواتف.فإرسال ورقة مكتوبة مع سيارة جيب تعني بأن المرسل إليه قد ياتي قبل مرور أسبوع لكن عدم وصول الهواتف الجوالة إلى تلك المناطق بعد يجعل من ذلك الوسيلة الوحيدة لقهر المسافات في تلك البقاع الوعرة.

قطع مظفر مسافة مئة ميل قادماً من وادي هش في الشرق يرافقه أبو رزاق الذي يتمتع بشهرة واسعة كحمّال وطباخ كان يعمل لدى المجموعات الاستكشافية فيما سبق، وجلسا إلى المائدة العامرة إلى جانب الحاج علي وتواها اللذين كانا يلتهمان طعام الإفطار ويشعران بالسعادة لاقتناص هذا العذر المقبول للابتعاد عن وادي برالدو الغارق في صقيع ثلوج الشتاء. أما فيصل بيج فقد وصل ذلك الصباح بعد أن قطع مسافة تزيد عن مئتي ميل من وادي تشاريرسون الوعر الواقع عند الحدود مع افغانستان وكان مورتنسون قد وصل منذ يومين بعد رحلة بالحافلة على طريق كاراكورام العام استمرت ثماني وأربعين ساعة، يرافقه آخر دفعة تنضم إلى عصبته المتنافرة وهو رجل من راولبندي يدعى سليمان منهاس يبلغ من العمر ثمانية وأربعين عاماً، يعمل سائق تكسي. كان سليمان قد أوصل مورتنسون من مطار إسلام آباد بعد انتهاء محنة اختطافه. وفي الطريق من المطار إلى الفندق، روى له مورتنسون تفاصيل احتجازه في وزيرستان، فاستشاط سليمان غضباً لأن مواطنيه وضعوا ضيفاً في مأزق ينافي أصول الضيافة وعيّن نفسه ملاكاً حارساً لمورتنسون وباشر مهمته الجديدة على الفور.فأقنع مورتنسون أن يقيم في

دار للضيافة زهيدة التكلفة بدلاً من العودة إلى فندق خيبان لأن المنطقة المحيطة به أصبحت غير آمنة بسبب التفجيرات الطائفية التي تتعرض لها أيام الجمعة بعد الصلاة وتبثّ الرعب في الجوار.

وكان سليمان يعود مورتنسون يومياً لمراقبة فترة النقاهة التي يمر بها، ويحضر له يومياً أكياساً من الحلوى والأدوية للقضاء على الجراثيم والطفيليات التي التقطها في وزيرستان، ثم يصطحبه لتناول الشواء في مطعمه المفضل القائم على أحد الأرصفة. وفي الطريق إلى المطار عائداً إلى منزله، أوقف السيارة حاجز للشرطة لكن سليمان تمكّن من نيل إعجاب مورتنسون باللباقة المعسولة التي أقنع بها العناصر عند الحاجز بمتابعة الطريق فعرض عليه أن يعمل لدى مؤسسة آسيا الوسطى بصفة (مفاوض).

وها هو الآن جالس في بهو الفندق الهندوسي، ترتسم على وجهه ابتسامة البوذا العارف ويصالب ذراعيه فوق كرشٍ آخذٍ بالتضخم ويكرّم وفادة الحضور بسرد الوقائع التي تعترض سيارة أجرة داخل مدينة كبرى، وهو ينفث دخان سجائر المالبورو التي أحضرها له مورتنسون من أميركا. وبما أنه ينتمي إلى الغالبية البنجابية المقيمة في الباكستان، فلم يسبق له أن زار المناطق الجبلية واسترسل في الثرثرة سعيداً بوجود هذا الجمهور من المستمتعين الذين يعيشون على حافة خارطة العالم ويجيدون اللغة الأوردية إلى جانب لغتهم المحلية.

مرّ من قرب الفندق محمد علي تشانغزي وهو يلبس الرداء الأبيض الذي يرتديه الرجال المسلمون عند الذهاب إلى المسجد لأداء الصلاة نظر إليه أبو رزاق عبرالزجاج وقد ارتسمت ابتسامة ماكرة تحت أنفه المعقوف ومال نحو الرجال وأخبرهم عن الشائعة التي تتحدث عن مغامرة لتشانغزي مع شقيقتين ألمانيتين حضرتا إلى سكاردو ضمن المجموعة الاستكشافية نفسها.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

علّق سليمان باللغة الأوردية قائلاً: "نعم إنه رجل ورع كما تشاهدون" ثم هزّ رأسه مؤكداً وأضاف: "لا بد أنه يصلي ست مرات في اليوم ويقوم بغسل هذا ست مرات في اليوم أيضاً" قالها وهو يشير إلى حضنه وانفجر الجميع في القهقهة، الشيء الذي أكد مورتنسون أن حدسه كان سليماً في اختياره لهذا الحشد غير المتجانس.

فمظفر وبقية رجال "كانوا من الإسلام الشيعة ومعهم غلام بارفي ومحمد معلم البناء في سكاردو. أما سليمان وأبو رزاق اللاجئ من كشمير التي تحتلها الهند فهم إسلام سنّة، وهناك أيضاً حارسه المهيب الجبار فيصل بيج الذي ينتمي إلى الطائفة الإسماعيلية". جلسنا جميعاً هناك نضحك معاً ونحتسي الشاي بوئام. أنا الكافر في الوسط يحيط بي ممثلون لطوائف الإسلام الثلاث التي تحارب بعضها البعض. وقلت لنفسي إذا استطعنا أن نحافظ على هذا الانسجام، فلن يتمكن أي عائق من الوقوف في وجهنا. المبدأ البريطاني يقول: "فرق تسد" أما أنا فأقول: "وحّد تسد".

تحدث غلام بارفي إلى المجموعة بهدوء بعد أن تلاشى غضبه العارم بخصوص الفتوى وبدأ يبحث في حل علمي، وأخبر مورتنسون أنه حدد له موعداً للقاء سيد عباس ريزقي الزعيم الديني للشيعة في شمال الباكستان "عباس رجل صالح إلا أنه لا يثق بالأجانب ولكنه عندما يلمس احترامك للدين الإسلامي ولطقوسنا. سيكون لنا خير عون إن شاء الله".

كما قال بارفي أن الشيخ محمد، وهو داعية إسلامي وخصم للزعيم الذي أصدر الفتوى قد قام مع ولده مهدي علي بتقديم عريضة يلتمس فيها من مؤسسة آسيا الوسطى بناء مدرسة في قريته هيماسيل. كما وجه رسالة إلى مجلس الشيعة الأعلى في قُمّ يطلب فيها من زعماء إيران الدينين، الذين يمثلون السلطة المطلقة الشيعة في العالم جميعهم. أن يبتوا في مدى شرعية الفتوى.

وأعلن الحاج علي أنه اجتمع بزعماء القرى في أنحاء برالدو كلها واختاروا موقع بناء المدرسة التالية في قرية مدقعة الفقر تدعى باخورا تقع في وادي برالدو الأدنى ويتزعمها صديقه الحاج موسين.

أما محمد معلم البناء الذي أدى عمله في مدرسة كورف بإتقان مدهش، فقد طلب الموافقة على بناء مدرسة في قريته الواقعة على أطراف سكاردو قائلاً: إن أفراد عائلته كبيرة العدد جميعهم عمال بناء مهرة ويمكن الاعتماد عليهم لإنجاز العمل بسرعة.

وتخيل مورتنسون كم كانت هذه الجلسة ستسعد هويرني لو أنه كان موجوداً، ورنت في أذنيه من جديد نصيحة هويرني ألا يحمل الضغينة لأحد أثناء الصراع الذي نشب بين القرى حين كان يستعد لبناء المدرسة: "أطفال تلك القرى التي حاولت أن تقدم الرشاوى هم أيضاً بحاجة إلى المدرسة".

ثم تذكر رعاة الماعز الصغار الذين قام بتعليمهم في ذلك اليوم عندما لاذ بالفرار من مأدبة تشانغزي واللهفة التي كانوا يتجرعون فيها المعرفة رغم سخافة الدرس الذي أعطاهم إياه عن كلمة (أنف) باللغة الانكليزية، فاقترح على المجموعة أن يباشروا بناء مدرسة في كوادرو قرية تشانغزي حيث تبرّع زعماء القرية بالموقع اللازم.

بارفي، الذي كان يطرق المنضدة بطرف قلمه بعد أن دون الملاحظات اللازمة، سأله قائلاً: "فإذاً يا دكتور جريغ، أي مدرسة سنبني هذا العام؟".

أجابه مورتنسون: "كلها إن شاء الله".

كان مورتنسون يشعر بأن إيقاع حياته يتسارع بشكل ملفت. فلديه الآن منزل وكلب وعائلة، كما بحث مع تارا احتمال إنجاب المزيد من الأطفال قبل أن يغادر. بنى مدرسة واحدة، تلقى تهديداً من إمام


https://telegram.me/maktabatbaghdad

مسجد ساخط أسس مجلس إدارة أميركي وجمع حوله في الباكستان موظفين أمين. يحمل خمسين الف دولار في حقيبته القماشية ولديه المزيد في المصرف. والإهمال والمعاناة التي يتعرض لها أطفال شمال الباكستان قد تفاقما حتى وصلا إلى قمم الجبال التي تحيط بسكاردو.وهناك تلك الفتوى المسلطة على رأسه مثل سيف قاطع والله وحده يعلم إن كانوا سيتركونه ينجز ما خطط له في الباكستان. إذاً، لقد آن الأوان أن يتحرك بكل ما لديه من طاقة.

مقابل مبلغ ثمانية وخمسين دولار، اشترى مورتنسون سيارة لها لون مركبات الجيش الأخضر عمرها عشرون عاماً ومخصصة لاجتياز الجبال الوعرة وتستطيع أن تقهر أي عقبة قد تعترض سبيله على جبال كاراكورام كما عين سائقاً رزيناً يدخن دون انقطاع ويدعى حسين. وقام حسين على الفور بشراء علبة من أصابع الديناميت وأودعها تحت المقعد كي يتمكنوا من تفجير أي انهيار صخري يمكن أن يسد أمامهم الطريق دون الحاجة إلى هدر الوقت بانتظار عمال الحكومة. وبرفقة بارفي ومحمد اللذين ساوما على الأسعار بلا هوادة، اشترى مورتنسون من تجار سكاردو كمية من اللوازم تكفي لحفر أساسات لثلاث مدارس حالما يذوب الجليد عن التربة وللمرة الثانية خلال حياة مورتنسون، لعبت محطة وقود أخرى دوراً محورياً في علاقته مع الدين الإسلامي. فبعد ظهيرة يوم دافئ من أيام شهر نيسان. وقف مورتنسون تحت رذاذ مطر خفيف منعش عند محطة للوقود ليلتقي بسيد عباس ريزفي. كان بارفي قد اقترح عليه أن يتم لقاؤهما الأول في مكان عام ريثما يبت الإمام في أمر هذا المارق وحدد هذا المكان المزدحم الذي يقع قرب فندق مورتنسون.

وصل عباس برفقة مساعدين شابين لهما لحى كثّة ووقفا إلى جانبيه متأهبين. عباس كان رجلا طويل القامة ونحيلاً، له لحية الداعية الشيعي المشذبة، ذلك الداعية التي ذاع صيته وتفوق على زملائه في مدرسة النجف في العراق، ويعتمر عمامة قاتمة السواد وملفوفة بإحكام حول جبهته. تأمل عباسُ بعينين فاحصتين الرجل الأميركي الضخم الذي يرتدي الزي الباكستاني من خلف عدستي نظارة قديمة الطراز ثم مدّ يده على قلبه وانحنى باحترام قائلاً بالبلطية: "السلام عليكم، إنه شرف كبير لي أن ألتقي بك يا سيد عباس. بارفي أخبرني الكثير عن حكمتك وعن عطفك على الفقراء".

يقول سيد عباس: "هناك بعض الأوربيين الذين يحضرون إلى باكستان وهدفهم تدمير الدين الإسلامي وكنت أخشى في البداية أن يكون دكتور جريغ واحداً منهم. لكنني نظرت إلى داخل قلبه في ذلك اليوم عند محطة الوقود وعرفت جوهره. ليس مسلماً لكنه رجل نبيل كرس حياته على تعليم الأطفال وقررت على الفور أن أقدم له كل ما أستطيعه من مساعدة".

لقد استغرق في الأمر أكثر من ثلاث سنوات من الأرق والإخفاق والتأجيل حتى نجح في تحويل مدرسة كورف من مجرد وعد إلى بنيان راسخ. أما الآن، فقد تعلم من أخطائه، ويملك أخيراً ما يكفي من المال لتحويل حلمه إلى واقع ملموس ورهن إشارته طاقم من الموظفين وجيش من المتطوعين يعمل بدأب ولهفة لدفع حياة الأطفال البلطيين نحو الأمام. وهكذا شيدت مؤسسة آسيا الوسطى تحت إدارة مورتنسون ثلاث مدارس خلال ثلاثة أشهر فقط.

محمد أيضاً كان صادقاً في وعده، إذ قام مع أفراد عائلته من البنائين بالانقضاض على العمل في قريتهم وشيدوا لأولادهم نسخة مطابقة


https://telegram.me/maktabatbaghdad

لمدرسة كورف خلال عشرة أسابيع وفي بقعة يستغرق فيها إنهاء بناء مدرسي سنوات عديدة وقد كان ذلك إنجازاً غير مسبوق. ورغم أن قريتهم لا يفصلها عن سكاردو أكثر من ثمانية أميال، فإن الحكومة لم تقدم لأطفالها أي قسط من التعليم. وبما أنهم غير قادرين على تسديد تكلفة وسائل المواصلات وأقساط المدارس الخاصة في سكاردو فقد كانت الأمية مصير أولادهم. لكن الاجتهاد الدؤوب المتواصل الذي دام فصلاً ربيعياً واحداً حوّل وجهة مستقبل الأطفال إلى الأبد.

وفي باخورا اغتنم الحاج موسين، صديق الحاج علي، الفرصة لمصلحة قريته، فأقنع ذلك الزعيم رجال باخورا ألا يقبلوا الذهاب إلى العمل حمالين للمجموعات الاستكشافية قبل الانتهاء من بناء المدرسة وهكذا استطاع أن يشكل فريقاً ضخماً يفيض بالحماسة من عمال غير متمرسين. فأتاهم زمان، وهو متعهد محلي رفض عرضاً للعمل قدمه له الجيش في سبيل أن يترأس العمال حتى شيدوا مدرسة من الحجر الصلب على شكل حرف U تظللها خميلة من أشجار الحور. يقول مورتنسون "ما فعله زمان لا يصدق. ففي قرية نائية منعزلة في شمال الباكستان، استطاع خلال اثني عشر أسبوعاً أن يبني مدرسة لا تستطيع أن تضاهيها المدارس التي يمكن أن تبنيها الحكومة الباكستانية في سنوات طويلة".

وفي كوادرو، قرية تشانغزي عقد زعماؤها العزم على بناء مدرسة متميزة فوقفوا لها قطعة تقع تماماً في ساحة القرية وقاموا بهدم بناء حجري يتألف من طابقين حتى تتربع المدرسة على عقار ثابت الملكية، وكما تجري الأمور عندما تتعلق بتشانغزي، فقد صنعت الزخارف بحيث تفوق الزخارف المعهودة، وحفروا أساساً يبلغ عمقه ستة أقدام، ورفعوا جدراناً حجرية مزدوجة، لأنهم صمموا أن مدرستهم ستظلّ صرحاً يشمخ في قلب القرية إلى الأبد.

أما مورتنسون، فقد مضى فصلي الربيع والصيف وهو يدور كدوران راقصي الدراويش في انحاء بالتستان كلها بسيارته الخضراء، يوصل مع طاقم عمله المواد التي تناقصت في مواقع البناء، ويأخذ محمد إلى أعلى برالدو ليضبط وضع سقف مدرسة باخورا المنحرف، وبين هذا وذاك، يسارع إلى ورشة النجارة في سكاردو يحثهم على الإسراع في صنع خمسمئة مقعد للطلاب كان قد طلبها.

عندما بات واضحاً أن مشاريع المدارس جميعها ستكتمل قبل الموعد المحدد طرح مورتنسون مجموعة جديدة من المشاريع الطموحة، وكان بارفي قد أخبر مورتنسون أن خمسين طالبة يدرسن في ظروف خانقة ضمن مدرسة تتألف من غرفة واحدة في قرية تقع على الضفة الجنوبية لنهر الهندوس. فاستعان بمواد البناء الفائضة عن حاجة مدارسه وأضاف غرفتين أخريين لتلك المدرسة.

وأثناء زيارته لـ"هيلده" قرية مظفر الواقعة في وادي هش التي وعد مورتنسون زعماءها أن يبني لها مدرسة في العام القادم، سمع مورتنسون أن مدرسة حكومية تقع في قرية مجاورة تدعى خانداي تعاني من أزمة، حيث يحاول جاهداً مدرس متفانٍ اسمه غلام أن يدير صفوفاً فيها اثنان وتسعون طالباً مع أنه لم يستلم رواتبه منذ أكثر من سنتين. ثار غضب مورتنسون وسدد لغلام رواتبه، وعين مدرسين آخرين كي يخفف من نصيب غلام من الدروس إلى حدٍ مقبول.

خلال ترحاله كان سيد عباس يسمع مئات البلطيين يمتدحون طباع مورتنسون ويتحدثون بحماسة عن المئات من أعمال الزكاة التي آتاها خلال المدة التي أمضاها بينهم، فأرسل سيد عباس رسولاً إلى فندق الهندوس يدعوه لزيارته في منزله.

جلس مورتنسون الذي رافقه بارفي إلى جانب الزعيم الديني


https://telegram.me/maktabatbaghdad

متربعين فوق أرضية غرفة الاستقبال في منزل سيد عباس المكسوة بسجاد فارسي فاخر، وجاء ولده ليقدم لهم الشاي الأخضر بفناجين وردية اللون من الخزف الصيني، والحلوى المرشوشة بالسكر فوق صينية من الخزف الأزرق المصقول مزخرفة برسوم طواحين هوائية.

أطلق سيد عباس زفرة عميقة ثم قال: "لقد تواصلت مع زعيم قرية تشابكو وطلبت منه أن يلغي الفتوى لكنه رفض. ذلك الرجل لا يتبع تعاليم الإسلام بما يمليه عليه عقله وهو يريد أن يطردك من الباكستان".

أجابه مورتنسون: "إن كنت تعتقد بأن ما أفعله ينافي الإسلام فقل لي أن أغادر الباكستان إلى الأبد وسأفعل".

"تابع عملك ولكن لا تقترب من تشابكو، لا أعتقد أن حياتك في خطر، لكنني لست متأكداً من ذلك" مدّ زعيم الشيعة الأعلى في الباكستان يده وناول مورتنسون مغلفاً. "ستجد بداخله رسالة تفيد بأنني أدعمك. وإن شاء الله سنكون عوناً لك مع بعض أئمة القرى الأخرى".

التف مورتنسون حول محيط تشابكو عائداً إلى كورف ليبدأ بترتيب مراسم افتتاح المدرسة.وبينما كان يعقد اجتماعاً مع الحاج علي وتواها وحسين على سطح المنزل، حضرت سكينة ترافقها حواء زوجة حسين وجلستا بجرأة بين الرجال. وبعد أن طلبتا الإذن بالحديث قالت حواء: "إننا نقدّر ما تفعله لأولادنا حق قدره.لكن النساء أردن أن أطلب منك المزيد".

"وما هو".

"فصل الشتاء عندنا يكون قاسياً للغاية ونحن لا نملك إلا أن نظل حبيسات منازلنا مثل الحيوانات طوال أشهر الصقيع، نعاني من الفراغ والضجر. لذا فنحن وبمشيئة الله نرغب في أن تخصص لنا مقراً نجتمع فيه لتمضية الوقت وحياكة الملابس". وداعبت سكينة لحية الحاج علي وهي تضيف: "وأيضاً كي نرتاح من أزواجنا".

وعند حلول شهر آب، كان موعد وصول الضيوف المدعوين لافتتاح المدرسة قد اقترب، جلست حواء بزهو لتترأس مركز سيدات كورف المهني، القائم في غرفة مهملة تقع في الفضاء الخلفي لمنزل الحاج علي، كانت تتوافد نساء كورف بعد ظهيرة كل يوم للتدرب على استعمال آلات الخياطة اليدوية التي ابتاعها مورتنسون تحت إشراف فيدا، الخياط ذائع الصيت في سكاردو.كما قام بشحن رزم القماش وعلب الخيطان إلى جانب الآلات بتأنٍ في طريقها إلى القرية في الأعلى.

يقول مورتنسون: "البلطيون يملكون في الأصل تاريخاً عريقاً في الخياطة والنسيج ولم يكونوا بحاجة إلا إلى بعض المساعدة لإحياء تلك الحرفة التي كادت تنقرض.. وقد كانت فكرة حواء وسيلة بسيطة شدّت من أزر النساء إلى درجة أنني قررت ان أؤسس مركزاً مهنياً في كل مكان نبني فيه مدرسة من الآن فصاعداً".

في أوائل شهر آب من العام 1997، قاد مورتنسون باعتزاز سيارته الخضراء صعوداً نحو كورف وإلى جانبه جلست تارا وفي حضنها اميرة مورتنسون التي لم تكمل عامها الأول بعد، وبرفقتهم حاشية تتضمن ضباطاً في الشرطة وقادة من الجيش ورجال سياسة باكستانيين وسيدتين من أعضاء مجلس الإدارة وهن جينيفر ويلسون وجوليا بيرجمان التي عملت لشهور متواصلة تنظم مجموعات من الكتب تتناسب مع احتياجات المكتبة التي يخطط مورتنسون لإنشائها في المدرسة. تقول تارا: "لقد كان شيئاً مذهلاً أن أشاهد أخيراً المكان الذي يتحدث عنه زوجي بشغف منذ سنوات. وقد جعلني ذلك أتعرف إلى جزء هام من شخصية زوجي عن كثب".

توقفت سيارات الجيب عند الجسر، وعندما بدأ موكب القوم الآتين من الغرب في عبور الجسر، بدأ أهل القرية يهتفون لهم بعبارات الترحيب من الأعلى. أما بناء المدرسة الأصفر الصغير الذي


https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعيد طلاؤه من أجل المناسبة، فقد كان مزيناً باللافتات وعلم الباكستان وواضحاً للعيان أمام المجموعة التي تشق طريقها صعوداً نحو كورف وبعد سنتين من ذلك، جاءت جيرين والدة مورتنسون لزيارة كورف وجاشت عواطفها لمرأى ثمرة جهود ولدها: "كان بناء المدرسة ما يزال بعيداً عني، لكني بكيت طوال الطريق. كنت على يقين بأن جريغ وضع جزءاً من ذاته في ذلك المبنى وأحسست بالجهود الجبارة التي بذلها وبمحبته العارمة لها.عندما يحقق أولادنا نجاحاً، فذلك يغمرنا بسعادة لا نعرفها في إنجازاتنا الشخصية".

تقول تارا: "في يوم الافتتاح، التقيت الحاج علي وزوجته، وأتت القرية بأكملها تتدافع من حولنا يريد كل واحد منهم أن يحمل أميرة بين ذراعيه. أما تلك الدمية الشقراء الصغيرة التي أراد الجميع أن يلعب معها، فقد كانت سعيدة وكأنها في الجنة".

أصبحت المدرسة جاهزة إلى درجة الكمال. عشرات من طاولات التلاميذ الخشبية اصطفت بترتيب داخل كل غرفة صف فوق سجاد سميك يحمي أقدام التلاميذ من برد الأرضية، وخرائط ملونة للعالم زينت الجدران إلى جانب صور لقادة الباكستان. وفي الفناء وفوق منصة علّق فوقها لافتة مكتوبة. بخط اليد وبأحرف واضحة تقول: "نرحب بالضيوف الكرام" بدأت الخطب تتوالى لساعات تحت أشعة الشمس الحارقة بينما جلس تلاميذ المدرسة الستون القرفصاء يتظرون بصبر.

تقول طاهرة ابنة حسين مدير المدرسة: "لقد كان أسعد يوم في حياتي وعندما سلمنا السيد بارفي الكتب الجديدة، لم أجرؤ على فتحها. لقد كانت كتباً غاية في الجمال ولم يسبق أن كان لي كتب شخصية" جينفير ويلسون كتبت خطبة تتحدث فيها عن مدى رغبة زوجها في أن يشهد هذا اليوم لو أن الزمن سمح بذلك، وجعلت بارفي يعيد كتابتها بأبجدية اللغة البلطية كي تتمكن من مخاطبة

الحضور بشكل مباشر، ثم سلمت كل طالب على حدة لباساً مدرسياً جديداً مطوياً بأناقة داخل مغلف من ورق السلوفان".

جيهان التي تخرجت من المدرسة فيما بعد ومعها طاهرة لتكونا أول امرأتين متعلمتين في تاريخ وادي برالدو المديد، تحدثت عن ذلك اليوم بقولها: "لم أستطع أن أرفع عيني عن السيدات الأجنبيات المهيبات. ففي كلِ مرة صادفت فيها شخصاً من الطبقة الراقية كنت ألوذ بالفرار خجلاً من ملابسي المتسخة لكنني في ذلك اليوم ضممت بين ذراعي أول ملابس جديدة ونظيفة ملكتها في حياتي. وأذكر أنني قلت في نفسي: يجب ألا أخجل من نفسي بعد الآن، فذات يوم وبمشيئة الله سوف أصبح أنا أيضاً سيدة عظيمة".

وتوالت الخطب، فألقى الأستاذ حسين والمدرسان الآخران اللذان سيتوليان مهام التدريس معه كلماتهم، وتلاهم الحاج علي وأصحاب المقامات العالية. تحدث الجميع باستثناء جريغ مورتنسون، وقد صدمته تارا بقولها: "كانت الكلمات تتوالى في حين وقف جريغ في الخلف مستنداً إلى الجدار ويحمل بين ذراعيه طفلاً لم أر أقذر منه في حياتي ولكن لا أظن أنه لاحظ ذلك، بل كان يقف هناك تبدو عليه السعادة وهو يلاعب الطفل ويقذف به نحو الأعلى. قلت في نفسي: هذا هو جوهر جريغ الحقيقي وعليك ألا تنسي هذه اللحظة".

للمرة الأولى في التاريخ المدوّن، بدأ أطفال كورف نظامهم اليومي في تعلم القراءة والكتابة داخل مبنى راسخ. وقام مورتنسون بصحبة جينفير مورتنسون بذرٍ رماد جثمان هويرني في المياه المتلاطمة لنهر برالدو من فوق الجسر الذي موّل ذلك العالم تكلفته، ثم عاد مع عائلته إلى سكاردو. خلال الأيام التي أمضاها يذهب بزوجته إلى بقاع وطنه بالتبني، ويقود سيارته إلى التلال الجنوبية ليتناولا الطعام مع بارفي في منزله تارة، وتارة أخرى يصعدان التلال المحيطة ببحيرة ستابار الصافية


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الواقعة في جنوب البلدة، كان مورتنسون متأكداً بأن عنصراً تابعاً لجهاز الاستخبارات الباكستاني المرعب يلاحقه أينما ذهب.

"ذلك الرجل الذي كلفوه بملاحقتي لم يكن من أصحاب المراتب العالية في الجهاز بالتأكيد لأن أداءه كان أخرقاً. كان لون شعره أحمر قانياً ويدور من حولي على دراجة حمراء اللون هي الأخرى مما يجعل الأمر مستحيلاً على المرء ألا يلفت نظره. وبما أنه لم يكن عندي ما أخفيه، فقد تركته ليقرر ذلك بنفسه وينقله إلى رؤسائه".

شخص آخر من سكان سكاردو كان يراقب مورتنسون وعائلته أيضاً، فبعد ظهيرة ذات يوم، ترك مورتنسون زوجته وابنته في المقعد الخلفي للسيارة وذهب لشراء زجاجات من المياه المعدنية في سوق سكاردو وانتهزت تارا الفرصة كي ترضع أميرة بعيداً عن أعين الفضوليين. وعندما عاد مورتنسون شاهد رجلاً شاباً يلصق وجهه بزجاج السيارة ويختلس النظر إلى زوجته، كما شاهده أيضاً حارسه الشخصي فيصل بيج وسبقه إليه.

"جرجر فيصل ذلك الفضولي إلى زقاق قريب لكي لا يجرح مشاعر تارا وأوسعه ضرباً حتى أغمي على الرجل. ركضت إليهما وطلبت من فيصل أن يكف عن ضربه وتفقدت نبضه لأتأكد من أنه لم يقتله.

أراد مورتنسون أن يسعف الرجل إلى المستشفى، لكن فيصل ركله بقدمه وبصق على الجسد المنبطح أرضاً وأصر أنه لن يتحرك من المزراب الملقى داخله لأنه المكان الذي يليق بأمثاله".

وقال: "ذلك الشيطان محظوظ لأنني لم أقض عليه. ولو فعلت، لما وُجد شخص واحد في سكاردو بأكملها يعترض على ذلك" وبعد سنوات علم مورتنسون أن الرجل أصبح منبوذاً في سكاردو بعد أن ذاع النبأ بأنه قلل من احترام زوجة الدكتور جريغ مما أجبره على الرحيل عن البلدة.

أمضى مورتنسون شهرين آخرين بعد أن اطمأن إلى عودة زوجته وابنته إلى المنزل. ونظراً للنجاح الذي حققته مراكز السيدات للتعليم المهني فقد أتى إليه الرجال يطلبون منه مشروعاً مماثلاً يحقق لهم دخولاً إضافية.

وبمساعدة ترينت بيشوب شقيق تارا، أسس مورتنسون معهد كاراكورام لتدريب الحمالين وحماية البيئة، وكان أول برنامج يهدف إلى تأهيل الحمالين، بعد أن أقنع ترينت الذي كان على شاكلة أبيه الراحل متسلق جبال متمرس في جبل إيفرست، قام واحد من مموليه يدعى نايك بالتبرع بالمال والمعدات اللازمة لتنفيذ المشروع. يقول مورتنسون: "الحمالون البلطيون يعملون بجسارة فوق القمم الشاهقة التي تعد واحدة من أشدّ بقاع الأرض قسوة ووعورة، لكنهم يفتقرون إلى المبادئ الأولية لتسلق الجبال" وتحت قيادة وإشراف مظفر، قام مورتنسون وبيشوب وثماني مئة من الحمالين بصعود أعالي بالتورو يرافقهم أبو رزاق، الخبير المتمرس بإعداد الطعام لمجموعات كبيرة التعداد في الأماكن الوعرة، وفي أعلى النهر الجليدي، بدأ المتسلقون الأميركيون بإعطاء دروس في الإسعافات الأولية وعمليات الإنقاذ والمبادئ الأساسية للتسلق بواسطة الحبل.

كما عملو على تعديل الوضع البيئي الملوث فأنشؤوا مراحيض من الحجر الصلب قرب مواقع التخييم الواقعة بمحاذاة بالتورو على أمل أن تضع حداً لأكوام الفضلات البشرية التي تخلفها المجموعات الاستكشافية وراءها.

أما بالنسبة للحمالين الذي يعودون بسلالهم الفارغة، فقد أوجدوا برنامجاً لإعادة التدوير نجح في ترحيل طنٍ أو أكثر من علب القصدير والزجاج والبلاستيك من فوق قمة "كيه2" ومواقع التخييم الرئيسية فوق باشربروم خلال السنة الأولى للمشروع. وعمل مورتنسون على أن تصل المواد القابلة لإعادة التدوير جميعها إلى سكاردو وأن يتقاضى الحمالون أجرهم كل حسب جهوده.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعندما أحكمت الثلوج قبضتها على وديـان كـاراكورام في عناقهـا الشتائي الطويل، أسدل مورتنسون الستار على عامـه الأول في العمـل وعاد إلى المكتب القابع في قبو منزله "عنـدما نظـرت إلى الـوراء وإلى كل شيء تمكنا من إنجازه في عام واحـد رغـم أنـف الفتـوى، أتـسأل كيف نجحت في ذلك ومن أين هبطت علي تلـك المقدرةكلـها" لكـن جهوده الجبارة عززت إحساسه بالخضم الهائل من الاحتياجات الـذي مازال بانتظاره. وبعد سعار ليلي مـن الاتـصالات الهاتفيـة بالباكـستان والرسائل الإلكترونية إلى مجلس الإدارة وعدد لايحـصى مـن أكـواب القهوة بدأ يخطط لحملة الربيـع القـادم الهادفـة إلى الانقـضاض علـى الفقر في الباكستان.

# الفصل السادس عشر

# صندوق المخمل الأحمر

"لا يوجد كائن بشري، ولا كائن حي يعرف الخلود تحت السماء الخالدة. اكثر النساء جمالاً وأعمق الرجال حكمة، بما فيهم محمد الذي سمع صوت الله بذاته، جميعهم ذووا ولاقوا حتفهم. كلّ من عليها فان، ووحدها السماء تبقى وتسمو فوق كل شيء وحتى فوق الآلام"

بووا جوهر

شاعر بلطي وجد مظفر علي

تخيل مورتنسون الرسول يشق طريقه نحو الجنوب الشرقي دون كلل وتراءى له قرار المجلس الشيعي الأعلى مندساً في سرج حصان يمتطيه مبعوثهم الذي انطلق من إيران باتجاه أفغانستان على ظهر مهر فتي وقوي البنية يلتف حول حقول الألغام في سهل شومالي ثم يتهادى صاعداً معابر هندوكوش ويعبر الحدود وصولاً إلى الباكستان.

وحاول مورتنسون في مخيلته أن يحد من سرعة وصوله فوضع في طريقه انهيارات صخرية وجليدية يمكن أن تعيقه لمدة سنوات. لأن الرسول عندما يصل حاملاً معه أسوأ الأنباء، فذلك يعني بأن مورتنسون قد يطرد من الباكستان إلى الأبد

لكن ما حصل في الواقع مختلف كلياً لأن صندوق المخمل الأحمر الذي يحتوي على القرار قد أرسل من قُمّ إلى إسلام آباد على متن رحلة



https://telegram.me/maktabatbaghdad

جوية لطائرة من طراز بوينغ 737 تابعة للخطوط الجوية الباكستانية وتم تسليمه إلى أرفع رجال الدين الشيعة كي يعلنوه على الملأ.

حين كان أعضاء المجلس الشيعي الأعلى يدرسون قضية مورتنسون، أرسلوا عيوناً لهم ليتحققوا من ماهية العمل الذي يقوم به الرجل الأمريكي في قلب الباكستان الشيعية. ويقول بارفي: "وصلتني تقارير من عدد وافر من مدارسنا تقول: إن رجالاً غرباء أتوا لزيارتهم واستفسروا عن المناهج الدراسية في كل منها وإن كان فيها ما ينادي بالديانة المسيحية أو يحث على أي فسق من الطراز الغربي".

وبالنتيجة، حضر إمام إيراني لزيارتي في منزلي وسألني دون لف ودوران: "ذلك المارق، هل شاهدته يوماً يحتسي الكحول أو يحاول أن يغوي النساء المسلمات؟" أجبته بصدق أنه لم يسبق لي قط أن رأيت الدكتور جريغ يحتسي الكحول وبأنه رجلٌ متزوج وملتزم بزوجته وأسرته ولم يتحرش أبداً بأي أنثى بلطية.

ودعوته أيضاً أن يقوم بزيارة مدارسنا ليتأكد بنفسه مما يجري في داخلها وبأنني سأتكفل بتأمين وسيلة للمواصلات وتسديد ما يترتب من نفقات لو أراد ان يقوم بذلك على الفور.

أجابني: "لقد سبق لنا وأن زرنا مدارسكم" ثم صافحني بكياسة مودعاً وهو يشكرني.

عند صباح باكر من أيام شهر نيسان عام 1998، طرق بارفي باب غرفة مورتنسون في الفندق وأخبره بانهما قد استدعيا لسماع القرار. فحلق مورتنسون ذقنه وارتدى أنظف ما لديه من الزي الباكستاني ترابي اللون الذي كان قد اقتنى منه خمسة حين ذاك، وغادرا الفندق إلى مسجد الإمام بارا. كان مبنى المسجد من الخارج كشأن المساجد الشيعية جميعها في الباكستان، بسيطاً للغاية وخالياً من أي زخارف باستثناء

المئذنة الشامخة التي تدعو المؤمنين للصلاة والتي طليت باللونين الأخضر والأزرق، وكأن القصد من ذلك التركيز على أهمية الداخل.

قادهما أحدهم عبر صحن المسجد، ثم ولجا مدخلاً مقوساً، أزاح مورتنسون ستارة من المخمل بنية اللون ليجد أمامه محراب المسجد، وهو مكان لم يطأه شخص غير مسلم من قبل، واجتاز العتبة بقدمه اليمين تماشياً مع الأعراف.

وفي الداخل وقف ثمانية رجال مهيبي الطلعة يرتدون عمامات سوداء اللون وهم أعضاء مجلس الأمة، وحياه سيد محمد عباس ريزفي بجدية جعلته يتوقع أسوأ مصير ممكن.وغاص مورتنسون وبارفي جلوساً في السجاد الأصفهاني الفاخر المزخرف بكروم عنب متدلية، وأشار سيد عباس بيده يدعو أعضاء المجلس المتحلقين إلى الجلوس، ثم جلس بينهم ووضع عند ركبتيه فوق النسيج الوثير علبة من المخمل الأحمر.

وبمنتهى الإجلال، قام سيد عباس برفع غطاء العلبة، وأخرج منها لفافة من الورق الفاخر مربوطة بشريط أحمر اللون ثم فردها ليكشف مصير مورتنسون. ثم راح يقرؤها وهو يترجم خط اليد الفارسي الأنيق الذي كتبت اللفافة به: "إلى العزيز صديق الفقراء العطوف. قرآننا الكريم يأمرنا بأن نعلم أبناءنا بما فيهم بناتنا وأخواتنا. وعملك النبيل يتوافق مع أسمى القيم في الدين الإسلامي ألا وهو رعاية الفقراء والمرضى. لا يوجد في القرآن الكريم ما يحرّم يد المعونة التي تمتد من شخص غير مسلم إلى أخوتنا وأخواتنا في الإسلام" وانتهى المرسوم على هذه الشاكلة: "ولذا فإننا نلفت كل رجال الدين في الباكستان ألا يتدخلوا في مقاصدك النبيلة، ولك موافقتنا ومباركتنا ودعواتنا".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

لف سيد عباس المرسوم وأعاده إلى صندوق المخمل الأحمر وقدمه إلى مورتنسون وهو يبتسم ابتسامة عريضة ثم مدّ يده إليه.

صافح مورتنسون يد جميع أعضاء المجلس، وكان رأسه يدور: "هل يعني هذا...؟ تلك الفتوى هل هي...؟".

قال بارفي ووجهة يطفح بالسعادة: "لا تلق بالاً لتلك التفاهة القروية السخيفة، فلدينا الآن مباركة المفتي الأعلى في إيران ولن يجرؤ أي شيعي على التدخل في عملنا من الآن فصاعداً، إن شاء الله".

طلب سيد عباس الشاي وهو يسترخي بعد أن أدّى واجبه الرسمي ثم قال لمورتنسون: "أريد أن أتحدث معك في شأن آخر. فأنا أرغب في تقديم بعض المساعدة".

في ذلك الربيع ذاع في بالتستان نبأ القرار الصادر عن المجلس الشيعي الأعلى الذي جاء مبجلاً داخل صندوق من المخمل الأحمر، بوتيرة فاقت سرعة ذوبان المياه المتجمدة التي بدأت تسيل وتنحدر إلى وديانهم من أعالي كاراكورام. وازداد عدد الحضور في جلسات الشاي الهادئة التي كان مورتنسون يعقدها في بهو فندق الهندوس بحيث لم تعد الطاولتان تكفيان، فانتقل الاجتماع إلى قاعة مخصصة للمآدب في الطابق العلوي وأصبحت الجلسات صاخبة. وفي كل يوم يأتي مبعوثون من مئات القرى النائية يحملون بأيديهم التماسات وطلبات يقدمونها إلى ذي الحظوة الذي حصل ختم المجلس الشيعي الأعلى بالموافقة على أعماله.

وبدأ مورتنسون يتناول وجبات الإفطار والغداء داخل مطبخ الفندق حيث لا يكون مضطراً للإنقطاع من أجل الإجابة على رسالة خطت بإنكليزية ركيكة يطلبون فيها قرضاً لبدء مشروع تنقيب عن أحجار شبه كريمة، أو تمويلاً لترميم مسجد في قرية مهملة.

لم يكن مورتنسون يدرك ذلك تماماً بعد، لكن مرحلة جديدة من حياته كانت قد بدأت. فلم يعد لديه وقت للتحدث إلى كل من يأتون إليه مع أنه حاول أن يفعل ذلك في البداية. صحيح أنه كان منهكاً في العمل قبل ذلك لكن خمس أو ست ساعات في اليوم الواحد لم تعد كافية. فجند نفسه لمراجعة سيل الطلبات على مشاريع جديرة بالإنجاز ويملك لها ما يكفي من المال والقدرة على الإنجاز.

سيد عباس الذي كان نفوذه يمتد إلى عشرات القرى المبعثرة في وديان الجبال الموحشة، كان لديه حدس دقيق بالحاجات الماسة لتلك التجمعات البشرية. وقال لمورتنسون أنه لا يشك في أن التعليم يعتبر سلاحاً طويل الأمد لمحاربة الفقر، لكنه وضعه أمام واقع قائم وهو أن اطفال بالتستان يعانون من أزمة ملحّة أكثر تحتاج إلى حل فوري وهو أنه في بعض القرى مثل تشوندا الواقعة في الجزء السفلي من وادي شيجا، هنالك طفل من بين كل ثلاثة أطفال يلاقي حتفه قبل أن يبلغ من العمر عاماً واحداً، وأن العلة تكمن في انعدام الشروط الصحية الضرورية ومياه صالحة للشرب.

سارع مورتنسون بحماسة، وأضاف هذا المنحى الجديد إلى جدول أعماله "عليك أن تسقي النبتة كي ترتوي ثم تنمو والأطفال يجب أن يكونوا أصحاء قبل أن نرسلهم إلى المدرسة "وقام مع سيد عباس بزيارة قرية تشوندا، وأقنع الحاج إبراهيم زعيم القرية بأن يضع رجال القرية تحت تصرفه فقدم سكان أربع قرى مجاورة يطلبون الإذن للانضمام إلى المشروع. وهكذا قام مئات من الرجال بحفر الخنادق وعملوا عشر ساعات في اليوم الواحد واستطاعوا خلال أسبوع واحد من العمل أن يزودوا القرى الخمس بمياه عذبة عبر الانابيب البالغ طولها اثني عشر ألف قدم، أحضرها مورتنسون لهم.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويقول مورتنسون: "لم يكن في وسعي إلا أن أحترم ذلك الرجل، سيد عباس، وأن أعتمد على بصيرته النافذة لأنه ينتمي إلى ذلك النوع من زعماء الدين الذين لا يكتفون بالكلام بل يعملون. سيد عباس لا ينزوي في غرفته لكي يقرأ، بل يشمّر عن ساعديه ويعمل في سبيل أن يصبح العالم مكاناً أفضل. وبفضل مجهوده، لم تعد نساء تشوندا مضطرات إلى أن يقطعن مسافات طويلة سيراً على الأقدام لجلب مياه عذبة، لأنها وصلت إلى منازلهنّ عبر الصنابير، أما معدل الوفيات بين عدد السكان البالغ ألفي نسمة فقد هبط إلى النصف".

في اجتماع عقده مورتنسون قبل أن يغادر إلى الباكستان، وافق مجلس الإدارة على بناء ثلاث مدارس أخرى خلال فصلي الربيع والصيف من العام 1998، وأعطى مورتنسون الأولوية لمدرسة مظفر. ففي زياراته الأخيرة لا حظ مورتنسون أن مظفر ليس على مايرام وأنه بدأ يفقد القوة البدنية التي كانت تضاهي قوة الثور. لقد ازداد صممه ودخل في شيخوخة مبكرة ومتسارعة كالنمر الثلجي، مثلما يحدث للبلطيين جميعهم الذين يعملون تحت الأنواء الجوية لسنوات طوال.

كانت هولده قرية مظفر تقع في وادي هاش السفلي الخصب، على ضفاف نهر شيوك في موقع تتباطأ فيه سرعة النهر ويتسع مجراه قبل أن ينضم إلى نهر الإندوس. وكان مورتنسون يعتبرها قرية نموذجية ومتميزة عن باقي قرى الباكستان، حيث أقنية الري تنساب مياهها إلى الحقول المقسمة إلى مربعات المشمش والتوت البري الناضجة. هولده تمثل ملاذاً مثالياً بالنسبة لي.إنها المكان الذي أتمنى لو أحضر إليه مع كلبتي وأتوارى فيها عن الأنظار لمدة طويلة، لكن ذلك كان ترفاً لا يستطيع أن يحلم به في الوقت الراهن. أما مظفر الذي أنهى حياته العلمية، فقد ارتأى أن يمضي السنوات الباقية من عمره بسكون في منزله الصغير محاطاً بالبساتين وأولاده وأولادهم، بعيداً عن أرض الجليد السرمديّ.

وبالطريقة نفسها التي أتقنها هو وبارفي ومحمد، تمكن مورتنسون من الحصول على قطعة أرض منبسطة تقع بين بستانين من أشجار المشمش وساعده أهل القرية في تشييد مبنى متين فيه أربعة صفوف خلال مدة زمنية لم تتجاوز ثلاثة أشهر وتكلفة مادية تجاوزت قليلاً اثني عشر ألف دولار.

بوا جوهر، جدّ مظفر كان شاعراً ذائع الصيت في بالتستان بأكملها أما مظفر الذي أمضى سنوات شبابه يعمل حمّالاً بسيطاً فلم يتمتع بمكانة تذكر في قريته. لكن مقدرته على جلب مدرسة إليها فرضت الاحترام والمهابة التي يستحقها ذلك الرجل رقيق الفؤاد، الذي كان يحمل الصخور من المقلع إلى موقع البناء ويرفع الألواح الخشبية إلى السقف، مع أن الرجال الأكثر شباباً كانوا يحاولون أن يرفعوا الأثقال عن كتفيه.

وقف إلى جانب مورتنسون أمام المدرسة المكتملة يتأملان معاً أطفال كورف يقفون على رؤوس أصابعهم ليستكشفوا الغرف الغامضة التي تقبع وراء هذا الزجاج الغريب حيث سيباشرون الدراسة عند حلول الخريف. أخذ مظفر بيد مورتنسون بين كفيه وقال له: "كنت أتمنى يا سيد جريغ أن أستمر في العمل معك لعدة سنوات قادمة، لكنني لم أعد قادراً على العمل في أعالي الجبال، فقد شاء العلي القدير أن أستنفد قواي".

عانق مورتنسون الرجل الذي كان يدلّه على الطريق دائماً ولاحظ أن حديثه عن قواه المستنفدة لم يكن دقيقاً تماماً، لكنه اعتصر الأميركي الضخم بين ذراعيه حتى كادت أنفاسه تنقطع.

"وماذا سنفعل الآن؟".

أجابه ببساطة "سيكون عملي من الآن فصاعداً ريّ الأشجار".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

في أعالي وادي "هاش" وفي ظلّ أخاديد جبل ماشربروم، عاش الصبي محمد إسلام خان في زمن لم تكن فيه الطرقات قد عبدّت بعد. وكانت الحياة في قرية "هاش" تسير على ما يرام ولا يعكر صفوها شيء. ففي فصل الصيف يقود الصبية من أمثال إسلام الخراف والماعز إلى المراعي التي تقع في المرتفعات بينما تقوم النساء بإعداد اللبن والجبن. ومن بقاع المرعى التي يسمونها "تشوغدري" أي الجبل الكبير، والذي يعرفه العالم الأوسع باسم "كيه2" كانت القمة تشق عباب السماء من فوق الهامة العريضة لجبل ماشربروم.

أما في فصل الخريف، فقد كان إسلام يقوم بالتناوب مع بقية الصبية بسوق فريقٍ يتألف من ستة ثيران تدور حول سارية، وتقوم حوافرها الثقيلة بمهمة درس الحنطة التي حصدت للتو، وعندما يحل فصل الشتاء الطويل كان إسلام يلوذ بنار المدفأة ويحاول أن يجد أقرب مكان إليها من بين أخوته الخمسة وأخواته الثلاث وقطيع الماشية الذي تملكه الأسرة.

هكذا كانت الحياة التي يمكن لأي صبي في "هاش" أن يتوقعها. لكن جولووا علي، والد إسلام، كان زعيم القرية، والجميع يقول بأن إسلام هو أكثر أولاد الأسرة ذكاء، ولذا فقد خطط له والده مستقبلاً مختلفاً.

كان الوقت أواخر الربيع والطقس قد مال إلى التحسّن لكن نهر شيوك كان ما يزال يفيض بفعل ذوبان الثلوج، حين أيقظ جولووا علي ابنه من النوم قبل طلوع الفجر وأخبره أن يستعد لمغادرة القرية. لم يستوعب إسلام تماماً ما يعنيه والده حتى شاهده يضع قطعة من جبن الغنم بين رزمة من ملابسه فانخرط في البكاء.

مناقشة قرار والده لم تكن واردة، ومع ذلك فقد وقف إسلام ليواجه زعيم القرية "ولماذا عليّ أن أغادر القرية؟" واستدار نحو أمه كي تقف إلى جانبه، لكنه شاهد في نور القنديل الذي بدأ يخبو بأنها كانت تبكي بمرارة هي الأخرى.

أجابه والده "سوف تذهب إلى المدرسة كي تتعلم".

سار إسلام برفقة أبيه لمدة يومين وهما يهبطان الجبل. لقد سبق له شأنه في ذلك شأن صبية "هاش" كلهم أن جاب ممرات الجبل الضيقة والمتشبثة بالجروف الصخرية القاحلة كأنها نباتات متعرشة على الجدران ولكن لم يسبق له أن ابتعد كل هذه المسافة، والأرض هنا رملية ولا تكسوها الثلوج، وماشربروم من خلفه لم يعد ذلك الحضور المطمئن المتوضع في قلب عالمه المألوف، إنه الآن مجرد جبل يقع بين عدّة جبال.

عندما وصل الطريق إلى نهايته عند ضفة نهر شيوك، عقد جولووا كيساً مربوطاً إلى خيط حول عنق ابنه فيه ليرتان من الذهب وأعطاه تعليماته "عندما تصل إلى بلدة خابلو، بمشيئة الله ستجد هناك مدرسة أعط هاتين الليرتين إلى السيد الذي يدير المدرسة لكي تسدد نفقات تعليمك".

سأله إسلام بشفتين مرتعشتين وهو يحاول أن يحبس دموعه "ومتى سأعود إلى المنزل؟".

أجابه والده: "ستعرف ذلك في الوقت المناسب" ثم راح ينفخ في مثانات ست عنزات حتى انتفخت وربطها إلى طوف يستعمله البلطيون عادة للانتقال عبر النهر عندما تصبح مياهه أكثر عمقاً من أن تعبرها الأقدام وقال لولده الذي لا يجيد السباحة "والآن تشبث جيداً".

"عندما دفع بي والدي إلى النهر، فقدت السيطرة على نفسي وانخرطت في البكاء. لقد كان رجلاً صلباً ومعتداً بنفسه، لكنني رأيت الدموع في عينيه عندما بدأت أطفو مبتعداً عنه نحو منحدرات نهر شيوك. تشبث إسلام بالطوف الذي كان يجذبه عن مرأى والده ويتمايل فوق المنحدرات السريعة وهو ينتحب بصوت عال لأنه لم


https://telegram.me/maktabatbaghdad

يعد تحت أنظار أحد ويرتعش برداً من صقيع هذه المياه الجليدية، عاش إسلام هذه الغمامة من الرعب التي غشت عينيه لمدة زمنية لم يكن متأكداً إن كانت عشر دقائق أم ساعتين، عندما انتبه إلى أن سرعة طوافته قد تناقصت لأن مجرى النهر أصبح أكثر اتساعاً وشاهد بعض الناس يقفون على الضفة البعيدة، فأخذ يجذف نحوهم بقدميه، دون أن يجسر على إفلات الطوف من بين يديه.

"التقطني رجل عجوز من الماء، ولف حولي بطانية وثيرة من وبر الثيران، وكنت ما زلت أرتجف وأنتحب.سألني العجوز عن سبب عبوري للنهر فأخبرته عن تعليمات والدي لي".

قال الرجل العجوز بلهجة مطمئنة: "لا تخش شيئاً، لو لم تكن ولداً شجاعاً لما تمكنت من قطع هذه المسافة الطويلة من قريتك، وستعود إلى هناك يوماً ما لتجد الجميع يكرمونك لأنك مصدر فخر لهم" ودسّ في يده روبيتين متجعدتين ثم رافقه باتجاه خابلو حتى يتمكن من تسليمه إلى رجل بالغ آخر.

وهكذا كان إسلام وقصته يسافران عبر وادي "هاش" السفلي تتناقله الأذرع، وكل ذراع تساهم بما تقدر عليه لتغطية نفقات تعليمه، ويذكر إسلام تلك المرحلة بقوله: "العطف الذي أسبغه عليّ الجميع جعلني أتحلى بالشجاعة وسرعان ما التحقت بمدرسة حكومية في خابلو وبدأت أتابع دراستي باجتهاد وجِدّ".

خابلو كانت أكبر تجمع سكني شاهده إسلام طوال حياته، وزملاؤه في المدرسة المكتظة كانوا متمدنين مقارنة به، فأخذ الطلاب يهزؤون بمظهره الخارجي "كنت أنتعل صندلاً مجدولاً من جلد الثيران وأرتدي ملابس صوفية، بينما كان بقية الطلاب يتبخترون بزيهم المدرسي الأنيق" فأشفق المدرسون على حال إسلام وساهم

الجميع في شراء قميص أبيض اللون وسترة قرميدية وبنطالاً أسود، كي يتمكن إسلام من التلاؤم مع محيطه الجديد. كان إسلام يرتدي زيه كل يوم ويحرص على تنظيفه وترتيبه كل مساء قبل أن يذهب إلى النوم، وعندما أنهى سنته الدراسية الأولى وصعد إلى وادي "هاش" لزيارة عائلته، أعطى التأثير الذي تنبأ به ذلك الرجل العجوز الذي انتشله من نهر شيوك.

"عندما وصلت إلى الأعلى، كان مظهري نظيفاً وأنيقاً في الزي المدرسي الذي كنت أرتديه. وكان الجميع يحدقون بي ويقولون أنني قد تغيرت وعاملوني بحفاوة بالغة جعلتني أدرك أنه عليّ أن أكون جديراً بتلك الحفاوة".

في عام 1976، نال إسلام المرتبة الأولى بين خريجي الصف العاشر وعرضت عليه الحكومة منصباً في المنطقة الشمالية، لكنه قرر أن يعود إلى موطنه "هاش". وبعد وفاة والده، انتخبته القرية ليصبح زعيماً لها. "لقد رأيت بأم عيني الحياة التي يعيشها الناس في الأراضي السفلى وعقدت العزم على أن أحسن نوعية الحياة في قريتي أعلى الوادي".

فقدم إسلام التماساً إلى ذوي النفوذ الذين عرضوا عليه العمل وأقنع الدوائر الرسمية الشمالية بأن يشقوا طريقاً صاعدة إلى أعلى وادي "هاش"، وبعد كثير من الإلحاح، تمكن إسلام أيضاً من جعلهم يمولون مدرسة صغيرة أنشأها داخل مزرعة متداعية تستوعب خمسة وعشرين ولداً، لكنه أخفق في إقناع أهل القرية بأن يرسلوا أولادهم كي ينالوا قسطاً من التعليم في ذلك المبنى البائس، بدلاً من أن يعملوا في الحقول. بل أن رجال القرية كانوا يعترضون سبيله ويلمحون إلى إعطائه رشاوى من الزبدة وأكياس الطحين مقابل أن يستثني أولادهم من الذهاب إلى المدرسة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبما أن أولاده قد بلغوا سن الدراسة، فقد أدرك إسلام أن عليه أن يوفر لهم جميعاً سبل التعليم. "كان الله قد أنعم عليّ تسع مرات بخمسة من الصبية وأربع من البنات، لكن ابنتي شاكيلا كانت أوسعهم ذكاءولا يوجد مكان يمكن أن تتابع تعليمها كما وأنها ما زالت طفلة ولا أستطيع أن أرسلها إلى أي مكان بمفرها. لقد مر بقريتنا آلاف من المتسلقين خلال سنوات عديدة، ولكن لم يخطر ببال أحدهم أن يقدم أي نوع من المساعدة لأطفالنا.وكنت قد بدأت أسمع أقاويل عن ذلك الأجنبي الضخم الذي يبني مدارس تستقبل الصبيان والبنات على حدٍ سواء في أنحاء الباكستان كلها وقررت أن أبحث عنه حتى أجده".

في ربيع عام 1997، توجه إسلام إلى سكاردو بواسطة سيارة جيب في رحلة استغرقت يومين وسأل عن مورتنسون في فندق الهندوس ليتلقى الرد المحبط بأن مورتنسون قد غادر الفندق إلى وادي برالدو الأعلى وقد يتغيب لعدة أسابيع. "تركت رسالة للرجل الأجنبي أدعوه فيها لزيارة قريتي ولكني لم أتلق أي رد".

وبعد ذلك كان يوماً من شهر حزيران عام 1998حين أتى إسلام النبأ من منزله بالقرية بأن الرجل الأجنبي موجود حالياً في قرية خان التي لا تفصله عنها سوى بضع قرى نحو أسفل الوادي.

ويقول مورتنسون: "عدت إلى قرية خان في ذلك الربيع أحسب أنني سأتمكن من عقد اجتماع كبير كي أتغلب بالتصويت على جانجونغيا لأباشر ببناء المدرسة. لكن جانجونغيا المتشبث بنزوته لبناء مدرسة خاصة به لتعليم تسلق الجبال اتصل بالشرطة المحلية وألصق بي التهمة الوحيدة التي تستطيع أن تثير الشبهات بشخص غريب وهي أنني أعمل جاسوساً لصالح الهند، عدوهم اللدود".

كان مورتنسون يناضل من أجل التخفيف من غلواء ضابط الشرطة

الذي يطالب بسحب جواز سفره من أجل التدقيق عندما وصل إسلام بسيارة جيب مستعارة وقدم نفسه لمورتنسون قلت له: "أنا زعيم قرية هاش وأحاول أن أجتمع بك منذ سنة. أرجو أن تقبل دعوتي إلى قريتي هذا المساء لتحضر معنا حفلة الشاي" مورتنسون كان قد بدأ يعتبر خان قرية مشؤومة، ليس إلى درجة التمني مرة أخرى أن يهوي فوقها القمر المكتمل المترنح فوق حافة الجرف ويسحقها، لكنه تنفس الصعداء لأنه وجد ذريعة تخرجه منها.

كان إسلام، ذلك الرجل الذي منحته المعرفة والسليقة السليمة ذوقاً رفيعاً، قد نقش على جدران منزله رسوماً هندسية بسيطة بألوان هادئة مريحة مما أضفى على المنزل طابعاً إفريقياً غامضاً جعل مورتنسون يشعر على الفور بأنه في مكان أليف. جلس مورتنسون على سطح المنزل يحتسي الشاي مع صديقه الجديد طوال الليل وأصغى إلى تفاصيل المشاق التي خاضها إسلام. وعندما أشرقت الشمس لتكسو الذرا الجليدية التي تكلل جبل ماشربروم بلون وردي شاحب حتى بدت وكأنها فطائر عملاقة من السكر معدّة للإفطار، أعطى مورتنسون موافقته على أن يحوّل التمويل الذي وافق عليه مجلس الإدارة لبناء مدرسة في قرية خان المنحوسة إلى هذه القرية التي ابتعد عنها زعيمها إلى أماكن نائية في سبيل أن يتعلم.

ويقول إسلام: "كنت قد بحثت عن دكتور جريغ في أنحاء بالتستان كلها، وعندما وجدته في النهاية فوجئت به كثيراً، كنت أتوقع بأنني، أنا الرجل الأقل شأناً، سأضطر إلى أن أتوسل إلى السيد الأجنبي. لكنه خاطبني وكأنني أخ له واكتشفت أن دكتور جريغ إنسان حلو المعشر، طيب القلب وبهيج الفطرة. وعندما التقيته للمرة الأولى عشقت تلك التركيبة العذبة ومع كل سنة تمر بعد أن بنيا المدرسة معاً يزداد عشقي له وقد انتقل ذلك الشعور تدريجياً إلى أفراد أسرتي وعائلات قرية هاش جميعها".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذلك البناء الذي شيده إسلام بمساعدة رجال قريته كلهم وتمويل مؤسسة مورتنسون خلال الصيف من العام 1998، يمكن اعتباره من أكثر المدارس جمالاً في شمال الباكستان. وهو صرح جدير بالجهود التي بذلها إسلام كي يقنع أهل قريته بأنه أفضل استثمار لمستقبل أولادهم. أوكل مورتنسون التفاصيل المتعلقة بالتصاميم إلى الزعيم وكانت بصمة إسلام ورؤياه واضحة في الزخارف الخشبية قرمزية اللون التي أحاطت بكل نافذة وحافة سقف وبالباب الرئيسي.

وعند أسفل كل جدار في فناء المدرسة المغلق، تطاولت سيقان زهرة دوار الشمس في الأشهر الدافئة حتى فاقت طول أكبر التلاميذ سناً في المدرسة. أما أكثر المشاهد إلهاماً أمام أعين التلاميذ والذي تطل عليه نوافذ الصفوف كلها فهو سقف العالم المتجسد في قمة جبل ماشربروم الساحقة تحثهم على التطلع دوماً نحو الأعلى.

في منزل استأجره لها والدها قرب ثانوية الإناث الحكومية التي تتابع فيها تعليمها في خابلو، تتحدث شاكيلا ابنة إسلام الكبرى، عن سبل المستقبل التي فتحتها لها مدرسة هاش خلال سنتها الدراسية الاولى عندما كانت في الثامنة من عمرها. جلست أرضاً على سجادة صوفية خشنة إلى جوار والدها مهيب الطلّة. فتاة في الخامسة من العمر نضرة وفخورة بنفسها وتبتسم بثقة من وراء وشاح رأس فاتح اللون موشى بأوراق أشجار متساقطة: "عندما بدأت في الذهاب إلى المدرسة، كثير من الناس في قريتي قالوا لي بأن التعلم لا يليق بالإناث وبأن مستقبلي هو العمل في الحقول مثل النساء جميعاً، فلماذا أهدر الوقت في حشو دماغي بالترهات التي في الكتب؟ لكنني كنت أعرف قيمة العلم بالنسبة لوالدي، فصممت أذني وثابرت على دراستي".

ويقول إسلام وهو يومئ برأسه نحو ولديه اللذين سيتابعان تعليمهما في الجامعة ويعيشان مع أختهما لحمايتها: "لقد بذلت ما بوسعي لأشجع أولادي على التعليم، لكنني كنت ألمس طموحاً استثنائياً لدى هذه الفتاة منذ نعومة أظفارها".

تشعر شاكيلا بالحرج وتغطي وجهها بشالها ثم تزيحه من جديد كي تقول: "أنا لست طالبة متفوقة لكنني تمكنت من النجاح في المراحل كلها أثناء دراستي في مدرسة هاش بعلامات جيدة".

الأمر الذي شكل صعوبة أكبر بالنسبة إليها كان التأقلم مع الحياة المدنية في خابلو. المحيط هنا مختلف للغاية، فكل شيء يتم بسرعة، وكل الاحتياجات متوفرة "وتعرض على والدها العلامة التي حصلت عليها في آخر مذاكرة لمادة الفيزياء وهي خجلة لأنها لم تحرز سوى 82 علامة وتعلق بقولها: "لقد كنت طالبة مجتهدة في مدرسة هاش، صحيح أن مناهج التدريس هنا أكثر صعوبة لكنني بدأت أعرف كيف أتعامل معها كما أنني أجد دائماً طالباً ما من الصفوف العليا أو مدرساً يساعدونني عندما أضل طريقي".

وجود الطريق الممهدة الآن أتاحت لشاكيلا معبراً آمنا أوصلها لمتابعة تعليمها في الجهة السفلى بعكس والدها الذي اضطر أن يسلك طريقاً محفوفة بالمخاطر.، ولكن، وبطرقتها، سلكت شاكيلا طريقاً وعراً هي الأخرى. يقول إسلام باعتزاز: "شاكيلا هي أول انثى في أنحاء وادي هاش كلها استطاعت أن تحظى بامتياز التعلم وقد أصبحت الآن قدوة لفتيات هاش كلهن.

إطراء والدها يجعل شاكيلا تنزوي خلف شالها لبرهة، ثم تزيحه وتعاود الحديث: "لقد بدأت أذهان الناس في هاش تنفتح وعندما أعود إليها هذه الأيام أجد أن الأسر جميعها ترسل بناتها إلى المدرسة


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويقولون لي: "شاكيلا، لقد كنا على خطأ وكنت أنت على صواب حين قرأت تلك الكتب كلها وجسورة أن تبتعدي عن أهلك تلك المسافات الطويلة كلها لمتابعة تعليمك. أنت مصدر فخر قريتنا".

وإن نجحت من أن تبرع في المواد الصعبة مثل الفيزياء، فإن شاكيلا تنوي أن تتابع تعليمها حتى النهاية، وهدفها الأعلى هو كلية الطب وتقول عن ذلك: "أرغب في أن أصبح طبيبة لكي أذهب للعمل في أي مكان يحتاجني فيه الناس. لقد بدأت أدرك أن العالم مكان واسع للغاية وأنا لا أعرف منه سوى جزء صغير".

تأثير النجاح الأكاديمي الذي أنجزته شاكيلا تعدى نساء وادي هش ووصل إلى أخوتها الأكبر منها سناً. فيعقوب الذي يبلغ الثامنة عشرة من العمر كان طالباً في الجامعة في لاهور لمدة سنة دراسية لكنه رسب في ست مواد من أصل ثمانية. أما الآن فهو طالب في معهد محلي يقع في خابلو وقد قصر نفسه للدراسة من جديد على أمل أن يجد وظيفة حكومية. يعدّل يعقوب من وضعية قبعة البيسبول التي تحمل نجمة ذهبية، وكأنها ترمز إلى الدرجات العالية التي حصدتها أخته خلال سنوات دراستها وهو يقول بارتباك: "لا أملك خياراً آخر فأختي تستحثني وتجتهد في دروسها وعليّ أن أحذو حذوها".

راح إسلام يقلب مجموعة من أوراق مذكرات شاكيلا الأخيرة، ليجد أنها أحرزت علامة تامة في مادة اللغة الأوردية، أمسكها بحنان وكأنه يحتضن سبيكة من معدن نفيس استخرجت من نهر شيوك وقال: "من أجل هذه النعم أشكر الله تعالى وأشكر السيد جريغ مورتنسون".

وبشكل مشابه كان الآلاف من الناس عبر بقاع شمال الباكستان يتغنون بمديح مورتنسون طوال فصلي الصيف والخريف من عام 1998.

وعندما عاد مورتنسون إلى بيشاور، المدينة التي مازالت تفتنه، وذهب لتفقد معسكرات اللاجئين حيث كان المشرفون يجاهدون لإطعام وإيواء وتعليم مئات الآلاف من البشر الذين فروا من أفغانستان التي سيطرت قوات طالبان الإسلامية الأصولية الشرسة على معظم أراضيها ومن أن بناء المدارس ضمن ظروف كارثية كتلك كان ضرباً من المستحيل، فقد توجه مورتنسون إلى معسكر شامشاتو للاجئين وقام بتنظيم مجموعة تتألف من ثمانين مدرساً سيعلمون أربعة آلاف طالب أفغاني وأكدّ لهم أن رواتبهم ستصل بانتظام طوال مدة إقامة اللاجئين في الباكستان.

وكان شمال الباكستان يعاني من جائحة آفات عينية، فاتفق مورتنسون مع الدكتور جيوف تابين وهو طبيب أميركي وأخصائي جراحة عينية على أن يجري عمليات جراحية مجانية لستين شخصاً من المرضى المسنين في سكاردو وجيلجيت ثم أرسل الدكتور نياز علي، طبيب الأمراض العينية الوحيد في بالتستان إلى مشفى تيلانجا لجراحة العين، وهو مشفى مرموق يقع في نيبال، ليقوم بدورة تدريبية تخصصية تمكنه من إجراء عمليات جراحية عندما يعود الدكتور تابين إلى أميركا.

وبعد أن حضر مؤتمراً حول سبل التنمية في بنغلادش، قرر مورتنسون أنه على المدارس التابعة لمؤسسة آسيا الوسطى جميعها أن تحدد الصف الخامس مرحلة نهائية للطلاب الذكور لإعطاء فرص أكبر للطالبات الإناث.

ويشرح السبب بقوله: "عندما ينهي الطلاب تعليمهم فإن معظمهم يغادر القرى للبحث عن العمل في المدن. أما الطالبات فإنهن يبقين هناك ويصبحن قائدات لمحيطهن وينقلن معارفهن للأجيال الآتية. إن


https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنت تريد حقاً أن تطور مجتمعاً وتقوي من عضد النساء وتحسن شروط النظافة والرعاية الصحية وتحار المعدلات العالية في وفيات الأطفال فالجواب يكمن في تعليم الإناث".

وعاد مورتنسون يشق طريقه بسيارته المتينة الخضراء بين القرى جميعها التي نفذت فيها مؤسسة آسيا الوسطى مشاريعها وعقد اجتماعات مع زعماء كل قرية وأصر على أن يحصل منهم على تعهدات موقعة من قبلهم تنص على زيادة عدد الطالبات الإناث في المدارس بنسبة 10% لكل عام إن كانوا يريدون أن تستمر مؤسسة آسيا الوسطى بدعمهم. ويقول مورتنسون "إذا نجحنا في إيصال الطالبات إلى مستوى الصف الخامس، سنحصل على التغيير المنشود".

كما تطور مجلس إدارة المؤسسة تماشيا مع ذلك المبدأ، إذ انضمت إليها كارني زوجة جورج مكاون التي سبق لها وأن أسست مدرسة رسمية نظامية، كما انضم البروفسور الباكستاني عبد الجبار، الأستاذ في جامعة سان فرانسيسكو، ليصبح أعضاء مجلس الإدارة جميعهم من المدرسين المحترفين.

وبوجود اثنتي عشرة مدرسة حتى الآن اكتملت وباشرت التدريس، فقد قامت جوليا بيرجمان بمساعدة أستاذين آخرين من الجامعة بتنظيم دورات تعليم تدريبية للمدرسين تقام في سكاردو خلال كل فصل من فصول الصيف وجمعت ما يلزم من الكتب لتشكل مكتبة مراجع دائمة للمدرسين العاملين لدى مؤسسة آسيا الوسطى جميعهم، وفي اجتماع عقد ذلك الصيف في سكاردو ضمّ غلام بارفي والمدرسين القديرين الذين أحضرتهم بيرجمان من أميركا إلى الباكستان والمشرفين الباكستانيين جميعهم المدرجة أسماؤهم بشكل رسمي على جداول رواتب مؤسسة آسيا الوسطى، أعلن مورتنسون عن إحداث منهج تعليمي ثابت.

المدارس العائدة لمؤسسة آسيا الوسطى سوف تقوم بتدريس المناهج المخصصة نفسها للمدارس الحكومية الباكستانية ذات المستوى التعليمي الجيد. ولا يسمح بإدخال أي منهج يتعلق بمادة (الأدب المقارن) الذي أصبح دارجاً في العالم الغربي، ولا أي منهجٍ آخر يمكن أن يثير حفيظة زعماء الدين المحافظين ويصنفونه معادياً للإسلام. ومن جانب آخر لا يسمح أيضاً بتدريس أي من مبادئ المذهب الإسلامي الأصولي المتعصب كتلك التي تلقن في الكثير من مدرساتهم المنتشرة في أنحاء البلاد.

ويتحدث مورتنسون عن ذلك بقوله: "لا أريد لأطفال الباكستان أن يتخذوا نهج الفكر الأمريكي. كل ما أعمل من أجله هو أن يتلقوا معرفة متوازنة وموضوعية، وذلك هو ما يشكل صلب أهدافي".

كل مشروع ناجح ينجزه مورتنسون كان يضيف مجداً جديداً إلى سمعته الحميدة في شمال الباكستان. وبدأت صوره تعلق فوق المواقد وتشاهد في الشوارع ملصقات بالزجاج الامامي لسيارات الجيب. بما أن الدين الإسلامي يحرم عرض التماثيل والصور ويعتبرها أوثاناً تخص الكفرة، فإن الباكستان لا يعترف بمجمع الآلهة المنتشرين في الجزء الهندوسي الذي يقع في الشرق. لكنهم لا يجدون ضيراً في شيء من التجاوز من أجل شخصيات عامة لها أثر طيب في حياتهم.

كان بطل لعبة الكريكيت قد أصبح بمثابة قديس شعبي في الباكستان.أما الآن ففوق مبنى المكاتب الرئيسية لمورتنسون في سكاردو والكثبان الرملية اللاهبة وعبر الممرات الجبلية الملتوية وعلى قمم الجبال التي تعصف بها الرياح، ترفرف صور ذلك الملحد العطوف دكتور جريغ مورتنسون الذي بات أسطورة ممجدة مثل عمران خان.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

# الفصل السابع عشر

# "أشجار كرز في الرمال"

"أعتقد ان أكثر الأماكن خطورة في العالم هذه الأيام هو شبه القارة الهندية، وخط فصل القوات في كشمير"

الرئيس بل كلينتون في زيارة دبلوماسية كمبعوث للسلام بين الهند والباكستان

تتذكر فاطمة بتول صوت (البوم) الأول الذي أتى واضحاً من موقع سرية سلاح المدفعية الهندية الذي لا يبعد سوى اثني عشر كيلو متر عبر الجبال. كما تتذكر أزيز القذيفة الأولى تندفع من السماء الزرقاء الصافية باتجاه الطريق بينما كانت تعمل مع أختها أمينة في حصاد سنابل القمح، وكيف حدقت الأختان ببعضهما البعض مباشرة قبل حدوث أول انفجار.

في قريتهن برولمو الواقعة في وادي جولتوري، وهو موقع متواجد على الخرائط التي يحملها الجيش الهندي عبر الحدود القريبة تحت اسم "كشمير المحتلة من قبل الباكستان لا يطرأ قط أي حدث جديد، على الأقل بالنسبة لفاطمة التي تبلغ العاشرة من العمر، وتذكر كيف نظرت في وجه أختها عندما بدأت السماء تصدر دوياً غير مألوف، وعندما رأت حسها بالمبالغة ينعكس أيضاً من عيني أختها قائلاً: "ها قد طرأ حدث جديد". لكن ما حدث بعد وابل القطع المعدنية التي تطايرت إثر وقوع القذيفة الأولى فتفضل فاطمة ألا تذكر


https://telegram.me/maktabatbaghdad

منه الشيء الكثير. الصور التي انطبعت في ذهنها كانت مثل الألواح الحجرية القابعة بين قطع الجمر من أجل شي الخبز التي إن لامستها أحرقت أصابعها. كانت هناك جثث وأشلاء بشرية في حقل القمح وكثير من أصوات (البوم) والأزيز تأتي متزامنة مع أصوات الانفجارات بحيث أصبحت صوت عويل واحد.

أمسكت أمينة من يد أختها وأخذتا تركضان بين الفرار الجماعي لأهل القرية الهلعين بكل ما تستطيعانه من سرعة، لم تكن كافية بطبيعة الحال، نحو الكهوف كي تحميهما من السماء.

ومن ملاذها في الظلام الفزع، لا تستطيع فاطمة أو ربما لا تريد ان تتذكر كيف عودت أمينة الخروج إلى زوبعة الأصوات، وتقول أظنها ربما كانت تحاول أن تقود الصغار نحو الكهف، فهي تعرف أن أمينة يمكن أن تقدم على ذلك. أما بخصوص القذيفة التي سقطت في تلك اللحظة تماماً عند مدخل الكهف فإن فاطمة لا تذكر شيئاً على الإطلاق وكل ما تستطيع قوله أنه بعد انفجار تلك القذيفة فإن روحها وروح أختها قد تحطمتا وأن الحياة بالنسبة لكليهما قد اختلفت كلياً وإلى الأبد.

في السابع والعشرين من شهر أيار عام 1999 كان مورتنسون جالساً في مكتبه الكائن في قبو منزله، يجوب محطات المذياع علّه يسمع بعض التفاصيل عن المعارك التي اندلعت فجأة في كشمير ولم يسبق لها مثيل.

منذ ذلك التقسيم الوحشي الذي سلخ الهند عن الباكستان، وكشمير منطقة ساخنة كقنبلة موقوتة يمكن أن تنفجر في أي لحظة، والهند المتفوقة عسكرياً كانت قادرة على الاستيلاء على معظم أراضي الولاية ورغم أنها تعهدت بأن تجري استفتاء شعبياً يعطي سكان كشمير الحق في تقرير مصيرهم، فإن المسلمين الذين يشكلون الأغلبية الساحقة من السكان لم يحصلوا على ذلك الحق أبداً.

لقد أصبحت كشمير بالنسبة للشعب الباكستاني رمزاً للقمع الذي عانى منه المسلمون حين كانت الهند البريطانية تتفسخ. أما بالنسبة للهنود، فإن كشمير تمثل حداً فاصلاً إن لم يكن في الرمال فهو عبر سلسلة الجبال التي يبلغ ارتفاعها ثمانية عشر ألف قدم، وأصبحت جوهرة الإقليم ولن يسمحوا (لجبهة تحرير جامو - كشمير) الذين نعتوهم بالإرهابيين.بانتزاعها من التاج الهندي. وبالنسبة لكلا الطرفين فإن الحد الفاصل الذي أمر اللورد ماونتباتن البريطاني بوضعه فوق الأنهار الجليدية المتوحشة قد ظل جرحاً نازفاً يذكرهم بذلّ الاستعمار.

في عام 1971 وبعد عدة عقود من المناوشات، اتفقت الأمتّان على وضع (خطوط تحكم) عبر تضاريس وعرة وشرسة إلى درجة أنها كانت بطبيعتها الجغرافية سداً منيعاً في وجه الغارات العسكرية. ويتذكر مورتنسون: "التقارير الواردة عن حجم الإصابات البليغة أصابتني بالهلع. فخلال السنوات الست الأولى التي أمضيتها في الباكستان، كان القتال الذي ينشب على طول خط التحكم يراعي اتفاقية (الجنتلمان) القائمة بين الطرفين إذ قام كلا الجيشان الهندي والباكستاني بوضع مراكز مراقبة وسرايا من سلاح المدفعية على طول ضفاف الأنهار. وبعد تناول الشاي صباحاً يطلق الجنود قذيفة أو اثنتين باتجاه مواقع الباكستانيين بواسطة بنادقهم الضخمة سويدية الصنع. وبالمقابل فإن الباكستانيين يردون عليهم ببضع طلقات بعد أن ينتهوا من صلاة الفجر، وكانت الإصابات بين الجنود نادراً ما تحدث. وعندما يحل شهر أيلول، يجمع الطرفان العتاد والجنود ويرحلان وفقاً لاتفاق ضمني على ألا يعودوا إلى مراكزهم حتى الربيع القادم".

لكن شهر نيسان من عام 1999 أتى دافئاً على غير العادة فذاب الجليد وقرر ناواظ شريف رئيس وزراء الباكستان أن يختبر رغبة الهند في الحرب. قبل ذلك بعام واحد، قامت الباكستان بخمس تجارب


https://telegram.me/maktabatbaghdad

على الأسلحة النووية وكانت كلها ناجحة مما عزز الروح الوطنية ونال تصديق الحكومة الباكستانية. فأنشأ شريف نموذجاً مطابقاً لقمة تلال شاجاي، المكان الذي فجرت فيه القنبلة الإسلامية بجوار معبر حر عند النقطة صفر حيث تتقاطع طرقات إسلام آباد مع راولبندي.

في ذلك الشهر، قام حوالي ثماني مئة من المحاربين الإسلاميين المدججين بالسلاح باجتياز (خطوط التحكم) عبر وادي جولتوري واتخذوا لهم مواقع على طول سلاسل التلال التي تقع داخل كشمير الهندية. الرواية الهندية قالت أن عناصر من القوات الخاصة المكلفة بحماية الجزء الأكبر من شمال الباكستان ارتدوا ملابس مدنية ونفذوا عملية الاختراق يرافقهم ما يسمون بالمجاهدين، واتخذت تلك القوات المتحالفة مواقعها بسرية تامة إلى درجة أنهم لم يتمكنوا من معرفة ذلك إلا بعد مرور شهر بواسطة طائرات استكشاف الجيش الهندي التي وجدت أن التلال المرتفعة المطلّة على مواقعهم داخل وحول بلدة كارجيل قد أصبحت محتلة من قبل الباكستان ومناصريها.

رئيس وزراء الهند عطا البيشاري فاجبايي اتهم شريف بأنه قام بغزو الهند، وكان ردّ شريف بأن الغزاة كانوا جنوداً أحراراً يعملون بشكل مستقل عن الجيش الباكستاني النظامي الذين قرروا من تلقاء أنفسهم أن يقاتلوا كي يحرروا مسلمي الباكستان من الاضطهاد الهندوسي. في حين ادعى الهنود أن آرومات الشيكات والبطاقات الشخصية التي وجدوها فيما بعد في جيوب المحاربين القتلى أماطت اللثام عن رواية مختلفة.

وفي السادس والعشرين من شهر أيار عام 1999 أصدر رئيس وزراء الهند أوامره إلى القوى الجوية في الهند بالمباشرة في شن الغارات على الباكستان لأول مرة منذ أكثر من عشرين عاماً. وتوالت غارات طائرات الميغ والميراج دون انقطاع على المواقع المحصنة. أما المحاربون المسيطرون على قمم التلال، فقد ردوا عليهم بصواريخ

ستينجر التي كانت الولايات المتحدة قد زودت بها المجاهدين في أفغانستان بهدف إسقاط الطائرات السوفيتية. وتمكنوا في الأيام الأولى من تفجير طائرة ميغ ومروحية قاذفة للصواريخ هوت نحو الأرض، وحملت تلك الفترة تسمية (نزاع كارجيل).

الحروب غير المعلنة مثل "العمليات العسكرية في فيتنام" كما سميت في السنوات الأولى لا تعبر في معظمها عما يحدث على أرض الواقع. وعندما نطلق تسمية "نزاع" على تلك الأحداث، فإنها لا تعطي الواقع حقه إذا أخذنا بعين الاعتبار كمية المواد المتفجرة التي أطلقها الباكستانيون والهند على بعضهم البعض في عام 1999 .فالقوات الباكستانية قتلت المئات من الجنود الهنود، ووفقاً لتصريحات الهند فإن عدداً لا يحصى من المدنيين راحوا ضحية تبادل إطلاق النار بين الطرفين المتحاربين. والهند التي تفوق الباكستان قوةً وعتاداً، كانت تطلق في اليوم الواحد خمسة آلاف مادة متفجرة من قنابل المدفعية والقذائف والصواريخ، ووفقاً لموقع Globalsecurity.org الإلكتروني فقد تساقطت فوق الباكستان خلال فصلي الربيع والصيف في عام 1999 (250000) قذيفة متفجرة من أنواع مختلفة، وذلك معدل لم يتعرض له أي بلد على وجه الكرة الأرضية منذ الحرب العالمية الثانية.ومع أن الجيش الهندي ينكر ذلك، فإن التقارير المدنية تفيد بأن تلك الذخائر كانت تطلق دون تمييز على القرى التي شاء سوء حظها أن تقع بمحاذاة خطر خطوط التحكم، مثل قرية فاطمة بتول.

تملك مورتنسون شعور بالعجز، وراح يذرع أرض غرفة مكتبه جيئة وذهاباً، وحرمته الاتصالات التي كان يجريها مع معارفه في الجيش الباكستاني. والأخبار التي سمعها عما يجري هناك من ساعات النوم القليلة التي كان عادة يحصل عليها. أفواج لا تحصى من


https://telegram.me/maktabatbaghdad

اللاجئين يتدفقون إلى سكاردو من مناطق القتال عبر المعابر العليا سيراً على الأقدام، منهكين وجرحى وبحاجة ماسة إلى مساعدات لا يقدر أحد في بالتستان أن يوفرها.والحل لا يكمن في الكتب المكدّسة عند الجدران وفوق الرفوف، بل في الباكستان. وحجز مورتنسون لنفسه مقعداً على أول طائرة إلى هناك.

قاد مورتنسون سيارته الجبلية الخضراء عبر نجد ديوساي الذي يعتقد بأنه أجمل منطقة برية على وجه البسيطة، شتلات من الزنبق الأرجواني زرعت بين الجبال على شكل أجمة عريضة، وقطعان من الماعز البري متوجة بقرونها الضخمة تعيش بسلام بعيداً عن التجمعات البشرية راحت تتأمله بسكينة وهو يشق طريقه الصاعدة نحو بالتستان.أما من الجهة الغربية، فقد فتنه نانجا باريات المنحدر الصخري الوحيد الكامل على وجه الأرض.

كان حسين وآبو وفيصل قد حضروا إلى إسلام آباد كي يستقبلوه، وأقنعه حسين وآبو أن يتخذ هذه الطريق التي تستغرق ثلاثاً وستين ساعة نحو سكاردو لأنها ستكون سالكة في معظم الأوقات، لأن طريق كاراكورام العام مكتظّ بقوافل الشاحنات العسكرية التي تحمل الإمدادات إلى مناطق القتال، كما تحمل أكواماً من جثامين الشهداء إلى قراهم، مثواهم الأخير.

توقع مورتنسون أن يكون وحده على تلك الطريق لأن الثلج ما زال يغطي ذلك السفح الذي يبلغ ارتفاعه أربعين ألف قدم، لكن موقعه المجاور للهند جعل الطريق من وإلى (نزاع كارجيل) يعج بقوافل من شاحنات تويوتا مزدوجة المقاعد التي يستعملها المقاتلون المسلمون وهم يلوحون ببنادق كلاشينكوف والجرحى بضمادات جرحاهم.

اضطر مورتنسون أن يجنح بسيارته جانباً عدة دقائق لكي يتجاوزه ذلك السعار الجامح فوق الطريق وصاح من فوق الضجيج يقول "آبو، هل سبق لك وأن شاهدت هذا العدد من عناصر طالبان؟".

آبو الذي يحتقرهم بسبب الصراع الدموي الذي تسببوا به في بالتستان بصق من فمه سيلاً من تبغ المضغ الذي جلبه له مورتنسون من أميركا وأجابه بحسرة: "هؤلاء السفلة يأتون دائماً ولكن ليس بهذه الأعداد الهائلة، إنهم على عجلة من أمرهم لكي يصبحوا شهداء".

كانت سكاردوا قد علقت في آتون الحرب عندما وصلا إليها، والشاحنات تقعقع آتية من الجهة الأمامية تنوء بحملها من جثامين الشهداء المغطاة بالعلم الباكستاني كما تقتضي الأصول. وكانت طوافات ذات لون أخضر كالح تئزّ فوق المنطقة بأعداد لم يشهد لها مورتنسون مثيلاً من قبل ورعاة بدو الجوغار (غجر الباكستان)، يحاولون أن يهدؤوا من روع قطعان الماعز الفزعة من حشود السيارات الهاربة إبان مسيرهم الطويل إلى الهند حيث سيكونون زاداً للقوات الباكستانية المرابطة هناك.

خارج فندق الهندوس وقفت سيارتان سوداوان من طراز تويوتا بلوحتين زرقاوين تحملان اسم الإمارات العربية المتحدة، أمام المدخل بطريقة عرقلت حركة سيارات الجيب التي لم يجرؤ سائقوها على إطلاق أبواق سياراتهم.كان مورتنسون في البهو يعانق علام، مدير الفندق، وأخاه ناظير بعد وصوله، عندما شاهد رجلين ملتحيين ضخمين يحتسيان الشاي إلى واحدة من الطاولات الخشبية الطويلة وملابسهما معفرة بالغبار مثل ملابسه.

ويقول مورتنسون: "نظر نحوي الرجل ذو البنية الأكثر ضخامة وأومأ إلي برأسه قائلاً: "شاي أعتقد أنه كان في الخمسينيات من العمر


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وطوله يبلغ أكثر من ستة أقدام، لقد بقيت تلك المعلومة في ذاكرتي لأنني كنت دائماً أضخم رجل في بالتستان. كانت رأسه معلقة فوق كتلة ضخمة يفترض أنها رقبة، ويحمل أمامه كرشاً هائلاً، مما استبعد إمكانية أن يكون قد قام في حياته بتسلق معبر جبلي يبلغ ارتفاعه ثمانية عشر ألف قدم، إذاً فهو من القادة.

أدار غلام ظهره للرجلين ورفع حاجبيه كإشارة تحذير فقال مورتنسون: "أدرك ذلك" وسار باتجاههما. صافح مورتنسون الرجل الضخم ومرافقه الذي كان ذا لحية مشعثة تمتد حتى خاصرته، وله ساعدان معروقان لوحتهما الشمس حتى بدوا كجزعي شجرة يابسة. وبين أقدام الرجلين شاهد مورتنسون سلاحين أوتوماتيكيين لامعين وجاهزين للعمل.

قال الرجل باللغة البالشتية: "بي خير راغبي ـ أهلا بك".

أجابه مورتنسون: "خير أوسي" التي تعني آيات الاحترام باللغة البالشتية التي بدأ بدراستها منذ احتجازه الذي استمر ثمانية أيام في وزيرستان.

أمره القائد قائلاً: "كيناستل ـ اجلس!".

جلس مورتنسون وأدار الحديث إلى اللغة الأوردية التي يتقنها كي يتجنب إساءة التعبير. كان الرجلان يلفان حول رأسيهما الكوفية ذات المربعات البيضاء والسوداء والتي ترمز إلى ياسر عرفات كان مورتنسون يلفّ مثيلة لها حول فمه وأنفه عندما يجتاز غبار دويساي، لكن هؤلاء الرجال يعتبرونها رمزاً لانتمائهم السياسي. وعرض عليه الرجل أن يتناول الشاي.

"قدم الرجل الضخم نفسه على أنه جول محمد ثم سألني إن كنت أميركياً، وبما أنني أعلم بأنهم يستطيعون معرفة ذلك بسهولة، فقد

رددت بالإيجاب" ثم أومأ مورتنسون برأسه خفية لفيصل بيج الذي كان يقف على مبعدة أقدام قليلة منه. أما مرافقا القائد فقد انسحبا وانضما إلى طاولة آبو وبارفي.

رفع جول محمد إبهامه بحماس وقال باللغة الإنكليزية "أحسنت يا بل كلينتون!".

لقد أخفق بل كلينتون في جهوده لإحلال السلام بين فلسطين واسرائيل لكنه نجح، وإن متأخراً بعض الشيء، في إرسال القوات الأميركية إلى البوسنة عام 1994 التي وضعت حداً لسفك دماء المسلمين البوسنيين، وهذه حقيقة لن ينساها المجاهدون من أمثال جول محمد.

وضع الرجل الضخم يده بتقدير فوق كتف الأميركي الذي لطمته رائحة التعرق والخروف المشوي "انت جندي" قالها وكأنها حقيقة ثابتة. فرد عليه مورتنسون قائلاً: "كنت جنديا منذ زمن بعيد، أما الآن فأنا أبني المدارس للأطفال".

فسأله الرجل الأقل بدانة قائلاً: "أتعرف المقدم صامويل سميث من فورت ووت في ولاية تكساس؟ لقد كان جندياً هو الآخر وقمنا جنباً إلى جنب بسحق السوفييت تحت أقدامنا وكأنهم حشرات" قالها وهو يسحن كعب حذائه العسكري فوق الأرض.

أجابه مورتنسون "يؤسفني ألا أعرفه فأميركا كبيرة جداً".

علق جول محمد على ذلك وهو يبتسم ابتسامة عريضة بقوله: "كبيرة وقوية في أفغانستان كان الله إلى جانبنا، وكذلك كانت صواريخ ستينجر الأميركية".

وعندما سأل مورتنسون الرجلين إن كانا قادمين من جبهة القتال، أصبح جول مستعداً لشرح تفاصيل ما يجري هناك وكأنه لم يصدق أن


https://telegram.me/maktabatbaghdad

السؤال قد طرح. قال: إنّ المجاهدين يقاتلون ببسالة لكن القوات الجوية الهندية ترتكب مجازر مريعة بحق الرجال في محاولة منها للاستيلاء على المراكز الواقعة في التلال خصوصاً بعد أن كيفية قصفها خارج نطاق صواريخ المجاهدين. واستفاض جول بالقول: "سلاح المدفعية سويدي الصنع الذي يمتلكونه فعال للغاية. والسويد تدعي بأنها بلد مسالم لكنها تقوم ببيع الأسلحة الفتاكة".

استفسر الرجلان بشكل دقيق عما يفعله مورتنسون، وعبرا عن رضاهما عندما أخبرهما بأنه يشرف على تعليم أربعة آلاف لاجئ من الطائفة السنية الأفغانية في بيشاور بالإضافة إلى أطفال الطائفة الشيعية في بالتستان. قال له جول أنه يعيش في وادي داريل القريب من الجسر الذي أغلقه المجاهدون منذ خمس سنوات عندما كان مورتنسون يصعد بلوازم المدرسة إلى كورف بالسيارة الشاحنة التي استأجرها وقال له: "لدينا حاجة ماسة إلى المدارس في قرانا، فلم لا تعود معنا وتبني عشراً أو عشرين مدرسة هناك؟ حتى وإن كانت للإناث".

شرح له مورتنسون أن مؤسسة آسيا الوسطى تعمل ضمن ميزانية محدودة وبأن أية مشاريع جديدة لبناء المدارس يجب أن تحصل على موافقة مجلس الإدارة، ووعد بأن يناقش المشروع مع المجلس في الاجتماع القادم وهو يكتم ابتسامة حول ما ستكونه ردة فعل المجلس بهذا الخصوص.

وعند الساعة التاسعة مساءً، بدأت أجفان مورتنسون تنطبق من شدة النعاس، فهو لم ينل سوى قسط قليل من النوم خلال رحلته المضنية عبر "دويساي" أما القادة الذين أرادوا أن يكرموا مورتنسون، فقد عرضوا عليه أن يستضيفوه في الجناح الذي يقيمون فيه، لكنه شرح لهم بأن غلام ونظير يحرصان دائماً بأن تكون له غرفة صغيرة وهادئة في الجهة الخلفية من الفندق وبأنها مريحة جداً بالنسبة له، ثم وضع يده على قلبه وانحنى نحوهم بتحية المساء قبل أن ينصرف.

وفي منتصف الممر الذي يؤدي إلى غرفته، انفتحت أبواب المطبخ المتأرجحة وخرج منها آغا أحمد خادم المطبخ المعتوه بجسده الأعجف وعينيه الزرقاوين الجاحظتين وأمسك بكم القميص الذي يرتديه مورتنسون وهو يصيح بصوت يمكن أن يسمعه كل من في الفندق: "دكتور جريك إنهم طالبان!" كان واضحاً أن أغا أحمد راقب كل ما جرى في بهو الفندق من ثقوب الأبواب لأن الزبد كان متجمعاً حول شفتيه.

ابتسم مورتنسون في وجهه ورد عليه قائلاً: "أعرف ذلك" ثم تابع الطريق وهو يجرجر قدميه نحو النوم.

جاء السيد عباس شخصياً لزيارة مورتنسون عند الصباح، غاضباً إلى درجة لم يكن مورتنسون يتوقعها من رجل الدين الذي يعرف عادة كيف يحافظ على وقاره ويتحدث بالرصانة نفسها التي يدير بها حبات سبحته.لكن سيد عباس كان خارجاً عن طوره في ذلك الصباح وخاض بسيل جارف من الكلام عن الكارثة التي أحاقت بالمدنين في جولتوري بسبب تلك الحرب التي وأن لا احد يعرف أعداد القرويين الذين قتلوا أو أصابتهم العاهات تحت الغارات والقصف الهندي، لكن الشيء المؤكد هو أن آلافاً من اللاجئين قد وصلوا إلى سكاردو وأن آلافاً آخرين ما زالوا داخل الكهوف ينتظرون بعضاً من الانفراج كي ينضموا إليهم.

وقال السيد عباس بأنه تواصل مع الجهات الإدارية في المناطق الشمالية ومع لجنة الأمم المتحدة للاجئين لكن كلا الطرفين رفضا أن يصغيا لتوسلاته. الجهات المحلية المختصة قالت بأنها لا تملك الوسائل اللازمة لمعالجة الأزمة والأمم المتحدة قالت بأنها لا تستطيع أن تمد يد العون للعائلات التي تفر من مناطق القتال لأنهم مهجرون من الداخل ولم يعبروا حدوداً دولية.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

سأله مورتنسون: "ما الذي يحتاجه هؤلاء الناس؟".

"كل شيء، لكن الماء يأتي بالدرجة الأولى".

قاد السيد عباس سيارته يرافقه مورتنسون وآبو وبارفي نحو الجهة الغربية من سكاردو لتفقد مدينة الخيام الجديدة المصنعة من أنسجة بلاستيكية بهتت بفعل الشمس الحارقة التي انبثقت فوق الكثبان الرملية بمحاذاة المطار. غادروا الطريق وخلعوا أحذيتهم بينما كانت طائرات الميراج المقاتلة التابعة للقوى الجوية الباكستانية تزمجر فوق رؤوسهم وهي تؤدي دورياتها، وقد تحلق حول المطار قناصو الطائرات وراء متاريسهم من أكياس الرمل في حالة تأهب قصوى وسددوا مواسير بنادقهم نحو السماء فوق الهند. لقد تم تحويل اللاجئين إلى البقعة الوحيدة في سكاردو التي لا يرغب أحد بها، وموقع التخييم ذاك في قلب الكثبان يفتقر إلى أي مصدر للمياه الطبيعية، كما أن الوصول إلى نهر الهندوس يستغرق ساعة من المسير. كانت العروق في رأس مورتنسون تنبض، ليس من الحرارة التي ترتد عن الكثبان فحسب، بل أيضاً لأنه يدرك المهام الجسام التي أمامهم، وسأل: "كيف سنتمكن من جلب الماء إلى هنا ونحن على مسافة بعيدة في أعلى النهر؟".

أجابه السيد عباس: "لدي معلومات عن مشاريع تم تنفيذها في إيران يدعونها (مخطط رفع المياه) علينا أن نحفر الأرض عميقاً باتجاه المياه الجوفية ونضع بداخلها المضخات وبعون الله سننجح في ذلك".

ركض السيد عباس أمامهم فوق الرمال المتوهجة ورداؤه الأسود يتلاطم من حوله، وراح يشير إلى أماكن يمكن سبرها بحثاً عن المياه الجوفية. ويصفه مورتنسون بقوله: "كم تمنيت في تلك اللحظة أن تشاهد الأمم الغربية التي تسيء فهم المسلمين كيف كان السيد عباس

يعمل بهمة ونشاط، يرون بأم أعينهم أن غالبية الناس الذين يطبقون تعاليم الإسلام الحقيقية بما فيهم الأئمة المتدينون من أمثال السيد عباس، لا يؤمنون بالإرهاب بل بالسلام والعدالة. ومثلما هي التعليمات التي تلقنها التوراة والإنجيل عن نجدة من يقعون في المحن، فإن القرآن يأمر المسلمين جميعهم بأن يعطوا الأولوية لرعاية الأرامل والأيتام والمحتاجين".

بدت مدينة الخيام لأول وهلة وكأنها مهجورة لأن قاطنيها احتموا في الداخل من سياط أشعة الشمس اللاهبة. آبو الذي كان لاجئاً هو الآخر من قريته الأم المتاخمة لجولتوري والواقعة في المنطقة الهندية على الحدود، راح بنفسه يتجول بين الخيام ويدون احتياجات الناس الأولية الماسّة.

وقف مورتنسون وبارفي والسيد عباس في رقعة خالية وسط الخيام يناقشون الوسائل التي سينفذون بها خطة رفع المياه. بارفي كان متأكداً بأنه قادر على إقناع جاره.وهو يشغل منصب المدير في دائرة سكاردو للخدمات العامة بأن يقرضهم الآليات الثقيلة التي ستقوم بعمليات الحفر إن وافقت مؤسسة آسيا الوسطى على شراء الأنابيب ومضخات المياه. سأل مورتنسون: "كم يبلغ عدد الناس الذين يعيشون هنا؟".

أجابه السيد عباس: "أكثر من ألف وخمسمئة شخص حتى الآن ومعظمهم من الرجال الذين جاؤوا بحثاً عن العمل وإيجاد مأوى لكي يحضروا نساءهم وأولادهم، لكنه قد يصبح لدينا أربعة أو خمسة آلاف لاجئ في غضون الأشهر القليلة القادمة".

خرج أبو رزاق من إحدى الخيام واندفع نحو الرجال الذين كانوا يتحدثون فيما بينهم. من بين الأشياء المستديمة في بالتستان، هناك تلك النظرة الشزراء الخبيثة الملتصقة بوجه طباخ المجموعات


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاستكشافية ذاك الذي كان يعرف كيف يقدم الطعام ووسائل الراحة لمجموعات كبيرة في أكثر البقاع توحشاً. لكنه في تلك اللحظة بدا صارماً على غير عادته وفمه يابساً وكأنه عرق من الكوارتز في صخرة من الصوان.ويما أنه في الأصل لا يجد خيراً في أن يضع الأمور في نصابها أمام من يفترض بأنهم رؤساؤه، فقد أخذ بيد مورتنسون واتجه به نحو الخيام وهو يقول له: "دكتور جريغ، كفى ثرثرة، كيف ستعرف ما يحتاجه الناس حقاً إن لم تتحدث إليهم؟".

كان الإمام جولزار يجلس تحت خيمته الزرقاء يعتمر قلنسوة سوداء اللون، ووجد صعوبة في النهوض على قدميه عندما دخل عليه آبو وهو يقود مورتنسون. شدّ الزعيم الديني المسن لقرية برولمو على يدي مورتنسون وعبر عن أسفه أنه لا يملك ما يلزم لإعداد الشاي وبعد أن جلس الجميع متربعين على حائط من المشمع يغطي الرمال الحارة، ألح آبو على الإمام أن يروي قصته لمورتنسون. كان وهج الشمس يأتي عبر الشقوق ويعكس الضوء عن نظارتيه الكبيرتين ويحجب عينيه، فأصبح لدى مورتنسون انطباع غير مؤكد بأنه يصغي إلى رجل ضرير. قال الإمام جولزار وهو يمسح لحيته الصغيرة: "لم نكن نرغب في المجيء إلى هنا لأن برولمو مكان صالح بالنسبة لنا. أو بالأحرى، كانت مكاناً صالحاً، وقد بقينا فيها قدر ما نستطيع، نختبئ في الكهوف خلال النهار، ونعمل في الحقول خلال الليل فالعمل خلال النهار كان سيقضي علينا جميعاً لأن القذائف تأتي من فوقنا بلا هوادة.لكننا في النهاية استسلمنا لأن أقنية الري دمرت والحقول أتلفت والمنازل انهارت ولأن نساءنا وأطفالنا سوف يموتون إن لم نجد حلاً. ولذا فقد عبرنا الجبال سيراً على الأقدام باتجاه سكاردو. وكان الأمر شاقاً للغاية بالنسبة لي لأنني لم أعد شاباً. وعند وصولنا إليها، أمرنا الجيش أن نجعل من هذه البقعة مكاناً لنا، وعندما رأيناه، قررنا أن

نعود إلى ديارنا لكن الجيش منعنا من ذلك وقال لنا: "هذه هي دياركم من الآن فصاعداً، لأن قريتكم قد تهدمت بالكامل" وبالرغم من ذلك فقد أردنا أن نعود إلى هناك لأنه لا توجد حياة في هذا المكان.والآن فإن نساءنا وأولادنا سيحضرون عمّا قريب إلى هذه الأرض اليباب فماذا سنقول لهم؟".

أمسك مورتنسون بكلتا يدي الإمام وقال له: "سوف نجلب المياه إلى هنا من أجل عائلاتكم".

"أشكر الله تعالى على ذلك، لكن المياه لا يشكل سوى البداية. نحن بحاجة إلى الطعام والدواء والتعليم من أجل أطفالنا. أعرف أن هذه البقعة هي ديارنا الآن، وأنا محرج لأنني أطلب منك كل ذلك، لكنك الشخص الوحيد الذي هب لمساعدتنا".

رفع الإمام المسن وجهه نحو السماء من خلال شقوق الخيمة التي بالكاد تحميه منها وبدا كأنه يبث شكواه دون وسيط إلى مسامع الله ورأى مورتنسون أن الحنق الذي شاهده في عينيه من وراء نظارتيه قد تلاشى، وحلّت محله الدموع..

"نحن لا نملك شيئاً، حتى إزاء عطفك الذي جاء استجابة لدعواتنا، لا أملك أن أقدم شيئاً ولا حتى كوباً من الشاي".

استغرق المخطط الأول من نوعه لرفع المياه في شمال الباكستان ثمانية أسابيع. فقد وفى غلام بارفي بوعده وتمكن من إقناع جاره بأن يسمح لهم باستعمال الآليات اللازمة لحفر التربة، كما أن ذلك الجار تبرع بالأنابيب اللازمة كلها لتنفيذ المشرع.وكذلك حضر اثنا عشر جراراً أقرضهم إياها الجيش لترحيل الصخور.

أما مورتنسون فكان يتردد على مركز الهاتف العمومي دون كلل، حتى تمكن من الاتصال بسان فرانسيسكو والحصول على موافقة


https://telegram.me/maktabatbaghdad

مجلس الإدارة في مؤسسة آسيا الوسطى لوقف مبلغ قدره ستة آلاف دولار على المشروع. جلب مورتنسون مضخات المياه ومولدات الكهرباء عالية الاستطاعة من جلجيت، وبهمة كل رجال قرية برولمو الذين عملوا على مدار الساعة، تمكنوا من بناء خزان مياه من الإسمنت يستوعب كمية من المياه كافية لتزويد مستوطنة يبلغ عدد قاطنيها خمسة آلاف نسمة. وبعد أن حفروا التربة إلى عمق يبلغ مئة وعشرين قدماً، نجحوا في الوصول إلى المياه الجوفية التي سترفع نحو الأعلى لتملأ الخزان.وهكذا أصبح رجال برولمو قادرين على بناء بيوت من كتل الطين وعلى قلب أراضي الصحراء البور إلى جنان خضراء تحضن عائلاتهم.لكن المشكلة كانت في كيفية وصول نسائهم وأولادهم إلى سكاردو وهم أحياء.

خلال الفترة التي أقاموها في الكهف، لم تتوقف فاطمة بتول عن البكاء. أما أمينة، ملاذ اختها الصغيرة وحضنها الحنون، فلم تكن قادرة على الاهتمام بأحد ولا حتى بنفسها.القذيفة التي انفجرت قربها عند مدخل الكهف أصابتها بجروح سطحية، أطلقت بعدها صرخة واحدة جراء الخوف والألم وانهارت أرضاً، لكن الجرح البليغ كان في داخلها، إذ أنها لم تعد تنطق بكلمة واحدة بعد ذلك. وفي الصباحات، حين كانت تقبع مع الآخرين داخل الكهف وتبدأ القذائف بالسقوط بلا هوادة، تبدأ أمينة بالارتعاش وتصدر عنها أنّات تشبه زئير الحيوانات وليس فيها ما يطمئن فاطمة.

نرجس علي، صديقة فاطمة، تقول: "الحياة في الكهوف كانت قاسية للغاية، قريتنا برولمو، ذلك المكان الجميل المزدان بالأشجار القائمة على سفح عند ضفاف نهر الإندوس، كنا ننظر إليها ونرى كيف تدمر أمام أعيننا ولا نملك أن نفعل شيئاً من أجلها.كنت فتاة

صغيرة حينئذٍ ويركض بي أقاربي إلى داخل الكهف عندما يبدأ القصف. لم أتمكن أبداً من اللعب في الهواء الطلق أو أن أرعى البهائم، أو حتى أن ألتقط عن الأرض الثمار التي نضجت على الأشجار وبدأت تتساقط وتتعفن. وأثناء الأيام الماطرة والمثلجة، كنا نجد صعوبة بالغة في أن نطبخ أو ننام ولا نغادر الكهوف أبداً لأن الهند قريبة جداً ويجب ألا نخاطر بحياتنا في الخروج منها".

وتقول نرجس أن عمها والد إبراهيم ذهب ذات يوم ليبحث في حطام بيته عن شيء من المؤونة، لكن قذيفة أصابته عند عودته وأردته قتيلاً "لقد كان رجلاً محباً للغاية وكم أردنا أن نذهب إليه لكننا اضطررنا إلى الانتظار حتى حلّ الظلام وتوقفت القذائف كي ننقله إلى الداخل. نحن نغسل أجساد الموتى عادة قبل الدفن، لكننا لم نستطع أن نفعل ذلك لعمي لأنه كان عبارة عن أشلاء جمعناها إلى بعضها البعض ووضعناها داخل قطعة من القماش" القلة القليلة من الرجال الذين لم يغادروا قرية برلمو عقدوا اجتماعاً وأعلنوا بعده أن الصغار من أمثال فاطمة ونرجس قد أصبح عليهم أن يتحلوا بالشجاعة وأن يخاطروا بمغاردة الكهوف ويرحلوا سيراً على الأقدام بمؤونة شحيحة لأن الاستمرار بالبقاء داخلها أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

جمعوا المتاع القليل الذي استطاعوا أن ينتشلوه من منازلهم ورحلوا عند منتصف الليل نحو قرية مجاورة يفترض أنها بعيدة نسبياً عن مواقع المدفعية الهندية. وفي ذلك الصباح شعروا بشيء من البهجة عندما شاهدوا شروق الشمس في الهواء الطلق للمرة الأولى منذ أشهر طويلة.وبدؤوا يعدّون الخبز فوق الحجر من أجل رحلتهم، لكن القذائف بدأت تتساقط فوقهم من جديد آتية من أسفل الوادي نحو الأعلى باتجاههم. وتعتقد فاطمة أن مستطلعاً من الجيش الهندي كان جاثماً فوق إحدى القمم قد رآهم فاخذ يسدد القصف باتجاههم.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتقول فاطمة: "وفي كلِ مرة تنفجر فيها القذائف، كانت أمينة ترتجف وتبكي ثم تقع أرضاً، وبما أنه لا توجد كهوف في المكان الذي كنا فيه، فلم نملك سوى أن نركض هاربين. وكم أشعر بالخزي من ذلك الآن، لكنني كنت مذعورة إلى حد لا يوصف، فتوقفت عن سحب أمينة، وركضت لكي أنجو بنفسي وأنا خائفة من أن تقتل، ولكن يبدو أن فكرة البقاء وحدها كانت مرعبة أكثر من القذائف، فبدأت هي أيضاً تركض مع بقية أهل القرية.

سار الناجون من برلمو يتسلقون الجبال لمدة ثلاثة أسابيع، وتصف فاطمة تلك الرحلة بقولها: "كنا غالباً نمشي فوق ممرات مهدتها الحيوانات البرية ولم تطأها قدم بشر من قبل، وكنا نعاني من الجوع لأننا تخلينا عن الخبز الذي كان فوق النار عندما بدأت القذائف تتساقط، فأكلنا ما توفر من حشائش برية وثمار صغيرة كي نبقى أحياء، مع أنها كانت تسبب آلاماً مبرحة في أحشائنا".

وأخيراً تغلب من تبقى من سكان قرية برلمو على ترحالهم الطويل ووصلوا إلى سكاردو وقد هدّهم الإنهاك والهزال، حيث دلهم الجيش على موطنهم الجديد. هناك فوق الكثبان الرملية التي تقع قرب المطار، كان على فاطمة وبقية الناجين أن يبدؤوا بمداواة أرواحهم الدامية وأن يباشروا بتأسيس حياة جديدة، باستثناء أمينة بتول "عندما وصلنا إلى قريتنا الجديدة، استلقت أمينة أرضاً وأبت النهوض. لم يتمكن أحد من إعادتها إلى الحياة مع أنها وصلت إلى بر الأمان ويحيط بها والدي وأعمامي فإن ذلك لم يعنِ لها شيئاً، وفارقت الحياة بعد أيام قليلة.

وعندما تحدثت فاطمة عن موت أختها بعد خمس سنوات، كان الألم الذي يعتصر وجهها طازجاً وكأنه حدث لتوه عندما سمحت للذكرى أن تطفو على سطح ذاكرتها قبل أن تسارع إلى دفعها نحو أعماقها مجدداً.

في مدرسة إناث جولتوري اللاجئات التي أنشأتها مؤسسة آسيا الوسطى فوق الكثبان الرملية الواقعة قرب المطار في عام 1999، تجلس فاطمة بتول إلى مقعدها في غرفة الصف الخامس وقد بلغت الخامسة عشرة من العمر، تخبئ وجهها وراء وشاحها الأبيض لتتهرب من وابل الأسئلة التي تنهال عليها.

زميلتها في الصف نرجس علي التي بلغت الرابعة عشرة تلتقط خيوط القصة من حيث تركتها فاطمة وتصف كيف تمكنت من الوصول إلى هذا الصف، وتضم إلى صدرها كراسها الجديد وقلمها والمبراة، وتشير إلى خارطة مجسمة للعالم زاهية الألوان وتقول إن أدواتها المدرسية وصلتها من منظمة خيرية موجودة في بقعة ما في العالم حاولت أن تجدها على الخارطة ولم تفلح. تقول نرجس علي: "عندما وصلنا بعد تلك الرحلة المرهقة، كنا سعداء طبعاً لأننا اجتمعنا مع أسرنا من جديد ثم نظرت حول المكان الذي يفترض بنا أن نعيش فيه وشعرت بالخوف والقلق.فلم تكن هناك منازل ولا أشجار ولا مسجد ولا أثر لشرط واحد من شروط المعيشة.ثم جاء السيد عباس وأحضر معه ذلك الرجل الأجنبي الضخم الذي تحدث إلينا قائلاً بأننا إن وافقنا على العمل بشكل جدي، فسوف يساعدنا في بناء مدرسة. وما الذي حدث بعد ذلك؟ لقد وفى بوعده!".

طالبات الصف الخامس في مدرسة إناث جولتوري اللاجئات كن متأخرات تعليمياً عن الطلاب الذين في أعمارهن، لأن تعليمهن الرسمي لم يبدأ إلا بعد هروبهن من قراهن الأصلية، فالعمر المحدد للصف الخامس هناك هو خمسة عشر عاماً وكان الذكور يسيرون لمدة ساعة كي يصلوا إلى مدارس الذكور الحكومية التي تقع حول القرى، أما إناث جولتوري البالغ عددهن "129" فتاة، فكان يمكن أن تنتهي أعمارهن دون أن يشاهدن بناء المدرسة من الداخل. لذا فإن هذا


https://telegram.me/maktabatbaghdad

المبنى يشكل بقعة الضوء الوحيدة التي أنارت لهن الدرب بعد محنة ذلك النفق الطويل من الرعب والفرار.

وهذا هو الدافع الذي جعل فاطمة بتول تتغلب على محنتها التي وجهت الكثير من الطعنات إلى روحها، فكانت تجلس منتصبة القامة وراء مقعدها وتزيح الوشاح عن وجهها وتقول للزائرين بصوت عذب: "لقد سمعت بعض الناس يقولون بأن الاميركيين أشرار. أما نحن فنحب الأميركيين ونؤمن بأنهم كانوا من خيرة الأشخاص بالنسبة لنا لأنه لم يأت أحد غيرهم لنجدتنا أثناء محنتنا".

خلال السنوات التي تلت، عاد بعض اللاجئين إلى جولتوري وتابع أولادهم التعليم في المدرستين اللتين أنشأتهما مؤسسة أسيا الوسطى داخل الكهوف لحماية الطلاب من القذائف التي يمكن أن تمطرهم بها الهند في حال عاد البلدان إلى النزاع.لكن نرجس وفاطمة بقيتا في القرية الجديدة خارج سكاردو لأنها أصبحت موطنهن، كما تقولان.

فيما وراء الفناء الرملي للصفوف الخمسة ذهبية اللون في مدرستهن تصطف بأناقة سلسلة من البيوت المبنية من الطوب، تمتد نحو خط الأفق ويعلو بعضها صحون القمر الصناعي التي ترمز بوضوح إلى الرفاهية والنية في الاستقرار.

وهناك بين المنازل التي كانت فيما مضى كثباناً رملية لاهبة، تقبع البيوت تحت ظلال أشجار الكرز، ترويها خطة رفع المياه، وارفة وغنية بالثمار، والتي انبثقت كضرب من المستحيل، ساحقة من بين الرمال شأنها كشأن فتيان جولتوري اللواتي يقطعن طريق العودة من تحت أغصانها إلى منازلهن وقد غدون طالبات للعلم.

# الفصل الثامن عشر

## جسد مسجى

" لا تسمح لشيء أن يبعدك عن طريق الهدى،
ولا لشيء أن يبث فيك الرعب. الأشياء كلها إلى
زوال لكن الله لا يتحول. والصبر مفتاح الفرج" .

الأم تريزا

ترتيب مئتي الكرسي كان يستغرق وقتاً أطول مما توقعه مورتنسون. ففي التجمعات كلها التي كان يدعو إليها الناس لعرض السلايدات سواء في الساحات العامة أم باحات التاجر المفتوحة والكنائس وقاعات الجامعات، كان يتوفر له على الدوام شخص يمد يد المساعدة. أما هنا، في باحة متجر مسترسبروتس الذي يقع في آبل فالي في ولاية مينيسوتا، فقد كان العاملون جميعهم منهمكين في جرد السلع من أجل التنزيلات المعتادة التي تقام على البضائع بعد عيد الميلاد مباشرة. ولهذا، فقد كان على مورتنسون أن يعمل وحده.

وعند الساعة 6:45 مساء، ولم يتبق سوى خمسة عشرة دقيقة على الموعد المحدد كي يبدأ مورتنسون عرضه، لم يكن قد فتح أكثر من مئة من الكراسي المعدنية الحمراء التي راح يضعها بالترتيب بين الرفوف التي تحمل أكياس النوم العازلة للصقيع، وأدوات تسلق الجبال ومقاييس المرتفعات وأجهزة إنذار الإنهيارات. حثّ نفسه على العمل بسرعة وأخذ يفتح الكراسي ويصفق بها على عجل في أماكنها. كان لديه حسّ الإلحاح نفسه الذي تملّكه عندما عمل على إنشاء جسر كورف.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

سرعان ما بدأ مورتنسون يتصبب عرقاً بسبب وزنه المخجل الذي لا يتوقف عن الازدياد منذ آخر مرة تسلق فيها "كيه 2"، ولم يكن راغباً في خلع الكنزة الرياضية السميكة التي كان يرتديها لأن الغرفة ستعج عمّا قريب بالحضور المتأنقين. وعند الساعة السابعة ودقيقتين، كانت الكراسي جميعها في مواضعها، وراح مورتنسون يلهث وهو يمشي بخطى واسعة بين الصفوف ليضع الكراس الذي أصدرته مؤسسة آسيا الوسطى فوق الكراسي كلها وقد ألصق على الغلاف الخلفي للكراسات مغلفاً مخصصاً للتبرعات يحمل كل منها عنوان صندوق بريد المؤسسة.

المال الذي كان يحصل عليه من تلك المغلفات جعله يصبر على مشاق هذه العروض. فموارد مؤسسة آسيا الوسطى كانت تنحدر نحو الإفلاس، وعليه أن يتحدث إلى الناس بمعدل مرة في الأسبوع. خلال الأوقات التي يمضيها خارج الباكستان. لم يكن مورتنسون يمقت شيئاً أكثر من الوقوف أمام حشد من الناس كي يتحدث عن نفسه، لكن الفرق الذي سيحدثه أي تبرع يستطيع الحصول عليه، خصوصاً بضع مئات من الدولارات، بالنسبة لأطفال الباكستان، كان يجعله يحمل حقيبته الصغيرة جيئة وذهاباً إلى المطار.

تفحص آلة العرض القديمة التي كان قد ثبتها بشريط لاصق للتأكد من أنها ستبث المشاهد المطلوبة، وتحسس جيب بنطاله واطمأن إلى وجود مؤشر الليزر الذي يستعمله لتركيز انتباه الحضور على قمم كاراكورام، ثم استدار ليواجه جمهوره، فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام مئتي كرسي فارغ.

كان قد وضع ملصقات إعلانية داخل الحرم الجامعي، وتوسل إلى الصحف المحلية كي تضع بدورها بعض الإعلانات، وأجرى

لقاءاً إذاعياً قصيراً لدى إحدى المحطات خلال فترة صباحية تبث أثناء ذهاب الناس إلى أعمالهم. وبما أنه يتوقع أن يكون الحضور كاملاً بعد كل تلك الاستعدادات، فقد اتكأ مورتنسون على رف يحمل مفارش نوم ذاتية الانتفاخ ينتظر وصول جمهوره.

ابتسم مورتنسون ابتسامة عريضة في وجه سيدة اقتربت من المكان، ترتدي سترة رياضية برتقالية اللون وتعقص جدائل شعرها الفضي فوق رأسها، لكنها أشاحت بوجهها بارتباك وأخذت تتفحص السعر المدّون على كيس للنوم مخصص للمناطق القطبية، ثم حملتها تحت إبطها واتجهت نحو طاولة التسديد. وعند الساعة السابعة والنصف، كان مورتنسون ما يزال يحدق ببحر الكراسي الفارغة، فيما كان أحد العاملين يتحدث عبر مكبر الصوت يناشد الزبائن الذين اجتذبتهم التنزيلات في الأسعار أن يشغروا بعضاً من متني الكرسي "أيها السيدات والسادة، لدينا متسلق جبال على مستوى عالمي ينتظركم كي يعرض عليكم مشاهد خلابة لجبل "كيه 2". هيا اقتربوا وتأكدوا من ذلك بأنفسكم!".

حضر شابان من قسم المبيعات بصدرتيهما الخضراوين بعد أن فرغا من عملهما وجلسا في الصف الأخير. قال بهما مورتنسون: "اتريدان سماع ما أنوي أن أقوله؟".

أجابه أحدهما وهو شاب ملتح دس خصل شعره الشقراء المجعدة تحت طاقية صوفية ذات لون فضي "ستتحدث عن تسلق قمة "كيه2" أليس كذلك؟".

"شيء من هذا القبيل".

"إذاً باشر الحديث أيها المتأنق!".

عرض مورتنسون بداية الصور الرئيسية التي كان قد التقطها بجبل "كيه2" وتحدث بالتفصيل عن إخفاقه في تسلقه منذ سبعة أعوام، ثم


https://telegram.me/maktabatbaghdad

انتقل على مضض إلى لب الموضوع، فتحدث عن الصور التي يعرضها أمامهما عن المدارس الثماني عشرة التي مولتها مؤسسة آسيا الوسطى، والتي تعمل الآن في الباكستان. وتوقف مطولاً عند آخر مدرستين أنشأتهما المؤسسة في وادي جولتوري ملاصقة لمداخل الكهوف، بعد الإعلان رسمياً عن نهاية (نزاع) "كارجيل"، كي لا تمنع القذائف التي مازالت تتساقط آلاف القرويين العائدين لترميم منازلهم المهدمة من إرسال أولادهم ليتعلموا بمنأى عن الخطر

كان مورتنسون يعرض صوراً التقطها منذ شهر واحد لفاطمة ونرجس وباقي زميلاتهن، يبتسمن في وجه آلة التصوير وهن يحتضن كراساتهن داخل مدرسة إناث جولتوري اللاجئات، عندما لمح رجلاً في أواسط العمر لائق المظهر يلقي نظرة عابرة على عرض للساعات الرقمية، عند زاوية قريبة، فابتسم في وجهه، وجاء الرجل واتخذ مقعداً له وثبتّ أنظاره على شاشة العرض.

وبما أن عدد الحضور ازداد بنسبة النصف فقد تحمس مورتنسون وتحدث بشغف لمدة نصف ساعة إضافية عن الفقر المدقع الذي يحيق بأطفال كاراكورام بلا هوادة واستفاض في الحديث عن خططه المستقبلية الهادفة إلى البدء في فصل الربيع القادم ببناء مدارس عند التخوم التي تفصل مباشرة الباكستان الشمالية عن أفغانستان.

"عندما نوطد أواصر العلاقات الإنسانية، وننجح في جعل تجمع بشري يستثمر أرضه ويده العاملة من أجل منفعته، ستتمكن من بناء مدرسة ومن أن نجعلها تستمر كي ينال جيل كامل من آلاف الأطفال حقهم في التعليم بمبلغ لا يتجاوز عشرين ألف دولار، وهو نصف التكلفة التي على الحكومة الباكستانية أن تخصصها لبناء مدرسة مماثلة، وهو أيضاً خمس ما سينفقه البنك الدولي للغرض نفسه".

ابتسم مورتنسون بمودّة لجمهوره المؤلف من ثلاثة أشخاص، وأنهى الأمسية بعد أن استشهد بقول للأم تريزا: "قد يكون ما نحاول أن نفعله لا يتعدى نقطة ماء عذبة واحدة في البحر، لكن تلك القطرة ستجعل مياه البحر أقل ملوحة".

الامتنان الذي شعر به مورتنسون حيال تصفيق جمهوره الصغير كان يعادل إحساسه بالراحة لأنه انتهى من الحديث. أطفأ جهاز العرض وبدأ بجمع الكراسات من على الكراسي التي أخذ الشابان يساعدانه بها وهما يطرحان عليه الأسئلة: "هل تحتاجون أو ترغبون بمتطوعين للعمل هناك؟ لقد سبق لي وأن اشتغلت بأعمال البناء وأستطيع أن أحفر لأدق بعض المسامير، فما رأيك؟".

شرح مورتنسون لهما بأن ميزانية مؤسسة آسيا الوسطى محدودة، وهو يقول لنفسه بل أكثر من محدودة هذه الأيام، وأنهم لا يستطيعون أن يتحملوا نفقات سفر متطوعين أمريكيين إلى الباكستان، وأعطاهما عناوين منظمات خيرية أخرى تعمل في قارة آسيا وتقبل المتطوعين.

بحث الشاب الملتحي ذو الخصلات الشقراء المجعدة في جيبه وأخرج ورقة نقدية من فئة عشر الدولارات وأعطاها لمورتنسون وقال وهو ينقّل قدميه بارتباك: "كنت أنوي الخروج بعد العمل لتناول البيرة، ولكن...لا بأس..!".

شدّ مورتنسون على يده وشكره بحرارة، ثم وضع الدولارات العشرة داخل مغلف التبرعات المعنون إلى مؤسسة آسيا الوسطى.

ثم جمع بقية الكراريس ووضعها داخل حقيبته وهو يتنهد بحسرة على الوزن الزائد الذي حمله على كتفه ليقطع به نصف البلاد وعليه الآن أن يعود به مقابل حصيلة زهيدة تساوي عشرة دولارات فقط ليس غير.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعندما وصل إلى المقعد الأخير الذي يقع في آخر صف قرب عرض الساعات الرقمية، وجد مورتنسون مغلفاً نزع عن كراس المؤسسة وبداخله شيك مصرفي بقيمة عشرين ألف دولار.

لم يعد مورتنسون يواجه بحراً من الكراسي الفارغة كل أسبوع، على وجه الخصوص ضمن الدائرة الشمالية الغربية للمحيط الهادئ حيث أصبح موضع ترحاب عند الناس وتحديداً بعد أن وصلت تفاصيل حكايته إلى مسامعهم. في شهر شباط عام 1999 اصبحت أوريجونيان الصحفية الأميركية الأولى المخصصة لسرد تفاصيل ما فعله مورتنسون، إذ قام الكاتب الصحفي تيري ريتشارد بشد انتباه قرائه إلى متسلق الجبال السابق الذي حقق نجاحاً أشبه بالمعجزة عندما تسلق قمة من نوع آخر، قمة غير مرئية، لكنها موجودة. وقد كتب عن مورتنسون قائلاً: "إنه جزء من العالم لا يثق بالأميركيين فحسب بل ويكرههم. لكن تلك الكراهية لم تشمل جريغ مورتنسون، ذلك المواطن الذي يقطن في مونتانا ويبلغ من العمر واحداً وأربعين عاماً وكرس حياته لبناء المدارس في القرى النائية المنسية في أقاصي وديان الباكستان الجبلية".

تحدث ريتشارد إلى قرائه عن رسالة مورتنسون مؤكداً على أن يد المعونة تلك التي امتدت إلى النصف الآخر من العالم لها تأثير إيجابي على الحياة الأميركية لا يدركه الأميركيون أنفسهم "الريف الباكستاني عبارة عن بقعة مضطربة سياسياً وهي الأرض الخصبة التي يترعرع فيها الإرهابيون الذين يتشاركون الشعور بالعداء لأميركا. ومعظم الصغار هناك ينتهي بهم المطاف بالانضمام إلى المعسكرات التدريبية (الإرهابية)".

ثم يقتبس ريتشارد قولاً لمورتنسون: "حين نرفع من نسبة أعداد المتعلمين، فإننا بالمقابل نخفض من نسبة حدّة التوتر".

ويختم ريتشارد مادته الصحفية بقوله: "في أعماق منطقة من أكثر بقاع العالم اضطراباً، حقق مورتنسون، وما يزال، تغيراً ملموساً نحو الأفضل".

وفي الشهر الذي تلاه، كتب جون فيلن، المراسل الجوال لصحيفة سان فراسيسكو إيكساميز، مقالاً حثّ فيه القراء على حضور عرض مورتنوسون المقبل بتقديم ملخص عن سيرة حياة مورتنسون المميزة، واختتم المقطع بقوله: "سيكون شيئاً جديراً بالتفكير عندما تسألون أنفسكم ذات يوم: ما هو الفرق الذي يمكن أن يحدثه شخص بمفرده؟".

في فصل الشتاء ذاك عندما قام مورتنسون بعرض صوره في بورتلاند وسان فرانسيسكو، كان على منظمي الحدث أن يردوا المئات على أعقابهم لأن المكان أصبح مكتظاً بالحضور.

في بداية الألفية الثالثة، أصبح مورتنسون ومؤسسة آسيا الوسطى قضية يتسابق على رعايتها كبار متسلقي الجبال في أميركا، وقبل موته في شهر تشرين الأول عام 1999 بسبب انهيار ثلجي مفاجئ على إحدى قمم نيبال، حضر أليكس لو، جار مورتنسون وصديقه وأحد أكثر متسلقي جبال الألب تقديراً، لكي يقدم مورتنسون إلى الحضور في حملة لجمع التبرعات في مونتانا.تحدث أليكس إلى جمهور من متسلقي الجبال قائلاً: "عندما كنا جميعاً نحاول أن نتسلق قمماً لم نختبرها من قبل، كان جريغ يزيح الجبال بمفرده بدون ضوضاء. وقد أنجز ما لا يصدق مسلحاً بعناده وتصميمه ليس إلا. ذلك هو الارتقاء الذي لم نختبره وعلينا أن نجربه".

مقولة أليكس تلك جابت آفاق عالم متسلقي الجبال "الكثير منا يفكر في مد يد المساعدة، لكن مورتنبسون فعلها" يقول جاك تاكل، متسلق الجبال الشهير الذي تبرع بمبلغ عشرين ألف دولار لتأسيس مدرسة جعفر آباد الإعدادية للإناث التي تقع في وادي شيجار الأعلى.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكن كلما ازدادت محبة الناس لمورتنسون في الباكستان، وكلما ازداد إعجاب دائرة متسلقي الجبال به، ازداد كذلك الحنق الذي يثيره في نفوس الذين يعملون معه في أميركا. فحين لا يكون في الباكستان يتواثب فوق الطرق الترابية، أو يتراكض في أنحاء أميركا حاملاً آلة العرض على كتفه، يصبح مورتنسون غيوراً على الوقت الذي يمضيه مع عائلته وعلى خصوصيته الكامنة في سكينة مكتبه الراقد في قبو منزله.

وعن ذلك يقول توم فوجن رئيس مجلس الإدارة السابق لمؤسسة آسيا الوسطى. "حتى عندما يكون جريغ هنا، فإنه لا يتصل بنا. وتمر الأسابيع دون أن يرد على اتصالاتنا أو على البريد الالكتروني. وقد ناقش المجلس ذات مرة أن يحضر أمامنا ويقدم تسويغاً لهذا الانقطاع، وما لبثنا أن ألغينا الفكرة التي لن تجدي نفعاً لأن جريغ لا يفعل إلا ما يريده.

وتقول جينيفر ويلسون، أرملة هويرني "ما كنا بحاجة ماسة إليه هو تأهيل بضع نسخ عن جريغ، أي أن يصبح لدينا عدد من الأشخاص يستطيع جريغ أن يفوضهم بتنفيذ المشاريع لكنه رفض ذلك قائلاً بأننا لا نملك المال الكافي لاستئجار مكتب أو تعيين موظفين، كما أنه ما يلبث أن يغوص في تفاصيل مشروع على حساب مشروع آخر.وهذا ما جعلني أقرر أن أقصيه بنفسي عن مؤسسة آسيا الوسطى.أنا لا أشكك في أنه أنجز الكثير، لكنني أعتقد أننا كنا سنفعل أكثر بكثير لو أن جريغ وافق على إدارة المؤسسة بروح مسؤولة".

ويقول توم فوجن: "لنكن صادقين مع أنفسنا، الواقع هو أن مؤسسة آسيا الوسطى هي جريغ. لقد كنت أوافق على مضض على أي عمل يريد أن يقوم به، ووجود مؤسسة آسيا الوسطى قائم على وجود جريغ وأستطيع أن أتفهم لأن مخاطرته بحياته في تلك البقعة من العالم هي جزء لا يتجزأ من عمله، لكن الطريقة التي يعامل بها نفسه بدأت

تثير غضبي. فقد توقف عن ممارسة التسلق والرياضة وامتنع عن النوم وازدادا وزنه إلى درجة أن النظر إليه لن يصدق أنه متسلق جبال. أعرف أنه قد صمم على أن يصب كل قطرة من روحه في عمله، ولكن ما الجدوى إذا خرَّ في لحظة ما صريعاً إثر نوبة قلبية؟".

وأخيراً وافق مورتنسون على مضض على تعيين مساعدة له تدعى كريستين سلوتر كي تعمل بضع ساعات كل يوم لترتيب القبو الذي أصبح باعتراف جريغ الشخصي، في حالة رثة من الفوضى. لكنه أمضى فصل الشتاء من العام 2000 مرتاعاً لأن رصيد المؤسسة في المصرف قد تضاءل إلى أقل من مئة ألف دولار ولم يعد قادراً على توسيع مشاريع المؤسسة أكثر مما هي عليه، ويقول مورتنسون: "لقد تمكنت من الوصول إلى بناء مدرسة يتعلم فيها أجيال وأجيال من أطفال قرية معينة بتكلفة لا تتجاوز الاثني عشر ألف دولار. الذين يعملون لدينا في الباكستان يرقصون طرباً لأن دخلهم السنوي يصل إلى أربعمئة أو خمسمئة دولار. لذا فقد كنت أجد صعوبة في تخفيض راتب لموظف وفق المعايير الأميركية، لأن ذلك الراتب يستطيع أن يحقق الكثير هناك".

كان راتب مورتنسون في ذلك الحين يبلغ ثمانية وعشرين ألف دولار سنوياً وعندما يضاف إليه الدخل المتواضع الذي تجنيه تارا من عملها الجزئي في عيادة للطب النفسي، فإنهما يتدبران أمر المصاريف الشهرية بالكاد.

يقول مورتنسون أن المؤسسة تمر بضائقة مالية خانقة ولن يسمح له ضميره بأن يقبل أي زيادة في راتبه حتى وإن بادر إليها مجلس الإدارة. وكانت تداعب مخيلة مورتنسون خاطرة بأن يظهر رجل غني ليحمل مشكلاته جميعها بشطبة واحدة من قلمه، غير أن الأغنياء لا يتخلون عن ثرواتهم بهذه السهولة، وقد علمته التجارب ذلك من


https://telegram.me/maktabatbaghdad

مهزلة الرسائل الخمسمئة وثمانين. لكن جاك هويرني علمه أيضاً الفرق الكبير الذي يمكن أن يحدثه تبرع كريم واحد. وعندما بدأت سيدة من أتلانتا توحي بأنها متبرعة تتصل بمكاتب المؤسسة وتلوح بالصنارة، ابتلع مورتنسون الطعم واشترى تذكرة سفر إلى هناك.

وكانت تلك السيدة المسنة قد تحدثت إليه على الهاتف وقالت له: "لقد أمضيت حياتي وأنا أوفر المال وجمعت ثروة توجد أمامها ستة أطفال صغار على الأقل، وعندما قرأت ما تفعله أنت، وجدت الهدف الذي كنت أوفر من أجله. تعال إلى أطلنطا لنبحث المبلغ الذي سأتبرع به".

وعندما وصل مورتنسون إلى قاعة المطار أعاد تشغيل هاتفه الجوال فوجد رسالة نصية تطلب منه أن يستقل الحافلة العامة إلى فندق يبعد خمس عشرة دقيقة عن المطار، ثم يتابع طريقه سيراً على الأقدام باتجاه موقف للسيارات يقع في رقعة بعيدة عن الفندق.

وعندما وصل إلى الموقف المذكور، وجد فيرا كورتز التي تبلغ من العمر ثمانية وسبعين عاماً محدودبة فوق مقود سيارتها الفورد القديمة. كان صندوق السيارة والمقعد الخلفي مكتظين بصحف قديمة وعلب طعام معدنية فارغة فصعد إلى المقعد المجاور، وحشر حقيبته الصغيرة بين صدره والزجاج الأمامي.

"جعلتني أخوض تلك المشاق كلها لكي توفر بضعة دولارات في موقف المطار المأجور. لقد كان علي أن أعود من حيث أتيت عندما لمست تمسكها بجرائد قديمة وعلب فارغة.لكن ما قالته لي عن تلك الأصفار الستة جعلني أخطئ التقدير، فركبت إلى جوارها وأغلقت باب السيارة".

كان مورتنسون يعتصر يد حقيبته بيديه، في حين قادت فيرا سيارتها في الاتجاه المعاكس لشوارع ذات اتجاه واحد، تلوح بقبضتها غضباً بوجه سائقي السيارات الذين أطلقوا أبواق سياراتهم احتجاجاً.

وعندما وصلا إلى منزلها الذي يعود تاريخ بنائه إلى الخمسينات، اضطر مورتنسون إلى السير جانباً لتجنب ركام المجلات والصحف التي صدرت منذ عشرات الأعوام، حتى تمكن من الوصول إلى مطبخها، وجلس إلى طاولة تقع قرب مغسلة مسدودة تطفح بمياه قذرة كالحة اللون. فتحت بضعاً من قوارير الويسكي الصغيرة التي كانت تجمعها أثناء رحلات الطيران خلال سنوات عديدة وصبّت كأساً لي وكأساً آخر لها ثم قدمت لي باقة من الزهور التي ذوت إلى درجة أنها أصبحت بنية اللون.

وبعد أن تبادلا حديثاً ودياً قصيراً، حاول مورتسنون أن يدير دفة الحديث إلى التبرع الذي ستقدمه فيرا، لكن مضيفته كانت لديها مخططات أخرى وشرحت له البرنامج الذي وضعته للأيام الثلاثة القادمة. فهي ستأخذه لزيارة المتحف العالمي للفنون، وللتنزه في حديقة أتلانتا للنباتات بالإضافة إلى أنها قامت بإجراء ما يلزم لكي يلقي مورتنسون ثلاث كلمات إحداها في مكتبة عمومية والثانية في إحدى الكليات والثالثة في ناد خاص، لقد أمضى اثنين وسبعين ساعة لكي يلقى هذه الكآبة التي لم يعرف لها مثيلاً من قبل، وكان يوازن الأمر في نفسه بين الرفض أو القبول، عندما قرع الباب ووصل خبير تدليك استدعته فيرا، وبدأ في تركيب طاولته عند زاوية فارغة في غرفة جلوسها بينما كانت فيرا تقول له: "إنك تبذل جهداً جباراً يا جريغ، وتستحق شيئاً من الاسترخاء".

"لقد كانا حقاً يتوقعان مني أن أستلقي أمامهما عارياً كما ولدتني أمي، فطلبت الإذن للذهاب إلى الحمام كي أفكر في طريقة للخلاص من هذه الورطة. الخبرة التي اكتسبتها في عملي من احتكاكي بشتى أصناف البشر، جعلتني أقرر أن أتماشى مع كل ما ستفعله فيرا خلال الأيام الثلاثة القادمة طالما هناك أمل بوجود مبلغ كبير ينتظرني عند نهاية النفق".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

بحث مورتنسون في خزانة الحمام عن أي شيء يمكن أن يغطي الجزء الأسفل من جسمه، لكن المناشف التي كدستها فيرا وتحمل الأحرف الأولى الباهتة لأسماء فنادق مختلفة كانت أصغر من أن تفي بالغرض، فسحب ملاءة سرير بالية وربطها بإحكام حول خصره ثم جرجر قدميه عائداً إليهما.

عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كان مورتنسون نائماً على حشية فيرا المنخفسة مستنفداً ويشخر بصوت عال لأن فيرا أصرّت على النوم على الأريكة وأن ينام هو على فراشها، لكن فيرا دخلت إلى الغرفة وأضاءت الأنوار كي توقظه ، وعندما فتح عينيه شاهد طيفاً أقرب إلى الكابوس لفيرا التي يبلغ عمرها ثمانية وسبعين عاماً ترتدي رداء نوم شفاف. "لقد كانت هناك بالفعل تقف قبالتي، لكن الصدمة التي شعرت بها جعلتني عاجزاً عن الكلام".

قالت فيرا: "إنني أبحث عن جواربي" وهي تتلكأ في تفتيش جوارير خزانتها، أما مورتنسون فقد وضع وسادة فوق رأسه وانكمش تحتها.

وأثناء رحلة عودته إلى منزله صفر اليدين أدرك مورتنسون أن مضيفته لم تكن تنوي على الإطلاق أن تتبرع بأي مبلغ، لم تستفسر أبداً عن ماهية عملي ولا عن أطفال الباكستان. إنها مجرد سيدة تشعر بالوحدة أرادت أن تحظى بزائر، أما أنا فعليّ أن أكون أكثر يقظة في المرات القادمة.

لكن الحقيقة أن مورتنسون لم يصبح أكثر يقظة، بل ظلّ يطبق فكيه على الطعم الذي يدليه أمامه معجبوه الأثرياء. فبعد أن ألقى كلمة في مهرجان ماونتن للأفلام في بانف بكندا أمام حضور كبير، قبل دعوة وجهها له توم لانبج وهو مقاول ثري، بعد أن ألمح إلى استعداده للتبرع بمبلغ ضخم وعرض أن يقيم حفلة في دارته عند مساء اليوم التالي مخصصة لجمع التبرعات لصالح مؤسسة آسيا الوسطى.

كان لانج قد قام بتصميم كامل منزله الذي تبلغ مساحته عشرة آلاف قدم مربع ابتداء من زخارف الرخام الصناعي وانتهاءاً بتماثيل الكلاب الضخمة المصنوعة من الجص التي تحيط بالموقد الكبير في الصالة الواسعة حيث كان الضيوف يتجاذبون أطراف الحديث وهم يحملون بأيديهم كؤوساً من النبيذ رخيص الثمن مما يقدمه الأغنياء عادة لزوارهم.

قام لانج باستعراض مورتنسون أمام ضيوفه بروح الملكية المزهوة نفسها التي تستدرج انتباههم إلى تجهيزات الحمام المصنعة خصيصاً من أجله وكلاب الموقد الكبير. ومع أن مورتنسون وضع كومة عالية من كراسات المؤسسة في مكان ظاهر فوق المائدة المفتوحة، فقد انتهت الأمسية دون أن يحصل على سنت واحد من لانج لصالح المؤسسة.

وبما أن فيرا كورتز كانت قد لقنته درساً لا ينسى، فقد ألح مورتنسون على مضيفه أن يبحثا معاً مسألة التبرع، فأجابه لانج قائلاً:

"سنبحث ذلك في الغد، ولكن ليس قبل أن تذهب في رحلة مع الكلاب".

"رحلة مع الكلاب؟".

"نعم، لا يمكن للمرء أن يأتي إلى كندا ولا يجرب التنزه فوق الثلج في عربة تجرها الكلاب".

داخل كوخ دافئ يبعد مسافة ساعة عن بانف، وبعد أن انتهى من الرحلة الخاطفة التي أخذته فيها الكلاب بمفرده عبر الغابات، أمضى مورتنسون الجزء الأكبر من فترة بعد الظهر يصغي إلى سيرة لانج المتبجحة حول مقاول عصامي ومقدام استطاع أن يحقق ذاته بجدارة في مجال البناء في بانف حين لم يكن يملك سوى عزيمته وتصميمه.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكانت جيرين، والدة مورتنسون ، قد حضرت بالطائرة من مكان إقامتها في ويسكونسين لسماع كلمته وأقامت لمدة ثلاثة أيام لم تتمكن خلالها من رؤيته إلا لماماً. وليس مفاجئاً، بالطبع، أن مورتنسون قد عاد هذه المرة أيضاً صفر اليدين.

وعن ذلك تقول جيرين مورتنسون: "ما يؤلمني هو أن أرى جريغ يتودد إلى أولئك الأغنياء في حين يتوجب عليهم أن ينحنوا أمامه".

في فصل الربيع من العام 2000 كانت تارا بيشوب الحامل في شهرها السابع بمولودها الثاني، قد ضاقت ذرعاً من زوجها الذي إما يكون بعيداً عنها في الباكستان أو يطير من مكان إلى آخر داخل أميركا في رحلات لا طائل من ورائها، فدعت إلى اجتماع أسري مقره طاولة المطبخ.

وتقول تارا: "أخبرت جريغ أنني أحترم الشغف الذي يكنه لعمله، وأخبرته أيضاً أن عليه أيضاً التزامات تجاه عائلته من جهة أخرى. عليه أن يحصل على قسط أوفر من النوم، وأن يمارس بعضاً من الرياضة، وأن يقصر المزيد من الوقت لأسرته لكي تكون أسرة حقيقية" حتى ذلك الحين، كان مورتنسون يمضي ثلاثة أو أربعة أشهر متواصلة في الباكستان" فاتفقنا أن يختصر تلك المدة إلى شهرين، لأنني لا أستطيع أن أمسك بزمام الأمور بمفردي أكثر من ذلك" ووعدها مورتنسون من جانبه أن ينظم وقته بشكل أفضل.

كان مجلس الإدارة في المؤسسة قد خصص ميزانية سنوية صغيرة تمكن مورتنسون من حضور دورات تدريبية حول الإدارة والتطوير وشؤون آسيا "لم أتمكن قط من إيجاد الوقت للذهاب إلى تلك الدورات، فقمت عوضاً عن ذلك بإنفاق تلك الميزانية على شراء الكتب وكنت أمضي ساعات طوال في قراءتها حين كان الناس يعتقدون أنني أجلس في قبو منزلي لا أمارس شيئاً، كنت أبدأ نهاري

عند الساعة الثالثة والنصف صباحاً لأنكب على دراسة نظريات تنمية الاستثمار وتطوير إمكانياتي الشخصية باعتباري مديراً للمؤسسة".

لكن الدروس التي كان قد تلقاها في كاراكورام علمته أن الكتب لا تحوي على الأجوبة كلها، فوضع مورتنسون لنفسه دورة مكثفة حول التنمية وقرر من خلال قراءاته أن أفضل برامج تنمية المناطق الريفية التي يتم تطبيقها حالياً في العالم موجودة في الفليبين وبنغلادش. وبوجود شهر خال من الارتباطات، وهو شيء يندر حدوثه، فقد استغل الفرصة وخلف وراءه الباكستان ومكاتب المؤسسة وطار إلى جنوب شرق آسيا.

وفي كافيت التي تقع على مسافة ساعة إلى الجنوب من مانيلا، قام مورتنسون بزيارة مؤسسة إعادة إعمار الريف التي يديرها جون ريجبي، وهو أحد أصدقاء حماته ليلا بيشوب. وعلمه ريجبي كيف يؤسس مشاريع صغيرة لصالح فقراء الأرياف مثل الدراجات التي تعمل بالأجرة، وأكشاك السجائر التي يمكن أن تدرّ أرباحاً سريعة مقابل رأس مال بسيط.

وفي البلد التي كانت تدعى سابقاً الباكستان الشمالية، قام مورتنسون بزيارة جمعية إعادة إعمار الريف في بنغلادش، ويقول عن ذلك: "الكثير من الناس يطلقون على بنغلادش تسمية باطن إبط آسيا نظراً لفقرها المدقع. لكن حملة تعليم الفتيات هناك كانت ناجحة للغاية. طرقت أبواباً كثيرة وذهبت إلى منظمات خاصة تعمل في مجال تعليم الإناث منذ مدّة طويلة، وشاهدت كيف تقوم سيدات، أذهلتني صلابتهن، بتنظيم الاجتماعات والعمل على ترسيخ أقدام الجيل الأصغر من الفتيات، ويضيف مورتنسون قائلاً: "لقد كنّ يطبقن الفلسفة التي أطبقها نفسها، أي النهج الذي طرحه


https://telegram.me/maktabatbaghdad

آمارتيا سين، الحائز على جائزة نوبل، هناك تستطيع أن تغير نهج أمة بأكملها نحو الأفضل عندما تضع الأدوات اللازمة بين أيدي فتياتها كي يترعرن وهن يحصلن على التعليم ويتعلمن الاعتماد على الذات، وقد شحذ ذلك همتي كي أتابع النضال من أجل تعليم الإناث في الباكستان".

وخلال رحلته الحافلة بالمطبات من داكا إلى كالكوتا، كان مورتنسون يفكر بالحاجة الماسة إلى ترسيخ مخطط تعليم الفتيات في المناطق الريفية، حين جاءت إليه المضيفات اللواتي على متن الرحلة يحتفين بالمسافر الأجنبي الوحيد وذهبن به إلى الدرجة الأولى، حيث جلس محاطاً بحفنة من فتيات بنغلادش يرتدين الساري زاهي الألوان.

ويقول مورتنسون: "كن صغيرات وخائفات ولا يعرفن كيف يتعاملن مع حزام الأمان أو أدوات الطعام الفضية، وعندما وصلنا إلى المطار، أحسست بعجز كلي وأنا أشاهد كيف راح الموظفون الفاسدون يخرجوهن من الطائرة بسرعة من خلف ظهر ضباط الجمارك. لم أكن املك أن أفعل أي شيء لهن وأنا أتخيل حياة الدعارة المهولة التي كنّ يسرن إليها على أقدامهن".

من فوق حاملات الصحف في مطار كالوكتا، قرأ مورتنسون العناوين الرئيسية بأن الأم تريزا، التي طالما شكلت مثلاً أعلى بالنسبة له قد فارقت الحياة بعد صراع طويل مع المرض. وبما أنه سيتوقف لفترة قصيرة في كالكوتا قبل أن يستقل الطائرة التي ستأخذه إلى منزله فقد قرر أن يزور جثمانها لكي يقدم احترامه.

سائق التاكسي، الذي كان متواجداً داخل قاعة الركاب رغم أنف القوانين أخذ يشده من يده وهو يردد: "حشيش؟ هيروين؟ تدليك نساء؟ تدليك رجال؟ لدينا كل ما تريده".

لكن مورتنسون لم يملك إلا أن يضحك على تلك الهالة الزائفة التي حاول الرجل أن يحيط نفسه بها وأجابه قائلاً: "لقد توفيت الأم تريزا منذ فترة قصيرة، هل يمكنك أن تأخذني إليها؟".

هز الرجل رأسه بانشداه والتقط حقيبة مورتنسون وهو يقول: "بالطبع، بالطبع".

كان السائق يدخن بعصبية وهو يقود سيارته ذات اللونين الأسود والأصفر، ويميل بجذعه كله إلى خارج النافذة، مما أتاح لمورتنسون الفرصة بأن يرى من زجاج السيارة الأمامي مشهداً متكاملاً لحركة المرور الكارثية في كالكوتا.

توقفا عند بائع للزهور وأعطى مورتنسون السائق مبلغاً من الروبيات يعادل عشرة دولارات وطلب منه أن يختار تشكيلة من الورود تليق بجنازة.

"تركني هنالك أتصبب عرقاً لمدة نصف ساعة على الأقل ليرجع حاملاً كتلة هائلة مبتذلة من القرنفل وورود أخرى كان علينا ان نحشرها في المقعد الخلفي. وعند الغسق، احتشد مئات من المعزين بوقار عند البوابات، يحملون الشموع وينسقون تقدماتهم من الفاكهة والبخور فوق الرصيف. خرج السائق من السيارة وأخذ يرج البوابة الحديدية محدثاً صليلاً عالياً وهو يصيح باللغة البنغالية: "افتحوا البوابة فهذا السيد الأمريكي قد حضر خصيصاً من أميركا ليقدم احترامه، قام الحارس المسن من مجلسه عند البوابة ودخل البناء، وعاد ويرفقته راهبة ترتدي رداء رهبنة أزرق اللون، تأملت المسافر الذي يعلوه الغباء وتحيط به أيضاً باقة زهور ضخمة من القمة حتى أخمص قدميه ثم أشارت إليه بالدخول. سارت الراهبة أمام مورتنسون باشمئزاز جلي عبر دهليز معتم يرجع صدى تراتيل بعيدة ثم توقفت


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأشارت بإصبعها نحو باب أحد الحمامات، وبرطمت بانكليزية تشوبها لكنة سلافية "لم لا تغتسل بعض الشيء أولاً؟".

كانت ترقد على فراش بسيط في وسط غرفة مضيئة محاطة بشموع القداس، أزاح مورتنسون برفق باقات الزهور كي يجد متسعاً لزهوره المبهرجة، وجلس على كرسي عند الجدار، أما الراهبة فقد انسحبت من الغرفة وتركته ينفرد بالأم تريزا "جلست في زاوية الغرفة وأنا لا أملك أدنى فكرة عما يتوجب علي أن أفعله، لقد كانت مثلي الأعلى منذ كنت صبياً صغيراً".

الأم تريزا التي تنحدر من عرق ألباني وابنة مقاول ناجح في كوسوفو، بدأت حياتها تحت أسم أجنس جونكا بوجاكسيو. قالت أنها شعرت بنداء يدعوها إلى العمل من أجل الفقراء منذ عمر الثانية عشرة. وبدأت التدريب على مهام البعثات التبشيرية. وفي سن المراهقة، انضمت إلى أخوية راهبات إيرلنديات كرسنّ أنفسهن لتعليم الإناث، وأمضت عقدين من الزمن تعمل مدرسّة في ثانوية القديسة ماري في كالكوتا، التي أصبحت فيما بعد مديرة لها.

وفي عام 1946 قالت بأنها تلقت نداءاً من الرب يأمرها بأن تقوم على خدمة (أكثر الفقراء فقراً). وفي عام 1948 وبعد أن حصلت على موافقة خاصة من البابا بيوس الثاني عشر على أن تعمل مستقلة، أنشأت مدرسة في الهواء الطلق لأطفال كالكوتا المشردين.

وفي العام 1950 حين أصبحت معروفة باسم الأم تريزا، حصلت على موافقة الفاتيكان كي تؤسس أخوية خاصة بها تدعى «رسل الأعمال الخيرية» مهمتها، كما قالت، أن تعنى بالفقراء والحفاة العراة والمشردين، والمقعدين والمكفوفين ومرضى الجذام، أي فئات البشر كلهم الذين يشعرون بأنهم منبوذون ومكروهون ومهملون من قبل البشر والذين يشكلون عبئاً على المجتمع ويزدريهم الجميع.

مورتنسون الذي كان دوماً يتعاطف مع مضطهدي المجتمع، شعر بتقدير كبير تجاه عزيمة الأم تريزا لأنها كرّست نفسها لخدمة الفئات المهملة في المجتمع. وعندما كان لا يزال صبياً صغيراً في موشي، سمع عن أول مشروع لها خارج الهند وهو إنشاء تكية من أجل الناس المحتضرين في دار السلام في تنزانيا. وفي الوقت الذي حصلت فيه على جائزة نوبل للسلام عام 1979 كان صيت الأم تريزا قد أصبح المحرك الذي يزود بالطاقة مشاريع رسل الأعمال الخيرية في تشييد دور الأيتام والتكيات والمدارس في أنحاء العالم كله. الانتقادات المتصاعدة ضد المرأة المسجّاة أمامه خلال السنوات التي سبقت وفاتها وصلت إلى مسامع مورتنسون، وقرأ ما قالته في دفاعها عن نفسها أمام التهم الموجهة إليها بخصوص قبول التبرعات من مصادر مشبوهة مثل تجار المخدرات والمنظمات الإجرامية ورجال السياسة الفاسدين الذين ينشدون شراء طريقهم إلى الخلاص بالمال. وبعيد صراعه الشخصي لجمع التبرعات من أجل أطفال الباكستان، شعر بأنه يفهم ما دفعها لتفحم خصومها بقولها المشهور: "لا يهمني من أين يأتي المال، فكلها تصبح طاهرة عندما توضع في خدمة الرب".

"قبعت في زاوية الغرفة أتأمل ذلك الجسد المسجى. كانت تبدو متناهية في الصغر داخل ثوبها الكهنوتي. وأذكر أنني قلت لنفسي كم هو مذهل أن شخصاً ضئيل الحجم مثلها كان له ذلك التأثير الهائل على الجنس البشري".

دخلت راهبات إلى الغرفة لتقديم الاحترام وركعن يلمسن قدميها. ورأى بطانة الموسلين ذات اللون الأصفر الشاحب قد بهت لونها من كثرة عدد الأيادي التي تمسحت بها. لكن مورتنسون شعر بأن ملامسة قدميها أمر غير لائق، فركع على بلاط الغرفة البارد وغطى يدها الرقيقة بكفه الكبيرة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

عادت إليه الراهبة التي قادته إل الغرفة وأومأت برأسها وكأنها تقول: "هل أنت جاهز للمغادرة؟" فتبع مورتنسون مشيتها الهادئة عبر ممر مظلم، وخرج إلى قيظ وصخب كالكوتا من جديد.

سائق التاكسي الذي جلس القرفصاء يعب من دخان سجائره، هبّ واقفاً عندما رأى مصدر رزقه لذلك اليوم قادماً "هل وفقت، هل وفقت؟" كان يكرر السؤال الأميركي الشارد الذي يتبعه عبر شارع مكتظ بعربات يجرها رجال، حتى وصلا إلى السيارة وقال له: "والآن، هل ترغب بشيء من التدليك؟".

خلال فصل الشتاء من العام 2000 لاذ مورتنسون بقبو منزله، وفكر مطولاً بتلك اللحظات الثمينة التي أمضاها إلى جانب الأم تريزا، ما كان عجيباً بالنسبة له هو أنها أمضت حياتها كلها دون العودة إلى منزلها ودون الحاجة إلى أن تسترد أنفاسها هناك بعيداً عن البؤس والمعاناة، كي تستعد لاستئناف طريق النضال، في ذلك الشتاء، كان مورتنسون متعباً حتى العظم، وكتفه الذي تضرر عند سقوطه من على الجبل يوم وفاة كريستا لم يتعافَ تماماً ولم تنفع في علاجه رياضة اليوغا والوخز بالإبر الصينية، كان يستبد به ألم جرح لا تجدي فيه حبوب المسكنات التي يتجرعها بكميات كبيرة لكي يتمكن من العمل.

ولم يفلح مورتنسون أيضاً، في التأقلم مع حقيقة أنه أصبح شخصية عامة في أميركا، وأرتال البشر الطويلة التي تمتد حوله للحصول على بعض المعلومات، كانت تجعله يهرول عائداً إلى أمان قبو منزله، حيث يتجاهل تماماً الهاتف الذي لا يتوقف عن الرنين وأكوام الرسائل الإلكترونية المكدسة بالمئات.

متسلقو جبال يتصلون به ويطلبون منه العون لتنسيق مجموعات استكشافية إلى الباكستان، ويستاؤون لأن متسلقاً سابقاً لن يتخلى عما

يقوم به كي يساعدهم. صحفيون ومنتجو أفلام لا يكفون عن الاتصال على أمل أن يرافقوا مورتنسون في رحلته القادمة، علهم يتمكنون من استغلال العلاقات التي وطدها هناك ويرسخون أقدامهم في المناطق المحظورة قبل أن يسبقهم منافسوهم.

أطباء وعلماء في الأنهار الجليدية والزلازل والإثنولوجيا والأحياء، يرسلون تساؤلات مطولة بمصطلحات لا يفهمها الإنسان العادي ويطلبون إجابات أكاديمية مفصلّة حول الباكستان.

رشحت له تارا زميلاً لها في العلاج النفسي تقع عيادته على مسافة ليست بعيدة من منزلهم ويبدأ مورتنسون يعقد معه جلسات مطولّة للبحث في الأسباب التي تجعله يرغب في الانزواء عندما لا يكون في الباكستان، ووضع الاستراتيجية اللازمة كي يصبح قادراً على التعامل مع الغضب المتزايد لأولئك الأشخاص الذين يطالبونه بالوقت الذي لا يملكه.

أصبح منزل حماته ليلا بيشوب ملاذاً آخر.خصوصاً القبو حيث كان يمضي ساعات طويلة منكباً على مكتبة باري بيشوب لتسلق الجبال يقرأ حيناً عن الهجرة البلطية من التيبت، ويتمعن حيناً آخر في المجلدات النادرة التي تحتوي صوراً عن السفوح الخلابة المموهة باللونين الأبيض والأسود لجبل "كيه2" وقممه.

وعندما تصل إليه الأصوات من الطابق العلوي لتنبهه بأن أفراد أسرته بدؤوا يجتمعون لتناول العشاء، كان مورتنسون يسمح لنفسه بالابتعاد عن كتبه. وقد بدأت ليلا بيشوب تشارك ابنتها الرأي في مورتنسون "بات علي أن أعترف بأنه يوجد ثمة شيء مختلف في تركيبة سيد العجائب ذاك" ومثل ابنتها أيضاً، استنتجت أن ذلك الرجل الضخم الوديع الذي يعيش في منزل بالجوار كان مجبولاً من طينة خاصة. "كنا نعد شواء ذات ليلة مثلجة، وطلبت من جريغ أن


https://telegram.me/maktabatbaghdad

يخرج ليقلب سمك السلمون، وعندما ألقيت نظرة بعد لحظات من باب الشرفة الأمامية، وجدته واقفاً في الثلج حافي القدمين ويغرف السمك في الرفش ويقلبه في الهواء وكأنها الطريقة المثلى في العالم لتقليب السمك. وأظن أنها كانت كذلك بالنسبة له. لقد أدركت عندها أنه ليس واحداً منا، وبأنه صنف متفرد".

أمضى مورتنسون بقية فصل الشتاء مفعماً بالقلق حيال التقارير التي ترده وتعطي التفاصيل حول فاجعة مرتقبة في شمال أفغانستان. إذ يوجد هناك أكثر من عشرة آلاف أفغاني، معظمهم من النساء والأطفال، قد فروا هاربين في مقدمة قوات طالبان الزاحفة حتى أصبحوا خارج ديارهم عند أطراف طاجيك وعلى جزر تقع في وسط نهر آموداريا، قاموا ببناء أكواخ من الطمي وهم الآن يعانون من الموت البطيء جوعاً حيث يقتاتون على الحشائش الموجودة عند ضفة النهر.

وعلاوة على أنهم يمرضون ويموتون، فإن جنود طالبان كانوا يزجون وقتهم في إطلاق النار عليهم، إذ يطلقون القذائف نحو الأعلى على شكل أنصاف دوائر، لتهوي بعد ذلك فوق النازحين المروعين وتسحقهم.وعندما حاولوا الفرار نحو طاجكستان وهم يجذفون جذوع الاشجار بأيديهم وأرجلهم عبر النهر، فتحت القوات الروسية التي تحرس الحدود النيران عليهم لأنهم لن يسمحوا لفوضى أفغانستان المتفاقمة بالامتداد إلى فنائهم الخلفي.

ويقول مورتنسون: "لم أنل قسطاً كافياً من النوم منذ بدأت العمل في الباكستان ولكنني في ذلك الشتاء لم أتمكن من النوم على الإطلاق. كنت أمضي الليل، أذرع أرضية القبو ذهاباً وإياباً، وأنا أحاول أن أجد وسيلة ما لمساعدتهم".

أرسل مورتنسون سيلاً من الرسائل إلى رؤساء التحرير في الصحف وإلى أعضاء في الكونغرس يحاول فيها أن يحفزهم على الاستنكار، لكن أحداً لم يحرك ساكناً. البيت الأبيض، الكونغرس، الأمم المتحدة، جميعهم لاذوا بالصمت. وخطرت لي بعدها فكرة مجنونة بأن أقتني مدفعاً رشاشاً وأجعل فيصل بيج يجمع لي رجالاً ونذهب إلى أفغانستان لكي أحارب بنفسي دفاعاً عن هؤلاء النازحين.

الخلاصة أنني أخفقت ولم أتمكن من تحفيز أحد وإذا سألتم تارا فسوف تخبركم أنني كنت كابوساً حقيقياً. كان كل تفكيري منصباً على أولئك الأطفال المتجمدين من البرد ولا يملكون أدنى فرصة لكي يكبروا، لقد كانوا منبوذين في العراء بين المجموعات المسلحة، يقتلهم الجوع أو الزحار الذي يدخل جوفهم من مياه النهر. وإنني أتعجب كيف استطاعت تارا أن تصبر عليّ في ذلك الشتاء. فقد كنت أقرب إلى المجنون.

في أزمنة الحرب يتشدق القادة سواء كانوا مسيحيين أم يهود أم مسلمين قائلين: "الله معنا" لكن هذا غير صحيح، لأن الله في أزمنة الحرب يكون مع اللاجئين والأرامل والأيتام.

لم تتحسن روح مورتنسون المعنوية حتى حلّ يوم 24 تموز من عام 2000 عندما انحنى فوق ظهر زوجته العاري، يسكب عليه الماء الدافئ، ويمسّد العضلات المتشنجة. لكن تفكير تارا كان بعيداً عنه لأنها كانت تركز على المخاض الشاق الذي بانتظارها. القابلة الجديدة فيكي كين، اقترحت على تارا أن تجرب الولادة تحت الماء، وبما أن حوض الاستحمام لديهم كان صغيراً فقد أحضرت فيكي معلف الحصان البلاستيكي من منزلها وملأته بالماء الدافئ.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

أطلقا على ابنهما اسم خيبر بيشوب مورتنسون، فقبل ولادته بثلاث سنوات وقبل حفل افتتاح مدرسة "كورف" اصطحب مورتنسون زوجته وابنته ذات العام الواحد لمشاهدة معبر خيبر. وعلى بطاقات عيد الميلاد التي أرسلاها في تلك السنة، كانت توجد صورة لجريغ وتارا التقطت لهما عند الحدود الأفغانية وهما يرتديان الزي الشعبي ويحملان بنادق حرس الجبهة الأمامية التي أعطيت لهما على سبيل المزاح، وأميرة بينهما، وتحت الصورة عبارة تقول: "سلام على الأرض".

ويعد انقضاء ساعتين من عوم ابنه فوق سطح الماء، أحس مورتنسون بسعادة غامرة لم يعرفها منذ شهور، فالشعور الذي يتملكه عندما يضع يده على رأس ابنه الصغيرة كان كفيلاً بأن يولد فيه دفقاً من الرضى والطمأنينة.

لف مورتنسون مولوده الجديد داخل بطانية صوفية وأخذه إلى المدرسة التحضيرية التي تذهب إليها أخته لكي تستطيع أميرة أن تتباهى به أمام زملائها في الصف.

أما أميرة القادرة على مخاطبة حشد من الناس أكثر من أبيها بكثير، فقد راحت تكشف للصف الإعجاز الذي يكمن في أصابع يدي وقدمي أخيها، في حين كان والدها يمسك بتلك الرزمة في كفيه الكبيرتين وكأنها كرة قدم.

تلك الفتاة ذات السنوات الأربع والضفيرة الشقراء قالت لمورتنسون: "إنه صغير جداً ومتجعد، هل يكبر أولئك الصغار ويصبح لديهم حجم كحجمنا؟".

"إنشاء الله".

"هه؟".

"أرجو ذلك يا صغيرتي، أرجو ذلك من كل قلبي".

# الفصل التاسع عشر

## قرية تدعى نيويورك

"لقد انقضى زمن الرياضيات والشعر، في هذا الزمن، يا أخوتي عليكم ان تأخذوا دروسكم من الكلاشينكوف وقاذفات القنابل"

جملة مكتوبة على جدار فناء مدرسة كورف

"ماهذا؟" سأل مورتنسون "ما هذا الذي نراه أمامنا؟".

أجابه آبو: "إنها مدرسة يا سيد جريغ".

طلب مورتنسون من حسين أن يوقف السيارة كي يتمكن من رؤية البناء الجديد عن كثب وخرج من الجيب وأرخى ظهره على هيكلها. أما حسين فقد استرخى وراء المقود وراح ينفض رماد سجائره بلا مبالاة فوق الصندوق الخشبي الذي يحتوي الديناميت.

كان مورتنسون معجباً بأسلوب سائقه المتوازن والمتمرس في خوض أكثر طرقات الباكستان رداءة، ولم يتعرض لأي حادث قط، ولكن أن تنفجر بهم السيارة!، وعاهد مورتنسون نفسه على أن يغلّف صندوق الديناميت بغطاء من البلاستيك عندما يعود إلى سكاردو.

انتصب مورتنسون واقفاً وزفر وهو ينظر إلى المبنى الذي يحتل الجزء الغربي من بلدة جولابور في وادي شيجار. ما شاهده كان عبارة عن منشأة متكاملة لشغل مساحة ستمئة قدم ومحجوبة عن الأنظار بجدران يبلغ ارتفاعها عشرين قدماً. شيء توقع مورتنسون أن يجده في



https://telegram.me/maktabatbaghdad

وزيرستان، وليس في موقع لا يبعد سكاردو سوى ساعات قليلة "أأنت متأكد بأنه ليس قاعدة عسكرية؟".

أجاب آبو: "إنه الموقع الجديد لمدرسة وهابية".

"وما حاجتكم إلى هذه المساحة كلها؟".

"المدارس الوهابية تشبه...." توقف آبو عن الكلام وهو يبحث عن التعبير المناسب باللغة الإنكليزية، وعندما عجز عن ذلك أصدر صوتاً يشبه طنين النحل.

سأله مورتنسون: "خلية النحل؟".

فذلك شان مختلف كلياً..

"نعم إنها مثل خلايا النحل، المدارس الوهابية تحجب الكثير من الطلاب وراء جدرانها".

وصعد مورتنسون إلى المقعد الخلفي من السيارة، بعيداً إلى حدٍ ما عن صندوق الديناميت. وعلى مبعدة ثمانين كيلو متراً إلى الشرق من سكاردو، شاهد مئذنتين باذختين من الرخام الأبيض تخرقان الحضرة التي تحيط بقرية بائسة تدعى يوجو.

وسأل مورتنسون: "من أين لهؤلاء الناس المال الكافي لبناء مساجد كهذه؟".

"إنه أيضاً من عمل الوهابين. ياتي الشيوخ من الكويت والسعودية بحقائب طافحة بالروبيات ويغادرون بأفضل الطلاب، وعندما يعود هؤلاء إلى بالتستان، عليهم أن يقتنوا أربع زوجات".

وبعد انقضاء عشرين دقيقة على الطريق شاهد مورتنسون من جديد ظل المئذنة السامقة لمسجد يوجو الجديد وهي تشمخ بعجرفة فوق قرية إكسورد المعدمة.

وبدأ حسٌ من الرّوع يتنامى في أعماق مورتنسون: الوهابيون؟، فأكد له آبو الأمر الواقع بفم ممتلئ بالتبغ: "أجل يا جريغ، إنهم في كل مكان".

يقول مورتنسون "كنت أعلم أن الطائفة الوهابية السعودية تقوم ببناء المساجد على طول الحدود الأفغانية طوال سنوات، ولكن أن أكتشف في ذلك الربيع من عام 2001 أنهم أنجزوا تلك الأبنية كلها في قلب الباكستان الشيعية كان أمراً مفزعاً بالنسبة لي لأنني فهمت ثقل ما كانوا يحاولون أن يفعلوه".

والوهابية عبارة عن مذهب ديني أصولي متعصب انشقّ عن المبدأ الإسلامي السنّي وهو المذهب الرسمي المعترف به من قبل حكام السعودية. وبما أن العديد من أتباع هذا المذهب يعتبرون أن تلك التسمية تحمل إساءة في طياتها، فقد ارتأوا تسمية أخرى هي "الموحدون": لكن تسمية "الوهابية" ظلّت عالقة في البلدان المستضعفة التي يرتعون فيها من أمثال الباكستان. وكلمة "وهاب" المشتقة من تعبير "المعطاء الكريم" باللغة العربية وهو واحد من أسماء الله الحسنى في الدين الإسلامي. وهذا العطاء الكريم الذي تجسده أموال لا تعد ولا تحصى يأتي بها أعوانهم خلسة أو عن طريق حوالات مجهولة المصدر، تدخل الباكستان وتشكل لهم الصورة التي يبتغونها عند الشعب الباكستاني. تلك الثروات التي يتمخض عنها كم النفط الهائل في الخليج، تنصبُّ في الباكستان بهدف نشر المدارس الوهابية، الحاضن الصارم لأخبث تطرف ديني.

الحصول على أرقام دقيقة ضمن مساع خفية كتلك غير ممكن، ولكن أحد التقارير النادرة التي وردت في الصحافة السعودية المحظورة حظراً باتاً تشير إلى إيرادات النفط الهائلة التي تستثمر بدهاء


https://telegram.me/maktabatbaghdad

على أكثر الطلاب عوزاً في الباكستان. في عددها الصادر في شهر كانون الأول عام 2000، أفادت مجلة عين اليقين السعودية بأن واحدة من المنظمات الوهابية الرئيسية الأربع والتي تدعى مؤسسة الحرمين قد انتهت من بناء (1100) مسجداً ومدرسةً ومركزاً إسلامياً "داخل الباكستان ودول إسلامية أخرى، كما وظفت ثلاثة آلاف مستخدماً من الذين اعتنقوا المذهب خلال العام المنصرم".

وأفادت عين اليقين أيضاً بأن أشدّ المنظمات الأربع نشاطاً "International Islamic Relief Organisation" والتي وجهت إليها لجنة التحقيق في أحداث الحادي عشر من أيلول إصبع الاتهام بأنها دعمت وبشكل مباشر حركة طالبان وتنظيم القاعدة في تنفيذ العملية، قد انتهت من بناء مئة وثمانية مساجد وأنفقت 45 مليون دولار على التعليم الإسلامي ووظفت ستة آلاف مدرس خلال تلك الفترة معظمهم في الباكستان.

"خلال العام 2001، كانت مشاريع مؤسسة آسيا الوسطى موزعة عبر شمال الباكستان، من المدارس التي كنا نبنيها بمحاذاة خطوط التحكم باتجاه الشرق حيث كنا نخطط لمشاريع سنعمل على تنفيذها حتى نصل إلى الغرب على طول الحدود الأفغانية، لكن مواردنا المالية كانت لا تذكر بالمقارنة مع الوهابيين. ففي كل مرة أذهب فيها لتفقد موقع مشروع لنا، كنت أجد عشر "مدارس" وهابية قد انتصبت جاهزة بين عشية وضحاها".

الخلل الموجود في النظام التعليمي الباكستاني جعل من ازدهار المذهب الوهابي شأناً اقتصادياً بحتاً، فهنالك نسبة قليلة من أولاد العائلات الثرية يرتادون المدارس الراقية، تركة نظام المستعمرات البريطاني، لكن مورتنسون علم بأن شرائح أخرى واسعة من المجتمع تستفيد بالكاد من مدارس الحكومة الباكستانية المتخلفة القائمة على

أسس عقيمة. وبتواجد "مدارس" الوهابية التي تمنح السكن وكل ما يحتاجه الطلاب في مناطق لا توجد فيها مدارس بالأصل، فقد قدمت تلك "المدارس" الفرصة الوحيدة التي يحلم بها الملايين من الأهالي في الباكستان لتعليم أبنائهم. وهكذا، فإن نظام "المدارس" استهدف الأطفال المعوزين الذين خذلهم النظام الحكومي. ويقول مورتنسون: "لا أريد أن أعطي أي انطباع بأن كل ما فعله الوهابيون كان ضاراً، فالعديد من مدارسهم ومساجدهم قامت بمساعدة فقراء الباكستان إلى حدٍ كبير.ولكن بعضها يبدو وكأنه لا يهدف إلا إلى تلقين الجهاد المسلح".

في عام 2001 صدرت دراسة عن البنك الدولي بأن العدد التقديري "للمدارس" التي تعمل في الباكستان هو عشرون ألف مدرسة على الأقل يدرس فيها مليونا طالب باكستاني مناهج قائمة على تعاليم الدين الإسلامي. أحمد راشد، المراسل الصحفي المقيم في لاهور التي يقال بأنها أقوى صلة وصل في العالم بين ما تعلّمُهُ "المدارس" وظهور الإسلام المتطرف، أفاد بأن العدد التقديري لطلاب المدارس الشبان الذين تم تجنيدهم في حركة طالبان يبلغ ثمانين ألفاً. لم تكن المدارس جميعها مرتعاً للتطرف الإسلامي، لكن البنك الدولي اختتم دراسته بالقول أن نسبة تتراوح بين 15 إلى 20 بالمئة من طلاب المدارس يتلقون تدريبات على القتال إلى جانب مناهج دراسية تحث على الدين الإسلامي وعلى كراهية الغرب، بدلاً من تدريس الرياضيات والعلوم والآداب.

يسرد راشد تفاصيل تجربته مع مدارس بيشاور في كتابٍ يحمل عنوان "طالبان" ولاقى رواجاً كبيراً. الطلاب هناك يمضون يومهم وهم يقرؤون القرآن وأحاديث النبي محمد وقواعد الشريعة الإسلامية كما يفسرها مدرسوهم شبه الأميين، فلا المدرسون ولا الطلاب يملكون أي نوع من الإلمام العلمي في الرياضيات أو العلوم أو التاريخ أو


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجغرافيا. هؤلاء الطلاب ينتمون إلى طبقة عديمة الجذور وناقمة، إنهم شبان عاطلون عن العمل يعيشون في فقر مدقع ويفتقرون إلى معرفة الذات. لقد أعجبوا بالقتال لأنه العمل الوحيد الذي يعرفون التفاعل معه، وإيمانهم الساذج بإسلام متزمت وعنيف تجذّر في عقولهم عن طريق أئمة مساجد قراهم الجهلة كان الركيزة الوحيدة التي يستطيعون أن يستندوا إليها والذي أضفى على حياتهم شيئاً من المعنى.

ويضيف راشد: "المدارس التي يبنيها مورتنسون تمنح آلاف الطلاب ما هم بحاجة إليه بالفعل، أي التعليم المتوازن والأدوات اللازمة لكي ينجوا بأنفسهم من بؤرة الفقر، لكنها ليست كافية لأننا نحتاج إلى العديد والعديد منها، مدارسه لا تشكل أكثر من نقطة ماء في دلو عندما نأخذ بعين الاعتبار النطاق الواسع للمشكلة في الباكستان. الدولة هي المسؤولة أولاً وأخيراً لأنها خذلت أبناءها على الأصعدة جميعها وجعلت منهم فرائس سهلة للأصوليين الذين يديرون العديد من المدارس والذين يجندونهم لصالحهم بالنتيجة".

أكثر تلك المدرسات شهرة تضم ثلاثة آلاف طالب وتدعى "دار العلوم الحقانية" وتقع في مدينة آتوك قريباً من بيشاور، لكنها اكتسبت لقب "جامعة الجهاد" لأنه كان من ضمن خريجيها حاكم طالبان الأعلى المُلا عمر، ذلك الرجل المتكتم صاحب العين الواحدة، وأعضاء مجلسه القيادي.

ويقول مورتنسون: "عندما فكرت بالإستراتيجية التي وضعها الوهابيون، شعرت بالدوار. هؤلاء القوم ليسوا مجرد حفنة من الشيوخ ينزلون من على متن رحلات الطيران الخليجية بحقائب مكتظة بالمال.

إنهم يعودون بألمع الطلاب إلى السعودية والكويت حيث يجرى تأهيلهم، ثم يحثونهم على العودة إلى ديارهم واقتناء أربع زوجات والتناسل مثل الأرانب.

لقد كان وصف آبو لهم كخلايا النحل دقيقاً. إنهم يفرزون الجيل بعد الآخر من طلاب مغسولي الدماغ ويضعون مخططات ستمتد لعقود مستقبلية عديدة حتى تصبح لديهم جحافل تتحرك تحت إمرة التطرف الديني وتهيمن على الباكستان وبقية العالم الإسلامي.

وفي أوائل شهر أيلول من العام 2001 شمخت مئذنة حمراء فوق مسجد وهابي حديث البناء، بالإضافة إلى مجمّع مدرسي متكامل خلف جدران شاهقة في قلب سكاردو نفسها، وكأنها علامة تعجب تعبر عن حس القلق المبهم الذي كان يتفاقم في أعماق مورتنسون طوال أشهر الصيف.

في التاسع من أيلول، صعد مورتنسون إلى المقعد الخلفي بسيارته الجبلية الخضراء باتجاه وادي تشاربرسون الواقع على أطراف الباكستان الشمالية، وجلس في المقعد الأمامي جورج مكاون الذي عبر عن إعجابه بمهابة وادي هونزا بقوله: "كنا قد اجتزنا مسافة طويلة بدأت من معبر خونجيريا في الصين وقد كانت أروع رحلة في حياتي. قطعان الجمال تجوب البراري العذراء قبل أن نتخذ الطريق الذي هبط بنا من قمم جبال الباكستان المذهلة، كانوا متجهين نحو زودخان لكي يفتتحوا ثلاثة مشاريع أنجزتها هناك مؤسسة آسيا الوسطى، واحدة بجر مياه الشرب، وأخرى لمحطة توليد كهرباء صغيرة، وثالثة لمستوصف طبي في القرية الأم لفيصل بيج، حارس مورتنسون الشخصي. جلس مكاون الذي تبرع بمبلغ ثمانية آلاف دولار لتنفيذ المشاريع، في المقعد الأمامي قرب السائق ليرافق مورتنسون في الرحلة ويرى على الأرض الفروق التي أحدثتها أمواله. وفي سيارة جيب أخرى كانت تتبعهم، رافقهما أيضاً "دان" ابن مكاون وكنته "سوزان".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعندما حلّ الظلام، توقفوا عند "سوست" التي كانت في الماضي خاناً على طريق الحرير، وتم تجديده ليصبح استراحة تتوقف عندها الشاحنات التي تشق طريقها بلا كلل باتجاه الصين. مزّق مورتنسون الغلاف عن هاتفه الجوال الجديد الذي اشتراه خصيصاً لهذه الرحلة واتصل بصديقه بشير، العميد في الجيش، في إسلام آباد كي يحدد موعداً لحضور طوافة بعد يومين ستقلهم إلى زودخان.

لقد طرأت تغيرات كثيرة خلال السنة الأخيرة التي أمضاها مورتنسون في الباكستان، فهو الآن يرتدي سترة مصور فوتوغرافي فوق زيه الباكستاني البسيط وعليها ما يكفي من الجيوب لاستيعاب المتفرقات التي تدّوم هذه الأيام حول المدير المحموم لمؤسسة آسيا الوسطى.جيوب شتى تحتوي الدولارات الأميركية التي ستصرّف إلى العملة المحلية، وأخرى لرزم الروبيات التي تغطي النفقات اليومية، وجيوب يستطيع أن يدّس بداخلها الرسائل التي يستلمها باليد وتحتوي على تضرعات من أجل مشاريع جديدة، ومثلها لاحتواء الإيصالات التي ترمي بها المشاريع قيد التنفيذ عليه أن يوصلها إلى المحاسبين الأميركيين البيروقراطيين، وجيب واسع وضع فيه فيلماً بالإضافة إلى كاميرا رقمية كي يلتقط صوراً توثق انجازاته، عليه أن يعرضها على المتبرعين الذين لا بد من التودد إليهم.

الباكستان أيضاً تغيرت، فقد تلقى اعتزاز الأمة طعنة في الصميم جراء الهزيمة النكراء التي مني بها الجيش الباكستاني إبّان نزاع كارجيل، وأطاحت بناواز شريف، رئيس الوزراء الذي اختاره الشعب عن طريق انتخابات نزيهة.و قام الإنقلاب العسكري الدموي الذي خلعه بتعيين الجنزال بيرفيز مشرّف سدّة الحكم وهو يتعهد بأن يقطع دابر قوى الإسلام العرفية. وقد استلم مشرّف سدّة الحكم وهو يتعهد بأن يقطع دابر قوى الإسلام المتطرف التي حمّلها مسؤولية تدهور البلاد.

كان ما يزال على مورتنسون أن يستوعب دوافع مشرّف، لكنه يشعر حالياً بالامتنان حيال الدعم الذي قدمته الحكومة العسكرية إلى مؤسسة آسيا الوسطى، ويتحدث عن ذلك بقوله: "لقد حظي مشرّف فوراً بالاحترام لأنه اتخذ اجراءات صارمة ضدّ الفساد. وللمرة الأولى منذ وطئت قدماي الباكستان، بدأت أصادف مدققين من الجيش جاؤوا إلى قرى الجبال النائية لكي يتأكدوا بأنفسهم إن كانت الأموال التي أنفقتها الدولة من أجل إنشاء المستوصفات والمدارس قد حققت أهدافها كما أخبرني القرويون في وادي برالدو بأن شيئاً من التمويل قد بدأ يتسرب إليهم من إسلام آباد بالذات للمرة الأولى في حياتهم، وذلك بالنسبة لي، كان أكثر إقناعاً بكثير من الإهمال والرطانة الجوفاء التي سادت خلال فترة حكم شريف وبوتو".

وإزاء توسع رقعة مشاريع مورتنسون لتشمل أنحاء شمال الباكستان كلها، فقد عرض الطيارون العسكريون خدماتهم على ذلك الأميركي العنيد الذي بهرهم بإنجازاته، وصاروا يقلونه بطائراتهم في غضون ساعات من سكاردو إلى قرى يستغرق الوصول إليها بسيارته إياماً طويلة.

كان الجنرال بشير باز، صديق مشرّف الحميم رائداً في مجال إنزال الرجال والعتاد من الحوامات فوق مواقع القتال التي كانت على قمم سلسلة جبال سياتشين المتجمدة، أي أعلى ساحة معارك في العالم بأسره. ويعد أن ساهم في إعادة القوات الهندية إلى بلادها. تقاعد من الخدمة الميدانية وأصبح مديراً لمؤسسة لتأجير الطائرات يمولها الجيش تدعى "الملاحة العسكرية". وعندما يتسنى لهم الوقت والطائرة اللازمان، يتطوع هو أو أحد رجاله لإيصال مورتنسون إلى أقصى أنحاء البلاد، ويقول بشير: "لقد التقيت بالكثير من الرجال في حياتي، ولكن لا أحد يشابه مورتنسون. عندما نأخذ بعين الاعتبار الجهد الجبار الذي بذله مورتنسون من أجل أطفال بلدي، أجد إن توصيله بالطائرة من حين إلى آخر هو أقل ما أستطيع أن أفعله من أجله".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضغط مورتنسون على الأرقام ووجه هوائي الهاتف نحو الجنوب حتى تمكن من سماع صوت بشير الخفيض المشحون بالتوتر عبر الخط المشوّش. الخبر الذي وصله عن تلك البلد عبر القمم الشامخة فوق جبالها كان مفجعاً.

"أعد ما قلته" زعق مورتنسون عبر الهاتف: "هل مات مسعود؟".

كان بشير قد تلقى لتوه تقريراً غير مؤكد من وكالة الاستخبارات الباكستانية بأن أحمد شاه مسعود قد تم اغتياله على يد قتلة مأجورين من قبل تنظيم القاعدة ينتحلون شخصيات صحفيين، وأخبره أيضاً بأن الحوامة ستأتي في الموعد المتفق عليه، قال مورتنسون في نفسه: "إن كانت تلك الأنباء صحيحة فإن أفغانستان ستنفجر".

الأنباء كانت صحيحة.مسعود، ذلك الرجل الفذ ومحبوب الجماهير الذي يقود الجبهة الشمالية، وزعيم المجموعة المشاكسة التي كانت فيما مضى مع المجاهدين والذي أعاق ببراعته العسكرية حركة طالبان عن السيطرة على معظم أفغانستان، تمّ اغتياله بتاريخ التاسع من شهر أيلول على يد رجلين من الجزائر مدربين من قبل القاعدة كانا قد انتحلا شخصيتي مصوري أفلام وثائقية بلجيكيين من أصول مغربية، وبعد دراسة الأرقام المتسلسلة كشفت الاستخبارات الفرنسية فيما بعد أن القاتلين قد قاما بسرقة كاميرا الفيديو التي كان يستعملها المصور الصحفي جان-بيير فينسيون في فصل الشتاء الذي سبق عملية الاغتيال وهو يعمل على مقالة حول ما تعرضه واجهات المحلات من أجل عيد الميلاد في جرينوبل.

القاتلان الانتحاريان قاما بلفّ جهاز الكاميرا بمواد ناسفة وفجروها أثناء مقابلة صحافية مع مسعود في مقرّ قاعدته في خفاجة بأودين والتي لا تبعد سوى ساعة واحدة بالحوامة عن "سوست" التي

أمضى مورتنسون ليلته فيها. توفي مسعود بعد خمس عشرة دقيقة داخل سيارته الجيب حين كان رجاله يسابقون الزمن للوصول إلى الحوامة الجاهزة لنقله إلى المستشفى في دوشانبه الواقعة في طاجكستان. أخفى رجاله نبأ موته عن العالم قدر ما يستطيعون خشية أن يشجع ذلك جماعة طالبان على شنٍّ هجوم جديد على آخر معقل حرٍ في البلاد.

أحمد شاه مسعود كان معروفاً من قبل الجميع بلقب أسد بانجشير بعد أن دافع عن بلاده ضدّ الغزاة السوفييت وتمكّن من دحر قواتهم المتفوقة بالعدد والعتاد تسع مرات متتالية عن مسقط رأسه، وادي بانجشير بواسطة أساليب بارعة في حرب العصابات. ذلك الرجل الذي عشقه مؤيدوه ومقته الذين عانوا من حصاره الشرس لكابول، كان تشي غيفارا في بلده، رغم أن وجهه الكامن تحت قلنسوته البنية الصوفية بلحيته الكثّة وقسماته الوسيمة المرهفة، كان أكثر شبهاً ببوب مارلي الملحن والمؤلف الموسيقي الجامايكي.

أما بالنسبة لأسامة بن لادن ورسل شؤمه التسعة عشر، ومعظمهم من الجنسية السعودية، الذين كانوا على وشك الصعود إلى طائرة مدنية أميركية فإن موت مسعود يعني بأن الزعيم الوحيد القادر على توحيد موقف أمراء الحرب في أفغانستان الشمالية حول الدعم العسكري الأميركي القادم لا محالة قد أطيح به، تماماً مثل الأبراج التي يتوجهون للإطاحة بها في الجهة الأخرى من العالم.

في صباح اليوم التالي، أي العاشر من شهر أيلول، تسلق مورتنسون وصحبه الذرا التي تعلو وادي تشاربرسون حتى باتت قمم سلاسل جبال هيندوكوش الأفغانية واضحة للعيان بلونها الأحمر القاني. سيارات الجيب التي تقلهم لم تتمكن من قطع مسافة أطول من


https://telegram.me/maktabatbaghdad

عشرين كيلو متر في الساعة الواحدة، فأودعوها أعلى الدرب الترابي الوعر، بين كتل الجليد المتشظية التي تدلت من خاصرة القمم المدببة التي يبلغ ارتفاعها عشرين ألف قدم.

زودخان وهي آخر بقعة مأهولة ضمن الأراضي الباكستانية، تقع عند نهاية الوادي، لكنهم لم يلحظوها حتى أصبحوا داخلها لأن منازلها المبنية من الطوب كانت تتماهى مع اللون الكالح لتربة الوادي. وهناك، فوق أرض ملعب البولو التابع للقرية، شاهد مورتنسون فيصل بيج. حارسه الشخصي، واقفاً باعتزاز، تحيط به مجموعة من أهل قريته لكي يستقبل ضيوفه بالشكل الذي يليق بهم.وبما أنه في قريته، فقد كان فيصل يرتدي ملابس قبيلته التقليدية وفوقها صدرة بنية اللون من الصوف الخشن، وقبعة عريضة الحواف من الصوف الأبيض وينتعل جزمة جلدية ترتفع حتى ركبتيه، انتصب بقامته المديدة فوق رؤوس الحشد الذي اجتمع كي يرحب بالأميركيين، وراء نظارة الطيارين الداكنة التي أهداه إياها مكاون. كان جورج مكاون رجلاً ضخماً، لكن فيصل بيج رفعه عن الأرض دون جهد يذكر وسحقه إلى صدره في عناق حميم، ويقول مكاون: "فيصل عبارة عن جوهرة حقيقية ولم ننقطع عن التواصل مع بعضنا البعض منذ رحلتنا إلى "كيه2" عندما أنزلني بركبتي المعطوبة إلى أسفل الجبل وقام فعلاً بإنقاذ حياة ابنتي المريضة آمي التي حملها على ظهره طوال الطريق. لقد كان فخوراً بزيارتنا له في قريته، والحقيقة أنه أعدّ لنا استقبالاً يليق بالملوك".

كانت هناك فرقة موسيقية تنفخ في الأبواق وتقرع الطبول رافقت الزوار خلال مسيرهم بين رتل طويل متعرج من وفد الاستقبال الذي ضمّ ثلاث مئة نسمة التي تعيش في القرية. أما مورتنسون الذي زار القرية عشرات المرات للاطمئنان على حسن سير المشاريع، وتناول

خلالها عدداً لا يحصى من أكواب الشاي فقد لاقى ترحاب الابن العائد إلى أهله، فعانقه الرجال بقوة لا تضاهي عناق فيصل الساحق، لكنها كافية لتعبر عن فرحتهم الغامرة بقدومه. أما النساء اللواتي ارتدين الزيّ الشعبي بألوانه الزاهية وفوقه الشالات المتوارثة عبرالأجيال ضمن قبيلتهن، فقد قمن بأداء الترحيب الذي تمليه الأعراف المحلية إذ لامسن بكفوف أيديهن وجه مورتنسون برفق وحنان ثم قبلن ظاهرها.

سار فيصل في المقدمة، بينما كان مورتنسون ومكاون يتفقدان الأنابيب الجديدة التي تم تمديدها كي تحمل مياه السيل التي تتدفق من جدول شاهق يقع فوق الجهة الشمالية من الوادي، وقاما بتدشين المشروع حيث أدارا مفتاح المولد الصغير الذي يعمل على قوة الماء والذي يكفي للتغلب على وحشة الظلام لمدة ساعات في الليل داخل بضعة المنازل القائمة في القرية، عندما تضاء مصابيح الإنارة الكهربائية المتدلية من الشقوق.

توقف مورتنسون مطولاً عند المستوصف الجديد الذي عادت إليه لتوها المشرفة بعد أن أنهت دورة تأهيلية قامت مؤسسة آسيا الوسطى بتمويلها لمدة ستة أشهر في مركز طبي يبعد مئة وخمسين كيلو متراً عن زودخان. أضاء وجه زينب المليح التي تبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً بابتسامة مشرقة وهي تستعرض اللوازم الطبية داخل الغرفة التي أضافتها مؤسسة آسيا الوسطى إلى منزلها، وكانت تحمل ابنها الرضيع وإلى جواره ابنتها ذات الأعوام الخمسة المتشبثة برقبتها وهي تشير بافتخار إلى الصناديق الزاخرة بمضادات الالتهاب وزجاجات شراب السعال وأملاح الإسهال التي تبرعت مؤسسة آسيا الوسطى بشرائها.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

بما أن أقرب مركز إسعاف يبعد مسافة يومين بسيارات الجيب على طرقات يتعذر السير عليها في معظم الأوقات، فإن أي عارض صحي في زوردخان كان يمكن أن يتحول إلى كارثة بسهولة. ففي العام السابق لتولي زينب إدارة المستوصف، توفيت ثلاث نساء اثناء الولادة، وتقول زينب: "هناك أيضاً حالات وفاة عديدة بسبب الزحار.لكننا استطعنا أن نتغلب على ذلك بعد أن تلقيت التدريب اللازم وبعد أن زودنا دكتور جريغ بالأدوية، وبعد خمس سنوات من حصولنا على المياه النقية وتعليم الناس كيف يقومون بتنظيف أولادهم وإعداد الطعام بطريقة صحية، لم تحدث ولا حالة وفاة واحدة. وأنا أطمح إلى تطوير نفسي في هذا المجال وإلى أن أنقل معارفي إلى نساء أخريات، خصوصاً بعد أن أحرزنا هذا التقدم ولم يبق في منطقتنا كلها شخص واحد يؤمن بحجب العلم عن النساء".

ويقول مكاون: "النقود التي تضعها بأيدي مورتنسون قادرة على شراء الكثير. أنا أنتمي إلى عالم فيه مؤسسات تبذر الملايين من الدولارات بهدف إيجاد حلول، لكن المشكلات تظلّ عصية على الحل. لكن مورتنسون نجح في أن يقلب حياة هؤلاء الناس رأساً على عقب بمبلغ زهيد لا يعادل أكثر من سعر سيارة رخيصة".

وفي اليوم التالي الواقع في الحادي عشر من أيلول عام 2001 اجتمعت القرية بأكملها حول المنصة التي نصبت على أطراف ملعب البولو. وجلس مورتنسون ومكاون في المكان المخصص لهما تحت راية كتب عليها بأحرف عريضة: "اهلاً بالضيوف الكرام" في حين قام شيوخ القرية ذوو الشوارب الكثة الذين ارتدوا أثواباً طويلة من الصوف الأبيض مطرزة بورود قرمزية بأداء الرقصة الدوارة التقليدية المخصصة للترحيب بالضيوف. وارتسمت على وجه مورتنسون ابتسامة عريضة وهو يقوم من مجلسه لينضم إليهم ويرقص معهم

برشاقة مدهشة بالرغم من بنيته الضخمة، مما جعل القرية بأكملها تهلل بالاستحسان.

وبفضل الزعامة المتحضرة لفيصل بيج والشيوخ الثمانية الذين يشكلون مجلس القرية فقد تمكنت زودخان من الحصول على مدرستها الخاصة بها منذ عشر سنوات. وبعد ظهيرة ذلك اليوم، بدأ خيرة طلبة زودخان يستعرضون بزهو معرفتهم باللغة الانكليزية في خضمّ الخطب التي انهالت دون توقف بمناسبة تدشين مشاريع مؤسسة آسيا الوسطى جميعها وامتد طوال فترة بعد الظهيرة الدافئة. ووقف طالب في سن المراهقة أمام ميكروفون موصول ببطارية جرار زراعي وقال متلعثماً: "نشكركم على منح وقتكم الثمين في هذه المنطقة النائية من شمال الباكستان".

وجاء بعده زميل له مليح الوجه وحاول أن يتفوق عليه بعبارات خمن بأنه أعدها جيداً. فأمسك بالميكروفون وتحدث وهو يتمايل فوق المنصة كما يفعل نجوم البوب قائلاً: "هذه المنطقة كانت معزولة ومهملة وكنا نشعر بالوحدة هنا في الزودخان، نقول شكراً لمن أحسنوا إلينا وأننا لن ننسى هذا الجميل أبداً".

اختتمت الاحتفالات بمباراة بولو تم ارتجالها لتسلية الضيوف ذوي المقام العالي. فقاموا بجمع مهور الجبل القزمة ذات العضلات المتينة من أطراف الوادي جميعها ولعب أفراد القبيلة صنفاً من لعبة البولو لا يقل جلافة عن الحياة التي يعيشونها. كان اللاعبون الذين يعدون على ظهور الفرس العارية ليلاحقوا جمجمة الماعز التي أخذت مكان الكرة يضربون بعضهم بعضاً ومطاياهم تصطدم ببعضها البعض وكأنها في سباق سيارات طاحن. أما القرويون، فكانوا يهللون بحماس كلما مرّت بهم إحدى تلك المطيات الجامحة. ولم يتوقف ذلك الهياج الطائش إلا عندما تلاشى آخر ضوء للنهار وراء أفغانستان، فترجل الفرسان عن خيولهم وتفرقت الجموع.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان فيصل بيج الذي يتفهم عادات الثقافات الأخرى ويتسامح معها قد أحضر زجاجة من الفودكا الصينية وقدمها إلى الزوار الذين استضافهم في منزله المتواضع لكنه ومورتنسون امتنعا عن الشرب أمام شيوخ القرية الذين حضروا إليهم في زيارة متأخرة وتحدثوا عن مقتل مسعود وما سيترتب عليه من نتائج وخيمة على قبيلة بيج.

فإذا وقع ما تبقى من أفغانستان، الواقع على مسافة لا تتجاوز ثلاثين كيلومتراً من معبر إرشاد في قبضة حركة طالبان فإن حياتهم سوف تنقلب رأساً على عقب. الحدود سوف تغلق وممراتهم التجارية التقليدية ستصبح مسدودة في وجوههم، كما أنهم سيعزلون عن باقي أفراد قبيلتهم الذين يجوبون بلا قيود معابر ووديان البلدين.

لقد جاء مورتنسون إلى زودخان في الخريف المنصرم كي يسلم الأنابيب اللازمة لجر المياه وأحس بدنو الكارثة في أفغانستان. وكان واقفاً برفقة بيج فوق مرعى يقع في أعلى زودخان يراقبان سحابة من الغبار تهبط من معبر أرشاد. الفرسان الذين على ظهور الأحصنة اكتشفوا موقع مورتنسون واتجهوا نحوه مباشرة كعصبة من قطاع طرق هائجين وتراكضوا نحوه بالعشرات وصدورهم مثقلة بأحزمة الرصاص بلحاهم المتلبدة وجزماتهم محلية الصنع التي تصل حتى ركبهم

ويقول مورتنسون: "قفزوا من على ظهور أحصنتهم وتوجهوا نحوي. لم أر وجوهاً بتلك الوحشية في حياتي كلها وقد ذكرتني بأيام احتجازي في وزيرستان فقلت لنفسي: "هاأنذا أعيد الكرّة من جديد".

سار قائدهم الفظ نحو مورتنسون وهو يحمل بندقية صيد على كتفه، لكن بيج اعترض طريقه وكله استعداد على أن يضحي بحياته في سبيل مورتنسون. وبعد مرور لحظة كان الرجلان يتعانقان بشوق ويتبادلان الحديث بحرارة.

قدمه بيج إلى مورتنسون قائلاً: "إنه صديقي وهو يبحث عنك منذ مدّة طويلة".

عرف مورتنسون أن الرجال ينتمون إلى القيرغيز، العرق المغولي الذي يقطن في سهوب آسيا الوسطى، داخل النتوء الأفغاني الوقع في الشمال الشرقي النائي ولديه علاقات حسن جوار مع وادي تشاربرسون في الباكستان الذي يجوبه ويرعى فيه قطعان الماشية العديد من عائلات القيرغيز.

إنهم مغيبون داخل ذلك الدهليز الموحش الواقع بين باكستان وطاجكستان وطوقوا داخل تلك الزاوية الضيقة من بلادهم من قبل حركة طالبان ولهذا السبب، فهم لا يتلقون أي عون من الخارج أو من حكومتهم. لقد ساروا على ظهور أحصنتهم لمدة ستة أيام كي يصلوا إلى مورتنسون الذي سمعوا بأنه سيحضر إلى المنطقة في ذلك الوقت.

دنا زعيم القرية من مورتنسون وتحدث إليه عبر ترجمة بيج قائلاً: "الحياة القاسية لا تهمني، لكنها تهم الأطفال. لا نملك مايكفي من الطعام. منازلنا فقيرة وليس لدين مدارس. وقد سمعنا عن شخص يدعى دكتور جريغ يقوم ببناء المدارس في الباكستان وهذا يعني أنك تستطيع الحضور إلينا لبناء مدرسة، أليس كذلك؟ سنوفّر لك الأرض والحجارة والرجال وكل ما تحتاجه. تعال برفقتنا الآن وابق معنا خلال فصل الشتاء كي نتمكن من مناقشة الامر لبناء مدرسة جيدة".

أخذ مورتنسون يفكر في جيران هذا الرجل في الجهة الغربية، أولئك عشرة الآلاف مهجر العالقين على جزر نهر آموداريا الذين خذلهم. ومع أن أفغانستان التي تعيش حالة حرب أبعد ما تكون عن المكان المناسب لمباشرة مشروع تنموي جديد، فقد أقسم لنفسه أن يجد وسيلة لمساعدة أولئك الأفغان. شعر مورتنسون بالحسرة وهو


https://telegram.me/maktabatbaghdad

يسوغ عبر بيج أن زوجته تتوقع عودته إلى المنزل في غضون أيام قليلة وأن مشاريع مؤسسة آسيا الوسطى جميعها يجب أن تحظى أولاً بموافقة مجلس الإدارة، لكنه وضع يده فوق كتف الرجل وشدّ على صدرته الصوفية المتسخة: "قل له أنني مضطر إلى العودة إلى منزلي الآن. وقل له أيضاً أن العمل في أفغانستان صعب للغاية بالنسبة لي، لكنني أعده بأن أقوم بزيارة أسرته بأسرع وقت ممكن، وسنتحدث عندها عن إمكانية بناء مدرسة لهم".

قطب القيرغزي جبهته بتركيز شديد على ما يقوله بيج، ثم انفرجت أساريره التي لوحتها الشمس عن ابتسامة عريضة ووضع يده المخشوشنة فوق كتف مورتنسون وكأنه يصادق على العهد الذي قطعه له، ثم امتطى حصانه وسار أمام رجاله ليباشروا رحلة العودة الطويلة عبر هيندوكوش ليمثُل من جديد بين يدي قائده العسكري عبد الرشيد خان.

وبعد سنة من ذلك، كان مورتنسون يستلقي في منزل بيج على السرير المعلق الذي أعده بيج خصيصاً لراحة ضيوفه، في حين يفترش هو وأفراد أسرته الأرض. غطّ دان وسوزان في نوم عميق بينما تعالى شخير مكاون من فراشه قرب النافذة. كان مورتنسون متعباً فلم يتمكن من متابعة حديث شيوخ القرية. أما الآن وقد آوى إلى الفراش، فقد بدا يفكر ملياً بالوعد الذي قطعه للفرسان القيرغزيين وتساءل إن لم يجعل مقتل مسعود الالتزام به مستحيلاً.

أطفأ بيج المصابيح بعد انقضاء منتصف الليل بوقت طويل وهو يؤكد أن بواكير الصباح تنطوي على أسرار البشر التي في علم الغيب، وأن الطريقة المثلى للتعامل معها هو التضرع إلى الله كي يحميهم قبل أن يستسلموا للنوم. بدأ مورتنسون يطفو مبتعداً عن نهاره المضني، وكان آخر ما ماتناهى إلى سمعه صوت بيج يبسمل في الظلمة بصوت خفيض كي لا يؤرق نوم ضيوفه.

عند الساعة الرابعة والنصف فجراً، شعر مورتنسون أن أحداً يهزه كي يستيقظ. وعندما فتح عينيه كان فيصل بيج إلى جانب سريره وقد ألصق إلى أذنه مذياعاً روسي الصنع من البلاستيك الرخيص ذا موجة قصيرة. وفي دائرة النور الأخضر المنبعث من قرص المذياع، شاهد مورتنسون وجه حارسه الوسيم وقد اعتلاه تعبير لم يلمحه عليه من قبل قط: الفزع.

"سيدي الدكتور، سيدي الدكتور، مشكلة كبيرة، انهض، انهض!".

حس الالتزام العسكري الذي لم يفارقه أبداً جعل مورتنسون ينهض جالساً مع أنه لم ينم أكثر من ساعتين، وقال وهو يمسح النوم عن عينيه: "السلام عليكم فيصل، كيف حالك؟".

بيج اللبق عادة، كان هذه المرّة يصرّ على نواجذه ويحدق في عيني مورتنسون مباشرة. ومرّت لحظة طويلة قبل أن يسترد توازنه ويقول: "أرجو المعذرة".

"لماذا؟" وتيقظت حواس مورتنسون عندما شاهد أن حارسه الشخصي الذي يكتفي عادة ببنيته الجسمانية الضخمة لصد أي مصدر خطر يقع ضمن حدود الرؤية، يحمل بندقية أتوماتيكية بيده.

"قرية تدعى نيويورك قصفت بالقنابل".

وضع مورتنسون بطانية من صوف التيس فوق أكتافه وانتعل صندله المتجمد من البرد وخطا نحو الخارج. حول المنزل وفي ذلك البرد القارس من ساعات الفجر الأولى شاهد أن بيج قد وضع طاقم حراسة كامل لضيوفه الأميركيين. علام جان، شقيق فيصل الجريء ذو الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين وحمال الذرا الشاهقة، كان يحمل كلاشينكوفاً ويسد بجسده نافذة المنزل الوحيدة. إمام القرية حيدر وقف يستكشف الآفاق المظلمة باتجاه أفغانستان. أما سارفراز وهو


https://telegram.me/maktabatbaghdad

شاب نحيل ورشيق كان في السابق مغواراً في الجيش الباكستاني، فكان يراقب الطريق العام ترقباً لأي مركبة قد تتجه نحوهم وهو يدير بنزق قرص مذياعه.

أطلعوا مورتنسون أن سارفراز سمع عن طريق الصدفة نبأ بلغة اليورجور، وهي واحدة من عشرات اللغات التي يتحدثها، تبثه محطة إذاعية صينية بأن برجين ضخمين قد دمرا، وبأنه لم يفهم ما يعنيه ذلك، لكنه فهم بأن الإرهابيين قد قتلوا عدداً كبيراً من المواطنين الأميركيين. وهو يدير قرص المذياع الآن بحثاً عن بعض التفاصيل لكنه لا ينجح في التقاط أي شيء ما عدا موسيقى يورجورية حزينة تبثها محطة إذاعية تقع على الحدود الصينية.

طلب مورتنسون أن يحضروا له جهاز الجوال الذي اشتراه من أجل هذه الرحلة فامتطى سارفراز صهوة حصانه وسابق الريح باتجاه منزله كي يعيد الجهاز الذي كان يحاول أن يتعلم طريقة استعماله لكونه أكثر الموجودين تمرساً بالأمور التقنية.

لكن فيصل بيج الذي لم يكن بحاجة إلى المزيد من المعلومات وقف جانباً حاملاً بندقيته الأتوماتيكية بيد، ومكوراً الأخرى التي تشنجت إلى جانبه، قبضة تتعطش للكم، وحدق بخيوط الفجر الأولى تنسفح كالدماء وهي تمسح الظلام عن ذرا الجبال الأفغانية. منذ سنوات طويلة وهو يعرف بأن ذلك آت ويرى الكارثة وهي تتفاقم. الوصول إلى اليقين سوف يستغرق شهوراً طويلة ويستنفذ الملايين من الدولارات التي ستنهال على خدمة الأساليب الأفعوانية الدؤوبة لجهاز الاستخبارات الاميركي، في حين أن هذا الرجل الأمي الذي يعيش في آخر قرية تقع على الطريق الترابي اكتشفه بحدسه الفطري، ودون الحاجة إلى خطوط الانترنت أو حتى جهاز هاتف.

وقال لمورتنسون وهو ينظر شزراً نحو الحدود: "مشكلتكم في قرية نيويورك قادمة من هناك. من شيطان تنظيم القاعدة ذاك" ثم بصق باتجاه أفغانستان قائلاً: "أسامة".

هبطت المروحية الضخمة روسية الصنع في تمام الساعة الثامنة صباحاً كما وعد الجنرال بشير، وقفز منها الكولونيل الياس ميرزا، صفوة ضباط بشير، وتوقف عند مروحة الطائرة وأدى التحية العسكرية الأميركيّة قائلاً: "سادتي دكتور جريغ والسيد جورج، أنا في الخدمة" ثم قفز من المروحية مغاوير من الجيش الباكستاني وأحاطوا بالأميركيين.

الياس كان طويل القامة ومفعماً بالحياة على النموذج الذي تريده هوليوود لنجومها، وله شعر أسود فاحم يشوبه لون فضي عند صدغي وجهه واضح المعالم. وفيما عدا ذلك، فهو الشاب الوسيم نفسه الذي أدى خدمته في الجيش كواحد من أمهر الطيارين الحربيين.

الياس كان أيضاً وزيرياً من بلدة بانو التي مرّ بها مورتنسون مباشرة قبل اختطافه، ومعرفة الكولونيل بالمعاملة التي لقيها مورتنسون من قبيلته في البداية، جعلته يصمم على ألا يتعرض لأي مكروه مرّة أخرى.

رفع فيصل بيج يده نحو السماء وحمد الله الذي أرسل أفراداً من الجيش لحماية الأميركيين، ثم صعدا إلى الطائرة المروحية برفقة مورتنسون ومكاون وأسرته دون أية أمتعة شخصية ولا أدنى فكرة عن وجهتهم لأن ما يعنيه الآن هو أن يكون الحزام الأمني من حولهم منيعاً.

وعندما أصبحوا في الجو، اتصلوا بأميركا على هاتف مورتنسون وتبادلوا أحاديث مختصرة مع تارا وكارن زوجة مكاون للحفاظ على شحن البطارية الذي لا يتجاوز خمساً وأربعين دقيقة، وعرفوا منها تفاصيل الهجوم الإرهابي.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

أقحم مورتنسون سماعتي الهاتف إلى عمق أذنيه وهو يزمّ عينيه محدقاً النظر بين المجازات الضيقة لقمم الجبال عبر كوة الطائرة الصغيرة كي يبقي هوائي الجهاز موجهاً نحو الجنوب، حيث تدور الأقمار الصناعية التي يرتد عنها صوت زوجته.

تنفست تارا الصعداء عندما سمعت صوت زوجها، وأجهشت بالبكاء وراحت تخبره كم تحبه عبر التشويش والانقطاعات التي تبعث على الجنون. وجاءه صوت صراخها قائلاً: "أعرف أنك بأمان مع أسرتك الثانية، أكمل عملك ثم عد إلي يا حبي".

مكاون الذي أدى خدمته الالزامية داخل مركز قيادة المقر الاستراتيجي للقوات الجوية الاميركية يزود بالوقود طائرات "B52" التي تقوم بنقل الرؤوس النووية عن طريق الجو، تشكل لديه حدس لا يشوبه أدنى شكّ حول المصير الذي يتربص بأفغانستان "أنا أعرف رامسفيلد ورايس وباول بشكل شخصي، لذا فقد أدركت أننا على وشك شن الحرب. إن تأكد أن زمرة القاعدة هي المسؤولة عن التفجير، فسوف نباشر بقصف ما تبقى من أفغانستان في أية لحظة حتى تصبح أثراً بعد عين وإن حدث ذلك، فلا أدري إلى أي جانب سيقف مشرّف. إن اختار أن يلوذ بأحضان أميركا، فليس من المؤكد أن يحذو الجيش الباكستاني حذوه لأنهم يدعمون حركة طالبان. ولاحظت أنه يمكن أن ينتهي بنا الأمر كرهائن هنا، ولم أعد أرغب إلا في مغادرة المكان".

اعتذر مهندس الطائرة لعدم وجود سماعات تكفي الجميع، وأعطى لمورتنسون سدادتي أذن واقيتين، وضعهما مورتنسون في أذنيه وألصق وجهه بكوة الطائرة مستمتعاً بالصمت الذي زاد من جمال المناظر. في الأسفل، كانت مصاطب التلال المنحدرة لوادي هونزا تشمخ مثل لحاف متشقق خُيّط إلى بعضه البعض بكل تدرجات

اللون الأخضر وألقي على الخواصر الضخمة للجبال المتعالية. الذي ينظر نحو الأسفل من الجو، تبدو له مشكلات الباكستان غاية في البساطة. فهناك تجري الأنهار الجليدية الخضراء وتتشظى تحت أشعة الشمس الحارقة، وهنا الجدول الذي تنصبّ فيه كتل الجليد التي انفصلت عن الأنهار وفي الأسفل تتناثر القرى العطشى. أطال مورتنسون النظر وهو يتابع تعرجات أقنية الري التي تحمل الماء إلى مصاطب الحقول في كل قرية. والناظر من هذا الارتفاع الشاهق لا يرى سوى الحياة والعافية دبت في أوصال هذه المستوطنات المعزولة، ويظن أن تحقيق ذلك لم يتطلب سوى تمديد بضعة أنابيب لتحويل مجرى الماء.

قال مورتنسون لنفسه: "العقابيل الشائكة التي يضعها أئمة القرى أمام تعليم الإناث لا يمكنك رؤيتها من هنا، وكذلك الكيد التآمري للمسؤولين الحكوميين المحليين الذي يمكن أن يوقف العمل في معمل مهني للنساء، ويعرقل بناء مدرسة وفقاً لأمزجتهم ومصالحهم، ثم كيف يمكن لك أن تتعرف على أوكار الأصولية التي تنتشر وتمتد كورم خبيث في قلب هذه الأودية المسكينة دونما رادع، وقد اتخذوا التدابير اللازمة فاستتروا خلف الجدران العالية وحجبوا أنفسهم تحت شعار التعليم؟

حطت بهم الحوامة في شانجري لا، وهو منتجع راق لصيد السمك يديره جنرالات الجيش الباكستاني يقع فوق سطح بحيرة تبعد نحو ساعة إلى الغرب من سكاردو. وفي المنزل الذي استضافهم حيث صحن الأقمار الصناعية يبث نشرات الأخبار بصورة ضبابية أمضى مكاون وقتاً عصيباً من بعد الظهر والمساء يتابع المشاهد التي تنقل كيف تحولت الطائرات ذات اللون الفضي إلى صواريخ اخترقت مانهاتن وكيف كانت الأبنية الشاهقة تغرق في بحر من الرماد وكأنها سفن استهدفتها مدافع الطوربيد.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

أما في مدرسة دار العلوم الحقانية الواقعة في بيشاور التي أسسها الأصوليون، فقد تحدث طلابها بتفاخر في وقت لاحق إلى صحيفة نيويورك تايمز عن احتفالهم البهيج عندما وصل إليهم نبأ التفجير، فراحوا يركضون منتشين داخل الحرم الشاسع ويضغطون راحات أيديهم بأصابعهم، وهي الإشارة التي لقنهم إياها مدرسوهم بأن قضاء الله قد نفذ بذلك الانقضاض القويم لتلك الطائرات المباركة على مكاتب عمل الكفار، وشعر مورتنسون بالحاجة الملحة للعمل على نشر التعليم دونما إبطاء.

مكاون من جانبه، كان متلهفاً لمغادرة الباكستان بأية وسيلة ممكنة، وأحرق بطارية الجوال وهو يحاول أن يتواصل مع شركائه في العمل كي يرحلوه من عند الحدود الهندية أو يؤمنوا له الوصول جواً إلى الصين. لكن نقاط العبور كلها أغلقت بإحكام كما ألغيت الرحلات الجوية الدولية جميعها. ويقول مورتنسون: "قلت لجورج: أنت الآن في أكثر الأماكن أمناً على وجه الكرة الأرضية لأن هؤلاء الناس سيفدونك بأرواحهم. وبما أننا لا نستطيع حالياً الذهاب إلى أي مكان آخر، فلم لا نلتزم ببرنامجنا الأصلي ريثما نتمكن من ترحيلك على متن طائرة ما؟

في صبيحة اليوم التالي، أرسل الجنرال بشير المروحية كي تقل مكاون وصحبه في رحلة طيران منخفض حول قمة "كيه2" كي تلهيهم عن الوضع الراهن، في حين كان يحاول جاهداً أن يجد طريقة لإعادة مكاون وأفراد أسرته إلى منازلهم ألصق مورتنسون وجهه بزجاج كوة الطائرة من جديد وتأمل بناء مدرسة كورف يمر من الأسفل كهلال أصفر يشع على استحياء كأنه الأمل بين حقول القرية الزمردية.

لقد كان يعود إلى كورف لتناول الشاي مع الحاج علي كل فصل خريف قبل أن يغادر عائداً إلى أميركا، وقطع على نفسه عهداً بأن يأتي لزيارته حالما يطمئن أن ضيوفه قد غادروا البلاد سالمين.

في يوم الجمعة الواقع في الرابع عشر من شهر أيلول، اتجه مورتنسون ومكاون بسيارة الجيب نحو كوادرو التي تقع في جهة الغرب، على رأس موكب من المرافقين الذين كان عددهم أكثر من المعتاد بعد أن أصبحت بالتستان تضجّ بالأنباء المروعة القادمة من تلك الجهة البعيدة من العالم ويتحدث مورتنسون عن ذلك بقوله: "لقد بدا الأمر وكأنه لم يتبق رجل سياسة واحد أو شرطة أو جيش أو زعيم ديني في شمال الباكستان لم يحضر لمساعدتنا في افتتاح مدرسة كوادرو.

كانت مدرسة كوادرو قد اكتملت وبدأ التدريس فيها منذ سنوات، لكن تشانغزي كان ينتظر حدثاً لكي يحشد الموكب اللائق بالمناسبة.

وعند وصولهم وجدوا أن جموعاً غفيرة قد احتشدت في الفناء، يقرضون لبّ المشمش ويتسكعون في الفناء حتى أن مبنى المدرسة بحد ذاته قد كان محجوباً عن الرؤية. لكن الأمر الهام في ذلك اليوم لم يقتصر على مجرد مبنى فقد كان السيد عباس بشخصه موجوداً وهو الخطيب المفوّه الذي سيتحدث إليهم. لقد بات العالم الإسلامي مهدداً في نظر شعب بالتستان، ولذا فقد تشبثوا بكل كلمة ينطق بها زعيمهم الديني الأعلى الذي استهل خطبته قائلاً: "بسم الله الرحمن الرحيم والسلام عليكم".

ومن فوق المنصة التي تلاصقت الأجساد من حولها، بدا السيد عباس وكأنه يطفو فوق الحشد بعباءته وعمامته السوداوين "اليوم هو يوم سوف يتذكره أولادكم إلى الأبد ويتحدثون عنه إلى أولادهم وأحفادهم.اليوم يتوهج نور العلم من قلب ظلمة الجهالة".

ثم ثبّت نظارته على عينيه وتابع قائلاً: واليوم، نفتح هذه المدرسة ونحن نتشارك بالأحزان مع الناس الذين يبكون ويتألمون في أميركا أولئك الذين ارتكبوا ذلك العمل الآثم ضد الأبرياء والنساء والأطفال


https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا يمتون للإسلام بصلة وبمشيئة الله العلي القدير فإن القصاص العادل سوف يلحق بهم. وبعد هذه المأساة، فإنني أطلب، وأنا خجل، الغفران من السيد جورج والسيد الدكتور جريغ. وأطلب منكم جميعاً يا أخوتي أن تضعوا هذين الأميركيين اللذين بين ظهرانينا الآن في قلوبكم وأحضانكم، وأن لا تسمحوا لأي ضرر بأن يلحق بهم وأن تبذلوا النفيس والرخيص في سبيل تحقيق هدفهما. لقد اجتاز هذان الرجلان المسيحيان نصف العالم ليجلبا نور العلم إلى أولادنا، وهو شيء عجزنا نحن عن فعله، لماذا عجزنا عن جلب العلم لأولادنا بأنفسنا؟ لهذا، فإنني أناشدكم أيها الآباء، أيها الأهالي، أن تبذلوا كل ما بوسعكم وأن تعاهدوني بأن كلّ الأولاد سوف ينالون القسط اللازم من التعليم، وإلا فإن أولادكم سوف يقضون حياتهم كلها بلهاء يجوبون الحقول ويرعون الماشية تحت رحمة الطبيعة، فيما ينهمك الكون كله من حولنا في تطوير نفسه بدأب وتصميم".

توقف السيد عباس عن الحديث برهة كي يستجمع أفكاره، فيما ران صمت مطبق على الحشد كله بما فيهم أصغر التلاميذ.

وعندما تابع السيد عباس خطبته، كان صوته مخنوقاً: "إنني أطلب من أميركا أن تنظر إلى أعماق قلوبنا لترى بأن الغالبية العظمى من بيننا ليست إرهابية، بل بشراً صالحين وبسطاء. لقد ابتلينا بالفاقة لأننا لم نعرف سبيل العلم.ولكن اليوم، شاهدنا شمعة معرفة أخرى تضاء. وأسأل الله تعالى أن تنير تلك الشمعة دربنا حتى نخرج من العتمة التي نحن فيها.

ويقول مورتنسون: "حديثه كان مذهلاً، لقد رأيت دموع الموجودين جميعهم تنحدر على وجوههم بعد أن اختتم السيد عباس خطبته، وتمنيت من كل قلبي لو سمعها الأميركيون الذين يربطون اسم المسلم بالإرهابي، أعمدة الإسلام الحقيقية هي العدالة والتسامح وفعل الخير والسيد عباس قدم لنا جوهر الدين الإسلامي المعتدل ذاك ببلاغة مدهشة".

وبعد انتهاء المراسم، اصطفت أرامل كوادرو اللواتي لا حصر لهن وقدمن التعازي لمورتنسون ومكاون، ووضعن في راحتي كل من الرجلين الأميركيين بيضة وتوسلن إليهما أن يوصلوها كتعبير رمزي عن شعورهن بالأسى نحو أخواتهن الأرامل في قرية نيويورك النائية لأنهن لا يقدرن على الذهاب إليهن لمواساتهن شخصياً. نظر مورتنسون إلى كوم البيض الذي كان يرتجف في راحة يده، ووضع يده الأخرى الضخمة فوقه واتجه نحو سيارة الجيب وهو يفكر بالأطفال الذين كانوا على متن الطائرتين، وبأولاده البعيدين عنه. سار بين الحشود التي كانت تدعو له بالتوفيق فوق الأرض المكسوة بفضلات قشور المشمش المبعثرة عاجزاً عن أن يلوّح لهم مودعاً لأن كل شيء في العالم قد أصبح هشاً منذ الآن.

في اليوم التالي، رافقهم الكولونيل الياس في رحلتهم بالمروحية إلى إسلام آباد، وحطوا في المطار الشخصي للرئيس مشرّف حيث تتوفر إجراءات أمنية مشددة. وجلس الأميركيون في قاعة الانتظار التي تحيط بها حراسة مكثفة قرب موقد فحم من الرخام بدا وكأنه لم يستعمل من قبل قط، في أسفل لوحة زيتية للجنرال بزيه العسكري الكامل.

وهبط على أرض المطار أيضاً الجنرال بشير الذي قاد بنفسه مروحية تعود إلى العهد الفيتنامي أطلق عليها الجيش الباكستاني لقب الحوت الفرنسي لأنها كانت أكثر كفاءة من المروحيات أميركية الصنع التي تنتمي إلى الحقبة ذاتها وكانوا يطيرون بها هي الأخرى. أعلن الياس بصوت جهوري: "لقد حطّ النسر على الأرض" بينما قفز بشير على الأرض الاسفلتية. أصلع الرأس وضخماً كالثور في بدلة الطيار التي كان يرتديها، ولوح لهم بالتحية من الخارج.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

قاد بشير مروحيته بسرعة وعلى نحو منخفض وهو يغادر حول المنحدرات الخفيضة. وفي الوقت الذي أصبح فيه المعلم البارز لإسلام آباد، أي المآذن الأربع وقاعة الصلاة الشبيهة بالخيمة والتي تستوعب سبعين ألف مصلّ في مسجد فيصل الذي مولته السعودية، أصبحوا فعلياً في لاهور. حط الجنرال بمروحيته في وسط مدرج مطار لاهور الدولي على مسافة لا تتجاوز خمسين متراً عن طائرة البوينغ 747 العائدة لشركة طيران سنغافورة التي ستقل مكاون وعائلته بعيداً عن الموقع الذي بات من الواضح أنه على وشك الانفجار.

وبعد أن عانقوا مورتنسون وفيصل بيج مودعين إياهما، رافق الجنرال بشير مكاون وأفراد أسرته إلى مقاعدهم في الدرجة الأولى واعتذر من بقية الركاب الذين تسبب في تأخير رحلتهم وظلّ برفقة الأميركيين حتى أصبحت الطائرة جاهزة للإقلاع.

ويقول مكاون: "عندما أعاود التفكير في تلك الفترة، أجد أن كل من صادفتهم كانوا رائعين ومفعمين بالمحبة. كنت قلقاً حول مصيري فيما يسمونه بالبلد الإسلامي المرعب، لكننا لم نتعرض لأي مكروه. لقد حلّت الكارثة بعد أن غادرنا".

أودع مكاون خلال الأسبوع التالي في فندق رافلز الفخم في سينغافورة ريثما يتعافى من التسمم المعوي الذي ألمّ به بعد تناوله الطعام الذي يقدم لركاب الدرجة الأولى في شركة طيران سينغافورة.

أما مورتنسون فقد استقل طائرة عسكرية تتجه إلى سكاردو عائدة إلى الحاج علي، واستغرق في النوم خلال الرحلة التي شقّت بها سيارته الجيب الطريق الصاعد إلى أعالي الوديان، يقودها حسين وعلى جانبه بيج الذي كان يوغل النظر في الآفاق بعينيه الثاقبتين.

الحشد المعتاد الذي كان يقف على حافة الجرف البعيد لاستقباله

بدا له مريباً. وعندما بدأ يسير فوق الجسر المعلق، شعر بأنفاسه تنقطع وهو يجيل النظر في الجهة اليمنى المتطرفة من الحيد، تلك البقعة الشاهقة التي كان الحاج علي ينفرد عندها بانتظاره راسخاً كجلمود صخر. الحاج لم يكن هناك.لاقاه تواها عند ضفة النهر ونقل إليه النبأ.

لقد مرّ شهر على وفاة أبيه ومنذ ذلك الحين أعلن تواها الحداد فحلق شعر رأسه وأطلق لحيته، ووجه تواها الملتحي جعل مورتنسون يلحظ الشبه الكبير بينه وبين أبيه لأول مرة. عندما حضر في الخريف الماضي لتناول الشاي مع الحاج علي، لحظ مورتنسون مدى اضطراب زعيم قرية كورف العجوز. سكينة لازمت الفراش طوال فصل الصيف تعاني من آلام مبرحة في معدتها وتصارع مرضها بالجلد البلطي المعهود، وفارقت الحياة وهي تأبى على نفسها أن تخوض الرحلة الطويلة الشاقة نحو المشفى في أسفل الوادي. ذهب مورتنسون مع الحاج علي إلى مقبرة كورف الواقعة ضمن حقل لا يبعد كثيراً عن مبنى المدرسة، الحاج علي، الذي أبطأت الشيخوخة حركته، وجد مشقّة في الركوع ليلامس شاهدة القبر المتواضعة المغروسة فوق البقعة التي دفنت فيها سكينة، ووجهها نحو الكعبة. وعندما نهض، كانت الدموع تملأ عينيه وخاطب ولده الاميركي من بين دموعه قائلاً: "أنا لا أساوي شيئاً من دونها.لاشيء على الإطلاق".

ثم عانقه ومن ارتجاف جسده الهش عرف مورتنسون أنه انخرط في بكاء مرير. لكن الحاج علي ما لبث أن أطلق ضحكته الأجشة التي ثلّمتها سنوات التبغ الممضوغ الطويلة.

"بعد وقت ليس ببعيد، سوف تحضر إلى هنا باحثاً عني وستجدني انا أيضاً مستلقياً تحت الأرض" قال الحاج علي مغرقاً في الضحك.

وعندما تحدث مورتنسون عن فقدانه لذلك الرجل بعد سنوات عديدة، كان صوته ما يزال كسيراً "لم أجد حينها أي طرافة في موت


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحاج علي" لكنه لفّ ذراعيه حول المعلم الذي لقنه الكثير في عناق طويل وطلب إليه أن يعلمه درساً آخر. "وما الذي أفعله أنا عندما يأتي ذلك اليوم بعد زمن طويل؟" نظر الحاج علي نحو قمة "كيه2" في الأعالي وهو يختار كلماته بعناية: "أصغ إلى الرياح".

ركع مورتنسون إلى جانب تواها قرب القبر الندي لزعيم كورف المسجّى داخل التراب الذي توقف قلبه المتعب عن الخفقان عن عمر يناهز الثمانين عاماً وفقاً لتقديرات تواها. قال مورتنسون لنفسه: "لاشيء يدوم، رغم كل مانفعله وما نحققه، فكل شيء إلى زوال".

قلب أبيه لم يسمح له بالحياة أكثر من ثمانية وأربعين عاماً، وحرم مورتنسون من الوقت الذي كان يحتاجه لإيجاد الأجوبة الصحيحة على الأسئلة التي بدأت الحياة تنهال بها عليه، وها هو الآن يقف إلى جانب قبر الرجل البلطي الذي لا يعوّض، الذي أمسك بيده كي يسدّ الكثير من الثغرات، والذي قدّم له دروساً كان يمكن أن يمضي حياته جاهلاً بها، وقد استلقى إلى جوار زوجته لكي يضمحل مثله مثل أي كائن بشري عادي.

نهض مورتنسون واقفاً وتساءل عما كان يمكن لحاج علي أن يقوله في لحظة كهذه، في مثل هذه الحقبة المظلمة من تاريخ الإنسان، عندما يكتشف أن كل ما هو عزيز على قلبه يتكسر بهشاشة وكأنه قشرة بيضة. وعادت إليه كلماته لترن في رأسه بصفاء مخدور: "أصغ إلى الرياح".

أرهف مورتنسون سمعه باحثاً عما يمكن أن يعنيه ذلك. سمع صوت الرياح وهي تنعق داخل صدوع مجرى نهر برالدو حاملة نذر الثلوج وموت الطبيعة. لكن النسائم التي تسللت عبر هذا الرف الصخري الهش، حيث يكدُّ البشر للاستمرار على البقاء بطريقة ما في أعالي الهيملايا جلبت إلى أسماعه الرنين الموسيقي الطروب لأصوات طلاب مدرسة كورف وهم يلعبون في فنائها. مسح مورتنسون دموعه الحارقة بأطراف أصابعه وقد أدرك بأن هذا هو درسه الأخير وقال محدثاً نفسه: "فكر بهم، فكر دائماً بهم".

# الفصل عشرون

# احتساء الشاي مع جماعة طالبان

"أبيدوهم جميعاً، واتركوا أمر تصنيفهم لله"

"ملصقة شوهدت على نافذة شاحنة بيك آب

في ولاية مونتانا الأميركية"

"هلم بنا لمشاهدة السيرك"

قال سليمان

جلس مورتنسون في المقعد الخلفي لسيارة التويوتا البيضاء التي استأجرتها المؤسسة لسائقه في راولبندي الذي تحول فيما بعد إلى مفاوض. وأسند رأسه على الغطاء المخرم الذي ثبته سليمان فوق مساند الرأس بمحبة وذوق مرهف، فيما جلس فيصل بيج إلى جانبه متبرماً. وكان سليمان قد استقبلهما في المطار الذي وصلا إليه على متن رحلة للخطوط الباكستانية التي استأنفت رحلاتها في الباكستان وأميركا مع نهاية شهر أيلول عام 2001.

تسأل مورتنسون: "مشاهدة ماذا؟".

"سوف ترى" واجابه سليمان وهو يبتسم بسعادة. مقارنة بشاحنة السوزوكي الصدئة التي حوّلها إلى تكسي، فإن التويوتا تعادل سيارة فيراري بالنسبة له، وراح ينساب بها عبر حركة السير البطيئة فوق الطريق الرئيسية التي تربط راولبندي بشقيقتها التوءم إسلام آباد وهو



https://telegram.me/maktabatbaghdad

يمسك المقود بيد، ويجري اتصالاً هاتفياً بيده الأخرى على هاتفه الجوال، أثمن ممتلكاته، ليؤكد على مدير فندق "هوم سويت هوم" بأن يبقي الحجز قائماً لأن سيده سيصل متأخراً.

أوقف سليمان السيارة على مضض ليقدم أوراقه الثبوتية عند حاجز للشرطة مهمته حماية المنطقة الزرقاء، أي القطاع الدبلوماسي الحديث الذي تتموضع فيه دوائر إسلام آباد الحكومية والسفارات الأجنبية وفنادق رجال الأعمال ضمن شبكة من الجادات الشاسعة التي تكتنفها الأشجار.

أخرج مورتنسون رأسه من النافذة لكي يرى عناصر الشرطة وجهاً أجنبياً، وشاهد أن المروج المغالية في الخضرة والأشجار الوارفة لا يمكن أن تتواجد في مكان قاحل ومغبر بالأصل، مما يدل على أن جهوداً جبارة قد وظفت للتحكم بتركيبة الطبيعة بحد ذاتها.

إسلام آباد عبارة عن مدينة مصطنعة تم بناؤها في الستينات والسبعينات لتكون عالماً خاصاً بالأغنياء وذوي السلطة في الباكستان، وهناك، تصطف على جانبي الشوارع العريضة محلات براقة تشع من فوقها أسماؤها النابضة بالنور وتعرض أحدث المعدات والأدوات اليابانية لتلبية حاجات المستهلك كلها بالإضافة إلى ما لذّ وطاب من المأكولات التي تعدها مطاعم كنتاكي للدجاج وبيتزا هوت.

أما قلب المدينة النابض فهو فندق ماريوت، وهو عبارة عن قلعة من الشرق تحجبها عن مظاهر الفقر بوابات ثقيلة من الإسفلت وقوّة مؤلفة من 150 عنصراً أمنياً يرتدون زياً أزرق فاتحاً ويرابطون وراء كل أجمة وشجرة تحيط بالفندق وبنادقهم جاهزة فوق أكتافهم. وأثناء الليل، كانت أعقاب سجائرهم تلمع من بين الخضرة وكأنها يراعات قاتلة.

أوقف سليمان السيارة أمام حاجز إسمنتي ضخم عند مدخل الفندق حيث وقفت يراعتان وبنادقهما مصوبة إليهم وقاما بفحص أسفل السيارة بواسطة أجهزة استكشاف وفتشا الصندوق قبل أن يفتحا البوابة الفولاذية كي يدخلوا.

ويقول مورتنسون: "أذهب إلى فندق ماريوت عندما يكون لدي أعمال هامة يجب أن تنجز لأن جهاز الفاكس هناك يعمل دائماً بالإضافة إلى خط الأنترنت السريع.كما كنت أرتب إقامة الأشخاص القادمين إلى الباكستان للمرة الأولى في ذلك الفندق ريثما يتأقلمون مع التباين الحضاري الشاسع".

أما في تلك اللحظة، فإن مورتنسون هو الذي وجد صعوبة في التأقلم مع ما يحدث له، لأنه اضطر إلى اجتياز كاشف معدني واعترض سبيله عنصران متمرسان في الأمن يرتديان بزّة رسمية ويضعان السماعات على أذنيهما وقاما بتحسس سترته المنتفخة بمحتوياتها، أما بهو الفندق الواسع المرصوف بالرخام والذي يكون عادة خاوياً باستثناء حفنة من رجال الأعمال يتحدثون عبر هواتفهم الجوالة من بين قطع الأثاث المكتظة فقد كان عبارة عن كتلة من الكافئين وكائنات بشرية تلهث وراء آخر الأحداث. لقد وصلت فيالق الإعلام من كل أركان الكرة الأرضية.

"هذا هو السيرك" قال سليمان وهو يبتسم في وجه مورتنسون بفخر تلميذ أنجز عمله المدرسي ببراعة. وأينما ينظر كان مورتنسون يرى الكاميرات ورموز محطات التلفزة والطواقم المتوفرة التي تعمل تحت أمرتهم CNN، BBC، ABC، NBC، الجزيرة.

شق مورتنسون طريقه بصعوبة قرب مصور يزعق في جواله بحنق ألماني حتى وصل إلى مدخل مقهى ناديا المفصول عن البهو بسياج أخضر ينشر حوله عبق النباتات الداخلية.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وحول طاولة البوفيه حيث كان عادة يتناول طعامه وفي خدمته خمسة من النُدل المتبطلين يتسابقون لملء كأسه التي فرغت من المياه المعدنية، لم يجد مورتنسون طاولة شاغرة.

"يبدو أن ركننا الصغير من العالم قد أصبح فجأة بالغ الأهمية".

التفت مورتنسون نحو الوراء فرأى الصحفية الكندية الشقراء كاثي جانون مديرة مكتب أسوشيتد برس في إسلام آباد منذ زمن طويل تقف بدورها بانتظار طاولة تجلس إليها وعانقها محيياً.

"منذ متى والحال هكذا؟" سألها مورتنسون وهو يحاول أن يكون صوته مسموعاً ضمن زعيق المصور الألماني.

"منذ بضعة أيام، أنتظر حتى تبدأ القنابل بالتساقط، ستصبح أجرة الغرفة عندها ألف دولار لليلة الواحدة".

"وكم تبلغ الآن؟".

"تتراوح بين 150 إلى 250 دولاراً.وجميع المحطات تقوم بعمليات التصوير من فوق السطح ويتقاضى الفندق مقابل ذلك خمسمئة دولار يومياً من كل محطة. لقد هبط على هؤلاء الناس رخاء لم يعرفوه من قبل قط".

هزّ مورتنسون برأسه وهو يفكر أنه لم يسبق له أن أمضى ليلة في فندق ماريوت لأن تسيير أعمال مؤسسة ذات ميزانية هزيلة تتناقص على الدوام يعني بأن يكتفي بالإقامة في الفندق الذي أخذه إليه سليمان منذ البداية وأصبح مولعاً به. فندق هوم سويت هوم كان عبارة عن فيلا متينة البنيان تخلى عنها صاحبها الذي أفلس قبل أن ينتهي من بنائها، ويقع فوق رقعة تكسوها حشائش خضراء زاهية قرب مبنى سفارة نيبال. وأجرة الغرفة التي قد تتعرض فجأة لمشكلة طارئة في المجاري وتكسو أرضها سجاجيد دبقة ذات ثقوب عديدة أحدثتها أعقاب السجائر، لا تتجاوز اثني عشر دولاراً.

اقترب منهما نادل يرتدي بدلة توكسيدو ويعرفهما من قبل وخاطبهما بصوت هامس: "دكتور جريغ سيدي، مدام كاثي، تعالا... هناك طاولة جاهزة تقريباً وقد يقوم هؤلاء.." صمت لبرهة وجيزة يبحث عن التعبير المناسب ثم تابع قائلاً "الأجانب بالانقضاض عليها"

كانت جانون شخصية معروفة من قبل الجميع وتنال التقدير نظراً لجرأتها وعينيها الزرقاوين اللتين تخترقان كل شيء حتى العمق باستفزاز. وقد حدث ذات مرة أن أحد حراس طالبان على الحدود حاول عبثاً أن يختلق من جواز سفرها نقصاً لا وجود له كي يمنعها من دخول أفغانستان وذهل أمام إصرارها، فقال لها: "يا لك من امرأة قوية، لدينا وصف يناسب أمثالك: أنتِ رجل" وجاءهُ ردها بأنها لا تعتبر ذلك إطراءً.

جلسا إلى طاولة يكسوها غطاء بنفسجي قرب بوفيه ناديا المكتظ. وأخبرته كاثي بالتفاصيل كلها عن الريفيين الأفظاظ والمحتالين والنصابين الذين حضروا إلى المدينة مؤخراً. وأضافت: "ما يرثى له هو هؤلاء المراسلون الأغرار الذين لا يعرفون شيئاً عن المنطقة ويقفون على السطح يرتدون الستر الواقية من الرصاص وهم يظنون أن الصور التي يلتقطونها لتلال مارجالا تصور منطقة حربية وليست مكاناً للتنزه الذي نأخذ إليه الأطفال خلال العطلة الأسبوعية. معظمهم لا يرغب في الاقتراب من المناطق الحدودية ويرسلون التقارير دون التأكد من صحتها. أما الذين يريدون فعلاً الذهاب إلى هناك فقد عاكسهم الحظ لأن جماعة طالبان قاموا لتوهم بإغلاق الحدود في وجه المراسلين الأجانب".

"وهل ستحاولين أن تدخلي إلى هناك؟".

"لقد عدت لتوي من كابول. كنت على الهاتف مع رئيس التحرير في نيويورك عندما نفذّت الطائرة الثانية ضربتها للبرج. استطعت أن أرسل بعض التقارير قبل أن (يرافقوني) إلى خارج البلاد".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

"وما الذي تخطط له جماعة طالبان؟".

"من الصعب التكهن. لقد سمعت أنهم عقدوا مجلس شورى وقرروا أن يسلموا أسامة، لكن المُلّا عمر فرض كلمته في اللحظة الأخيرة وصرح بأنه سوف يذود عنه بحياته، وأنت تعرف ما يعنيه ذلك، معظمهم خائف لكن أولئك المتطرفون سوف يحاربون حتى الرمق الأخير" ثم أضافت بنبرة ألم: "وسيكون ذلك لصالح أولئك الشبان" مشيرة برأسها إلى المراسلين المحتشدين عند مائدة الطعام.

سألها مورتنسون: "أستحاولين العودة؟".

"إن تمكنت من العودة بشكل رسمي، فلن أرتدي ذلك البرقع مثل رعاة البقر، وذلك سيعرضني للاعتقال أو ما هو أسوأ. لقد سمعت بأنهم يحتجزون مراسلين فرنسيين ألقوا القبض عليهما وهما يحاولان أن يتسللا عبرالحدود".

عاد سليمان وبيج من مائدة البوفيه يحملان طبقين يطفحان بلحم الخروف المُعدٍّ بالكاري، وطبقاً آخر بيد بيج ممتلئ بحلوى هلامية وردية اللون.

"هل كل شيء على ما يرام؟" سألهما مورتنسون فهزّ سليمان رأسه بالإيجاب وفكاه لا يتوقفان عن الحركة. وقبل أن يعاود سليمان الذهاب إلى البوفيه من أجل المزيد من العلف، تناول مورتنسون بضع ملاعق من صحن الحلوى، وذكره الكسترد الوردي بالحلويات المعدة على الطريقة البريطانية التي ترعرع معها في أفريقيا الشرقية.

سليمان يأكل بشهية لا توصف عندما يكون لحم الخروف متوفراً. فعندما كان ينمو ضمن أسرة في قرية دهوك لونا الواقعة في سهل البنجاب بين إسلام أباد ولاهور وهيأسرة مدقعة ولديها سبعة أولاد، فإن ولائم لحم الخروف لم تكن تقدم إلا في المناسبات الخاصة جداً.

وحتى عندما يحدث ذلك فلم يكن فم الولد رقم أربعة في الأسرة يحظى بما يكفي من الخروف الذي يكثر آكلوه. استأذن سليمان منهم، وتوجه إلى البوفيه من جديد لإحضار ألوان أخرى من الطعام.

قضى مورتنسون الأسبوع التالي وهو يقضي لياليه في "هوم سويت هوم" وكل لحظة من ساعات اليقظة في فندق ماريوت، يجتذبه ذلك الحسّ الذي تملكه منذ خمس سنوات في بيشاور، التي كان جنون الحرب قد مسّها، بأنه موجود في قلب عاصفة التاريخ. وبما أن وسائل الإعلام العالمية جميعها قد حضرت بنفسها إليه، فقد قرر أن يفعل ما بوسعه من أجل الدعاية لصالح مؤسسة آسيا الوسطى.

بعد مرور بضعة أيام على الهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن، قامت السعودية والإمارات العربية المتحدة بقطع العلاقات الدبلوماسية مع حركة طالبان، بعد أن كانتا الدولتين الوحيدتين اللتين حافظتا على تلك العلاقات. وبما أن الحدود الأفغانية قد أغلقت، فلم يتبق أمام جماعة طالبان سوى الباكستان لكي يعرضوا منها قضيتهم على العالم، فكانوا يعقدون مؤتمرات صحافية مطوّلة بشكل يومي في المرجة الخضراء المحيطة بمبنى سفارتهم المتقوّض والذي يبعد عن فندق ماريوت مسافة كيلومترين. وسائقو سيارات الأجرة الذين كانوا يقطعون تلك المسافة بسرور مقابل ثمانين سنتاً في السابق، أصبحوا الآن يُكرهون المراسلين على تسديد عشرة دولارات للتوصيلة الواحدة.

وقد كانت الأمم المتحدة تصدر بياناً عن الوضع في الباكستان بعد ظهيرة كل يوم فيندفع تيار المراسلين الدائخين بفعل الشمس الحارقة إلى داخل الفندق وهم يشعرون بالامتنان تجاه أجهزة تكييف الهواء.

بحلول فصل الخريف من العام 2001 أصبح مورتنسون واحداً من بين حفنة قليلة من الأجانب ممن يعرفون جغرافيا الباكستان في


https://telegram.me/maktabatbaghdad

العمق، خصوصاً المناطق الحدودية النائية التي يحاول المراسلون الوصول إليها، فصاروا يتوددون إليه بصورة دائمة ويعرضون عليه الرُّشا مقابل أن يؤمن لهم مدخلاً إلى أفغانستان.

"بدا لي أن المراسلين يحاربون بعضهم بعضاً بالدرجة نفسها التي يرغبون فيها بأن تبدأ المعارك في أفغانستان. شبكة CNN وحدت صفوفها مع شبكة BBC ضد CBC وABC والمنتدبون الباكستانيون يدخلون الفندق راكضين يحملون أنباءً مثل أن حركة طالبان قد اغتالت مستثمراً أميركياً جشعاً وأن المساومات الطاحنة على وشك البداية.

قام أحد المخرجين في NBC برفقة مصور بدعوتي لتناول العشاء في المطعم الصيني الذي يقع في فندق ماريوت بذريعة سبر غوري عمّا أعرفه عن الباكستان، لكن ما كانوا يهدفون إليه حقاً هو ما يريده الآخرون.إنهما يريدان الذهاب إلى أفغانستان، وسيدفعون لي مقابل ذلك مبلغاً يتجاوز دخلي السنوي فيما إذا تمكنت من إرسالهما إلى هناك. ثم تلفتا حولهما وكأن الطاولة مزودة بأجهزة تنصت وقالا بصوت هامس: ".. لا تخبر CNN أو CBS".

وبدلاً عن ذلك كان مورتنسون يجري اللقاء بعد الآخر مع المراسلين الذين كانوا نادراً ما يبتعدون عن محيط الفندق وسفارة طالبان ويحتاجون إلى وضع بعض اللمسات المحلية التي تضفي شيئاً من الحيوية على تقاريرهم الرتيبة.

"جربت أن أشرح لهم المسببات الجذرية للصراع، مثل الأمية في الباكستان وانتشار المدارس الوهابية وكيف أدى ذلك كله إلى مشكلات كارثية مثل الإرهاب، لكن أولئك المراسلين لم يوردوا ذلم قطّ في تقاريرهم. الشيء الوحيد الذي كانوا يريدون أن يسمعوه هو موجز دقيق عن كبار قادة حركة طالبان كي يتمكنوا من تحويلهم إلى أوغاد خلال هذا التمهيد للحرب وشيكة الوقوع".

وفي موعد ثابت من كل مساء، كانت مجموعة من كبار قادة حركة طالبان في إسلام آباد يعبرون البهو الرخامي لفندق ماريوت بعماماتهم وعباءاتهم السوداء الفضفاضة وينتظرون دورهم للحصول على طاولة شاغرة في مقهى نادية، فهم أيضاً يرغبون في مشاهدة السيرك، ويقول مورتنسون: "كانوا يجلسون هناك طوال الليل يقتصدون في أكواب الشاي الأخضر التي يحتسونها، لأنه أرخص مشروب في المقهى والرواتب الزهيدة التي يتلقونها من طالبان لا يمكن أن تحتمل الدولارات العشرين التي يكلفها بوفيه العشاء. كم خطر لي أن أحد هؤلاء المراسلين كان سينجح في الحصول على معلومات هامة لو فكرّ بأن يقدم لهم العشاء على حسابه، لكن ذلك لم يحدث أبداً".

ما حدث في النهاية أن مورتسنون هو الذي ذهب إليهم. عاصم مصطفى مراسل صحيفة الأمة الباكستانية المكلّف بتغطية الأنباء حول المجموعات الاستكشافية في كاراكورام كان على اتصال دائم مع مورتنسون في سكاردو للإطلاع على آخر المستجدات وعلى معرفة شخصية بسفير طالبان الملا عبد السلام ظاييف. وذات مساء قام بتقديمه إلى المجموعة فجلس مورتنسون إلى طاولة مع مصطفى، بجوار ظاييف تحت راية كتب عليها بخط اليد "أوليه! أوليه! أوليه!"، إنها أمسية مكسيكية في مقهى نادية حيث يقدمون عروضاً متنوعة من حين لآخر بهدف كسر الإيقاع الرتيب لرجال الأعمال الذين يتناولون عشاءهم لمدة سبعة أيام في الأسبوع عندما يحضرون إلى إسلام آباد. اقترب منهم نادل باكستاني ذو شارب كثّ يبدو مثيراً للشفقة تحت القبعة المكسيكية العريضة التي يعتمرها، وسأل إن كانوا سيطلبون الطعام من البوفيه المتنوع أم أن السادة يفضلون ما يقدمه ركن السندويش.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

أجابه الملا ظاييف بلغة الأوردو: "لا نريد سوى الشاي" فانصرف النادل لإحضار الشاي بعد أن أدّى لهم حركة مسرحية بعباءته المكسيكية المخططة بألوان زاهية.

"ظاييف كان واحداً من قادة حركة طالبان المعدودين الذين تلقوا تعليماً رسمياً ولديه شيء من المفاهيم الغربية. وبما أن أولاده كانوا بعمر أولادي، فقد تحدثنا عن ذلك بعض الوقت. وقد كان لدي نوع من الفضول لمعرفة رأي زعيم في حركة طالبان حول أهمية التعليم خصوصاً بالنسبة للإناث، فسألته عن أهمية التعليم بشكل عام".

عاد النادل يحمل طاقم شاي فضي وسكب الشاي الأخضر في الفناجين، بينما كان مورتنسون يتجاذب أطراف الحديث مع بقية الجماعة باللغة الباشتية فسألهم عن صحة أسرهم وأجابوه أن الجميع بخير. أحس مورتنسون بالكآبة وهو يفكر بأن إجابتهم ستكون مغايرة بعد أسابيع قليلة. بدا النادل بسكب الشاي، لكن طرفي الرداء الفضفاض الذي يرتديه كانا يتدليان فوق الإبريق، فقام بدسهما تحت أحزمة الرصاص المقلّدة المتصالبة على صدره.

نظر مورتنسون نحو الرجال الأربعة الموقرين الملتحين وعماماتهم السوداء وحاول أن يتصور التجارب التي مروا بها وبين أيديهم أسلحة حقيقية وتسأل عما يمكن أن يكون رأيهم في زي النادل.

"على الأغلب أنه لم يبد عجيباً أكثر من الصحفيين الأجانب الذين وقفوا على مقربة من طاولتنا يسترقون السمع إلى ما نتحدث عنه".

أدرك مورتنسون ان الملا ظاييف يرزح تحت وطأة وضع حرج عندما بدؤوا يتحدثون عن الحرب القادمة. حياته ضمن المنطقة الزرقاء في إسلام آباد أتاحت له فرصة التواصل مع العالم الخارجي وذلك مكنه من رؤية ما ينتظرهم، في حين أن قادة طالبان الكبار في

كابول وقندهار لا يتمتعون بذلك الفكر الثاقب، الملا عمر، القائد الأعلى لحركة طالبان لم يحظ بأية معارف خارج المدارس الشيعية، شأنه كشأن باقي أصحاب الرتب العادية المتطرفين الذين يحيطون به. أما محمد سعيد غياث الدين وزير التربية لدى طالبان فلم يتلق أي تعليم على الإطلاق حسبما قاله أحمد رشيد.

"ربما علينا أن نسلم بن لادن لإنقاذ أفغانستان" قال الملّا ظاييف لمورتنسون وهو يلّوح بيده للنادل ذي القبعة المكسيكية العريضة كي يحضر فاتورة الحساب الذي أصرّ على تسديده، ثم أضاف بصوت مرهف: "الملا عمر يعتقد أنه مازال أمامنا وقت كاف للخروج من المشكلة عن طريق الحوار" وفجأة، انتبه أنه تخلى عن حذره فانتصب في جلسته وتبجح قائلاً: "إياكم وإساءة الفهم فنحن سنقاتل حتى الرمق الأخير إذا هوجمنا" وسيثابر الملا عمر على ظنه انه سينجح في تجنب الحرب عن طريق الحوار حتى تبدأ الصواريخ الأميركية الموجهة بتدمير أماكن إقامته الشخصية.

وفقاً للأقاويل فإن ذلك الرجل الذي لم يسع إلى إيجاد أقنية اتصال رسمية مع واشنطن، قد قام بالاتصال مرتين بمكتب الاستعلامات في البيت الأبيض خلال شهر تشرين الأول ذاك، وعرض أخيراً أن يجلس مع جورج بوش إلى طاولة المباحثات، لكن المرجح أن الرئيس الأميركي لم يردّ على اتصالاته.

قسر مورتنسون نفسه على مغادرة فندق ماريوت كي يعود إلى عمله. وعندما وصل إلى نزله وجد على الهاتف عشرات الرسائل من السفارة الأميركية تحذره بأن الباكستان لم تعد مكاناً آمناً للأميركيين، ولكن كان عليه أن يتفقد المدارس التي أنشأتها مؤسسة آسيا الوسطى في مخيمات اللاجئين الواقعة ضمن محيط مدرسة بيشاور ليرى إن


https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت لديهم القدرة على استيعاب دفق النازحين الجدد الذين ستقذف بهم الحرب إليهم بلا ريب. فاستدعى بيج وسليمان وأعد حقيبته لاجتياز الرحلة القصيرة خارج مدينة بيشاور أي نحو الحدود الأفغانية.

وكان بروس فينلي، مراسل صحيفة دينفر بوست الذي التقاه مورتنسون قد سئم من الإقامة العقيمة داخل جدران ماريوت، فطلب من مورتنسون أن يرافقه إلى بيشاور. قام الرجلان بزيارة مخيم شامشاتو للاجئين والتقيا ما يقارب مئة مدرس ممن استخدمتهم المؤسسة والذين يعانون الأمرين معهم يسعون إلى أداء عملهم ضمن شروط شبه مستحيلة.

أعدّ فينلي مادة حول الزيارة يتحدث فيها عما سيفعله مورتنسون ويستشهد بأقواله عن الحرب الوشيكة. ناشد مورتنسون القراء بألا يطلقوا أحكامهم على المسلحين جميعهم دون تمييز "الأطفال الأفغانيون الذين يحتشدون في مخيمات اللجوء مع ذويهم عبارة عن ضحايا ويستحقون تعاطفنا معهم. هؤلاء ليسوا إرهابيين وليسوا أشراراً وإلقاء اللوم على المسلحين لأحداث الحادي عشر من أيلول المرعبة يبث الذعر في قلوب الأبرياء".

واختتم مورتنسون أقواله: "الطريقة الوحيدة لهزيمة الإرهاب هي ان يتعلم الناس الذين يقيمون في هذه البلد بين الإرهابيين كيف يحبون ويحترمون الأميركيين وبالمقابل علينا أن نتعلم بدورنا كيف نحبهم ونحترمهم. وما هو الشيء الذي يحدث الفرق بين أن يتحولوا إلى مواطنين فعالين ومنتجين بدلاً من أن يصبحوا إرهابيين؟ أظن أن الإجابة تكمن في التعليم".

وبعد عودة فينلي إلى إسلام آباد لإرسال مادته، توجه مورتنسون إلى نقطة الحدود الأفغانية ليرى كيف ستجري الأمور. خفير في عمر

المراهقة فتح بوابة حديدية خضراء اللون وبدا يقلّب صفحات جواز سفر مورتنسون بارتياب، بينما كان رفاقه يلوحون بقبضات بنادق الكلاشينكوف وهم ينقلونها من يد إلى أخرى.

نظر سليمان إلى البنادق شزراً وراح يوبخ الحراس ويذكرهم بأن يظهروا شيئاً من الاحترام لمن هم أكبر سناً. لكن أسابيع الانتظار الطويلة لبدء القتال كانت قد استنفدت أعصابهم، فلم يهتموا لما قاله.

زفر الخفير المناوب بتذمر عندما وقعت عيناه المثقلتان بالكحل الأسود حتى بدتا ككرتين مستطيلتين يحاول جاهداً أن يطلّ من خلالهما على صفحة جواز السفر التي تحمل عدّة تأشيرات دخول إلى أفغانستان مكتوبة بخط اليد من قبل السفارة الأفغانية في لندن.

السفارة في لندن كانت تدار من قبل والي مسعود وهو شقيق المغدور به شاه أحمد مسعود وقائد التحالف الشمالي وهو يعمل بدأب على الإطاحة بحركة طالبان وقد التقاه مورتنسون عدّة مرات وهناك في طريقه إلى إسلام آباد وتحدثا مطولاً عن مدارس الإناث التي يرغب في تأسيسها في أفغانستان شريطة أن يصبح في البلد ما يكفي من الاستقرار كي يتمكن من العمل داخله.

"هذه تأشيرة دول من الدرجة الثانية" قال الخفير ومزق الصفحة من جواز السفر، الذي فقد بذلك صلاحيته على الفور. "عليك أن تتوجه إلى إسلام آباد لتحصل على تأشيرة من الدرجة الأولى، تأشيرة طالبان" ثم أشهر سلاحه في وجه مورتنسون بيد، وأشار يأمره بالابتعاد باليد الأخرى.

السفارة الأميركية في إسلام آباد رفضت أن تمنح لمورتنسون جواز سفر جديد لأن الإتلاف يمكن أن يكون (متعمداً). وموظف القنصلية الذي أخبره عما حدث، قال بأنه سيمنحه وثيقة سفر مؤقتة صالحة


https://telegram.me/maktabatbaghdad

لمدة عشرة أيام يستطيع خلالها أن يعود إلى أميركا حيث يستطيع أن يقدم طلباً للحصول على جواز سفر آخر. لكن مورتنسون رفض ذلك، لأن أعمال المؤسسة المتعلقة يحتاج إنجازها إلى شهر آخر واستقلته طائرة إلى كاتمندو في نيبال حيث يقال أن القنصلية الأميركية هناك أكثر ليونة في التعامل مع الأمور.

وبعد انتظار مديد متفائل ضمن الرتل الطويل، شرح وضعه للمسؤول القنصلي بادي التهذيب، لكن التعبير الذي لمحه مورتنسون على وجهه وهو يدقق في جواز السفر أخبره أن رحلته إلى كاتماندو لن تجديه نفعاً. المسؤول قلب صفحات جواز السفر وأمعن في تأشيرات الدخول العديدة الصادرة عن جمهورية الباكستان الإسلامية، والتأشيرات الأفغانية الممهورة على عجل من قبل قائد التحالف الشمالي، وبدأت علامات الاستفهام تتراكم في ذهنه، واستأذن من مورتنسون كي يتحدث إلى رئيسه.

وعندما عاد، كان مورتنسون يعرف ما سيقوله مسبقاً "عليك أن تعود في الغد لتتحدث إلى شخص آخر" قال المسؤول بعصبية واضحة وهو يتجنب النظر في عيني مورتنسون "وأنا مضطر إلى الاحتفاظ بجواز سفرك حتى ذلك الحين".

في صباح اليوم التالي، حضرت كتيبة من جنود البحرية وواكبت مورتنسون عبر الحديقة من أمام مدخل مجمع الدبلوماسية الأميركية في كاتماندو ابتداءً من مكاتب القنصلية ووصولاً إلى المبنى الرئيسي للسفارة، حيث أودعوه عند طاولة اجتماعات واسعة داخل غرفة فارغة وأقفلوا الباب من خلفهم.

جلس مورتنسون عند الطاولة لمدة خمس وأربعين دقيقة، يرافقه في وحدته العلم الأميركي وصورة كبيرة معلقة على الجدار للرئيس

جورج بوش الذي أدّى قسم الرئاسة منذ عشرة أشهر كنت أعرف ما يسعون إليه، أنا الذي لم أكن مولعاً قط بمشاهدة التلفاز، أدركت ان ما يحدث عبارة عن مشهد استوحي مباشرة من مسلسلات رجال الشرطة الأشرار. ولذا فلا بد أن أحدهم يراقب تحركاتي ليرى إن كنت أسلك سلوك المذنب، فعمدت إلى الابتسام وأديت التحية لصورة بوش وجلست أنتظر.

وأخيراً، دخل إلى الغرفة ثلاثة رجال مظهرهم حسن يرتدون البزات ويضعون ربطات عنق، وجلسوا على كراسٍ دوارة عند طرف الطاولة المقابل لمورتنسون.

"كانوا يحملون تلك الأسماء الأميركية المحببة مثل بوب وبيل أو بيت وقدموا أنفسهم وهم يبتسمون في وجهي بإفراط، لكن كان من الواضح أنني أخضع للاستجواب من قبل مركز الاستخبارات الأميركي.

العنصر الذي بدا واضحاً انه يترأس المجموعة افتتح التحقيق، وانزلقت باتجاه مورتنسون فوق زجاج الطاولة الأملس بطاقة تعريف تفيد بأنه "الملحق السياسي العسكري في جنوب شرق آسيا" وقال لمورتنسون بابتسامة مشرقة من المفترض أنها ستجرده من كل حجمه: "لا شكّ أننا قادرون على تسوية الأمور" ثم أخرج القلم من جيبه وثبت دفتر الملاحظات أمامه، وكأنه جندي يلقم سلاحه. وانكب على مهمته قائلاً: "أولاً، لم تريد الذهاب إلى الباكستان؟ الوضع هناك خطير للغاية حالياً وقد أشرنا على جميع الرعايا الأميركيين بالمغادرة".

أجابه مورتنسون: "أعرف ذلك لكنني أعمل هناك وقد غادرت إسلام آباد منذ يومين اثنين فقط".

كان الرجال الثلاثة معاً يدونون ما يقوله، عندما جاءه سؤال آخر من بوب أو بيل أو بيت، لا فرق.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

"وما هو نوع العمل الذي كنت تعمله هناك؟".

"أنا أعمل هناك منذ ثماني سنوات، ومازال أمامي شهر آخر من العمل الذي يجب علي أن أنجزه قبل أن أعود إلى أميركا".

"ما هو نوع العمل؟".

"أبني مدارس ابتدائية للإناث في شمال الباكستان".

"وكم هي عدد المدارس التي تديرها الآن؟".

"لست متأكدا من العدد".

"لماذا؟".

"ما يحدث في الواقع هو أن العدد دائم التغيير، فإذا تمكنا من إنجاز أعمال البناء جميعها خلال فصل الخريف هذا، وذلك أمر غير مؤكد، سنكون قد حصلنا على المدرستين رقم اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين. ولكن يتوجب علينا في أحيان كثيرة أن ننشئ أبنية ملحقة بمدارس حكومية غير قادرة على اسيعاب المزيد من الطلاب داخل صفوفها المكتظة. كما أننا نتعثر بالكثير من المدارس التي انشأتها الحكومة أو مؤسسات خيرية أجنبية أخرى حيث المدرسون لم يتقاضوا رواتبهم منذ عدّة أشهر أو ربما سنوات، فنضع هؤلاء تحت رعايتنا ريثما تسوى أمورهم. بالإضافة إلى ذلك، فإننا نسدد أجور المدرسين الذين يبذلون قصارى جهدهم لمتابعة تعليم الأولاد داخل مخيمات النازحين الأفغان حيث لا توجد مدارس. وهكذا فإن الأعداد تتغير من أسبوع لآخر. هل أجبت عن السؤال؟".

نظر الرجال الثلاثة إلى ما دونوه باحثين عن إجابة يفترض بأنها واضحة، لكنهم لم يجدوها

"وما هو إجمالي عدد طلابك بالتحديد؟".

"لا أستطيع ان أعطيك رقماً دقيقاً".

"ولماذا لا تستطيع أن تعطيني رقماً دقيقاً؟".

"هل سبق لك وأن ذهبت إلى قرية زراعية في شمال الباكستان؟".

"ماذا تعني؟".

"حسناً، الآن مثلاً هو وقت الحصاد ومعظم الأسر بحاجة ماسّة إلى أولادهم الذين يساعدونهم في الحقول. ولهذا فإنهم يخرجونهم من مدارسهم حتى ينتهي العمل. وفي فصل الشتاء عندما يصبح البرد قارساً، فقد يغلقون المدارس لأنهم لا يملكون تكلفة التدفئة. وعندما يأتي فصل الربيع فإن بعض الطلاب....".

قاطعه العنصر الذي يترأس التحقيق قائلاً: "أعطني رقماً تقديرياً!".

"بين العشرة والخمسة عشر ألف طالب".

وانهمكت الأقلام الثلاثة في تدوين الحقائق الدافعة التي يندر الحصول عليها.

"هل لديك خرائط عن المواقع التي كنت تعمل فيها؟".

"في الباكستان"

تحدث أحد العناصر على الهاتف، وبعد لحظات وصل أطلس جغرافي إلى القاعة.

"هذه المنطقة التي تقع بجوار كشمير تدعى...".

أجاب مورتنسون "بالتستان"

"والناس هناك...".

"شيعة، مثل الإيرانين" قال مورتنسون وهو يرى أن الأقلام الثلاثة قد دبت فيها الحياة من جديد.

"وهذه المناطق قرب أفغانستان التي بدأت تبني فيها المدارس تدعى شمال غرب ماذا؟".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

"الأقاليم الحدودية الشمالية الغربية".

"وهل هي جزء من الباكستان؟".

"ذلك يعود إلى من توجه إليه السؤال"

"لكن الناس هناك مسلمون سنّة، وهي ديانة الباشتون في أفغانستان؟".

"أغلبية السكان في الأراضي المنخفضة هم من الباشتون ولكن يوجد أيضاً الكثير من الإسماعليين وبعض الشيعة. أما في الجبال فهناك الكثير من القبائل الذين لديهم طقوسهم الخاصة وهم الخووار والخوزيستانيين والشينا والتوروالي والكالامي. وتوجد أيضاً قبيلة تدعى كالاش تؤمن بالأرواح التي تعيش في وادٍ منعزل في الأعالي يقع بعد هذه الدائرة التي أضعها الآن. ولو كانت لديك خارطة أوضح من هذه لكانت تسميتهم شيترال".

أطلق المحقق زفرة حرّى، فكلما تعمقت في شؤون الباكستان، تشظّت المدلولات البسيطة إلى خيوط دقيقة مجدولة في قلب بعضها البعض عصية على التدوين بعبارات واضحة. وضع المحقق بدفتره وقلمه إلى مورتنسون وقال له: "عليك أن تدون أسماء وأرقام هواتف كل من تعرفهم في الباكستان".

أجاب مورتنسون: "أريد أن اتصل بمحامي الخاص".

"لم أكن أريد أن أصعب الأمور عليك فهؤلاء الرجال يؤدون مهمة حساسة خصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من أيلول".

لكنني كنت أعرف أيضاً ما يمكن أن يتعرض له أناس أبرياء عندما توضع أسماؤهم على قوائم كتلك، وإن كان هؤلاء الرجال الذين يحققون معي هم ما أعتقدهم، فلا أستطيع أن أجعل أي شخص في الباكستان يظن بأنني أعمل معهم، لأن ذلك يعني حتفي المؤكد عندما أذهب إلى هناك المرة القادمة.

قال له بوب بيل بيت: "اذهب واتصل بمحاميك الخاص" وفتح الباب المقفل وقد انفرجت أساريره بعد أن أعاد أخيراً دفتره إلى جيب بذته "ولكن عليك أن تعود في تمام الساعة التاسعة من صباح الغد".

في صبيحة اليوم التالي، حضر مورتنسون في الموعد المحدد على غير عادته وجلس إلى الطاولة نفسها، لكن الشخص الوحيد الذي كان معه هو المحقق الرئيسي.

"علينا أن نوضح بعض الأمور على الفور. أتعرف من أنا؟".

"أعرف من أنت".

"أتعرف ما سيحل بك إن لم تكن صادقاً معي؟".

"أعرف ما سيحل بي".

"هل أهالي طلابك من الإرهابيين؟".

"من المستحيل أن أعرف ذلك، فلدي الآلاف من الطلاب".

"أين هو أسامة؟".

"ماذا؟".

"لقد سمعتني جيداً. أتعرف مكان أسامة؟".

كتم مورتنسون ضحكة كادت تندّ عنه تجاه ذلك السؤال السخيف وأجاب: "أتمنى من كل قلبي ألا أعرف شيئاً كهذا طوال حياتي".

وكانت تلك الإجابة القاطعة كفيلة بإنهاء الاستجواب.

عاد مورتنسون إلى إسلام آباد وفي جيبه جواز سفر مؤقت صالح لمدة عام واحد منحته إياه القنصلية في كاتامندو على مضض. وعند دخوله إلى نزل هوم سويت هوم، ناوله المدير أكداساً من الرسائل الهاتفية صادرة عن السفارة الأميركية التي تصفحها مورتنسون وهو يقطع الممر المفروش بالسجاد الأحمر الرثّ باتجاه غرفته، ولاحظ أن


https://telegram.me/maktabatbaghdad

نبرة التحذير كانت تزداد حدة يوماً بعد يوم، وبأن ما جاء في الرسائل الأخيرة كان أقرب إلى الهيستريا وهي توجه الأوامر إلى المواطنين الأميركيين جيمعهم بأن يغادوروا فوراً البلد الذي وصفته السفارة بأنه "المكان الاكثر خطورة على حياة المواطنين الأميركيين على وجه الكرة الأرضية".

رمى مورتنسون حقيبته القماشية على السرير وطلب من سليمان أن يحجز له مكاناً على أول طائرة متجهة إلى سكاردو.

تشارلي شيمانسكي واحد من المعجبين الكثر بمورتنسون في حلقة متسلقي الجبال، وهو المدير التنفيذي السابق للنادي الألبي الأميركي الذي قاد حملة تبرعات ضمن منظمة لصالح مؤسسة آسيا الوسطى في تلك السنة، يشبّه اللحظة التي عاد فيها مورنسون إلى الباكستان بعد أحداث الحادي عشر من أيلول برجال الإطفاء في نيويورك الذين اندفعوا إلى داخل المركز التجاري الدولي المضطرم بألسنة اللهب "آمل أن تذكر لجنة التحكيم في أوسلو ذلك اليوم، عندما يفوز جريغ بجائزة نوبل للسلام".

العودة الهادئة المفعمة بالتصميم لذلك الرجل الذي يدعي جريغ إلى قلب ساحة المعارك كي يتابع معركته ضد الأسباب الحقيقية للإرهاب تماثل في شجاعتها الإقدام الذي تمثل في رجال الإطفاء وهم يصعدون السلالم إلى الأبراج اللاهبة في حين كان الآخرون يتراكضون للنجاة منها".

خلال الشهر التالي، كانت قاذفات القنابل وراجمات الصواريخ الأميركية تقصف بلا هوادة البلد الذي يقع إلى الجهة الغربية من مورتسنون، في حين كان يجوب مناطق الباكستان الشمالية جيئة وذهاباً بسيارته لكي يتأكد من أن جميع مشاريع مؤسسة آسيا الوسطى

قيد التنفيذ ستصبح جاهزة قبل أن يحل البرد. في بعض الليالي، كنت أقود سيارتي وإلى جواري فيصل ونسمع هدير الطائرات المقاتلة الأميركية في الأجواء الباكستانية حيث يفترض ألا تتواجد من الناحية التقنية، ثم نرى الأفق الغربي بأكمله يومض كالبرق، وفيصل الذي كان يبصق على صورة أسامة بن لادن كلما شاهدها، يقشعر بدنه عندما يتصور ما يعانيه أولئك الذين تنهال عليهم القنابل ويرفع يديه نحو السماء سائلاً الله أن يحميهم من الأذى.

وفي مساء التاسع من شهر تشرين الاول من العام 2001، توجه مورتنسون إلى مطار بيشاور الدولي يرافقه فيصل بيج. وعند بوابة الأمن حيث لا يسمح بالعبور إلا للمسافرين، أخذ مورتنسون حقيبته من حارسه الشخصي ورأى الدموع تفيض من عيني ذلك الرجل الذي أقسم على أن يحمي مورتنسون كيفما اتجه وكان مستعداً أن يفديه بحياته.

وضع مورتنسون يده على كتف حارسه العريض وسأله: "ماالأمر يا فيصل؟".

"بلدك الآن في حالة حرب فماذا أفعل؟ وكيف يمكن أن أحميك هناك؟".

عبر النافذة التي تقع إلى جانب المقعد الذي أرشده إليه مضيفه باسم الوجه في مقصورة الدرجة الأولى شبه الفارغة داخل الطائرة التي تقله من بيشاور إلى الرياض، شاهد مورتنسون السماء فوق أفغانستان تنبض بالأضواء الفتاكة.

الاهتزاز الثابت للطائرة أشعره بأنهم قد غادروا اليابسة ويطيرون فوق مياه البحر العربي. وعبر الممر لمح مورتنسون رجلاً ملتحياً يعتمر عمامة سوداء اللون يحدق من النافذة عبر تلسكوب دقيق. وعندما ظهرت أنوار السفن المتواجدة في البحر من تحتهم، التفت إلى الرجل المعمم الآخر


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذي يجلس إلى جواره وحدثه بانفعال، قام على أثرها من مقعده وأخرج من جيب زيه الباكستاني هاتفاً جوالاً واتجه نحو الحمام.

"في ذلك القاع الغارق في الظلام ترابط أكثر القوى البحرية في العالم وتنطلق منها الطائرات المقاتلة والصواريخ إلى قلب أفغانستان. لم أكنّ الكثير من التعاطف مع حركة طالبان ولا شيء منه على الإطلاق تجاه تنظيم القاعدة، لكن كان علي أن أعترف بأن ما يفعلونه مذهل. لم يكن لديهم قمر صناعي ولا قوى جوية، وحتى رادارهم البدائي تم تدميره بالكامل. مع ذلك فقد كان لديهم ما يكفي من الإخلاص ليتمكنوا من اقتفاء أثر مواقع الأسطول الخامس بواسطة رحلات الطيران التجارية العادية. وأدركت أنه باعتمادنا على مجرد تفوقنا العسكري لننتصر في الحرب على الإرهاب فما زال أمامنا الكثير لنتعلمه".

خرج مورتنسون من مركز تدقيق الجوازات بعد مضي ساعة كاملة كي يحصل على الموافقة على جواز سفره المؤقت والتأشيرة الباكستانية، ودخل المبنى الرئيسي لمطار دينفر الدولي. كان يوم هالووين، عيد جميع القديسين، وشقّ مورتنسون طريقه عبر غابة من أعلام أميركا تعلو الأسطحة جميعها، والأبواب كلها وتتدلى من الزوايا وتساءل إن لم يكن هذا الانفجار من ألوان الأحمر والأبيض والأزرق يعني بأنه موعد وصوله يصادف عيداً مختلفاً.

اتصل بتارا على هاتفه الجوال وهو يسير باتجاه الطائرة التي ستأخذه إلى مدينته وسألها: "ما الذي يحدث يا تارا؟ أي نوع من الأعياد هذا؟".

أجابته: "أميركا الجديدة ترحب بك يا عزيزي".

لم يكن مورتنسون قادراً على النوم إذ أرقه الطيران الطويل، فانسل من جانب تارا برفق كي لا يوقظها، وهبط إلى مكتبه في القبو ليواجه أكوام الرسائل التي وجهت إليه خلال غيابه.

التصريحات الصحفية التي أدلى بها في فندق ماريوت، زيارته لمخيمات اللاجئين برفقة بروس فينلي، ورسالته إلى صديقه جويل كونللي المحرر الصحفي في جريدة سياتل بوست أنتليجنس يحث فيها على التعاطف مع المسلحين الأبرياء المحاصرين بنيران الاشتباكات، جميعها تسربت إلى العشرات من الصحف الأميركية خلال غيابه.

مناشدات مورتنسون المتكررة ألا يطلقوا أحكاماً مطلقة على المسلحين جميعهم ووجهات نظره في إعلان حرب شاملة على جذور الإرهاب، والحاجة الماسة إلى تعليم أطفال المسلحين عوضاً عن قصفهم بالقنابل، أثارت حفيظة أمة دخلت الحرب لتوها وللمرة الأولى في حياته وجد مورتنسون نفسه يفتح المغلف تلو الآخر من رسائل الكراهية.

فإحدى الرسائل الواردة من دنفر أغفلت عنوان المرسل قالت له:

"أتمنى لو أن واحدة من قنابلنا سقطت فوقك، يا مناوئ مساعينا العسكرية".

ورسالة أخرى من مجهول في مينيسوتا أفادت بخط رفيع متداخل:

"الرب سوف ينزل بك أشدّ العقاب لأنك خائن" ثم جاءه التحذير: "عما قريب سنحل بك آلام مبرحة أكثر من تلك التي عانى منها جنودنا الشجعان".

تابع مورتنسون القراءة لعشرات من الرسائل المماثلة حتى انتابه الاكتئاب "في تلك الليلة وللمرة الأولى منذ بداية عملي في الباكستان، فكرت بالانسحاب. كنت أتوقع أن يصدر شيء من هذا القبيل عن إمام قرية جاهل، لكن أن تصلني من أبناء بلدي أنفسهم جعلني أتردد في مواصلة ما أقوم به".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

وانتابته الهواجس حول أسرته التي تنام بطمأنينة في الطابق العلوي "لن أعجز عن التعامل هناك مع بعض المخاطر التي لا بد منها أحياناً، ولكن أن أعرّض تارا وأميرة وخيبر للخطر هنا داخل بلدي، كان أمراً مرفوضاً كلياً ولن أسمح به".

صنع مورتنسون لنفسه فنجاناً من القهوة وعاود القراءة.بالمقابل، كانت هناك رسائل أخرى عديدة أثنت على جهوده، وأمدته بعبارات التشجيع بأن الأمة تعيش في أزمة، لكن رسالته تمكنت من الوصول إلى قلوب بعض الأميركيين.

بعد ظهيرة اليوم التالي، ودّع مورتنسون أسرته قبل أن يتسنى لهم الوقت الكافي للشعور بعودته، ووضع بعض الملابس التي تكفيه لليلة واحدة في حقيبة صغيرة واستقلته طائرة صغيرة متجهة إلى سياتل حيث له ارتباط لإلقاء خطبة في المساء.كان الكاتب جون كراكاور قد وصل إلى ذروة المجد بعد النجاح الساحق الذي حققه كتابه المعنون "داخل الأجواء الخانقة" حول الآثار المدمّرة التي ألحقها الاستثمار التجاري فيما يتعلق بتسلق قمة إيفرست، قد تطوع بأن يقدم مورتنسون إلى الجمهور ضمن حملة تبلغ قيمتها خمسة وعشرين دولاراً للبطاقة الواحدة يعود ريعها إلى صندوق مؤسسة آسيا الوسطى التي أصبح وبصورة متكتمة واحداً من أكبر مؤيديها.

وفي مقالة دعائية لتلك الأمسية تحت عنوان "جون كراكاور عائداً من الأجواء الخانقة"، كتب جون مارسال الصحفي في جريدة سياتل بوست ايتلجنس بأن ذلك الكاتب الانطوائي لم يوافق على الظهور علناً إلا لإيمانه بأن الناس يجب أن يعرفوا ما يفعله مورتنسون، واقتبس عن كراكاور قوله: "ما يفعله جريغ هو أن يصحح أخطاء القنابل التي تتساقط. ولو لم تكن مؤسسة آسيا الوسطى تفعل ما تفعله، لكان الناس هناك ينشدون: نحن نكره الأميركيين. في حين أننا الآن رسل يعملون على خلاصهم".

وإلى دار بلدية سياتل الذي يتربع فوق إحدى التلال المجاورة وكأنه معبد روماني، وصل مورتنسون وهو يرتدي زيه الباكستاني ومتاخراً خمس عشرة دقيقة، وعندما أصبح داخل القاعة الكبيرة للمبنى، شعر بالحرج لأن القاعة كانت ممتلئة والحشود تتدافع كي يتمكنوا من مشاهدة خشبة المسرح عبر المصاطب المقوّسة، فسارع إلى اتخاذ مكان له خلف المنصة.

وبعد أن ساد الهدوء، خاطب كراكاور الحضور قائلاً: "لقد دفعتم خمسة وعشرين دولاراً كي تتمكنوا من الحضور وهو ليس بالمبلغ القليل. لكنني لا أنوي أن أقرأ عليكم من كتبي في هذه الأمسية، بل سأقرأ من أعمال أدبية تخوض بشكل مباشر في وضع العالم الراهن والأهمية المتزايدة لما يفعله جريغ".

استهل حديثه بقصيدة "القدوم الثاني" للشاعر ويليام بتلرييتس، وقرأ بصوته الخافت المختنق أمام حشد يحرجه حضورهم كما يحرج مورتنسون.

"الأجزاء تتفكك، فالنواة غير قادرة على الصمود

الفوضى صارت طليقة في العالم

وطليق مثلها تيار باهت من الدم، وفي كل مكان

غرقت طقوس البراءة

الأفاضل يفتقرون إلى الإيمان

في حين يعيش المقهورون أحاسيس جياشة".

مرثاة يتيس تلك لم تفقد سطوتها منذ نشرها عام 1920. وران صمت مطبق داخل القاعة المكتظة وكأن السطر الأخير قد علق في القبة من فوق رؤوس الجمهور.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثم قرأ عليهم كراكاور مقتطفاً طويلاً من الأعداد الأخيرة لمجلة نيويورك تايمز عن عمالة الأطفال في بيشاور، وكيف تجعلهم ظروف الفاقة المدقعة لقماً سائغة للمتطرفين الإسلاميين يلوكونها على هواهم.

ويقول مورتنسون "عندما قدمني جون إلى الحضور، كانوا جميعاً يذرفون الدموع بمن فيهم أنا".

عندما حان الوقت لتقديم مورتنسون، استهل كراكاور كلامه باستعارة من قصيدة ييتس بقوله: "مع أنه يمكن للمقهورين أن يعيشوا أحاسيس جياشة، فلا يمكن للأفاضل أن يفتقروا إلى الإيمان بالمطلق. ولإثبات ذلك، فلا تنظروا أبعد من هذا الرجل الضخم الذي يجلس خلفي. ما أنجزه جريغ بالقليلَ من المال يصل إلى حدّ الإعجاز. ولو كان ممكناً أن نستنسخ منه خمسين جريغاً آخر، لأصبح الإرهاب الإسلامي جزءاً من الماضي. ولكننا للأسف لا نملك سوى نسخة واحدة أيها السيدات والسادة، لنرحب معاً بجريغ مورتنسون.

شكره مورتنسون وعانقه، ثم طلب من المسؤول عن الكاميرا أن يعرض الصورة الأولى. وتوهجت قمة "كيه2" من خلفه بذروتها الخرافية تشهق بالبياض في الكنف السماوي الأزرق الذي يحتضنها.

هنا، وأمام عدد كبير من كبار متسلقي جبال الألب عرض إخفاقه الذريع الذي يوازي ارتفاعه بناءً من ثلاثة طوابق. فمن أين تأتى شعوره بأنه قد نجح في الوصول إلى قمة أخرى؟

# الفصل الحادي والعشرون

## حذاء رامسفيلد

"اليوم في كابول تحسس الرجال ذقونهم الحليقة، وكان هناك رجل مسنّ ذو لحية رمادية مشذبة يضع مسجلة صغيرة على أذنه ويرقص على صوت الموسيقى التي تصدح منها في عرض الشارع لأن طالبان الذين حرموا الموسيقى وأمروا الرجال بأن يطلقوا لحاهم، قد ولّوا"

**كاثي جانون، الثالث عشر من شهر تشرين الثاني عام 2001، في تقرير لها إلى وكالة الأسوشيتد بريس**

كان الطيارون يلعبون لعبة الكراسي الموسيقية على علو يبلغ خمسة وثلاثين ألف قدم. فبعد كل عشر دقائق، يستلم واحد منهم مهمة قيادة طائرة البوينغ727 العتيقة، إذا أن ثمانية من طياري الشركة يرابطون في المقصورة الأمامية شبه الخالية يتحايلون على الانتظار باحتساء الشاي والتدخين ريثما يحين دورهم في القيادة. بما أن سبع طائرات بوينغ من أصل ثمان تابعة للخطوط الوطنية الأفغانية أصبحت خارج الخدمة بعد أن تعرضت للقنابل والقصف المدفعي، فإن هذه الرحلة التي تستغرق ساعتين وخمساً وأربعين دقيقة من دبي إلى كابول، شكلت فرصة لكل واحد من الطيارين على حدة كي يضيف إلى سجله بعضاً من وقت الطيران الثمين على متن طائرة بلدهم المدنية الوحيدة القادرة على الإقلاع.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

جلس مورتنسون في منتصف الممر، بين الطيارين والمضيفات الخمس عشرة اللواتي تجمعن داخل قسم الإطعام في الخلف، وبعد مغادرتهم مطار دبي كانت تأتيه كل دقيقتين حملات متعاقبة من نساء أفغانيات متحفظات يعدن ملء كوبه البلاستيكي بالكولا. وفيما بين تلك الحملات الخاطفة كان مورتنسون المتخم بالكافئين يضغط أنفه على زجاج النافذة المخدوش ليتأمل البلد الذي تسلل إلى أحلامه منذ بدأ عمله في الباكستان. كانوا يقتربون من كابول من جهة الجنوب عندما أعلن الطيار الذي يقود الطائرة في ذلك الحين أنهم يمرون فوق قندهار. جاهد مورتنسون في آن معاً أن يبقي ظهر كرسيه المكسور متصباً وفي أن يرى بوضوح تفاصيل جغرافية المقر السابق لحركة طالبان. لكن ما تمكن من مشاهدته من على ارتفاع ثلاثين ألف قدم لم يتعد طريقاً سريعاً يخترق سهلاً واسعاً بين هضبتين داكنتين وبضعة ظلال قد تكون لأبنية. هل هذا ما قصده وزير الدفاع رامسفيلد عندما صرّح متذمراً بأنه لا توجد أهداف ذات قيمة في أفغانستان واقترح أن يهاجموا العراق بدلاً عنها؟. لكن القنابل الاميركية، الذكية والغبية في آن معاً، سرعان ما بدأت تمطر وابلها فوق هذه البقاع القاحلة. وكان مورتنسون قد شاهد على شاشة حاسوبه في قبو منزله صوراً لجنود أميركيين استولوا على منزل ملّا عمر القائد الأعلى لحركة طالبان، يجلسون فوق سريره البافاري الضخم المزخرف بسماجة، ويعرضون الصناديق الفولاذية التي كانت مخبأة تحت السرير ومكتظّة حتى التخمة بأوراق نقدية من فئة المئة دولار. كان مورتسنون في البداية يؤيد الحرب في أفغانستان، لكن موقفه بدأ يتغير بعد أن اطلع على الأعداد المتزايدة للقتلى من المدنيين. وسمع من موظفيه في مخيمات اللاجئين الأفغان خلال الاتصالات الهاتفية عن الأطفال الذين يقتلون عندما يلتقطون عن الأرض جراب القنابل العنقودية التي لم تنفجر لأن لونها الأصفر البهيج يشابه إلى حدٍ كبير لون رزم الطعام التي تلقيها أيضاً الطائرات الأميركية باعتبارها لفتةً إنسانية.

ووجه رسالة إلى رئيس التحرير في صحيفة واشنطن بوست، نشرت بتاريخ الثامن من كانون الأول عام 2001 قال فيها: "لماذا يعطينا المسؤولون في البنتاغون أرقاماً عن أعداد القتلى من عناصر تنظيم القاعدة وحركة طالبان أثناء الغارات الجوية، ثم يرفعون أيديهم إلى الهواء عندما يسأل أحدهم عن الضحايا المدنيين؟ وما هو أكثر شيناً، هو امتناع وسائل الإعلام عن توجيه سؤال كهذا إلى وزير الدفاع رامسفيلد خلال المؤتمرات الصحفية".

في كل ليلة كان مورتنسون يستيقظ من النوم عند الساعة الثانية صباحاً، يعاني أرقه في الفراش إلى جانب تارا ويحاول أن ينزع من رأسه صور المدنيين القتلى كي يعاود النوم. لكنه يعرف أن معظم المدنيين المتواجدين في مواقع القصف الأميركي من الأطفال الذين كانوا طلاباً في صفوف مؤسسة آسيا الوسطى داخل مخيمات النازحين قرب بيشاور قبل أن ينهار صمود أهاليهم أمام شظف حياة التهجير، ويعودون إلى أفغانستان. وكانت وجوههم تتراءى أمامه بوضوح رغم الظلام. فلا يملك إلا أن ينسل من فراشه باتجاه القبو ويبدأ اتصلاته بالباكستان عساه يعرف آخر المستجدات. ومن خلال معارفه العسكريين، علم أن الملّا عبد السلام ظاييف سفير طالبان الذي احتسى معه الشاي في فندق ماريوت قد اعتقل واقتيد مغطى الرأس ومغلول الأطراف إلى غوانتنامو في كوبار ذلك المعتقل المتفرد الذي لا تطاله سلطة القانون.

يقول مورتنسون: "خلال فصل الشتاء ذاك، كنت أفضّ بريدي وكأنني أمارس لعبة الروليت الروسية. فبعد أي عبارات تشجيع أو تبرعات أتلقاها، أجد بالمقابل مغلفاً يتوعدني بأن الله لا بد أن سينزل بي حتفاً أليماً لأنني أساعد المسلمين". اتخذ مورتنسون الإجراءات الضرورية كلها لحماية أسرته وقدم طلباً لرقم هاتف سرّي. وبعد أن


https://telegram.me/maktabatbaghdad

علمت ساعية البريد بأمر التهديدات، بدأت تحجر على الرسائل المعنونة إليه التي لا تحمل عنوان المرسل وتحوّلها إلى "الإف بي أي".

واحدة من أكثر الرسائل تشجيعاً وصلته من ناشطة حقوقية كهلة في سياتل اسمها باستي كولين، كانت قد أصبحت متبرعة منتظمة لمؤسسة آسيا الوسطى قالت فيها: "لدي من العمر ما يكفي لأتذكر تلك الحماقات التي ارتكبت خلال الحرب العالمية الثانية عندما هاجمنا اليابانيين وأسرناهم بدون مسوّغ، رسائل الكراهية هذه هي بمثابة تفويض لك لكي تخرج إلى الأميركيين وتخبرهم بما تعرفه عن المسلمين. أنت تمثل الخير والشجاعة التي تصبو إليها روح أميركا. اخرج من مكمنك، لا تخف، بشّر برسالتك عن السلام واجعل من ذلك تقويماً لإنجازاتك".

ومع أن تفكيره كان في النصف الآخر من العالم، فقد أخذ مورتنسون بنصح كولين وبدأ يبرمج للقاءات خطابية جند من أجلها الإمكانيات الإعلانية كلها التي تمكن من حشدها. وخلال شهري كانون الأول وكانون الثاني نجح في التغلب على خجله وتحدث أمام حشود كبيرة في سياتل ومينابوليس وجمعية رواد المكتبات في مونتانا ونادي المستكشفين في مانهاتن.

لكن الحضور في بعض منها لم يكن كثيراً. ففي نادي الحجر الأصفر الخاص الذي يقع جنوب بوزيمان، قادوا مورتنسون إلى غرفة صغيرة تقع في القبو حيث جلس ستة أشخاص على مقاعد وثيرة حول مدفأة غازية ينتظرون خطابه. ذكّر مورتنسون نفسه بالخطاب الذي كان قد وجهه إلى مئتي كرسي فارغ في مينيسوتا وكيف انقلبت الأمور لصالحه في النهاية، فأطفأ المدفأة وعلق عليها قميصه الأبيض المتجعد، وبدأ بعرض صوره على الشاشة وهو يتحدث بحرارة عن الأخطاء التي يعتقد بأن أميركا ترتكبها في إدارة الحرب.

لفتت انتباهه سيدة جذابة في الثلاثينات من العمر تجلس متكورة حول نفسها، وترتدي كنزة رياضية فضفاضة وبنطالاً من الجينز وتعتمر قبعة بيسبول تصغي إليه باهتمام بالغ. وبينما كان يرفع الشاشة عن الحائط، اقتربت منه وقدمّت نفسها قائلة: "أنا ماري بونو. في الحقيقة، النائب ماري بونو في حزب الجمهوريين من بالم سبرينغز. أريد أن أقول لك بأن ما عرفته منك خلال ساعة واحدة أكثر بكثير مما استطعت أن أفهمه من المؤتمرات الصحفية التي حضرتها كلها داخل الكابيتول، منذ الحادي عشر من أيلول وعلينا أن نذهب بك إلى هناك" النائب بونو أعطت بطاقتها لمورتنسون وطلبت منه أن يتصل بها عندما يستأنف الكونغرس جلساته لتحديد موعد له لإلقاء خطبة في واشنطن.

بين يدي طيار آخر باشرت البوينغ 727 هبوطاً حاداً باتجاه كابول عبر تجويف مغبر مشقوق بين الجبال المدببة، بينما وجهت المضيفات دعاءً هلعاً إلى الله أن يمن عليهن بهبوط آمن.كانوا بمحاذاة التلال حيث تمكن مورتنسون أن يرى بوضوح الهياكل المتفحمة التي خلفها السوفييت واستعملها عناصر طالبان، وفي محاولة منهم لإخفائها وضعوها داخل شقوق الكهوف وخلف السطيحات الضيقة، لكن محاولاتهم باءت بالإخفاق أمام العتاد الحربي الموجه بأشعة الليزر الذي اقتنصهم دون جهد يذكر.

وعلى مدى شهرين، كان مورتنسون يتابع بلهفة أنباء هذه المنطقة عبر المراسلات الإلكترونية مع كاثي جانون التي تمكنت من شقّ طريقها عائدة إلى العاصمة الأفغانية بعد آخر لقاء له معها في فندق ماريوت. ومنها علم أن قوات طالبان الهلعة قد لاذت بالفرار من المدينة، أمام تقدم دبابات الحلف الشمالي، تدعمها الطائرات الأميركية المقاتلة التي ركزت نيرانها على ما يسمى "بشارع الضيافة" وهو أفخم منطقة سكنية في كابول كان يقطنها المقاتلون العرب،


https://telegram.me/maktabatbaghdad

حلفاء حركة طالبان. ومنها أيضاً عرف كيف رقص الناس في شوارع كابول جميعها على أنغام الموسيقى التي صدحت من أجهزة المسجلات المغيبة منذ وقت طويل. يوم الثالث عشر من تشرين الثاني عام 2001 المشهود حين فرّت قوات طالبان التي حرمتهم إياها.

أما الآن وفي منتصف شهر شباط عام 2002، فما زالت هناك معارك كثيفة تدور في الجبال التي رآها مورتنسون من النافذة، حيث كانت القوات المدرعة الأميركية تحاول أن تقضي على جيوب المقاومة المحصنة. لكن تقدير مورتنسون بأن كابول أصبحت آمنة بعد أن سيطر عليها الحلف الشمالي وحلفاؤهم الأميركيون.

لكن المسير من الطائرة باتجاه مبنى المطار ومروراً بورشات العمل داخل الآليات المصفحة التي تزيل الأنقاض عن حواف المدرجات، جعله يتساءل إن كان قراره بالمجيء صائباً بالفعل. فبقايا الطائرات المدنية خُلفت في الأمكنة التي قصفت فيها، تهيمن على المشهد أذيالها المثقوبة المتفحمة كأنها تتوعد بالشؤم، وهياكلها المترامية على المدرجات المحفّرة بالقنابل، تشبه جثث حيتان متفسخة. وقرب مدخل مبنى المطار، شاهد مورتنسون الهيكل المحترق لسيارة فولكسفاكن مقلوباً رأساً على عقب، يتأرجح تحت الريح اللاذعة كتوقعة بعد أن أفرغ تماماً من المحرك والمقاعد.

كان الموظف الوحيد في مبنى المطار المحروم من التيار لكهربائي يجلس متراخياً خلف مكتبه، وقام بتفحص جواز سفر مورتنسون تحت بصيص الضوء الآتي من واحدة من الفتحات التي أحدثتها القذائف في السقف. وعندما تبددت شكوكه أعاده إليه وهو يشير إلى باب الخروج الواقع قرب صورة باهتة لشاه أحمد مسعود قائد الحلف الشمالي المغدور، كان مقاتلوه قد ألصقوها على الحائط عندما استولوا على المطار.

اعتاد مورتنسون على وجود شخص ما يرحب به في مطارات الباكستان منذ وصوله إلى إسلام آباد يجد أمامه وجه سليمان البشوش مباشرة بعد انتهائه من إجراءات الدخول. أما في سكاردو، فقد وجد مورتنسون نفسه وحيداً خارج مطار كابول ومحاطاً بثلّة من السائقين الأفظاظ. اعتمد خطته القديمة في اختيار أقل السائقين إلحاحاً، ورمى بحقيبته في المقعد الخلفي وصعد إلى جوار السائق. عبد الله رحمن شوهته الحرب، كما شوهت كابول.فلم يعد له أجفان والجهة اليمنى من وجهه كانت مشدودة ولامعة، حيث سفعه لغم أرضي انفجر على جانب طريق صادف أنه كان يمر به في تلك اللحظة. أما يداه فقد تعرضتا لحروق بليغة، ويجد صعوبة في إطباقها على مقود السيارة. ومع ذلك، فقد أثبت بأنه ملاح بارع يعرف كيف يخوض غمار الفوضى العارمة المحيقة بشوارع كابول.

وكمعظم سكان كابول، كان عبدالله يمارس أعمالاً عديدة ليعيل أسرته ويعمل مقابل أجر قدره دولار واحد وعشرين سنتاً شهرياً، في مكتبة المشفى العسكري حيث يقوم بحراسة ثلاثة صناديق مقفلة تحتوي على كتب بالية نجت بشكل ما، من عهد طالبان الذين كانوا يحرقون أي كتاب يقع تحت أيديهم باستثناء القرآن. قاد مورتنسون إلى المكان الذي سيصبح مقراً لسكناه خلال الأسبوع القادم، "نُزل السلام" في كابول المدروز بطلقات الرصاص حتى أصبح مكاناً عجيباً، تماماً كالاسم الذي يحمله والحرب لم تكد تحط أوزارها.

وفي داخل غرفته الصغيرة التي لا كهرباء فيها ولا ماء، أمعن مورتنسون النظر من بين قضبان النافذة في الأبنية المتضررة التي تحيط بالطريق المزدحم والمواطنين الذين لحقت بهم العاهات يظلعون فيما بينها، وهو يحاول أن يقرر خطوته الأولى. ووجد أن أي مخطط لبدء العمل سيكون عصياً عندما شاهد ملامح النسوة المتشحات من رؤوسهن حتى أخمص أقدامهن بعباءات داكنة اللون.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت لدى مورتنسون قبل أن يصل إلى كابول نيّة مبهمة لأن يستأجر سيارة تأخذه إلى الشمال في محاولة للتواصل مع فرسان القيرغيز الذين سبق وأن طلبوا مساعدته في زودخان. أما الآن، فمن الواضح أن كابول ما زالت غير آمنة، والقيام بتلك الرحلة المتهورة إلى الأرياف سيكون أشبه بالانتحار. أمضى ليلته في الغرفة عديمة التدفئة وهو يرتجف برداً ويصغي إلى أصوات طلقات البنادق الأوتوماتيكية تئزّ عبر كابول ودوي الصواريخ التي يطلقها متمردو طالبان من الهضاب المحيطة بالمدينة.

قام عبدالله بتعريف مورتنسون إلى صديقه البهتاني هاشمة الله، وهو مفاوض شاب ووسيم كان جندياً لدى طالبان حتى أثخنته جراحه وجعلت منه عائقاً في حقول المعارك "كمعظم أعضاء طالبان، فإن هاش كما طلب مني أن أدعوه، كان جهادياً من الناحية النظرية فقط، فهو شخص ذكي كان يفضل العمل فنياً في مجال الاتصالات عن بعد لو تسنت له الفرصة، أكثر بكثير من أن يصبح مقاتلاً لصالح حركة طالبان.لكنه تخرّج من مدارسهم وعرضوا عليه مبلغ ثلاثمئة دولار مقابل أن ينضم إليهم. فأرسل المال إلى والدته في خوست والتحق بالحركة ليبدأ التدرب على السلاح.

أصيب هاش عندما انفجرت قذيفة أطلقها عناصر الحلف الشمالي عند حائط كان يتوارى خلفه. وبعد أربعة أشهر من ذلك، كانت الجراح غير المندملة التي في ظهره ماتزال تنز قيحاً مجرثماً، ورئتاه الممزقتان تصفران عند أدنى جهد يقوم به.ومع ذلك فقد كان هاش ثملاً بالسعادة لأنه تحرر من محظورات طالبان الخانقة وتخلص من اللحية التي كان مجبراً على إطلاقها. وبعد أن ضمّد له مورتنسون جراحه وعالجه بجرعة كاملة من مضادات الالتهاب، أصبح هاش جاهزاً كي يؤدي قسم الولاءللأميركي الوحيد الذي التقاه في حياته كلها.

ومثل أي شيء آخر في كابول، كانت مباني المدارس القديمة قد تضررت إلى حد كبير خلال المعارك، والعام الدراسي الجديد يبدأ بشكل رسمي في نهاية فصل الربيع ذاك. قال مورتنسون لهاش وعبد لله أنه يريد أن يتفقد أحوال مدارس كابول. فانطلق ثلاثتهم يبحثون عنها في سيارة عبدالله التويوتا الصفراء. وجد مورتنسون أن نسبة لا تزيد عن عشرين بالمئة من مدارس كابول البالغ عددها 159 تصلح إلى حد معقول لبدء الدراسة. وعليهم أن يناضلوا لاستيعاب طلاب المدينة وعددهم ثلاثمئة ألف على شكل ورديات، وإعطاء الدروس في الهواء الطلق أو داخل أبنية تحولت إلى أنقاض ولم تعد صالحة للسكن.

كانت مدرسة دورخاني الثانوية خير مثال على احتياجات الطلاب الأفغان غير المستوفاة. أوزرا فايزاد مديرة المدرسة، أخبرت مورتنسون من وراء خمارها الأزرق أنها ستسعى عند افتتاح مدرستها لاستيعاب خمسة وأربعين ألف طالب في المدرسة وداخل الأبنية التي هدمت خلال الحقبة السوفيتية حيث أن طاقم التدريس لديها المؤلف من تسعين مدرساً عقدوا النية على أن يوزعوا الصفوف إلى ثلاث ورديات في اليوم. وأضافت أوزرا بأن سجّل طلاب المدرسة يتضخم يوماً بعد يوم، لأن الفتيات قد خرجن من محابسهن يدفعهن الواقع الجديد بأن حركة طالبان التي حظرت تعليم الإناث قد ولّت أخيراً.

"قصة أوزرا فتنتني. فما هي تلك المرأة الصلبى الأبية تحاول أن تفعل المستحيل. جدران مدرستها حولها القصف إلى ركام وسقفها هوى إلى قلب المدرسة، ورغم ذلك فهي تأتي إلى عملها كل يوم كي يقف المكان على قدميه، يدفعها إيمانها العميق بأن التعليم هو الوسيلة الوحيدة لانتشال أفغانستان من مشاكلها".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان مورتنسون يهدف لأن يسجّل مؤسسة آسيا الوسطى بصورة رسمية في كابول لكي يتمكن من ترتيب ما يلزم من إجراءات حكومية للبدء في إنشاء المدارس لكن نظام المدينة الإداري على شاكلة الكهرباء وخطوط الهاتف، كان بدوره عاطلاً عن العمل.

"دار بي عبدالله من وزارة إلى أخرى، لكننا لم نجد أحداً هناك.فقررت أن أعود إلى الباكستان لأجمع بعض اللوازم المدرسية وأمد يد المساعدة حيثما أستطيع".

وبعد أن قضى أسبوعا في كابول، عرض على مورتنسون مقعداً في طائرة استأجرها الصليب الأحمر متجهة إلى بيشاور. كان يتفقد معسكر شامشاتو ليتأكد بأن مدرسي مؤسسة آسيا الوسطى يتلقون رواتبهم بانتظام عندما قال لنفسه "مقارنة بأفغانستان فإن مشكلات الباكستان يسيرة الحل. وبين شامشاتو والحدود توقف ليلتقط صورة لثلاثة من الصبية يجلسون فوق أكياس من البطاطا. لكن عدسة الكاميرا كشفت له عما أخطاته عينه المجردة. لقد كانت هناك مسحة من الجزع على وجوه الصبية، مثل تلك التي شاهدها في كابول. وضع مورتنسون الكاميرا جانباً وسألهم بالباشتية إن كانوا بحاجة إلى مساعدة.

أكبرهم الذي يبدو في الثالثة عشرة من العمر ويدعى أحمد، أحس بالفرج لأن شخصاً بالغاً قد أظهر تجاههم شيئاً من التعاطف وراح يقص عليه أن والده كان منذ أسبوع واحد يجلب عربة محملة بالبطاطا اشتراها من بيشاور عائداً بها إلى قريته الصغيرة بالقرب من جلال آباد كي يبيعها عندما قتلته قذيفة ألقت بها طائرة أميركية مع خمسة عشر رجلاً آخر كانوا يحملون الأغذية والمؤن.

عاود أحمد وأخوته الأصغر سناً السفر إلى بيشاور واشتروا حملاً آخر من البطاطا مع خسم في السعر منحهم إياه الباعة المشفقون الذين

كانوا يعرفون والدهم. وهم الآن بانتظار وسيلة نقل تعيدهم إلى أمهم وأخواتهم اللواتي يقضين فترة الحداد داخل المنزل.

كان أحمد يتحدث بنبرة جوفاء عن موت أبيه، أما الحقيقة الكامنة في أنه يروي قصته للمواطن الذي قامت قوات بلده بقتل أبيه، فلم تبدُ مهمته سهلة بالنسبة إليه، مما أكد لمورتنسون بأن الصبي يعيش حالة صدمة أفقدت توازنه.

ولم تكن حاله بأفضل.فقد عانى مورتنسون من ثلاث ليال مؤرقة في نُزل هوم سويت هوم الذي أعاده إليه سليمان من بيشاور وهو يحاول أن يحلل ما شاهده في أفغانستان. بعد البؤس الذي رآه في كابول وفي مخيم اللاجئين، انتاب مورتنسون الحنين لزيارة سكاردو الأليفة وذلك قبل أن يتصل ببارفي للاطلاع على الأحوال الراهنة لمدارس مؤسسة آسيا الوسطى.

بارفي أخبر مورتنسون أن ثلّة من قطاع الطرق نظمها آغا مبارك، وهو من أقوى أئمة القرى سلطة في شمال الباكستان، شنوا هجوماً على أحدث مشاريعهم، أي المدرسة المختلطة شبه المكتملة في قرية هيماسيل الواقعة في وادي شيجار، وحاولوا أن يضرموا فيها النار. وبما أنهم لم يقوموا بعد بتركيب ألواح الأسقف وأطر النوافذ الخشبية، فقد اسودّ المبنى لكنه صمد أمام الحريق. ولذا فقد أعملت عصابة آغا مبارك الفؤوس فيها، وحولّوا جدران المدرسة الصلبة ذات القرميد المنحوت بإتقان إلى أكوام من الأنقاض.

عندما وصل مورتنسون إلى سكاردو لعقد اجتماع طارئ بخصوص مدرسة هيماسيل، كان في استقباله المزيد من الأخيار السيئة وهي بأن آغا مبارك قد أصدر فتوى تحظر على مورتنسون العمل في الباكستان.لكن ما أقلق مورتنسون أكثر هو أن رجل سياسة من المنطقة


https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتمتع بنفوذ عالٍ يدعى عمران نديم قد أعلن على الملأ تأييده لمبارك، كبادرة تزلّف لأصوله الشيعية المتزمتة. وفي الطابق العلوي من فندق الهندوس، عقد مورتنسون اجتماعاً مع معاونيه الأساسيين داخل قاعة الطعام وأمام الشاي والكعك المحلى تنهد بارفي قائلاً: "مبارك يريد أن يعكر صفو الماء كي يصطاد. لقد تواصل ذلك الإمام مع مجلس قرية هيماسيل وطلب منهم رشوة مقابل أن يسمح لهم ببناء المدرسة، وعندما رفضوا ذلك، قوض المدرسة وأصدر الفتوى".

وأضاف بارفي بأنه تحدث إلى نديم، رجل الدولة الذي يؤيد مبارك، وأن نديم لمح إلى إمكانية تسوية الأمر بمبلغ من المال "كنت خائفاً وأول ما خطر لي هو أن أجمع حشداً من معارفي في الجيش لينقضوا على قرية مبارك وتجبره على التراجع" لكن بارفي تروّى في الأمر وارتأى حلاً جذرياً: "إذا قاربت منزل ذلك اللص المحاط بالحراس فسوف يعدك بأن ينفذ كل ما تريده ثم يحنث بوعده حالما تختفي البنادق من أمامه. يجب أن نسوي الأمر بشكل قاطع بواسطة القانون.علينا أن نلجأ إلى محكمة الشريعة".

كان مورتنسون قد تعلم أن يثق بنصائح بارفي.وبمساعدة صديق مورتنسون القديم مهدي علي، أحد كبار قرية هيماسيل الذي أطلق حملة تدعم بناء المدرسة، فإن بارفي سيقوم برفع دعوى إلى المحكمة الإسلامية في سكاردو مسلم ضد مسلم، أما مورتنسون، فعليه أن يظل بعيداً عن ذلك السجال القانوني ويتابع مهمته الشائكة في أفغانستان.

اتصل مورتنسون بمجلس الإدارة من سكاردو وأطلعهم على مشاهداته في أفغانستان وطلب الموافقة على شراء لوازم مدرسية سيعود بها إلى كابول. لكن ما أدهشه هو أن جوليا بيرجمان أبدت استعدادها أن تسافر إلى الباكستان جواً وترافقه من هناك في رحلته

البرية من بيشاور إلى كابول، كانت بادرة تنم عن شجاعة فائقة والمعارك ما زالت مستمرة على طول طريقنا، ولم أتمكن من إقناع جوليا بالعدول عن رأيها.كانت تعرف ما عانته النساء تحت حكم طالبان، ولن يثنيها شيء عن مساعدتهن قدر ما تستطيع".

في شهر نيسان عام 2002 ارتدت جوليا بيرجمان الشقراء زياً باكستانياً فضفاضاً. ووضعت حول عنقها قلادة من الخزف نقش عليها: "أريد أن أكون مستنفدة حتى الرمق الأخير" وعبرت نقطة لاندي خوتال الحدودية برفقة مورتنسون وصعدت إلى الشاحنة المغلقة الصغيرة التي استأجرها سائق التاكسي منير صديق سليمان، من أجل رحلتهم إلى كابول.

كان المقعد الخلفي للسيارة والفسحة المخصصة للأمتعة مكتظة حتى السقف باللوازم المدرسية التي ابتاعها مورتنسون وبيرجمان في بيشاور.

سليمان الذي لا يحمل جواز سفر، وقف عند السيارة يتميّز غيظاً لأنه غير قادر على مرافقتهم وحمايتهم، فمال إلى داخل السيارة وأمسك بخناق السائق منير وهدده قائلاً: "أقسم بدمي بأنه إن حدث مكروه لهذا السيد أو هذه السيدة فسأقتلك بيدي هاتين".

رحلة المئتي ميل إلى كابول استغرقت إحدى عشرة ساعة.

ويقول مورتنسون: "لقد فوجئت عندما رأيت أن كامل منطقة الحدود مفتوحة على مداها ولا أثر لأي عنصر من الأمن في أي مكان.كان يمكن لأسامة برفقة مئة من مقاتليه أن يدخلوا قلب الباكستان دون أن يعترضهم أحد.

وتقول بيرجمان: "على كامل الطريق شاهدنا الدبابات والآليات العسكرية التي احترقت بفعل القصف الجوي، وكان مشهداً يتناقض


https://telegram.me/maktabatbaghdad

بشكل صارخ مع مناظر الطبيعة الخلابة، ففي كلّ مكان، ازدانت الحقول بنباتات الخشخاش الحمراء والبيضاء، ومن خلفها قمم الجبال المكللة بالثلوج لتعطي إيحاء بالسكينة التي لاتعرفها البلاد. توقفنا لتناول بعض الطعام والشاي في فندق "سبين غاز" في جلال آباد، الذي كان مركز قيادة حركة طالبان وبدا لي شبيهاً بالصور التي شاهدتها عن مدينة دريسدن بعد أن تعرضت للقصف خلال الحرب العالمية الثانية. وكنت قد سمعت من أصدقائي الذين فرّوا إلى شامشاتو أن الطيران الحربي الأميركي قد قام بقصف جوي مكثف شمل المنطقة بأسرها. في جلال آباد، شعرت بالقلق على سلامة جوليا لأنني رأيت بوضوح نظرات الناس المفعمة بالكراهية تجاهنا وتساءلت عن أعداد الأبرياء من أمثال بائع البطاطا الذين قضت عليهم قنابلنا".

وبعد وصولهم إلى كابول سالمين، توجه مورتنسون برفقة جوليا إلى فندق انتركونتيننتال الواقع فوق مرتفع ذي إطلالة شاملة على المدينة الجريحة وهو أفضل ما تستطيع أن تقدمه كابول كمقر إقامة لأن نصف المبنى ما زال قائماً. وبسعر خمسين دولاراً لليلة الواحدة. قادوهما إلى الجناح "السليم" برأيهم حيث تغطي ألواح من البلاستيك النوافذ المهشمة ويقوم العاملون بإحضار دلاء من الماء الدافئ مرة في اليوم كي يغتسلوا.

وبرفقة هاش وعبدلله قام الأميركيان بجولة على مراكز التعليم المثقلة بالأعباء في كابول. وعند معهد كابول الطبي، أرقى مركز للتدريب الطبي في المنطقة، توقفوا لتسليم المناهج الطبية التي وهبتها إحدى متبرعات مؤسسة آسيا الوسطى كيم ترودل عن طريق مورتنسون. كانت كيم قد فقدت زوجها فريدريك ريمل أثناء سفره لحضور مؤتمر طبي في كاليفورنيا يوم الحادي عشر من أيلول، بعد أن تبخر في قلب غيمة من الوقود إثر اصطدام طائرة اليونايتد إيرلاين

التي كان على متنها بالبرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي وطلبت من مورتنسون أن يحمل كتب زوجها الطبية إلى كابول تماشياً مع إيمانها أن العلم هو الطريق الذي يوصل إلى حل أزمة عسكرة الإسلام.

في داخل القاعة الباردة المعتمة وتحت سقفها المنهار، وجد مورتنسون وبيرجمان خمسمئة طالب ينصتون باهتمام بالغ إلى درس يلقى على أسماعهم وأبدى الطلاب امتنانهم الفائق تجاه الكتب لأنهم لا يملكون سوى عشرة كتب من المناهج المقررة لفصل علم التشريح المتقدم ويقوم أطباء المستقبل البالغ عددهم 470 شاباً و30 شابة جسورات بالتناوب على اصطحاب الكُتب إلى منازلهم حيث ينسخون الدروس والرسوم البيانية بخط اليد.

حتى ذلك الإجراء المضني كان تقدماً لافتاً مقارنة مع الوضع الذي كان المعهد عليه منذ بضعة شهور.شرح لهم طبيب الأطفال دكتور نظير عبدول الحالة التي سادت إبان حكم طالبان لكابول، إذ حظروا الكتب التي تحتوي صوراً جميعها وأحرقوا منها كل ما وقع تحت أيديهم. وكانت عناصر مسلحة من جبهة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، موضع ازدراء الجميع، تقف في آخر قاعة المحاضرات أثناء الدروس للتأكد من أن الأساتذة لن يضعوا أي رسوم تشريحية على اللوح.

وقال الدكتور عبدول: "نحن عبارة عن أطباء من الناحية النظرية فقط، فليست لدينا أبسط المعدات الطبية الأساسية ولا نملك المال لشراء جهاز لقياس ضغط الدم أو سماعة، أما أنا الطبيب، فلم أنظر طيلة حياتي من خلال المجهر".

كانت يدا عبدالله ذات الندوب تديران مقود السيارة تارة نحو الجهة اليمنى وأخرى نحو اليسرى كي يتجنب الحفر التي أحدثتها القنابل وهو يقل مورتنسون وبيرجمان لتفقد تجمع يتألف من ثماني قرى تقع غرب


https://telegram.me/maktabatbaghdad

كابول وتدعى "ميدان شاه". كان مورتنسون يعرف بأن معظم المعونات الأجنبية الشحيحة التي تقبل إلى أفغانستان لا تغادر كابول أبداً، وكما كانت استراتيجيته في الباكستان، فإن همّه الأعظم هو أن يساعد مناطق الأرياف الفقيرة في أفغانستان. أما ثلاث مئة الطالب في مدرسة شهاب الدين المتوسطة، فهم في حاجة ماسة إلى ما هو أكثر من أقلام الرصاص والكراسات التي ساعده هاش في نقلها من تكسي عبدالله.

المدرسون في شهاب الدين يواصلون دروسهم مع الطلاب الصغار داخل حاويات شحن صدئة، أما طلاب المدرسة التسعة في الصف التاسع فيدرسون في مؤخرة حاملة جنود مصفحة احترقت واختفى الجزء السفلي منها أثناء هجوم مضاد للدبابات. كانوا يجلسون متراصين داخل حجرة التصويب التي كانت بمثابة نافذة بالنسبة لهم، ومنها في كنزهم الثمين، أي الكرة التي أهداهم إياها عامل إغاثة سويدي "ذلك الرجل (السويتي) لديه شعر طويل أشقر مثل ماعز الجبال" قال لمورتنسون صبي تشع عيناه بالذكاء وحشرات القمل تتساقط من على فروة رأسه الحليقة، أراد أن يتفاخر بتميزه في مادة اللغة الانجليزية.

لكن بال مورتنسون كان منشغلاً في عدم وجود سقف يؤوي الطالبات الإناث، ويقول عن ذلك: "ثماني مئة فتاة لا يملكن سوى أن يتابعن دروسهن في الهواء الطلق وكن يعملن جاهدات على ذلك لكن الريح كانت تهب بشكل مستمر لتحمل الرمال إلى أعينهن وتحجب السبورة عن أنظارهن، كدن يطرن من الفرح بكراساتهن وأقلامهن الجديدة التي تشبثن بها كي لا تطير مع الرياح".

كان مورتنسون يسير عائداً إلى السيارة، عندما هدرت أربع مروحيات أميركية مقاتلة تطير بسرعة فائقة من فوق المدرسة وطلابها المرتاعين بحمولة كاملة من الصواريخ الجاهزة للانقضاض من داخل حجيرات الإطلاق.

وفي عصافة هروب الفتيات، وقعت السبورة فوق الأرض الحجرية وتهشمت بالكامل، وتقول بيرجمان: "كنا نرى الطائرات والمروحيات الأميركية أينما توجهنا، وأصبح بإمكاني أن أقدر المبالغ الهائلة التي ننفقها على التسليح. ولكن أين تكمن المساعدة التي وعدت بها أميركا الشعب الأفغاني والتي كنت أسمع عنها عندما كنت في وطني؟ وما الذي يعنيه أن إعادة إعمار البلد هو قمة أولوياتنا؟ لقد كنت في أفغانستان ولم ألمس أي دليل على أن العالم يساعد أطفال أفغانستان، وخصوصاً الولايات المتحدة. وكم كان ذلك محرجاً ومحبطاً بالنسبة لي".

في اليوم التالي أحضر مورتنسون بيرجمان كي تلتقي بمديرة مدرسة دورخباني، وأيضاً كي يسلم اللوازم المدرسية المخصصة لطلاب أوزرا فايزدا الأربعمئة وخمسين. ورأى أنه على طلاب فايزدا أن يتسلقوا سلالم خشبية مصنوعة باليد كي يصلوا إلى صفوفهم في الطابق العلوي الذي نجا من القصف بشكل أو بأخر لأن السلم الذي كان من أصل البناء نُسف ولم يُعَد بناؤه بعد. المدرسة كانت تعمل فوق طاقتها ويتم التدريس فيها مجزءاً إلى ثلاث ورديات يومياً. ابتهجت أوزرا للقاء مورتنسون من جديد، وقامت بدعوة الأميركيين لتناول الشاي في منزلها.

أوزرا كانت أرملة أحد المجاهدين الذين قتلوا خلال المعارك التي خاضتها قوات مسعود ضد السوفييت وتعيش في غرفة منفصلة داخل حرم المدرسة بتقشف أقرب إلى الرهبنة. وإبان حكم طالبان، فرّت أوزرا إلى طالوقان وقامت بتعليم الإناث سراً بعد أن سقطت المدينة. أما الآن فقد عادت إلى مدينتها وتنادي علناً بحق الإناث في العلم. أزاحت أوزرا قطعة الخيش التي تغطي النافذة الوحيدة، ثم رفعت البرقع الذي يغطيها من الأعلى إلى الأسفل وعلقته على كلّاب مثبت


https://telegram.me/maktabatbaghdad

فوق بطانية صوفية مطوية بعناية والتي تشكل ملكيتها الثمينة الوحيدة، ثم جلست متربعة قرب موقد غازي كي تعدّ الشاي.

قالت لها بيرجمان: "نساء بلدي يتساءلن: إن كانت حركة طالبان قدّ ولّت، فلم لا تزال نساء أفغانستان يرتدين البرقع؟".

أجابتها أوزرا: "أنا امرأة متحفظة بطبعي، والبرقع يشعرني بالأمان. والحقيقة أنني أصرّ على المعلمات الإناث في مدرستي كلهنّ بأن يرتدين البرقع عندما يذهبن إلى السوق، لأننا لا نريد أن نعطي سبباً لأحد كي يقف في وجه تعليم الإناث".

لكن بيرجمان تابعت استجوابها: "ومع ذلك فإن النساء المتحررات في الولايات المتحدة يردن أن يعرفن إن كنت لا تشعرين بالإضطهاد لأنك لا تستطيعين أن تري النور إلا من ذلك الشق الضيق".

ارتسمت على وجه أوزرا ابتسامة عريضة لم يشاهدها مورتنسون من قبل. كانت قد حررت نفسها من البرقع، وأذهله جمالها رغم سنواتها الخمسين والمحن التي مرت بها. "نحن نساء أفغانستان نرى النور من خلال العلم، وليس من خلال شقّ أُحدث في خرقة من القماش".

عندما أصبح الشاي الأخضر جاهزاً، قدمته أوزرا لضيفيها وهي تعتذر عن عدم توفر السكر لديها. وبعد أن ارتشف ثلاثتهم الشاي، قالت أوزرا: "هناك جميل آخر أريد أن أطلبه منكما. نحن ممتنون للغاية لأن الأميركيين أخرجوا حركة طالبان من ديارنا. لكنني لم أتقاض راتبي منذ خمسة أشهر مع أنهم وعدوني بذلك. هل بالإمكان طرح المسألة مع أحد في أميركا يعرف ما الذي يحدث؟".

ومن أموال مؤسسة آسيا الوسطى منح مورتنسون أربعين دولاراً لأوزرا، وعشرين دولاراً لكل من مدرسيها الذين لم يتقاضوا رواتبهم أيضاً، ثم أودع بيرجمان على متن رحلة متجهة إلى إسلام آباد، وباشر

تحرياته عن مصير رواتب أوزرا. وأثناء تجواله الثالث في ردهات وزارة المالية المتداعية، تمكن أخيراً من مقابلة نائب وزير المالية الأفغاني، الذي رفع ذراعيه نحو الأعلى عندما سأله مورتنسون عن عدم وصول رواتب أوزرا والمدرسين الذين يعملون لديها.

"أخبرني بأن أقل من ربع المعونات المالية التي وعد بها الرئيس بوش وصلت فعلياً إلى أفغانستان، وأن ما يعادل 680 مليون دولار من تلك المعونة الشحيحة قد تم إعادة توزيعها لبناء المطارات ومستودعات ذخيرة ضخمة في البحرين والكويت وقطر لأن غزو العراق، كما كان يتوقع الجميع، كان وشيكاً.

طار مورتنسون إلى دبي، ثم إلى لندن، ومنها إلى واشنطن العاصمة وهو يشعر بأنه صاروخ حراري موجه إلى حكومته نفسها، يؤججه الحنق وحس الإهانة. "الفرصة التي أتيحت لنا لكي نخفف من الألم الذي تسببنا به في أفغانستان كانت تتسرب من بين أيدينا. كنت غاضباً إلى درجة أنني قضيت الرحلات وصولاً إلى واشنطن وأنا أذرع ممرات الطائرات جيئةً وذهاباً. نحن كنا غير قادرين على تحقيق أمر بسيط مثل أن تتقاضى أوزرا تلك المرأة المغوارة راتبها الذي لا يتجاوز الأربعين دولاراً في الشهر، فكيف نستطيع أن نقوم بالمهمات الشاقة التي يتطلبها القضاء على الإرهاب؟".

كان متعذراً على مورتنسون أن يصب جام غضبه على ماري بونو. عندما توفي زوج عضوة الكونغرس سوني بونو نجم البوب السابق الذي كان يمثل ولاية كاليفورنيا في الحزب الجمهوري إثر اصطدامه بشجرة أثناء تزلجه على الثلج، حثها البعض على أن ترشح نفسها لتأخذ كرسي زوجها، وكما حدث مع زوجها الراحل عاملها خصومها باستخفاف قبل أن تتسنى لها الفرصة لإثبات كفاءتها في السياسة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ماري لاعبة الجمباز السابقة ومتسلقة الصخور ومدربة اللياقة البدنية، لم تبدُ أبداً على الشاكلة التي يجب أن تكون عليها عضو في الكونغرس عندما وصلت إلى واشنطن وهي في السابعة والثلاثين من عمرها، خصوصاً عندما كانت تكشف عن مفاتن جسدها المتناسق بفساتين السهرة التي تظهر بها في المآدب الرسمية.

لكن ماري بونو بذكائها المتوثب كملامحها، سرعان ما صار اسمها على كل لسان كنجمة صاعدة في آفاق الحزب الجمهوري. وحين وصل مورتنسون إلى مكتبها في مبنى الكابيتول كانت قد حققت نجاحاً ساحقاً في إعادة انتخابها والفوز بتقدير نظائرها في كلا الجناحين، ولم يعد ظهورها العلني يشكل عائقاً في العاصمة المنقادة بهرمون الذكورة.

يقول مورتنسون: "عندما وصلت إلى واشنطن، تملكني إحساس بالتيه وكأني سقطت من السماء إلى قلب قرية أفغانية نائية لا أفقه شيئاً من عاداتها. قضت ماري اليوم بأكمله برفقتي وهي تشرح لي كيف يعمل كل شيء. وسارت بي عبر نفق يربط بين مكتبها وقاعة الكابيتول حيث كان يتحرك العشرات من أعضاء آخرين في طريقهم للتصويت، وقدمتني إلى كل فرد منهم، وجعلت الرجال جميعهم، ومن ضمنهم أنا نفسي، يحمرون خجلاً كصبية المدراس عندما قالت لهم: "هذا الرجل جدير بأن نتعرف عليه. اسمه جريغ مورتنسون وهو بطل أميركي حقيقي".

كانت بونو قد نظمت محاضرة سيلقيها مورتنسون في غرفة اجتماعات داخل الكونغرس، ووجهت الدعوات إلى كل عضو في الكونغرس لكي يحضروا ويلتقوا بالأميركي الذي يحارب الإرهاب في الباكستان وأفغانستان وسلاحه تأسيس المدارس للإناث".

تقول بونو: "كان ذلك أقل ما يمكن أن أفعله بعد أن سمعت ما تحدث به مورتنسون. يندر أن يمر يوم لا أسمع فيه أشخاصاً يقولون أنهم يسعون لفعل الخير ومساعدة الناس. لكن جريغ هو فاعل خير حقيقي. لقد اتخذ المسار الصحيح وأنا من أشد الناس إعجاباً به. التضحيات التي يقدمها هو وأفراد أسرته تفوق الوصف وهو يعكس المرآة الأفضل لأميركا.

وما أردت فعله كان إعطاء هذه الإنسانية فرصة كي تمسح الشقاء عن جباه أكبر عدد ممكن من الناس".

قام مورتنسون بتركيب جهاز عرضه القديم، والذي ثبته إلى بعضه مجدداً بشريط لاصق قوي، واستدار ليواجه قاعة تحتشد بأعضاء من الكونغرس ومسؤولين كبار. كان يرتدي بزته البنية الرثّة التي لا يملك غيرها وحذاء بالياً من القماش. كما كان في تلك اللحظة يفضل أن يواجه بحراً آخر من مئتي كرسي فارغ، لكنه تذكر أن تساؤل أوزرا الساذج عن راتبها المفقود هو الذي أرسله ليؤدي هذه المهمة ويبدأ يعرض الصور التي تظهر الجمال الأخاذ جنباً إلى جنب مع الفقر المدقع في الباكستان ويتحدث بحميّة متزايدة عن راتب أوزرا الضائع، وأهمية أن تحافظ أميركا على وعودها بإعادة بناء أفغانستان.

كان في منتصف جملة عندما استفزه عضو كونغرس من الحزب الجمهوري قائلاً: "بناء المدارس للأطفال عمل رائع، تستحق عليه الثناء. لكن ما تحتاجه الأمة في الوقت الراهن هو الأمان. وإن لم يكن هناك أمان، فما قيمة كل هذا؟".

أخذ مورتنسون نفساً عميقاً، وشعر بأن جذوة من الغضب الذي حمله طوال الطريق من كابول اتقدت من جديد. أجاب مورتنسون وهو ينتقي كلماته بعناية كي لا يجد نفسه مرمياً خارج مبنى الكابيتول:


https://telegram.me/maktabatbaghdad

"أنا لا أفعل ما أفعله كي أحارب الإرهاب، بل لأن هموم الأطفال تقضُّ مضجعي، ومحاربة الإرهاب لا يمثل أكثر من المرتبة السابعة أو الثامنة في قائمة أولوياتي. ما تعلمته هو أن الإرهاب لا يأتي من مجموعة من الاشخاص في بقاع مثل الباكستان أو أفغانستان اتخذوا قراراً من الفراغ لكي يكرهونا. بل جاء لأن الأطفال لا يملكون الأمل في مستقبل مشرق يجعلهم يفضلون الحياة على الموت".

انقشع طبع مورتنسون الخجول عنه، وتابع حديثه بطلاقة غير معهودة فيه. أخبرهم عن الحيف الذي أحس به عند تجواله في أفغانستان، وعن عجز المدارس الحكومية في الباكستان، وعن المدارس الوهابية التي تتكاثر وتنتشر كخلايا مسرطنة، ومليارات الدولارات التي يضخها الأمراء السعوديون إلى المنطقة داخل حقائب مقفلة لكي تدعم تصنيع الجهاد. وفيما استرسل في حديثه ران الصمت داخل القاعة ولم يعد يسمع سوى خربشة الأقلام المحمومة وهي تدوّن ما يقوله مورتنسون.

وبعد أن انتهى، كان مورتنسون يحزم معداته على عجل عندما اقتربت منه المعاونة القانونية لإحدى عضوات الكونغرس من مدينة نيويورك وقدمت نفسها إليه، ثم قالت: "ما فعلته كان مذهلاً. لم نسمع شيئاً كهذا في نشرات الأخبار أو البيانات التي تصدر! عليك أن تدون ما قلته في كتاب".

"لا أملك وقتاً للكتابة" أجاب مورتنسون في اللحظة التي كان يصل فيها الجنرال أنتوني زيني، المدير السابق لـ CentCom في الموعد المحدد له ليصدر بياناً آخر محاطاً بثلّة من الضباط يرتدون الزي الرسمي.

"عليك أن تجد الوقت".

إن كنتِ لا تصدقين فاسألي زوجتي. أنا لا أملك وقتاً حتى للنوم" عبر مورتنسون على مهل ممر الحديقة باتجاه النهر وهو يتساءل إن كانت رسالته قد وصلت. كانت هناك مجموعات من السياح يتنزهون فوق المروج المنبسطة بين حرف الـ U القاتم الذي يعلو نصب فيتنام التذكاري والمبنى المرمي الأبيض حيث علقت لوحة لوجه لينكولن تنتظر بسكينة أن يتكفل الزمن بتضميد جراح الأمة الطرية.

وبعد بضع دقائق، وجد مورتنسون نفسه على الجهة الأخرى من النهر، حيث دعاه لزيارة البنتاغون جنرال من البحرية كان قد تبرع بمبلغ ألف دولار لمؤسسة آسيا الوسطى بعد أن قرأ عما يفعله مورتنسون

قاد الجنرال مورتنسون عبر ممر من الرخام المصقول باتجاه مكتب وزير الدفاع. يقول مورتنوسون: "المشهد الذي علق بذاكرتي هو الأشخاص الذين كانوا يمرون من قربنا دون أن ينظروا في الوجوه. أناس يتأبطون أجهزة الكمبيوتر المحمول يسارعون كالصواريخ لتنفيذ مهمتهم التالية وكأنهم لا يستطيعون أن يبددوا لحظة للنظر إلي. وأذكر أنني فكرت بالخدمة العسكرية التي خضتها، وبأن هذا لا علاقة له بما عرفته أنا. إنه جيش مبرمج على الكمبيوتر"

أما عندما أصبح داخل مكتب وزير الدفاع، فإن مورتنسون يتذكر صدمته لأن لا أحد دعاه للجلوس، في حين أن لقاءات مماثلة مع أصحاب المراتب في الباكستان كانت تعني بأن يقدموا له الشاي وهو جالس كحدٍ أدنى ومهما كان اللقاء خاطفاً. ظلّ مورتنسون واقفاً يتململ داخل بزته غير المألوفة، تائهاً عما يمكن أن يقوله أو يفعله.

"لم نبق داخل المكتب سوى اللحظات اللازمة لتقديمي إليه. وكم أتمنى لو أخبركم بأنني تفوهت بكلمة تلفت انتباه دونالد رامسفيلد كي


https://telegram.me/maktabatbaghdad

يعيد النظر في كامل مسار الحرب على الإرهاب. فكل ما فعلته هو أنني أمعنت النظر في حذائه. لا أعرف الكثير عن أشياء من ذلك القبيل، لكن حتى أنها لاحظت أنه حذاء رائع، فقد كان يلمع ويومض بثمنه الباهظ. أذكر أيضاً أن رامسفيلد كان يرتدي بزة بالغة البذخ لونها فضي، وأنه ينضح برائحة الكولونيا. وأذكر أنني فكرت بأن البنتاغون كان قد تعرض لضربة من طائرة مختطفة وبأننا هنا بعيدون كل البعد عن الحرب، وعن قيظ غبار كابول الذي أتيت منه"

عاد إلى الممر العدائي، وسار باتجاه قاعة خصصت لاجتماع مورتنسون مع نخبة من المخططين العسكريين، وهو يتساءل كم يمكن لهذا التنافر الذي يسود البنتاغون أن يؤثر على القرارات التي تصنع في المبنى. وكيف يمكن لأحاسيسه تجاه الطريقة التي تدار بها الحرب أن تتبدل عندما يكون كل ما رآه للتو يؤكد أن الصبيين اللذين فقدا والدهما بائع البطاطا أو الفتيات اللوتي طارت السبورة من أمامهن وأولئك الجرحى الذين يحاولون أن يتحركوا في الشوارع بالأشلاء التي تركتهم عليها الألغام الأرضية والقنابل العنقودية، ليسوا سوى أرقام تومض على شاشات الكمبيوتر؟

وفي داخل قاعة محاضرات صغيرة نصف ممتلئة بضباط يرتدون زيهم العسكري وبعض من المدنيين، لم يحاول مورتنسون أن يكبح جماح نفسه "شعرت بأن أي شيء سأقوله سيكون عقيماً ولن أستطيع أن أبدل الطريقة التي قررت إدارة بوش خوض حروبها، لذا قررت أن أقول كل ما لدي" وبعد أن قدم نفسه للجضور باشر الكلام: "لقد أيدت الحرب في أفغانستان وآمنت بها لأنني كنت أعتقد أننا جادّون في مخططاتنا لإعادة إعمار أفغانستان. وأنا موجود هنا الآن لأنني أعرف أن النصر العسكري ليس سوى المرحلة الأولى لكسب الحرب على الإرهاب، لكن ما أخشاه هو أننا لا نرغب في الانتقال إلى المراحل التي تليها".

ثم انتقل للحديث عن الأعراف القبلية التي تسود النزاعات في تلك المنطقة، وكيف تعقد الأطراف المتحاربة اجتماعاً قبل الدخول إلى المعركة ليتفقوا على مدى الخسائر التي يستطيعون احتمالها، لأنه على الطرف المنتصر أن يُعنى فيما بعد بالأرامل والأيتام لدى أعدائهم المهزومين".

وتابع كلامه قائلاً: "الناس في ذلك الجزء من العالم ألفوا الموت والعنف وإذا قلتم لهم (لقد أحزننا موت والدك، لكنه مات شهيداً في سبيل حرية أفغانستان) وقدمت لهم التعويض وأظهرت الاحترام أمام تضحياتهم، فأعتقد أنهم حتى الآن سوف يقفون إلى جانبنا. لكن أسوأ ما يمكن أن نفعله هو ما نفعله الآن، اللامبالاة بالضحايا. ووضعهم بالضرر الجماعي دون أن نكلف أنفسنا عناء إحصاء أعداد الموتى. وبالنسبة لهم فإن تلك اللامبالاة تعني أننا نتنكر لوجودهم من أساسه، ولا توجد إهانة أكبر من ذلك في العالم الإسلامي. وهذا هو السبب بأنهم لن يغفروا لنا قط".

وبعد انقضاء ساعة كرر خلالها مورتنسون تحذيراته عن فرق الجهاديين الذين يتم تشكيلهم داخل المدارس الوهابية المتطرفة، أنهى حديثه بفكرة كانت قد خطرت له وهو يجوب أرجاء الدمار الكامل لمنزل يقع ضمن منطقة تعرضت لهجوم بالصواريخ في كابول.

"لست خبيراً عسكرياً، والأرقام التي سأذكرها قد لا تكون دقيقة تماماً. لكن معلوماتي المتواضعة تفيد بأننا قد أطلقنا 114 صاروخاً على أفغانستان حتى الآن. فإذا أخذنا سعر كل صاروخ على حدة واضفنا إليه نفقات نظام التوجيه، فإن التكلفة تصبح حوالي 840000 دولار، وبمبلغ كهذا تستطيعون أن تنشئوا عشرات المدارس التي ستمنح بدورها الفرصة لآلاف الطلاب كي يحصلوا على تعليم متوازن وغير متطرف لمدة جيل كامل. أيهما برأيكم سيجعلنا أكثر أمناً؟"


https://telegram.me/maktabatbaghdad

عند نهاية خطابه، اقترب من مورتنسون رجل حسن المظهر مازال يحمل ملامح ماضيه العسكري رغم البزّة المدنية الأنيقة التي يرتديها.

"هل نستطيع أن نرسم لنا خريطة عن مواقع المدارس الوهابية؟ "

"إن كنت أرغب في البقاء حياً؟ كلا"

"هل تستطيع أن تبني مدرسة ملاصقة لكل واحدة من تلك المدارس؟".

"تقصد نوعاً من المقاهي من شأنها جعل الجهاديين عاطلين عن العمل؟"

"أنا جاد فيما أقول. نحن قادرون على تأمين المال لك. ما رأيك بـ2.2 مليون دولار؟ كم مدرسة ستبني بها؟"

"حوالي المئة"

"اليس ذلك ما تسعى لأجله؟ "

"سيكتشف الناس هناك بأن التمويل قد أتى من الجيش ويطردونني".

"الحل موجود.نستطيع أن نصوّر الأمر على انه تبرع شخصي من رجل أعمال من هونغ كونغ"

تصفح الرجل دفتراً صغيراً دفعت فيه مخصصات عسكرية متنوعة وشاهد مورتنسون أسماء أجنبية لا يعرفها، ومبالغ تملأ هوامش الصفحات: 15 مليون دولار، 4.7 مليون دولار، 27مليون دولار "فكر بالأمر واتصل بي." قال الرجل وهو يدوّن بضعة سطور على عجل ويناوله بطاقته.

وفكر مورتنسون بالأمر ملياً. الخبر الذي سيرتد عن مئة مدرسة لم يبارح ذهنه، وداعبت مخيلته فكرة أن يأخذ النقود العسكرية على شكل مراحل خلال عام 2002 رغم يقينه بأنه لن يقدر على ذلك "أدركت أن مصداقيتي في ذلك المكان من العالم تقوم على النأي بنفسي عن الحكومة الأميركية، خصوصاً عسكرها.

الحضور المتميز لعروض الصور التي واصل تقديمهاذلك العام رفعت موازنة مؤسسة آسيا الوسطى بشكل معتبر، لكن الوضع المالي للمؤسسة ظل مزعزعاً كسابق عهده. فمجرد الحفاظ على المدارس ومباشرة حملة جديدة من أجل أطفال أفغانستان كفيل بنفاد موارد المؤسسة إن لم يتخذ مورتنسون احتياطاته.

وهكذا قرر مورتنسون أن يؤجل الزيادة التي قررتها المؤسسة على راتبه، من ثمانية وعشرين ألف دولار إلى خمسة وثلاثين ألف دولار سنويا حتى يصبح وضعها المالي أكثر تماسكاً.

مع نهايات العام 2002 وبدايات 2003، عندما بدأت عناوين الصحف حول أسلحة الدمار الشامل ونذير الحرب القادمة مع العراق تنهال على مورتنسون كل صباح عبر شاشة الكمبيوتر، تنامى لديه شعور متزايد بالرضى لأنه لم يورط نفسه في أموال الجيش.

في تلك الأيام المشحونة التي تلت الحادي عشر من أيلول، كانت باتسي كولينز متبرعة مورتنسون العجوز، قد حفزته قبل وفاتها بوقت قصير، أن يقول ما عنده ويحارب من أجل السلام.

فراح يشق طريقه في أنحاء أميركا عبر الاضطراب الذي خلفته وراءها الهجمات، وتغلب أيضاً على خجله الفطري ليقول كل ما يجب أن يقال.كان يحزم حقيبته القماشية استعداداً لفراق موجع آخر عن أسرته في رحلته رقم سبعة وعشرين إلى الباكستان.عندما تساءل إن كان هناك من أصغى إليه.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

# الفصل الثاني والعشرين

# " الجهل هو العدو "

"في الوقت الذي تجابه فيه الولايات المتحدة نظام صدام حسين في العراق، يخوض جريغ مورتنسون ذو الخمسة والأربعين عاماً، بصمت معركته الخاصة ضد المتطرفين الإسلاميين الذين يجندون عناصرهم عبر منشآت تعليمية يزعمون أنها مدارس. إن تكتيك مورتنسون الذي يقوم على مبدأ بسيط وهو بناء المدارس غير الدينية وترويج الحاجة إلى التعليم خصوصاً للإناث داخل تلك الرقعة الأشد عنفاً في العالم، كفيل بأن يقضي بالتدريج على الدعم القائم لحركة طالبان وغيرها من الطوائف الدينية المتطرفة"

"كيفن فيداركو"

قصة غلاف مجلة Parade

العدد الصادر في 6 نيسان 2003

داس حسين على مكابح السيارة عند نهاية الطريق، وخرج منها ركابه من فوق صندوق الديناميت المغلف بالبلاستيك. كان الظلام قد حل عندما تلاشت من أمامهم الطريق الترابية التي تأرجحوا فوقها لمدة عشر ساعات ليبدأ ممر المشاة المؤدي إلى أعالي كاراكورام عبر الصدوع الصخرية. كان الوصول إلى آخر مستوطنة بشرية قبل البالتورو، تعني العودة الحميدة إلى مكان حميم بالنسبة لمورتنسون وحسين وآبو وبيج. أما بالنسبة لكيفن فيداركو فقد كان بمثابة سقوط مروع على الحافة المقفرة من الكرة الأرضية.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان فيداركو رئيس التحرير الأسبق لمجلة "Outside" قد ترك عمله المكتبي كي يصبح صحفياً ميدانياً.وعند ذلك المساء البارد من شهر أيلول، وجد فيداركو يرافقه المصور تيرو كوایاما نفسيهما في أبعد نقطة يمكن أن يصل إليها أحد. ويتذكر فيداركو ذلك قائلاً: "النجوم المشعة فوق كاراكورام في تلك الليلة كانت مذهلة وبدت ككتلة صلبة من الضياء" ثم قامت ثلاثة نجوم بالانشقاق عن السماء وتهاوت نحو الأسفل وكأنها ترحب بزوار قرية كورف.

يقول فيداركو: "شاهدنا زعيم كورف واثنين من أصدقائه يهبطون إلينا بشكل متعرج من أعلى الجرف، يحملون مصابيح صينية الصنع مخصصة للأعاصير، ثم صعدوا بنا عبر جسر معلق نحو الظلمة. كان شيئاً لا ينسى شيئاً يشبه الدخول إلى قرية تعود إلى العصور الوسطى حيث عليك أن تتلمس طريقك بين الأزقة الحجرية الموحلة تحت ضوء المصابيح الشحيح".

فيداركو جاء إلى الباكستان كي يكتب قصة نشرها لاحقاً في مجلة Outside تحت عنوان "الحرب الأكثر برودة".طيلة تسعة عشر عاماً من القتال، لم يسبق لصحفي أن كتب من على الأرض التي يجري فوقها الصراع المحتدم بين الهند والباكستان. وبفضل مورتنسون فإن فيداركو سيكون الأول وقد قال عن ذلك: "قصر جريغ وقته وجهوده كي أحظى بتلك الفرصة، فقد حصل على ما يلزم من تصاريح من الجيش الباكستاني وقدمني إلى الجميع ورتّب أمر تنقلي مع تيرو بواسطة المروحيات. لم تك لدي أي حلقات اتصال في الباكستان وما كنت لأحصل عليها وحدي ابداً. الجو الذي أغدقه علي جريغ فاق كل ما خبرته طوال حياتي باعتباري صحفياً".

اندسّ فيداركو في فراشه تلك الليلة وتدثّر اتقاء للبرد، بطانيات صوفية قذرة رائحتها نتنة كجيف ماعز، وهو لا يملك أدنى فكرة بأنه سيردّ أفضال مورتنسون مضاعفة في القريب العاجل.

يقول فيداركو: "عندما فتحت عيني في الصباح شعرت أنني في قلب كرنفال" أما مورتنسون فيقول: "قبل موته قام الحاج علي بتشييد مبنى صغير ملاصق لبيته وطلب مني أن أعتبره منزلي في بالتستان. وتولى تواها مهام الديكور بنفسه بواسطة قصاصات ملونة من أنسجة مختلفة، وفرش الأرض بالبطانيات والوسائد، وغطى الجدران بالصور الفوتوغرافية لأسفاري المتنوعة إلى كورف، فأصبح المكان مزيجاً من ناد للرجال وقاعة الاجتماعات غير الرسمية في قرية كورف.

عندما جلس فيداركو لتناول كوب الشاي الذي قُدم إليه، كان مجلس القرية على وشك الانعقاد. "كان الناس مبتهجين لعودة جريغ إلى درجة أنهم تسللوا إلى الغرفة وتحلقوا حولنا ونحن نائمون. وعندما دسّوا في يد كل واحد منا كوباً من الشاي، كان الاجتماع قد أصبح في أوجه. كلهم يضحكون ويتصايحون ويتجادلون وكأننا صحونا من النوم منذ ساعات"

يقول مورتنسون: "كلما ذهبت إلى كورف أو أية قرية أخرى نعمل فيها، كنت أمضي بضعة أيام مع مجلس القرية، وكنت أجد دائماً الكثير من الأمور المعلقة التي تنتظر الحلول. فهناك التقارير حول وضع المدرسة وما تحتاجه من أعمال صيانة، وإنا كان الطلاب بحاجة إلى لوازم مدرسية وهل يستلم المدرسون رواتبهم بانتظام.ولا يخلو الأمر في معظم الأحيان من مطالب أخرى، مثل آلة خياطة إضافية لمركز النساء المهني، أو بضعة أنابيب يحتاجها مشروع المياه. أشياء من هذا القبيل والعمل المعتاد".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكن الشيء الذي حدث عند ذلك الصباح في القرية الأخيرة من وادي برالدو لم يكن مطلقاً كالمعتاد. فقد اندفعت إلى داخل الغرفة شابة جميلة معتدّة بنفسها، وخطت من فوق حلقة الرجال الثلاثين الجالسين وأرجلهم متصالبة فوق الحشايا يحتسون الشاي، واقتربت من الرجل الذي بنى مدرسة لقرية كورف. اتخذت جيهان بجراة مجلساً لها أمام مورتنسون وقاطعت الاجتماع المرح لزعماء قريتها.

وبنبرة ثابتة خاطبت مورتنسون بالبلطية قائلة: "دكتور جريغ، كنت قد وعدت قريتنا ذات مرة ووفيت بوعدك حين بنيت لنا المدرسة، لكنك أعطيت لي وعداً آخر يوم اكتملت المدرسة، أتذكره؟".

وابتسم مورتنسون. ففي كل مرة زار فيها إحدى مدارس مؤسسة آسيا الوسطى، كان يخصص جزءاً من وقته لسؤال الطلاب جميعهم عن أمورهم الشخصية وطموحاتهم المستقبلية، خصوصاً الفتيات في البدء كان مرافقوه من زعماء القرى يهزون رؤوسهم عجباً من هذا الرجل الناضج الذي يهدر ساعات من وقته ليستفسر عن آمال وأحلام الفتيات. أما فيما بعد فقد عزوا السبب إلى غرابة أطوار مورتنسون. وصاروا يستسلمون لانتظاره ريثما ينتهي من مصافحة كل تلميذ على حدة وسماع ردودهم عما يريدون أن يكونوا عليه في المستقبل وأيضاً سماع وعوده بأنه مستعد لمساعدتهم شريطة أن يكونوا مجتهدين في دراستهم، جيهان كانت من أفضل تلامذة مدرسة كورف، وواحدة من اللواتي أصغى إليهن مورتنسون باهتمام وهي تتحدث عن آمالها في مهنة المستقبل.

ومن قلب تلك الحلقة الذاخرة بالذكورة تابعت جيهان حديثها "أخبرتك حينها بأن حلمي هو أن أصبح طبيبة ذات يوم وقلت بأنك ستساعدني، وذلك اليوم قد حل وعليك أن تفي بما وعدتني به. إنني جاهزة لبدء دراستي في الطب وأحتاج إلى مبلغ قدره عشرون ألف روبيه".

فضّت جيهان قطعة من الورق عليها عريضة دونتها بلغة إنكليزية سليمة وضمنتها تفاصيل الفصل الدراسي في حقل الطب النسائي الذي تعتزم الالتحاق به في سكاردو، وما أثار إعجاب مورتنسون هو الدّقة التي حددت بها الرسوم المترتبة وتكلفة لوازم الدراسة.

أجابها مورتنسون: "عظيم يا جيهان، سأقرأ هذه الورقة عندما أجد وقتاً وسأناقشها مع أبيك".

فصاحت بنبرة باترة: "لا! "بالانكليزية ثم عادت إلى البلطية كي يكون كلامها واضحاً ولا لبس فيه: "أرجوك، افهمني. الدراسة ستبدأ الأسبوع القادم وأنا بحاجة للمال الآن!".

تهللت أسارير مورتنسون أمام عزيمة الفتاة. من الواضح أن الخريجة الأولى في أول صفّ من أول مدرسة بناها قد أتقنت الدرس الذي كان يأمل أن تستوعبه تلميذاته الإناث في النهاية: "لا تتخذن المقاعد الواقعة خلف الرجال" طلب مورتنسون من آبو محفظة الروبيات التي يحملها ملفوفة بقماط أطفال وردي للتمويه وأخذ منها عشرين ألف روبيه، أي ما يعادل أربعة آلاف دولار وناولها لوالد جيهان ليسدد بها رسوم تعليم ابنته.

يقول فيداركو: "كان ذلك أعجب مشهد رأيته في حياتي، بنية في سن المراهقة تأتي من قلب قرية إسلامية محافظة وتخترق مجلساً للرجال لتخرق تراكمات التقاليد الثقيلة بضربة واحدة، فقد تخرجت من المدرسة وأصبحت أول أنثى متعلمة في الوادي الذي يضم ثلاثة آلاف شخص. لم توقّر أحداً بل جلست أمام جريغ مباشرة ووضعت بين يديه خلاصة المعرفة المتمردة التي اكتسبتها – التماس باللغة الإنكليزية سيفتح أمامها السبل لترفع من شأن نفسها وشأن قريتها المعيشية.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

في تلك اللحظة، ولأول مرة خلال عملي صحفياً منذ تسعة عشر عاماً، فقدت كل الموضوعية وقلت لجريغ: "ما تفعله هنا يشكل قصة أهم بكثير من تلك التي جئت لأكتبها وعليّ أن أجد طريقة كي أقدمها للعالم الخارجي".

في وقت لاحق في ذلك الخريف. كان فيداركو في طريق العودة إلى منزله من أجل قضاء فترة نقاهة ليتعافى من آثار الحياة في المرتفعات الشاهقة لمدة شهرين بين الجنود الباكستانيين والهنود. فتوقف في مدينة نيويورك وتناول وجبة الغداء مع صديقه لامار جراهام، الذي كان آنذاك مدير التحرير في مجلة Parade. سألني لامار عما كنت أنوي كتابته عن الحرب، فوجدت نفسي أمطره بكل تفصيل شاهدته وفعلته أثناء تواجدي مع مورتنسون.

ويقول لامار: "كانت إحدى أعجب القصص التي سمعتها في حياتي. وقلت لكيفن: إن كان نصف ما أخبرتني به فقط حقيقياً، فهو جدير بأن ننشره على صفحات Parade.

في صباح اليوم التالي، رنّ الهاتف الأرضي في قبو مورتنسون، وأتاه صوت جراهام بلكنة سكان ميسوري الممطوطة يتساءل: "يا رجل! هل أنت حقيقي؟ هل قمت فعلاً بالأشياء التي أخبرني عنها كيفن كلها؟ وفي الباكستان؟ ووحدك؟ لأنك إن فعلت، فأنت مثلي الأعلى".

إحراج مورتنسون لم يكن يتطلب أكثر من ذلك. أجاب ببطء، وهو يشعر بالدماء الحارة تتصاعد إلى وجنتيه: "أظن ذلك لكنني تلقيت الكثير من العون"

في يوم الأحد الواقع في السادس من شهر نيسان، حين كانت القوات البرية الأميركية تحتشد عند أطراف مدينة بغداد ويتخذون مواقعهم تحت وابل الرصاص استعداداً لهجومهم الأخير على عاصمة

صدام حسين، قامت مجلة بإصدار 34 مليون نسخة تحمل أغلفتها صورة مورتنسون وعنواناً عريضاً يعلن بأنه "يحارب الإرهاب بواسطة الكتب" اكتسح صحف الأمة.

لم يتمكن مورتنسون من الوصول إلى هذه الأعداد من الناس، خصوصاً في وقت حرج كهذا. الرسالة التي ناضل لكي يقرأها عامة الناس منذ ذلك الصباح عندما أيقظوه من النوم في زودخان ليسمع أخبار التفجيرات في نيويورك قد وصلت أخيراً.

استهل فيداركو قصته بالحديث عن اقتحام جيهان لدائرة الرجال في كورف، ثم ربط عمل مورتنسون في ذلك الجانب من العالم بالصالح العام للأميركيين داخل أميركا كما تحدث مورتنسون إلى القرّاء على صفحات Parade قائلاً: "إن حاولنا أن نقضي على الإرهاب بالقوة العسكرية فقط، فلن نصبح أكثر أماناً مما كنا عليه قبل الحادي عشر من أيلول، وإن كنا حقاً نرغب بأن نترك لأولادنا إرثاً من السلام، فعلينا أن ندرك أن هذه حرب ستحقق لنا انتصاراً ساحقاً ليس بواسطة القنابل، بل بواسطة الكتب".

رسالة مورتنسون أصابت وتراً حساساً لدى أمة منقسمة على نفسها لأنها عرضت وسيلة أخرى للتعامل مع الحرب على الإرهاب، وعلى إثرها انهالت على المجلة أكثر من ثماني عشرة ألف رسالة بريدية والكترونية قادمة من خمسين ولاية وعشرين دولة أجنبية.

ويقول لي كرافيتز، رئيس تحرير مجلة Parade: "الاستجابة التي أثارتها حكاية مورتنسون لدى القراء كانت الأقوى من نوعها خلال عمر المجلة البالغ أربعة وستين عاماً. وقد يكون السبب أن الأميركيين يرون فيه بطلاً أميركياً حقيقياً. يخوض جريغ مورتنسون حربه الشخصية على الإرهاب الذي يلحق الأذى بنا جميعاً، وسلاحه ليس البنادق أو القنابل، بل المدارس. كيف يمكن لحكاية أن تكون أفضل من ذلك؟".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

القراء الأميركيون اتفقوا، ففي كل يوم ولمدة أسابيع بعد ظهور المقالة كان سيل الرسائل الإلكترونية والبريدية والاتصالات الهاتفية المؤيدة يزداد باطراد، حتى بات يشكل تهديداً للإمكانات الإلكترونية المتواضعة لتلك المنظومة الخيرية الصغيرة التي تدار من خلال قبو يقع في مونتانا.

طلب مورتنسون المساعدة من آن بييرزدورفر، صديقة العائلة من الديمقراطيين الأحرار التي تتقن فن التعامل مع الواقع، والتي أصبحت فيما بعد المستشارة الإعلامية في حملة ترشيح أرنولد شوارزّينجر الناجحة كحاكم لكاليفورنيا. طارت بييرزدورفر من العاصمة واشنطن وأعدت قبو مورتنسون بحيث أصبح جاهزاً لحالة الاستنفار واستأجرت مركزاً هاتفياً في أوماها لتلقي المكالمات الهاتفية وزادت من وتيرة استقبال الموقع الإلكتروني لمؤسسة آسيا الوسطى للتعامل مع ازدحام الرسائل الواردة الذي كاد أن يتسبب في حجبه.

في يوم الثلاثاء الذي تلا نشر حكايته، ذهب مورتنسون لإحضار البريد الوارد إلى صندوق مؤسسة آسيا الوسطى البريدي رقم 7209 فوجد ثمانين رسالة محشورة داخله. وعندما عاد مورتنسون يوم الخميس وجد أقصوصة ورقية ملصقة داخل الصندوق تطلب منه أن يستلم بريده عند الطاولة. "أنت إذا جريغ مورتنسون" قال مدير البريد، "آمل أن تكون معك عربة" كدّس مورتنسون خمسة أكياس خيش من الرسائل داخل سيارته وعاد في اليوم التالي وحمل أربعة أخرى إلى منزله. وخلال الأشهر الثلاثة التالية، أجبرت الرسائل الواردة من قراء Parade عمال البريد في بوزمان على العمل فوق طاقتهم. في الوقت الذي كانت فيه صور تماثيل صدام حسين وهو يهوي تكتسح العالم. كان مورتنسون قد أدرك أن حياته تغيرت للأبد ـ الدعم الساحق لم يترك له خياراً سوى أن يتعايش مع صيته الوطني

الذائع. يقول مورتنسون: "شعرت بأن الأميركيين قالوا كلمتهم. قبيلتي قالت كلمتها. لكن العجيب في الأمر هو أنني لم أجد في أكوام الرسائل تلك التي قرأتها جميعاً سوى رسالة سلبية واحدة"

الاستجابة كانت ساحقة إلى درجة أن اندملت معها الجراح التي تسببت بها التهديدات بالقتل التي وردته بعد الحادي عشر من أيلول مباشرة "ما اثر بي حقاً هو أن الذين استجابوا كانوا من شتى أنواع الناس، من مجموعات كنسية، ومسلمين، وهندوس، ويهود، كما تلقيت رسائل تشجيع من منظمة سياسية للسحاقيات في مقاطعة مارلين، ومجموعة للشباب المعمدانيين في آلاباما، وجنرال في القوى الجوية الأميركية، ومن المجموعات الأخرى كلها التي يمكن لك أن تتخيلها".

صبي في الثالثة عشرة من عمره من ضواحي فيلاديلفيا يدعى جيك جرلينبرغ، ثارت حميته عندما قرأ عما يفعله مورتنسون، فتبرع بأكثر من ألف دولار من (Bar mitzvah)*طقس احتفالي في الديانة اليهودية للذكور بمناسبة بلوغهم سن الرشد ـ للمؤسسة وتطوع بأن يحضر إلى الباكستان ويقدم العون بنفسه. "عندما عرفت حكاية مورتنسون، لاحظت أن الأطفال في العالم الإسلامي قد لا يحظون بفرص التعليم التي كنت أتمتع أنا بها. ولا أرى ضيراً في أن يقوم يهودي مثلي بإرسال المال لمساعدة المسلمين، لأنه علينا جميعاً أن نتكاتف لزرع بذور السلام"

سيدة عرفت عن نفسها باسم صوفيا فقط، وجهت رسالة إلكترونية إلى عنوان المؤسسة قالت فيها: "أنا امرأة مسلمة غمرني الله تعالى بأفضاله لأنني ولدت في أميركا على نقيض أخواتي في أنحاء العالم اللواتي يعانين من القمع. على الحكومات العربية أن تنظر إلى إنجازك الهائل وتتمرغ بالعار لأنها لم تمدّ أبداً يد العون لشعوبها.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

مع خالص الاحترام والتقدير، لك جزيل شكري".

وانهالت رسائل من مجندين ومجندات أميركيين، صنفوا مورتنسون على أنه رفيق السلاح المتواجد على الخطوط الأمامية للمعركة ضد الإرهاب. وكتب إليه جاسون نيكلسون من شمال كارولينا قائلاً: "بصفتي ضابطاً في الجيش الأميركي ومحارباً قديماً داخل أفغانستان، فقد سنحت لي تلك الفرصة النادرة بان أعرف عن كثب معايير الحياة كما هي في البقاع القروية من آسيا الوسطى. الحرب في أفغانستان كانت، وما تزال، دموية ومدمرة يصب معظم جامها على رؤوس من لا ذنب لهم فيها، المدنيين الأبرياء الذين لا يريدون سوى أن يكسبوا رزقهم ويعيشوا حياة لائقة مع أسرهم. تقوم مشاريع مؤسسة آسيا الوسطى على تأمين البديل السليم لمناهج التعليم القائمة في العديد من المدارس المتطرفة التي انطلقت منها حركة طالبان لترفع شعار مايسمى (بالإسلام الأصولي). هل هناك أفضل من بناء مستقبل للعالم سيحقق الأمان لنا جميعاً لأنه قام على أسس التعليم؟ إن مؤسسة آسيا الوسطى هي صفوة المشاريع الإنسانية بالنسبة لي" وكان الآلاف من الناس يشاركونه الشعور نفسه حين وطدت القوات الأميركية أقدامها فوق أرض العراق استعداداً لاحتلال طويل الأمد، وأنهت بييرزدورفر حالة الاستنفار وعادت إلى منزلها. كانت مؤسسة آسيا الوسطى قد انتقلت من حالة التأرجح على حافة الإفلاس إلى حيازة حساب مصرفي يفوق مليون دولار.

"كان قد مضى زمن طويل لم تمتلك فيه المؤسسة رصيداً جديراً بالذكر، فأردت أن أعود إلى هناك على الفور كي أباشر في تشغيلها، لكن مجلس الإدارة ضغط علي كي أضع موضع التنفيذ بعض التعديلات التي بحثناها منذ سنوات، ووافقتهم بدوري لأن الظرف صار مناسباً".

بتكلفة قدرها ستمئة دولار استأجر مورتنسون مكتباً صغيراً يكسوه الخشب من الداخل في مبنى متواضع قريب من شارع بوزمان الرئيسي، ووظف أربعة مستخدمين مهمتهم أن ينظموا مواعيد خطاباته، ويصدروا نشرة دورية ويؤسسوا موقعاً إلكترونياً ويقوموا بإعداد قوائم البيانات المتعلقة بمتبرعي المؤسسة المتزايدة أعدادهم. وبناء على إصرار مجلس الإدارة وبعد عقد من الزمن قضاه يعيش على راتبه من شهر إلى شهر، قبل مورتنسون الزيادة المستحقة منذ أمد طويل والتي ضاعفت مدخوله.

تارا بيشوب كانت ممتنة لأن راتب زوجها قد جعلها أخيراً قادرة على الخلاص من شظف العيش الذي عانت منه أسرتها طوال عقد من الزمن لكنها لم تكن سعيدة أبداً بالغياب الطويل لزوجها الذي سيبدأ الآن وهو يقترح مشاريع طموحة جديدة جعلتها نقود Parade ممكنة التحقيق.

وتقول تارا: "بعد اختطاف جريغ والحادي عشر من أيلول توقفت عن محاولة إقناعه بعدم العودة إلى هناك لأنني أعرف أنه سيذهب مهما كلف الأمر. ودربت نفسي على عيش الحالة التي أسميها (التجاهل الموظّف) عندما يكون غائباً.وأكرر لنفسي بأنه سيكون بخير لأنني أثق بالأشخاص الذين يحيطون به، وأثق بفهمه لثقافتهم بعد تلك المدة الطويلة التي أمضاها هناك. ومع ذلك، فأنا أعرف أن ضربة واحدة يسددها أصولي واحد تستطيع أن ترديه قتيلاً" ثم تضيف وهي تصطنع الضحك: "لكني لا أسمح لنفسي بالتفكير بذلك أثناء غيابه".

كريستيان ليتنغر، زوجة تشارلي شيمناسكي متسلق الجبال الذي يتنبأ بأن مورتنسون سيفوز بجائزة نوبل يوماً ما، تؤكد أن جَلَدَ تارا بيشوب ليس بأقل بطولة من المخاطر التي يخوضها زوجها بملء إرادته عبر القارات. "كم يبلغ عدد النساء اللواتي يمتلكن القوة والرؤيا


https://telegram.me/maktabatbaghdad

للسماح لآباء أولادهن بالعمل في مناطق محفوفة بالأخطار لمدة أشهر طويلة متواصلة؟" تتساءل ليتنغر "وتارا لا تسمح بذلك فحسب بل وتدعمه أيضاً لأن لديها إيماناً عميقاً برسالة مورتنسون. إن لم تكن تلك بطولة، فماذا يمكن أن تكون؟ "

سليمان هو أول من تلقى النبأ السار في الباكستان. كانا يمران قرب النموذج المماثل للجبل الذي فجرت فيه الباكستان (قنبلتها الإسلامية) عندما أخبر مورتنسون صديقه وحلال مشكلاته عن سيل دعم الأميركيين الذي غمر مؤسسة آسيا الوسطى.و كان مورتنسون قد عقد العزم على أن يخصص حصة من خيرات ذلك الطالع للقوى البشرية التي عملت إلى جانبه في الباكستان لساعات طوال دون التفكير في الفوائد الشخصية التي تتأتى عادة من العمل مع الأجانب.

أخبره مورتنسون أن راتبه سوف يتضاعف على الفور من ثماني مئة دولار إلى ألف وستمئة دولار في العام الواحد، وهو مبلغ يكفي ويزيد كي يحقق سليمان الحلم الذي كان يقتصد في سبيله، وهو أن يرحل بأسرته عن قريتهم دهوك لونا إلى راولبندي ويرسل ابنه عمران إلى مدرسة خاصة. أزاح سليمان عينيه عن الطريق لوهلة واختلس نظرة إلى وجه مورتنسون وهو يهز رأسه بسرور.

على مر السنوات التي عمل خلالها الرجلان مع بعضهما، كان كلاهما قد ازداد وزناً، وغزا الشيب شعر سليمان.لكنه أصبح الآن مسلّحا براتب عال، وبخلاف مورتنسون لن يدع الزمن يفعل فعلته دون مقاومة.

قاد سليمان السيارة إلى جينا سوبرماركت ، وهو مركز تسوق بذخ، ودخل إلى محل مزين للرجال واختار الخدمة التي يقدمها أعلى سعر في لائحته. وعندما خرج بعد ساعتين ووجد مورتنسون يستعرض الكتب داخل مكتبته المفضلة، كانت خصلة الشعر الرمادية الكثيفة المتهدلة فوق وجهه المتهلل قد اصطبغت بلون برتقالي فاقع.

وفي سكاردو دعا مورتنسون إلى الاجتماع في غرفة الطعام العلوية في فندق ليعلن النبأ السار. جمع موظفيه حول طاولتين، وأعلن أن كلاً من آبو وحسين وفيصل سيتلقون الزيادة التي يستحقونها منذ سنوات، وأن رواتبهم ستتضاعف من خمسمئة دولار إلى ألف دولار في العام. أما بارفي الذي يصل راتبه إلى ألفي دولار سنويا بصفته مدير مؤسسة آسيا الوسطى في الباكستان، فقد أصبح راتبه أربعة آلاف دولاروهو مبلغ يعتبر ضخماً في سكاردو لكن ذلك الرجل الذي جعل من مشاريع مؤسسة آسيا الوسطى في الباكستان قابلة للتحقيق قد استحقه عن جدارة.

وسلّم مورتنسون إلى حسين مبلغ خمسمئة دولار إضافية كي يجري فحصاً دقيقاً لمحرك سيارته الجيب المتهالكة الذي أثقلوا عليه كثيراً، في حين اقترح بارفي أن الإمكانيات المادية باتت تسمح باستئجار مستودع في سكاردو يودعون فيه الإسمنت ومواد البناء التي يمكن شراؤها بأسعار الجملة وتخزينها لحين اللزوم.

لم يشعر مورتنسون بذلك الحماس والتوق إلى العمل منذ أول مرة جمع فيها موظفيه حول الطاولة الخشبية الطويلة في بهو الفندق قبل ست سنوات فطلب منهم أن ينفقوا المال الذي جاء من قرّاء Parade بالهمّة نفسها التي بنوا فيها المدارس. وقبل أن يغادر البلدة ليقوم بسلسلة من الرحلات في سيارة الجيب والحوّامة كي يباشر العمل على بناء العشرات من المدارس الجديدة ومراكز النساء المهنية ومشاريع جرّ المياه، قدم مورتنسون اقتراحاً لمشروع جديد: "منذ مدة وأنا قلق حول مصير طلابنا بعد أن يتخرجوا من المدارس. سيد بارفي، هل لك أن تنظر في تكلفة بناء نزل شبابي في سكاردو كي يكون مسكناً لطلابنا المتفوقين الذين قد نتمكن من تقديم منح دراسية لهم ليتابعوا تعليمهم؟".


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ابتسم بارفي وقد وجد نفسه أخيراً حر التصرف لتنظيم المشروع الذي كان ينادي به منذ سنوات وأجاب: "سيكون ذلك من دواعي سروري ياسيدي الدكتور".

"وهناك شيء آخر".

"ما هو يا سيدي؟".

"ستكون ياسمين المرشحة المثالية لنيل أول المنح الدراسية التي ستقدمها المؤسسة. هل يمكن أن تطلعني على الأقساط التي ستترتب علينا إن أرسلناها إلى مدرسة ثانوية خاصة الخريف القادم؟".

ياسمين ذات السنوات الخمس عشرة كانت ابنة بارفي، وهي طالبة متفوقة بامتياز، من الواضح أنها ورثت عن أبيها ذكاءه الحاد ودأبه العنيد. "ما قولك؟".

غلام بارفي الشهير بطلاقة لسانه الذي لا يجاريه أحد في سكاردو بدا لوهلة طويلة وكأنما أصابه البكم وقد فغر فاه من وقع المفاجأة: "لا... أنا لا أعرف ماذا أقول!".

رفع آبو ذراعيه نحو الأعلى وصاح جذلاً: "الله أكبر" وانفجر كل من حوله بالضحك. وبصوت أجش تقاطعه القهقهات، تابع قائلاً: "منذ متى، منذ متى، وأنا أنتظر... هذا اليوم".

خلال صيف عام 2003 أقبل مورتنسون على العمل بنشاط محموم، وكاد محرك سيارته الجيب يخرج عن طوره من جديد، رغم إصلاحه، وهو يحمله مع فريق عمل شدّت زيادة الرواتب من عزيمته. قاموا بتفقد المواقع الجديدة كلها كلاً على حدة كي يزيلوا العوائق من طريق عمليات البناء التي جعلتها نقود Parade أمراً واقعاً ويزودها بما يلزم، وكانت تسع مدارس جديدة في شمال الباكستان يسير العمل عليها بسلاسة.بيد أن واحدة من مشاريع المؤسسة الجهازة وهي

مدرسة هالده التي عمل الكهل مظفر على جلبها إلى قريته تتعرض لبعض العراقيل. لقد كانت أمور تلك المدرسة ذات الغرف الخمس قد بدأت تعمل بشكل حسن فتم تسليم إدارتها إلى السلطات المحلية التي تتزايد فاعليتها باطراد.

إلا أن يعقوب الحمال الذي أصبح الآن في خريف العمر كجاره مظفر اختلق أزمة. بما أن أيامه في أعالي الجبال قد ولّت إلى غير رجعة، فقد رغب يعقوب بأن يتولى وظيفة حارس المدرسة وقدم التماساً بذلك إلى الحكومة. وعندما لم يتلق أي رد، أوصد أبواب المدرسة بالأغلال وطالب بتعويض مالي.

وبعد يوم من وصول ذلك النبأ إليه في سكاردو، وصل مورتنسون بسيارته الجيب معفراً بالغبار، وبادي الإرهاق بعد رحلة الساعات الثماني. ولكن سرعان ما تهللت أساريره لخاطرة مفاجئة، فمد يده تحت مقعد سائقه حسين.

وجد يعقوب يقف متململاً عند بوابة مدرسة هولده المغلولة بقفل ثقيل يحيط به حشد من أهل القرية. ابتسم مورتنسون في وجهه وربت على كتفه بيده اليمنى بينما كانت اليسرى تحمل اصبعي ديناميت. وبعد أن تبادلا التحيات والسؤال عن أحوال الأهل والأصدقاء، وجه يعقوب السؤال الذي لا بد منه بصوت واجف: "ما هذا يا سيدي دكتور جريغ؟".

ناوله مورتنسون إصبعي الديناميت وهو ما يزال على ابتسامته، محدثاً نفسه بأنه يمكن للمتفجرات أن تزيل عقبات أشد وعورة من طريق تعرقله الصخور. ضغط مورتنسون الديناميت في كف يعقوب المرتعشة وأجابه بالبلطية: "أريدك أن تأخذهما.علي أن أغادر إلى خاندي على الفور كي أتفقد سير العمل في مدرسة أخرى وعندما


https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعود غداً سأحضر معي عيدان ثقاب. وإن لم أجد أن المدرسة قد فتحت أبوابها والطلاب عادوا إلى صفوفهم، فسوف نادي من مسجد القرية ونطلب من الجميع الحضور إلى هنا كي يروك بأم أعينهم وأنت تفجّر المدرسة".

أدار مورتنسون ظهره ليعقوب الذي حمل الديناميت بيديه المرتعشتين وعاد إلى الجيب. ثم استدار نحوه من فوق كتفه وقال له: "الخيار يعود إليك.أراك غداً، في رعاية الله".

عاد مورتنسون بعد ظهيرة اليوم التالي ووزع أقلام رصاص وكراسات جديدة على طلاب هولده الذين عادوا ظافرين إلى مقاعد الدراسة. أما صديقه القديم مظفر الذي لم تنل منه الشيخوخة إلى درجة العجز عن فرض كلمته عندما يتعلق الأمر بالمدرسة التي ساهم في تأسيسها، ويذهب حفيداه إليها، فقد نقل آبو إلى مورتنسون كيف عرض بدوره خياراً آخر على يعقوب "أحضر مفاتيحك وافتح أبواب المدرسة، وإلا فسأتولى بنفسي مهمة ربطك إلى شجرة ونسفك بديناميت الدكتور جريغ" كما سمع مورتنسون فيما بعد أن مجلس قرية هولده قد أنزل العقوبة بيعقوب إذ فرضوا عليه أن يكنس المدرسة صباح كل يوم دون مقابل.

إلا أن تجاوز العقبات الموضوعة أمام التعليم في شمال الباكستان لم يكن دائماً بذلك اليسر. كم كان مورتنسون يتمنى لو أعطى الديناميت والخيار لآغا مبارك، لكنه كظم تلك الرغبة وعمل بنصيحة بارفي وظلّ يراقب من بعيد سير القضية ضد الإمام لتدميره مدرسة هيماسيل في المحكمة الشرعية.

فمن بعد كورف، لم يوجد مشروع لمؤسسة آسيا الوسطى أقرب إلى قلب مورتنسون من مدرسة هيماسيل. في عام 1998، قتل نيد جيليت

متسلق الجبال الأميركي والمتزلج الأولمبي السابق، أثناء تجواله في وادي هاراموش، الواقع بين هيماسيل وهونزا ترافقه زوجته سوزان، والتفاصيل المتعلقة بطريقة موته مازالت موضع جدل في أوساط السلطات الباكستانية. لكن الرواية التي استخلصها مورتنسون بعد أن تحدث إلى أهالي قرية هاراموش كانت على الشكل الآتي: جاء حمالان إلى جيليت وزوجته وألحا عليهما كي يعملا لديهما. لكن جيليت الذي اعتاد على أن يتحرك على الطريقة الألبية أي بأحمال خفيفة الوزن، رفض ذلك بشكل قاطع لم يرق للحمالين.فعادا في وقت متأخر من تلك الليلة وهما يحملان بندقية ودخلا الخيمة التي ينام داخلها الزوجان.

ويقول مورتنسون: "أخمن أن هدفهما كان السرقة فحسب، الاستيلاء على كل شيء يرد لهما اعتبارهما المهان باعتقادهما. لكن الأمور خرجت عن السيطرة فقتل جيليت بطلقة في بطنه. أما سوزان التي تسبب خردق بجرح بالغ في فخذها فقد نجت من الموت. ووفقاً لمعلوماتي، فإن جيليت هو الشخص الغربي الوحيد الذي تعرض للقتل على يد أحدهم في شمال الباكستان. وعندما اتصلت بي شقيقته (ديبي لو)وعرضت علي المال لتأسيس مدرسة تكريماً لروح أخيها، سارعت إلى التنفيذ، لأنه لا يمكن أن أتصور إجلالاً أعمق من ذلك"

لكن الموقع الذي اختاره شيوخ شيجار فالي لبناء مدرسة جيليت لم تكن قريبة من المعبر الذي قتل فيه فحسب، بل وملاصقاً لشوتران وهي قرية الإمام آغا مبارك "بعد أن انتهينا من بناء الجدران وكان رجال قريتنا على وشك وضع السقف فوقها، جاء آغا مبارك ورجاله لإيقاف المشروع" يقول مهدي علي، زعيم القرية الذي أشرف على سير عملية البناء في مدرسة هيماسيل والداعية لعملية التعليم والذي كان والده الشيخ محمد قد وجه رسالة إلى إيران يطالب فيها بالبت في الفتوى الأولى التي صدرت بحق مورتنسون.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

"قال لنا مبارك أنه لا صلاح في مدرسة الكفر هذه وأنها تعود لرجل غير مسلم وهدفها هو الترويج للديانة المسيحية. قلت له: أنا أعرف جريغ مورتنسون منذ مدة طويلة ولن يفعل أبداً شيئاً كهذا. لكنه صم أذنيه وعاد رجاله بعد منتصف الليل مع فؤوسهم وحاولوا أن يهدموا مستقبل أطفالنا".

كان مهدي وبارفي يتقدمان كشهود لصالح مورتنسون في القضية الدائرة داخل المحكمة الشرعية خلال فصلي الربيع والصيف ويدليان بإفادتهما. ويقول مهدي: "أخبرت الفقيه رئيس المحكمة أن آغا مبارك يسلب الناس أموالهم وبأنه لا يؤتي الزكاة لأولادنا أبداً. وقلت له أيضاً بأن آغا مبارك لا يملك السلطة التي تخوله إصدار فتوى بحق رجال طاهرين كالأولياء من أمثال دكتور جريغ وأنه هو، آغا مبارك الذي يجب أن يحاسب أمام الله".

وفي شهر آب من عام 2003، أصدرت المحكمة الشرعية قرارها الأخير الذي وقف بشكل قاطع إلى جانب مهدي علي وموزتنسون وقد حكمت المحكمة بأن فتوى آغا مبارك باطلة وألزمته بتسديد ما قيمته ثماني مئة حجر بناء قام رجاله بتكسيرها.

يقول مورتنسون: "ذلك الفوز أشعرني بالخجل فها هي محكمة إسلامية في قلب الباكستان الشيعية المتزمتة تقدم الحماية لرجل أميركي، في حين تحتجز أميركا رجالاً مسلمين بدون محاكمة في سجن غوانتانامو في كوبا لسنوات طويلة، تحت شعار مايسمى بنظام العدالة لدينا".

بعد سنوات عشر من الكدح، شعر مورتنسون أخيراً بأن وريقات أشجار الشاي في الباكستان تتراقص حوله جذلاً كيفما اتجه. وفي ذلك الصيف كسب مورتنسون حليفاً جديداً قوياً في شخص محمد فريد

خان الذي عُين أميناً عاماً للمناطق الشمالية. خان الذي يتحدر من قبيلة الوزيريين في ميرام شاه، استلم منصبه الجديد عازماً على شنّ الحرب ضد الفقر المستوطن في الشمال بكل العناد المتوارث الذي يجري في عروق أبناء قبيلته.

وفي لقاء معه تناولا خلاله السمك وسندويشات الخيار مع الشاي في مقر عمله الكائن داخل فيلا في جيلجيت ومن مخلفات الاستعمار البريطاني في القرن التاسع عشر سأله خان المشورة عن الوجهة الصالحة لإنفاق الأموال التي بدأت أخيراً تتدفق إلى الشمال من قبل حكومة مشرّف في إسلام آباد. ولكي يثبت تأييده لتعليم الإناث، تعهد بأن يرافق مورتنسون ليدشن شخصياً مدرسة نيد جيليت التي كان ضباطه قد تأكدوا من إعادة بنائها.

شخصية أخرى ذات نفوذ وهو الكولونيل فانجو، أراد أن يبدي تأييده هو الآخر ولكن بطريقة مبتكرة. الكولونيل فانجو كان قائد مروحية الرئيس مشرّف الشخصية قبل أن يحال إلى التقاعد لينضم إلى الأسطول المدني الذي يملكه الجنرال بشير. ويحلول صيف عام 2003، تطوع بأن يكون له شرف نقل مورتنسون إلى مشاريعه في المناطق النائية على متن مروحيته الهرمة. كان الجنرال ما يزال يرتدي بزّة الطيار الحربي، إلا أنه استبدل حذاء رياضياً ذا لون أزرق زاه بالجزمة العسكريّة، لأنه كما قال يساعده على التحكم بالدواسات بشكل أفضل.

كان فانجو يطير فوق وادي شيجار برفقة مورتنسون في طريق عودتهما من قرية نائية إلى سكاردو واستشاط غضباً عندما أشار مورتنسون إلى أنقاش مدرسة هيماسيل وأخبره عن العداوة التي كانت بينه وبين آغا مبارك وأدت إلى هذه الواقعة المؤلمة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

زاد فانجو من سرعة الطائرة وهو يقول لمورتنسون: "دلني على منزل ذلك السيد" وعندما أشار مورتنسون إلى مجمع البناء ذي الأسوار العالية الذي يسكنه مبارك والذي لا يمكن لإمام قرية متواضعة أن يتحمل تكلفته. زم فانجو شفتيه بحزم من أسفل شاربه المشذب ودفع بعصا التحكم إلى الأمام وانقض بالمروحية على منزل مبارك.

تدافع الناس الذين كانوا على الأسطحة هاربين بينما دار فانجو من فوق المجمع عدة مرات كدبّور ناقم يناور استعداداً للسع، مخلفاً وراءه عاصفة من الغبار في كل مرة. اتجه إبهامه بصورة عفوية نحو الزر الأحمر الذي كتبت عليه كلمة (قذيفة) ثم استدار عائداً باتجاه سكاردو وهو يدمدم: "من المؤسف أننا لسنا مسلحين. ومع ذلك فلا بد أن ما فعلناه سيثير فيه ما يكفي من الذعر".

بعد ستة أشهر من ذلك، كانت الأزرار الحمراء مربوطة إلى أسلحة حقيقية عندما قام سرب يتألف من خمس عشرة مروحية بالتحليق فوق الجهة الغربية لوادي داريل، حيث تقع أوكار حركة طالبان وتنظيم القاعدة في مطاردة لأولئك المتطرفين الذين قاموا بتفجير ثماني مدارس حكومية للإناث، وشعر مورتنسون عندها بالتقدير لشخص مشرّف.ممتناً لجاهزية الحكومة الباكستانية للقتال في سبيل تعليم بناتهم.

في خريف عام 2003 وداخل مكتبه في شركة الطيران التي يملكها في راولبندي وضع الكولونيل بشري باز، رئيس فانجو هيكله الأشبه بالثور وراء مكتبه يبحث عن رحلة مناسبة تقل مورتنسون إلى أفغانستان بعد أن رسخت مشاريع مؤسسة آسيا الوسطى أقدامها في الباكستان وبات قادراً على المغادرة. وخلال ذلك كان الكولونيل بشير يفكر ملياً بضرورة حصول أطفال الباكستان جميعهم على حقهم في

التعليم والتقدم الذي تحرزه أميركا في حربها ضد الإرهاب "أتعلم يا جريغ، عليّ أن أتوجه بالشكر لرئيسكم، لقد خصص الأموال اللازمة للقضاء على ذلك الكابوس الذي كان يتفاقم على حدودنا الغربية لكنني غير قادر على أن أضمن الأسباب فالمستفيد الوحيد من المعادلة برمتها هي الباكستان".

قطع بشير حديثه ليشاهد بثاً مباشراً لشبكة CNN من بغداد عبر نافذة الفيديو الصغيرة المتموضعة بين بيانات الرحلات المندرجة على شاشة حاسوبه وراح يراقب بوجوم صور الأمهات العراقيات وقد علا صوت نحيبهن وهن يخرجن جثث أطفالهن من تحت أنقاض بناءٍ تعرض للقصف، تهدلت أكتاف بشير العريضة أمام المشهد وقال بعد صمت طويل وهو يهز رأسه بأسى: "الأشخاص من أمثالي يشكلون أصدقاء أميركا الحميميين في المنطقة، أنا مسلم معتدل ورجل متعلم، لكن هذه المشاهد يمكن أن تدفع بي إلى الانضمام إلى الجهاديين. كيف تسمح أميركا لنفسها بأن تقول بأنها تدافع عن أمنها؟" تساءل بشير وهو يجاهد كي يكبح نفسه عن صبّ جام غضبه على الهدف الأميركي الضخم الجالس على الطرف الآخر من طاولة المكتب.

"رئيسكم بوش ذاك نجح بامتياز في توحيد صفوف مليون مسلم ضد الولايات المتحدة لمئتي سنة قادمة".

"أسامة أيضاً له علاقة بالأمر".

زعق بشير مزمجراً: "أسامة؟ أسامة لم تنتجه الباكستان أو أفغانستان. أميركا هي التي صنعته وبفضل أميركا فإن أسامة متواجد في المنازل كلها. أنا رجل عسكري وأعرف أنك لن تكسب قط من القتال ضد رجل يتمكن من إطلاق النار عليك ويفرّ عائداً إلى مخبئه وكل ما


https://telegram.me/maktabatbaghdad

تستطيع أن تفعله أثناء ذلك هو أن تكون يقظاً على الدوام. عليك أن تهاجم مصدر قوة عدوك. وفي حالة أميركا فإن ذلك المصدر ليس أسامة أو صدّام أو أي شخص آخر. العدو هو الجهل والوسيلة الوحيدة لهزيمته هي أن توطد العلاقات مع هؤلاء الناس لكي تستدرجهم إلى العالم المعاصر عن طريق العلم والعمل وإلا فإن القتال سيستمر إلى الأبد".

التقط بشير أنفاسه وعاد إلى التحديق بشاشته حيث كان فريق من المصورين يتابعون مجموعة من الشبان المتطرفين العراقيين وهم يلوحون بقبضاتهم ويطلقون النار في الهواء بعد تفجير قنبلة على قارعة الطريق.

"أرجو المعذرة يا سيدي لأنني كنت غاية في الوقاحة. ولكنك تعرف كل شيء بقدر ما أعرفه. ما رأيك بتناول الغداء؟".

ثم ضغط بشير على زر في هاتفه وطلب من نائبه أن يرسل إلى المكتب وجبة الدجاج المشوي الذي طلبه من محلات كنتاكي في المنطقة الزرقاء تكريماً لضيفه الأميركي.

يمكن لسكاردو أن يصبح مكاناً يبعث على الاكتئاب عندما يقترب فصل الشتاء، لكن مورتنسون الذي زارها للمرة الأخيرة لذلك العام في شهر تشرين الأول عام 2003 قبل مغادرته إلى أفغانستان ليباشر مشاريع المؤسسة هناك، كان راضياً كل الرضى بالرغم من السحب المنخفضة والصقيع المتسلل خلسة. قبل أن يغادر مورتنسون راولبندي، أعطاه الكولونيل بشير عربوناً من الروبيات يعادل ستة آلاف دولار، وهو مبلغ ضخم في عرف الباكستان، لكي تقوم مؤسسة آسيا الوسطى ببناء مدرسة جديدة في قريته الأم الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بيشاور حيث كانت المدارس الوهابية قد تكاثرت

إلى حد كبير. كما تعهد بأن يضغط على أصدقائه في الجيش كي يقدموا المزيد من التبرعات معبراً عن ثقته بأن تلك الحرب المنفردة التي يشنها أميركي واحد ضد الإرهاب كانت تؤدي إلى نتائج فعّالة.

وأيضاً فإن مورتنسون كان قد حقق نصراً ساحقاً في المحكمة الشرعية وتجاوز الفتوى الثانية التي صدرت بحقه وألحق الخزي بعدوه العلني وعشر مدارس أخرى ستفتح أبوابها في فصل الربيع، بعد أن يكتمل بناء المدارس التسع التي مولها قراء Parade والانتهاء من إعادة بناء مدرسة نيدجيليت في هيماسيل. وفي الوقت الذي كان مورتنسون يستعد خلاله للمغادرة إلى أفغانستان، كانت أربعون مدرسة قد وطدّت أقدامها في الأودية المرتفعة لكاراكورام وهيندوكوش تمارس مهامها بفعالية.وبفضل مورتنسون، أصبح التلاميذ الذين يدرسون بين جدرانها الحجرية أكثر المحاصيل ازدهاراً في القرية.

أما في البقاع الواطئة، فقد استأجر تواها منزلاً من الطوب في سكاردو المكتظة بالسكان، يطل على حقل فسيح يلعب فيه أولاد الجيران كرة القدم بين قطعان الماشية التي ترعى حولهم. وهناك تسكن ابنة مختار كورف الجديد مع زميلة سابقة لها في المدرسة، تحت حماية قريبين من الذكور جاءا من الأعالي خصيصاً بهدف رعاية شؤون أكثر نساء برالدو جرأة على الإطلاق وهن يعملن على تحقيق أحلامهن.

كانت جيهان وزميلتها طاهرة، أول فتاتين تخرجتا من مدرسة كورف، وقد جاءتا معاً إلى سكاردو تحت راية أول منحتين دراسيتين تخصصهما المؤسسة للطلاب المتفوقين. وفي يومه الأخير في سكاردو قام مورتنسون بزيارتهن برفقة تواها والد جيهان ليطمئن على حسن سير الأمور وأعدت جيهان الشاي بنفسها وهي تشعر بالفخر لأنها في منزلها الخاص، تماماً كما كانت جدتها سكينة تفعل ذلك دائماً.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ارتشف مورتنسون شاي الليبتون المعد من مياه الصنبور الجارية وأكياس الشاي المبتاعة من أسواق سكاردو وليس من حفنة أوراق مفتتة وحليب الياك الزنخ، وتساءل عما يمكن أن يكون عليه رأي سكينة. لم يتصور أنها كانت ستفضله على الشاي الذي أعدته طوال حياتها، لكن مما لا شك فيه هو أنها ستكون فخورة للغاية بحفيدتها. لقد أنهت جيهان دورتها التدريبية في الرعاية الصحية النسائية واختارت البقاء في سكاردو لمتابعة تعليمها.

وبفضل بادرة تشجيع من مؤسسة آسيا الوسطى، كانت كل من جيهان وطاهرة تحضران دروساً لكامل المواد التكميلية في الثانوية النموذجية الخاصة للإناث تتضمن قواعد اللغة الإنكليزية ولغة الأوردو الفصحى واللغة العربية والفيزياء والاقتصاد والتاريخ.

كانت طاهرة تغطي رأسها بوشاح ناصع البياض وتنتعل صندلاً خفيفاً لا يصلح بتاتاً للسير في طرقات قريتها الوعرة وهي تخبر مورتنسون بأنها تخطط للعودة إلى كورف لتمارس مهنة التدريس إلى جانب أبيها الأستاذ حسين. "لقد كنت محظوظة بهذه الفرصة، والآن عندما نذهب إلى هناك للزيارة، يطيل الناس النظر إلينا وإلى ملابسنا ويعتقدون بأننا سيدات متأنقات. أعتقد بأن كل فتاة في برالدو تستحق الفرصة للحضور إلى هنا ولو لمرة واحدة لأن ذلك سيغير من حياتهن. وأظن أنني سأقدم لهن خدمة جليلة بعودتي إلى هناك والعمل على تحقيق ذلك لهن جميعاً".

أما جيهان التي جاءت إلى سكاردو لتصبح ممرضة بسيطة في مجال الصحة العامة وتعود بعدها إلى كورف فقد كانت تعمل على الارتقاء بطموحاتها نحو ما هو أفضل.أعادت ملء كوب الشاي لمورتنسون وهي تقول: "كنت أجهل ما يعنيه التعليم حتى التقيت بك يا دكتور جريغ. أما الآن فأنا أؤمن بأنه مثل الماء، أساسي لكل أوجه الحياة".

"وماذا عن الزواج؟" سأل مورتنسون الذي يعلم بأن ابنة مختار القرية يرغب الجميع من الاقتران بها خصوصاً بأنها فتاة جميلة لم تتجاوز السابعة عشرة من العمر، ويعلم أيضاً بأن ذكراً بلطياً لن يدعم التطلعات الجامحة الشابة لزوجته.

انطلقت من تواها تلك القهقهة المجلجلة التي ورثها عن أبيه الحاج علي وقال: "لا تقلق يا دكتور جريغ، هذه الفتاة أتقنت درسك كل الاتقان وحددت موقفها بكل وضوح بأنها يجب أن تنهي تعليمها قبل أن تسمح بمناقشة أمر تزويجها إلى الشاب المناسب وأنا أوافقها على ذلك وسوف أبيع ما أملكه من الأراضي إن اقتضى الأمر كي تكمل تعليمها. إنني مدين بذلك لذكرى أبي".

سألها مورتنسون: "إذا ما الذي تخططين لفعله؟".

"ولن تضحك مني؟".

"قد أفعل" أجاب مورتنسون ممازحاً.

أخذت جيهان نفساً عميقاً واعتدلت في جلستها ثم قالت:

"عندما كنت فتاة صغيرة وأشاهد رجلاً أو امرأة يرتديان ملابس نظيفة حسنة المظهر، كنت أركض بعيداً كي أختفي عن الأنظار. ولكنني وبعد أن أنهيت تعليمي في مدرسة كورف، شعرت بتحول كبير في حياتي. شعرت بالصفاء الذهني والنظافة، وأنا الآن قادرة على مواجهة أي كائن ومناقشة أي شيء.

وبما أنني الآن في سكاردو بالفعل فأشعر بأن أي شيء قابل للتحقيق. لا أريد أن أكون مجرد ممرضة. أريد أن أصبح تلك المرأة التي تؤسس مستشفى وتكون مديرته وأعالج المشكلات الصحية كلها للنساء جميعاً في برالدو، أريد أن أصبح امرأة مشهورة في هذه البقاع.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

توقفت جيهان عن الحديث لتداعب بأصابعها طرف غطاء رأسها الحريري وتحدق من النافذة نحو لاعب كرة يشقّ طريقه تحت رذاذ المطر باتجاه المرمى المُعد من حجارة متراصة، وهي تبحث عن التعبير المناسب لرؤياها المستقبلية. وقالت أخيراً: "أريد أن أصبح سيدة خارقة" وقد ارتسمت على محياها علامات تحدٍ لأي كائن وأي رجل يجرؤ على القول بأنها لن تنجح في ذلك.

ولم يضحك مورتنسون، بل أضاءت وجهه ابتسامة عريضة في وجه حفيدة الحاج علي المقدامة وتصور علائم الرضى التي كانت ترتسم على وجه ذلك المختار الهرم لو أنه عاش ليحيا هذه اللحظة ويرى بأم عينيه أن تلك البذرة التي قاما بزرعها معاً قد أعطت ثمرة رائعة.

خمسمائة وثمانون رسالة، أربعون رأساً من الكباش وعشر سنوات من العمل ليست إلا ثمناً زهيداً مقابل لحظة كهذه، قال مورتنسون لنفسه.

# الفصل الثالث والعشرون

# "الأحجار تتحول إلى مدارس"

"أمنا الأرض جريحة، محيطاتها وبحيراتها عليلة، أنهارها آلام تتدفق. الهواء مفعم بالسموم الخبيثة والدخان اللزج المتصاعد من حرائق شيطانية لا تحصى يلطخ وجه الشمس. رجال ونساء اقتُلعوا من جذورهم، من أسرهم، من أصدقائهم يجولون على غير هدى منبوذين وتائهين تلسعهم سياط حارقة . . .

في هذه الصحراء من المجهول المذعور الأعمى، يلوذ البعض بالسعي وراء السلطة والبعض يصبحون تجاراً للوهم والخداع. إن كانت الحكمة والتناسق ما زالا يعيشان في هذا العالم وليسا مجرد حلم ضاع داخل كتاب لم يفتح، فهما يكمنان في نبضات قلوبنا. ومن قلوبنا تند الصرخات. وأصواتنا هي الناطق الوحيد لهذه الأرض الجريحة. صرخاتنا رياح عاتية تعصف بالأرض".

من "ملحمة المحارب" الملك جيسار

كان الملك جالساً في مقعد يقع قرب النافذة، وقد عرفه مورتنسون من صورته المنقوشة على العملة الأفغانية القديمة التي رآها تباع في الأسواق. في سنينه التسع والثمانين، بدا ظاهير شاه أكبر بكثير من صورته المنشورة رسمياً وهو يحدق من نافذة الطائرة 737 التابعة للخطوط الباكستانية إلى البلد التي نفي منها منذ ثلاثين عاماً.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

باستثناء مفرزة الأمن المرافقة للملك وطاقم صغير من المضيفات، كان مورتنسون الشخص الوحيد على متن الرحلة القصيرة من إسلام آباد إلى كابول بالإضافة إلى عاهل أفغانستان السابق. عندما أدار شاه وجهه عن النافذة، التقت عيناه بعيني مورتنسون.

"السلام عليك يا سيدي" بادره مورتنسون

"وعليك السلام يا سيدي" أجاب الشاه.

خلال الفترة التي قضاها شاه في منفاه في روما بات على اطلاع بشتى الثقافات ولم يجد صعوبة في تحديد المكان الذي أتى منه ذلك الرجل الضخم ذو الشعر الفاتح، وصدرة المصور الفوتوغرافي.

"أميركي؟" سأله مستفسراً.

"نعم يا سيدي".

ندت عن ظاهر شاه تنهيدة رجل طاعن في السن اعتصرته عقود من الآمال الخائبة. وقال لمورتنسون عبر الممر "هل أنت صحفي؟".

"كلا، أنا أبني المدارس من أجل الإناث".

"وهل لي أن أسألك عن الغرض من زياتك لبلدي؟"

"سأبدأ بعملية بناء خمس أو ست مدارس في فصل الربيع إن شاء الله، وأنا قادم لتسليم النقود اللازمة لذلك".

"في كابول؟".

"كلا، في المرتفعات، منطقة باداكاشان ودهليز واخان"

رفع شاه حاجبيه باتجاه جبهته السمراء ورأسه الأقرع وربت على المقعد الذي إلى جانبه فجاء مورتنسون وجلس فيه. "هل تعرف أحداً في المنطقة؟" سأله شاه.

"إنها قصة طويلة ولكن منذ بضع سنوات جاءني رجال من القيرغيز، لقد عبروا ممر أرشاد على صهوات أحصنتهم حتى وصلوا إلى وادي تشاربرسون في الباكستان حيث كنت أعمل، وطلبوا مني أن أبني مدارس في قراهم ووعدتهم حينها أن أذهب إليهم كي ندرس الأمر معاً ولكنني لم أتمكن من ذلك حتى الآن".

"أميركي في واخان. قيل لي بأن لدي منزلاً للصيد بناه لي الناس هناك، إلا أنني لم أذهب إليه أبداً، فالوصول إلى هناك شاق للغاية. لم نعد نشاهد الكثير من الأميركيين في أفغانستان. منذ سنة واحدة كانت هذه الرحلة ستعج بالصحفيين وعمال الإغاثة. أما الآن فجميعهم في العراق. لقد نسيتنا أميركا مرة أخرى"

منذ سنة وصل شاه إلى كابول عائداً من المنفى واستقبلته الحشود مهللة بعودته لأنهم رأوا فيها تحولاً سيعيد الحياة إلى مجراها الطبيعي ويخلصهم من العنف الذي اتسمت به عقود من الحكم السوفيتي الفاشل ومن أمراء الحرب البغيضين ومن طالبان. وقبل أن يطيح به قريبه محمد داوود خان عن سدّة الرئاسة، ترأس شاه الحكم في أفغانستان منذ عام 1933 حتى 1973وكانت أطول فترة من السلم عرفتها أفغانستان في العصر الحديث وقد أشرف خلالها على وضع دستور في عام 1964 حوّل أفغانستان إلى دولة ديمقراطية واستردت بموجبه المرأة الأفغانية حريتها ونالت حقها في التصويت العام. كما قام بتأسيس أول جامعة أفغانية حديثة واستقدم أكاديميين ومعاونين أجانب ليساعدوا في حملته لتطوير البلد.

وهكذا، فالكثير من الأفغانيين رأوا في شاه رمزاً للحياة التي يأملون باستردادها. لكن تلك الآمال بدأت تتلاشى مع حلول خريف عام 2003، إذ كانت القوات الأميركية منتشرة على نطاق واسع إما


https://telegram.me/maktabatbaghdad

لملاحقة بن لادن ومؤيديه أو تأمين الحماية لحكومة حميد كارازاي الجديدة. وبدأت موجة العنف تتصاعد من جديد عبر البلاد مترافقة مع أقاويل بأن محاربي طالبان يعيدون توحيد صفوفهم.

يقول مورتنسون: "تماماً كما تخلينا عن المجاهدين بعد أن انسحب السوفييت. كنت أخشى أننا بصدد التخلي عن أفغانستان من جديد. وفق ما أعرفه، فإن المعونة المالية التي كنا قد وعدناهم بها لم يصل منها أكثر من الثلث. وبمساعدة ماري بونو، تمكنت من التحدث إلى عضو في الكونغرس مسؤول عن حصص أفغانستان وأخبرته عن أوزرا فايزاد وباقي المدرسين الذين لا يتقاضون رواتبهم وسألته لم لا تصل النقود إلى هناك. فأجابني قائلاً: لا يوجد نظام مصرفي مركزي في أفغانستان وهكذا لا توجد وسيلة يمكن أن نحوّل بها الأموال. لكنني لم أجد فيما قاله عذراً مقبولاً. فقد وجدنا وسيلة لوضع حقائب مكتظة بالأموال على متن الرحلات الجوية لتصل إلى أمراء الحروب الذين يحاربون حركة طالبان وتساءلت لم لا نستطيع أن نفعل الشيء نفسه من أجل شق الطرق وتركيب أنظمة الصرف الصحي وبناء المدارس. عدم الوفاء بالوعود والامتناع عن إرسال المعونات يشكل رسالة واضحة بأن حكومة الولايات المتحدة لا تبالي".

وضع ظاهير شاه راحة يده التي تحمل في إحدى أصابعها خاتماً فيه فصٌ ضخم من حجر اللازورد فوق يد مورتنسون وقال: "إنني سعيد لأن أميركياً واحداً على الأقل موجود هنا، الرجل الذي تريد أن تقابله يدعى ساوهاد خان. ومن الجهاديين لكنه يهتم بأمور شعبه".

"هذا ما سمعته".

سحب ظاهير شاه بطاقة تحمل اسمه من جيب البزة الرسمية التي يرتديها تحت عباءته المخططة واستدعى أحد مرافقيه وطلب من أن

يحضر حقيبته. ثم ضغط الملك إبهامه على علبة حبر مسطحة ووضع بصمته خلف بطاقته "قد تساعدك هذه إن أعطيتها لكومندهان خان. كان الله معك. اذهب ترافقك مباركتي".

بدأت الطائرة الهبوط نحو مطار كابول بشكل حلزوني. فالعاصمة لم تعد آمنة كعهدها منذ سنة والطيارون يتخذون هذا الإجراء الاحتياطي كي يكونوا أهدافاً صعبة المنال للصواريخ مجهولة المصدر في البلد. وجد مورتنسون أن حركة المرور في كابول قد ازدادت رعونة. كان عبدالله يدير مقود سيارة التويوتا بين يديه بترو، فتمكنا من النجاة من أربعة اصطدامات وشيكة في رحلتهما القصير إلى دار السلام للضيافة. ويقول مورتنسون: "ما يفترض من حكومة تدعمها أمريكا هو أن تحكم سيطرتها على كابول. لكن سلطتها لا تكاد تصل إلى حدود المدينة إنها غير قادرة حتى على التحكم بحركة السير فالسائقون يتجاهلون ببساطة إشارات السير وصرخات قلة قليلة من عناصر شرطة المرور.

المكان الذي أراد مورتنسون الذهاب إليه هو فايز آباد، أكبر مدن إقليم باداكاشان في الشمال الشرقي من أفغانستان، وستكون القاعدة التي سيجازف بالانطلاق منها نحو المواقع المحتملة لمشاريع بناء المدارس الريفية. وللوصول إلى هناك، كان عليه أن يذهب عن طريق البر ويواجه ليس حركة المرور السائبة وحسب، بل أيضاً، رحلة مدتها يومان عبر الأصقاع الريفية الخطرة.لكن مورتنسون لم يكن يملك بديلاً. في رحلته الثالثة هذه إلى أفغانستان، كان قد صمم على تنفيذ ما وعد به فرسان الـ قيرغيز. وكانوا قد قاموا خلال غيابه بعملية إحصائية شاملة لمنطقة دهليز واخان، وامتطوا صهوات جيادهم من جديد وساروا لمدة ستة أيام في كل اتجاه كي يسلموا النتائج إلى فيصل بيج في زودخان.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ونتائج عملية الإحصاء أفادت بأن هناك خمسة آلاف ومئتي طفل في عمر المرحلة الابتدائية ليست لديهم أية مدرسة من أي نوع ويأنهم، إن شاء الله بانتظار مورتنسون كي يبدأ ببنائها.

كان الجنرال بشير قد عرض أن يقوم أحد طياريه بنقل مورتنسون مباشرة إلى فايز آباد على متن طائرة صغيرة ذات محركين تعاقد عليها الطيران العسكري لإيصال المثلجات والمياه المعدنية وألواح البروتين وغيرها من المؤن إلى العناصر الأميركيين السريين في أفغانستان، لكن إدارة Centcom الأميركية التي تتحكم بأجواء أفغانستان من مقرها في الدوحة عاصمة قطر، رفضت طلب بشير بأن يرسل طائرته إلى عمق أفغانستان من أجل مهمة إنسانية. راح مورتنسون يذرع أرض غرفته المعتمة في دار السلام للضيافة وهو يلوم نفسه لأنه لم يتذكر أن يشحن حاسوبه المحمول وبطاريات كاميرته في إسلام آباد. فتوقع وجود كهرباء في العاصمة الأفغانية أمرغير وارد وقد لا يجد مأخذاً كهربائياً واحداً انطلاقاً من هذه الغرفة ووصولاً إلى باداكاشان.

لقد خطط أن ينطلق في رحلته الطويلة إلى الشمال في الصباح وأن يتحرك أثناء النهار من أجل السلامة، وأرسل عبدالله كي يبحث عن مركبة للإيجار قادرة على التعامل مع الفجوات التي أحدثتها القنابل والمستنقعات الموحلة التي تحف بالطريق الوحيد الموصل إلى الشمال.

عندما لم يعد عبدالله مع موعد العشاء، فكرّ مورتنسون بأن يخرج بحثاً عن الطعام، لكنه عدل عن رأيه واستلقى على السرير الضيق وقدماه تتدليان من على حافته وغطى وجهه بوسادة قاسية تفوح منها رائحة كريم للشعر وغط في النوم.

قبل منتصف الليل بقليل، انتفض مورتنسون جالساً يحاول أن يستوعب أصوات الطرقات على الباب، التي أتته في نومه وكأنها قذائف آر بي جي تنفجر على جدران بيت الضيافة.

عبدالله كان يحمل خبراً جيداً وآخر سيئاً. لقد تمكن من استئجار سيارة جيب روسية الصنع، كما وجد شاباً من طاجكستان يدعى كايس سيرافقه من أجل الترجمة لأن هاش رفيقه المعهود، لن يكون موضع ترحاب حيث يذهبون بسبب المدّة التي قضاها مع طالبان. لكن توجد مشكلة شرحها له عبدالله، وهي بأن نفق سالانج، أي المعبر الوحيد الذي يذهب إلى الشمال عبر الجبال سوف يغلق عند الساعة السادسة صباحاً. "ومتى يفتح من جديد؟" سأله مورتنسون وهو مايزال متشبثاً بالرجاء في ليلة كاملة من النوم.

رفع عبدالله كتفيه. كان من الصعب قراءة أي تعبير على وجهه ذي الندوب وحاجبيه الأمردين. لكن كتفيه المتهدلتين أجابتا مورتنسون بأن سؤاله كان عن عبث. "اثنتا عشرة ساعة؟ يومان؟ من يعرف؟" وباشر مورتنسون في إعداد حقيبته من جديد.

اتجهت بهم السيارة نحو الشمال عبر المدينة المحرومة من الإنارة فيما كان هدوء حذر يخيم على كابول. وكانت هناك مجموعات من الرجال يرتدون أثواباً فضفاضة بيضاء اللون يطوفون كأرواح طيبة بين أكشاك الشاي التي تفتح طوال الليل تحت ضوء القناديل. وقد كان أولئك الرجال على أهبة المغادرة إلى المملكة العربية السعودية على متن الطائرات في الصباح الباكر. إذ يتوجب على كل مسلم مقتدر أن يؤدي فريضة الحج في مكة ولو لمرة واحدة خلال حياته. وكان الجو العام في شوارع المدينة المعتمة احتفالياً لوجود هذا العدد الكبير من الرجال الجاهزين للانطلاق في تلك الرحلة التي تشكل ذروة مناسك العبادة في حياتهم الدنيوية.

آخر مشهد يذكر مورتنسون أنه رآه أثناء طوافهم في الشوارع بحثاً عن محطة وقود مفتوحة هو المبنى السابق لوزارة الدفاع. كان قد مر


https://telegram.me/maktabatbaghdad

به خلال النهار وبدا له كطيف بناء مجوف كالصدفة بفعل القصف والقذائف التي تعرض لها خلال ثلاثة حروب مختلفة وجعلته على وشك الانهيار. أما في ظلمة الليل، فإن النيران التي صنعها المشردون الذين يعيشون في الداخل من أجل إعداد الطعام أعطت ذلك الهيكل وهجاً من الشؤم. الفجوات التي أحدثها القصف في البناء وصفوف النوافذ الخالية من الزجاج فاغرة فاها بدت مثل محاجر بلا أحداق تعلو تكشيرة فم ليس له أسنان في الضوء المرتد عن ألسنة النار المتراقصة من خلفها.

كان مورتنسون شبه نائم عندما تلاشت نظرة المبنى الشزراء خلفه في الظلام وتحول تفكيره نحو جيش المستخدمين يتأبطون حواسيبهم المحمولة ويحثّون الخطى في قاعات البينتاغون وفوق الأرضيات الرخامية المصقولة التي تماثل بلمعانها حذاء دونالد رامسفيلد.

طول نفق سالانج إلى الشمال من كابول لم يكن يتجاوز المئة كيلومتر واحد، لكن سيارة الجيب ذات المحرك البطيء والتي خلفتها وراءها الحقبة السوفيتية، كانت تئنّ وهي تتسلق ببطء تلك المسافة صعوداً نحو جبال هيندوكوش وبالرغم من خطورة وجود كمائن فقد استسلم مورتنسون للنوم لمدّة ساعات قبل دخولهم المنطقة. هذا العماد المتشكل من ذرا يبلغ ارتفاعها خمسة عشر ألف قدم وتفصل شمال أفغانستان عن سهل شومالي الأوسط، كان خط دفاع مسعود المرعب في وجه طالبان.

وتنفيذاً لأوامره، قام رجال مسعود بتفجير النفق البالغ طوله كيلومترين بواسطة الديناميت. كان مهندسو الجيش الأحمر قد حفروا ذلك النفق في الستينات كي يتمكنوا من شقّ معبر تجاري نحو الجنوب عبر أوزباكستان. أما بعد ذلك التفجير، فلم يتبق سوى الدروب الترابية

غير السالكة الواقعة على ارتفاع اثني عشر ألف قدم مفتوحة على صقله في وادي بانجشير فكان مجاهدو مسعود الأكثر عدداً والأقوى عتاداً يمنعون بقوة السلاح عبور دبابات طالبان وقوافل شاحناتهم يابانية الصنع باتجاه الشمال. وقد قامت الحكومة الأفغانية الجديدة بالتعاقد مع ورشات بناء تركية لتنظيف النفق من أنقاض الإسمنت التي خلفتها التفجيرات وتدعيم تلك البنية المتهالكة كي لا تنهار.

توقفت السيارة عن الحركة أيقظ مورتنسون، وراح يفرك عينيه لكن السواد المحيط به كان حالكاً، ثم سمع أصواتاً بدا له أنها تأتي من جهة السيارة الأمامية فأشعل عود ثقاب ليظهر له وجه عبدالله المحترق الجامد إلى جانبه الهيئة القلقة للمراهق الطاجاكستاني المدعو كايس.

ويقول مورتنسون: "كنا في منتصف النفق تماماً عندما انفجر مبرّد السيارة عند منعطف في الأعلى، مما يعني أن أية مركبة قادمة لن تتمكن من رؤيتنا إلا في اللحظة الأخيرة. كان ذلك أسوأ مكان يمكن أن نعلق فيه.

فتح مورتنسون حقيبته القماشية وفتش في داخلها عن المصباح اليدوي ثم تذكر أنه في عجلته للمغادرة، قد نسيه في بيت الضيافة في كابول مع حاسوبه وكاميرته. خرج مورتنسون من السيارة وانحنى مع عبدالله فوق غطاء المحرك المفتوح. وتحت لهب عيدان الثقاب التي يشعلها عبدالله وما تلبث أن تنطفئ أمام هبات الهواء القارس التي تدّوم داخل النفق، تمكن مورتنسون من رؤية خرطوم السيارة المطاطي وقد انحلّ من مكانه.

كان يتسائل عن إمكانية وجود شريط لاصق معه ليحاول إصلاح العطل عندما أتاهم الزعيق المذعور لبوق سيارة شحن روسية تهدر في منتصف النفق نحو الأسفل، باتجاههم مباشرة. ولم يكن هنالك وقت


https://telegram.me/maktabatbaghdad

للتحرك فأعدّ مورتنسون نفسه للاصطدام الوشيك لكن الشاحنة حرفت مسارها وتجنبت بالكاد هيكل السيارة واقتلعت المرآة الجانبية.

"هيا بنا" قال مورتنسون بنبرة آمرة وهو يدفع بعبدالله وكايس إلى حائط النفق. شعر مورتنسون بالريح الشتائية يزداد هبوبها فرفع كفيه نحوها كمقتفي الأثر يبحث عن مصدرها وهو يهرول بمحاذاة الحائط كانت أنوار شاحنة أخرى تستدير نحوهم وعجلاتها تنسحل على الأرض الصخرية الوعرة، عندما شاهد شقاً طويلاً من السواد خمّن بأنه باب فدفع برفيقيه نحوه.

يقول مورتنسون: "خرجنا إلى الثلج على قمة معبر جبلي وكان القمر منيراً مما جعل الرؤية واضحة. وحاولت أن أخمّن في أي جهة من المعبر نحن كي نبدأ الهبوط نحو الأسفل".

وعندها شاهد مورتنسون أول حجرة حمراء، كانت شبه مطمورة تحت الثلج لكن رؤيتها جعلت مورتنسون يكتشف مواقع العشرات من الحفر الضاربة إلى الحمرة ترقّط المدى الثلجي ناصع البياض.

تعد أفغانستان أكثر بلد زاخر بالألغام في العالم. وبوجود الملايين من المتفجرات الصغيرة التي زرعها تصف دزينة من الجيوش المتنوعة عبر عشرات السنين، فلا أحد يعرف أين تكمن بالانتظار تلك الجسيمات الصبورة. وعندما تتعثر بها عنزة أو بقرة أو طفل وتودي بحياتهم، تأتي فرق نزع الألغام إلى المواقع وتصبغ الصخور فيها باللون الاحمر، ريثما تتسنى لهم الأشهر التي يستغرقها العمل المضني على إزالتها.

كايس أيضاً شاهد الأحجار الحمر تحيط بهم ودبّ فيه الذعر فأمسكه مورتنسون من يده بقوة كي يمنعه من الركض. أما عبدالله الذي خاض تجارب سابقة مع الألغام، فقد نطق بما لا بد من قوله "رويداً

رويداً "وهو يستدير نحو الخلف ليتعقب آثار أقدامه على الثلج "يجب أن نعود إلى الداخل".

ويقول مورتنسون: "كان تقديري بأن احتمال مقتلنا داخل النفق يصل إلى نسبة النصف، أما في الخارج فقد كان مؤكداً".

وتجمد كايس في مكانه، لكن مورتنسون سحبه وراءه برفق عائدين إلى الظلمة.

"لا أعرف ما كان يمكن أن يحصل لو لم تكن المركبة القادمة باتجاهنا شاحنة تسير نحو الأعلى على مهل، لكنني أحمدُ الله أنها كانت كذلك.فقفزت أمامها ألوح بيديّ كي تتوقف".

انحشر مورتنسون وكايس بين الرجال الخمسة الذين كانوا بداخل الشاحنة، فيما قاد عبدلله سيارة الجيب التي شُلّت حركتها، تدفعها الشاحنة من الخلف نحو الأعلى.

يصف مورتنسون ما حدث بقوله: "الرجال كانوا من المهربين القساة لكنهم بدوا مقبولين بالنسبة لي. كانوا في طريقهم لإيصال العشرات من الثلاجات إلى مازيري شريف فكانت الشاحنة تئن بالحمولة الزائدة وبالكاد تتحرك ولكنني لم أجد مشكلة في ذلك.

حدّق كايس في الرجال بتوجس وهمس لمورتنسون بالانكليزية: "هؤلاء رجال شريرون، لصوص".

"طلبت من كايس أن يلزم الصمت، فقد كنت أحاول أن أركز، وأن أستجمع كل الخبرات التي اكتسبتها خلال عقد من العمل في الباكستان لأخرج بنا من هنا سالمين، وبما أن أولئك المهربين كانوا من الباشتون في حين أن كايس طاجيكستاني، فلم تكن هناك وسيلة تجعل كايس لا يشكك بهم مهما كان الأمر.لكنني كنت قد قررت أن أثق بهم وأتبادل معهم الحديث.وبعد دقائق قليلة شعر الجميع


https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالاسترخاء، بمن فيهم كايس الذي رأى أن لا بأس بهم، خصوصاً بعد أن قدموا إلينا بعضاً من العنب"

وفيما كانوا يواصلون الصعود نحو نهاية النفق، أخذ مورتنسون يطحن بين أسنانه حبات الفاكهة بسائلها الحلو بنهم فانتبه أنه لم يتناول شيئاً من الطعام منذ وجبة الإفطار بالأمس، كما لاحظ أن خلفية السيارة الجيب المستأجرة ذات اللون الأبيض قد بدأت تتحول إلى اللون الأسود لأن احتكاك مقدمة الشاحنة بها كان يكشط الطلاء عنها.

وبعد أن انحدر الطريق نحو الجهة الأخرى من المعبر، قام مورتنسون بشكر طاقم مهربي الثلاجات على إنقاذهم وعلى العنب الشهي وصعد مع كايس إلى المقعد الخلفي من سيارة الجيب وانضما من جديد إلى عبدالله، كان السائق كي يتمكن من الحصول على إضاءة خافتة من أنوار السيارة الأمامية بإدارة مفتاح التشغيل رغم أن المحرك كان معطلاً. ارتمى مورتنسون المنهك على عارضة الأمتعة، وهبطوا إلى أسفل التل باتجاه ضوء النهار.

بالنسبة لحركة طالبان والقوات السوفيتية، كان وادي بانجشير الذي يقع إلى الشرق منهم وتظله جبال لا ترى سوى قدر شحيح من النور بمثابة بقعة من العتمة تجوبها أطياف المعاناة والموت. فالتقدم المفترض من قبل الجنود على حواف الجروف الصخرية الناتئة، كان يجعل منهم أهدافاً سهلة لعصابات مسعود من المجاهدين المتمكنين من استهدافهم بقاذفات القنابل من مواقعهم الاستراتيجية الواقعة في أعلى الوادي، أما بالنسبة لمورتنسون فإن نور الشفق الموشى باللون البنفسجي فوق الحواف الناتئة للذرا المكسوة بالثلج، جعل الوادي البعيد يبدو وكأنه منتجع فخم.

يقول مورتنسون: "كنت سعيداً بخروجي من ذلك الوادي إلى النور

إلى درجة أنني احتضنت عبدالله بقوة كادت تؤدي بالسيارة إلى الاصطدام بحاجز الطريق" بعد أن تمكن سائقه من تجنب الحاجز بأعجوبة، خرجوا من السيارة في محاولة لإصلاحها.وكانت الشمس قد بدأت ترتقع من وراء الأفق، فتمكنوا من رؤية المشكلة بوضوح. قسم من خرطوم المبرد يبلغ طوله ستة إنشات بحاجة إلى ترقيع. وعبدالله الذي لم يكن ضليعاً بالقتال فقط، بل أيضاً بعدد لا يحصى من تصليحات على قارعة الطريق، قصّ قطعة من الجزء الداخلي للعجلة الاحتياطية ولفّها حول القسم الممزق وثبتها بواسطة شريط لاصق وجده مورتنسون عالقاً بعلبة من حبوب السعال داخل حقيبته القماشية بعد أن أعادوا تعبئة المبرد من زجاجات مياه مورتنسون المعدنية الثمينة، استأنف مورتنسون طريقه نحو الشمال من جديد. وبما أنهم كانوا في شهر رمضان، فقد قاد عبدالله السيارة بسرعة على أمل الوصول إلى كشك للشاي لتناول طعام الإفطار قبل أن يبدأ موعد صوم اليوم التالي. لكنهم عندما وصلوا إلى أول منطقة مأهولة كانت في السابق موقعاً لحامية سوفيتية وتدعى بولي كامري، وجدوا أن المطعمين الواقعين على جانبي الطريق قد أغلقا أبوابهما حتى يوم الغد.فتقاسم مورتنسون معهما كيساً من الفستق كان قد وضعه جانباً للطوارئ، وظل عبدالله وكايس يمضغانه بشراهة حتى صبغت أشعة الشمس الأولى الجدار الشرقي للوادي. بعد أن فرغ من وجبة الإفطار، انطلق عبدالله سيراً على الأقدام ليبحث عن أحد ما يقبل أن يبيعهم وقوداً، ثم عاد وقاد السيارة إلى داخل فناء منزل متواضع من الطوب وأوقفها بجوار برميل صدئ.خرج إليهم رجل عجوز متكئ على عكاز وجرجر قدميه نحوهم وقد احدودب ظهره. احتاج العجوز إلى دقيقتين حتى تمكن من رفع غطاء خزان الوقود بيديه الواهنتين ثم بدأ يحرك ذراع المضخة بنفسه، إلا أن عبدالله لاحظ مدى الجهد الذي يبذله وسارع إلى أخذ مكانه.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

في حين كان عبدالله يعمل على ضخ الوقود، راح مورتنسون يتحدث إلى العجوز وتولى كايس مهمة الترجمة من اللغة الداريّة القريبة من الفارسية، اللغة الأكثر شيوعاً في أفغانستان الشمالية. "كنت أعيش في شوفالي" قال العجوز وهو يعني السهل الشاسع الواقع شمالي كابول والذي كان يشكل مصدر أفغانستان من القمح. "أرضنا كانت فردوساً وأهالي كابول يجيئون إلى منازلهم الريفية الواقعة قرب قريتي خلال العطل الأسبوعية. حتى الملك ظاهير شاه، بارك الله باسمه، كان لديه قصر في الجوار. وفي حديقتي، توجد أنواع الأشجار كلها وأزرع أيضاً العنب والشمام" قال محمد وفمه الخالي من الأسنان باستثناء نابين حادين مقوسين كناب الفيل، يلوك ذكرى الأيام الحلوة الغابرة.

ثم تابع حديثه: "لكن طالبان جاؤوا، وبقاؤنا كان خطراً جداً علينا، فنقلت أسرتي إلى شمالي سالانج لضمان سلامتهم، وعدت إلى هنا في الربيع الماضي لأرى إن كان منزلي لا يزال قائماً لكنني لم أتمكن من إيجاده في البداية. لقد ولدت وعشت هنا لمدة سبعين عاماً إلا أنني لم أتعرف على قريتي. المنازل كلها دُمرّت، المحاصيل كلها يبست لأن طالبان لم يكتفوا بحرق منازلنا فحسب، بل حرقوا أيضاً كل غصن وكل شجرة. حتى أنني لم أميز حديقتي إلا من جذع شجرة مشمش محترقة كان لها شكل خاص ناتئ نحو الأعلى كأنها يد بشرية "قال محمد وهو يطلق زفرات حرّى أثارتها تلك الذكريات.

"أستطيع أن أفهم قتل البشر ونسف المنازل، فهذه أمور تحدث دائماً أثناء الحروب. ولكن لماذا؟ لماذا كان على طالبان أن يقتلوا أرضنا؟" وسؤاله لم يكن موجهاً إلى مورتنسون، بل نواحاً متفجعاً لا عزاء له تصاعد من صميم قلبه وظلّ معلقاً في الهواء.

في طريقهم نحو الشمال، كانت الصورة أمام مورتنسون تزداد وضوحاً عن الكم الهائل من عمليات القتل التي تمت في أفغانستان، وعن المعاناة الفظيعة التي شملت المدنيين والمحاربين على حدٍ سواء. ومروا قرب دبابة سوفيتية انحرف برجها جراء قصف القوات المذعورة لها، وقد أصبحت مقصلاً لأطفال القرية الذين يصعدون فوقها ليمارسوا لعبة الحرب.

كما مروا بجانب مقبرة والشواهد التي على قبورها لم تكن سوى الهياكل المتفحمة للحوامات السوفيتية المدججة بالسلاح. وفكر مورتنسون أن سوء الحظ قاد طواقمها إلى التحليق قرب أوكار مسعود بعد أن قامت CIA بتزويد قادة المجاهدين بصواريخ ستينجر وتدريبهم على إطلاقها ضدّ أعداء أميركا في الحرب الباردة، القادة من أمثال أسامة بن لادن.

ملصقة على جوانب كل أداة حربية صدئة كانت تراقب مسارهم صور شاه أحمد مسعود، القديس الشعبي في أفغانستان الشمالية، الذي تمكن بشكل ما من حتى بعد مماته من أن يدسّ في عقولهم أن تلك التضحيات كان لا بد منها.

عندما حلّ الغسق، كانوا قد اجتازوا بلدات خان أباد وكوندوز واقتربوا من تولوكان حيث عقدوا النية على تناول أول وجبة طعام حقيقية لم يعرفوها منذ أيام بعد أن أعلنت صلاة المغرب نهاية صوم ذلك اليوم. كان مورتنسون، المرتبط بموعد للقاء مجموعة من المتبرعين البارزين في دنفر بعد أسبوع، يدرس الاحتمالين في أن يطلب من عبدالله متابعة الرحلة إلى فايزآباد بعد طعام العشاء أو انتظار ضوء النهار الآمن عندما تعالت أصوات وابل من الرصاص على مبعدة خمسين ياردأ منهم مما اجبر عبدالله على ضغط مكابح السيارة بشكل مفاجئ. دفع عبدالله ناقل


https://telegram.me/maktabatbaghdad

السرعة نحو الوراء وهو يدوس على الوقود بقوة نحو الجهة المعاكسة لسيل الرصاصات المشعة باللون الأحمر المنهمرة في الظلام الذي بدأ يتكاثف، وانقذف من في السيارة إلى الوراء. لكن إطلاق النار انفجر من خلفهم أيضاً. فضغط مكابح السيارة مجدداً. "تعالا"، قال بنبرة آمرة وهو يسحب كايس ومورتنسون من داخل الجيب نحو حفرة موحلة تقع على جانب الطريق، وضغط برفيقيه نحو الأرض الموحلة بقبضتيه، ثم توجه نحو السماء يدعو الله أن يحميهم.

ويقول مورتنسون: "كنا قد ذهبنا بأنفسنا إلى قلب معركة تدور بين طرفين متنازعين من مهربي الأفيون. وقد تصادف وجودنا مع موسم نقل البضائع حين تدور المناوشات دائماً في تلك الفترة من السنة بهدف التحكم بقوافل البغال التي تحمل المحصول. كانوا يتبادلون إطلاق النار من فوق رؤوسنا بواسطة بنادق الكلاشينكوف التي لها فأفأة خاصة بها لا يخطئها السمع. وبواسطة الضوء الأحمر لرصاصاتهم المشعة، تمكنت من رؤية كايس وقد امتلأ رعباً، أما عبدالله فكان غاضباً، فهو باشتوني بكل معنى الكلمة وقد انبطح أرضاً وهو يدمدم ويوبخ نفسه لأنه وضعني، وأنا ضيفه، في هذا الموقف الخطر".

استلقى مورتنسون منكفئاً على وجهه يفكر في إيجاد وسيلة للخروج من دائرة الخطر، لكنه كان عاجزاً عن ذلك. وانضم إلى المعركة عدة رجال آخرين فلعلع دوي الرصاص الكثيف وهو يتطاير فوق رؤوسهم وكأنه يمزق الهواء إلى أشلاء. ويقول مورتنسون: توقفت عن التفكير بالنجاة وبدأت أفكر بأولادي، وأنا أحاول أن أتصور كيف ستشرح لهم تارا الطريقة التي متُّ بها وأتساءل إن كانوا سيفهمون ما كنت أحاول أن أفعله وبأنني لم أكن أقصد أن أتخلى عنهم بل كنت أسعى إلى مساعدة أطفال مثلهم هنا. ثم حسمت الأمر بأن تارا سوف تجعلهم يفهمون، وذلك كان شعوراً جيداً"

أضاءت أنوار مركبة قادمة المجازات الضيقة على جانبي الطريق التي تجثم فيها الفرق المتحاربة من مهربي الأفيون فهدأ إطلاق النار وهم يتوارون عن الأنظار. وعندما ظهرت شاحنة متجهة إلى تولوكان، قفز عبدالله من الخندق وبدأ يلوح لها كي تتوقف، والشاحنة لم تكن سوى سيارة بيك آب عتيقة وبائسة تسير مائلة على عجلاتها المهترئة وتحمل جلود ماعز طازجة إلى مدبغة للجلود، واستطاع مورتنسون أن يشتم رائحة اللحم الفاسد قبل أن تتوقف.

ركض عبدالله نحو الشاحنة في قلب إطلاق النار المتقطع الذي كان يئز على جانبي الطريق، ثم صاح يستدعي كايس من الخندق كي يقوم بالترجمة. وبصوت رفيع مرتعش، تحدث الصبي باللغة الدارية إلى السائق يطلب منه أن يقل الرجل الأجنبي. طلب عبدالله من مورتنسون الحضور وهو يدله بشكل مسعور على قعر الشاحنة. انحنى مورتنسون بالطريقة التي تدرب عليها منذ عقدين من الزمن. وركض باتجاهه بشكل متعرج كي يتجنب طلقات الرصاص وقفز إلى خلف الشاحنة ورمى عبدالله فوقه غطاءً من جلود الماعز وضغط به نحو الأسفل تحت الجلود الرطبة.

"وماذا عنك وعن الصبي؟".

أجاب عبدالله: "سيحفظنا الله.هؤلاء الشياطين يطلقون النار على بعضهم البعض وليس علينا، سننتظر ثم نعيد سيارة الجيب إلى كابول"

وتمنى مورتنسون بأن يكون صاحبه محقاً.وأغلق عبدالله باب الشاحنة الخلفي وعاودت المركبة المسير.

من مرقده تحت أكوام جلود الماعز النتنة، وضع مورتنسون يده على أنفه وهو يشاهد الطريق ينطوي من خلفه كلما زادت الشاحنة من سرعتها. وبعد أن ساروا مسافة نصف كيلومتر، اندلعت المعركة من


https://telegram.me/maktabatbaghdad

جديد. الوابل الكثيف للرصاصات المشعة كان يتقافز عبر الطريق وكأنها نقاط حروف سقطت عن صفحات كتاب. لكنها وبالنسبة لمورتنسون الذي لن يعرف مصير صديقيه حتى الأسبوع القادم عندما يعود إلى كابول، كانت أشبه بإشارات استفهام.

تابعت الشاحنة مسيرها عبر تولوكان باتجاه فايزآباد، وهكذا ظلّ مورتنسون بدون عشاء مرة أخرى. الروائح النتنة التي كانت تزكم أنفه يمكن أن تقضي على أي رغبة بالطعام لكن الحركة البطيئة عبر ظلام الليل جعلت غريزته الحيوانية تتغلب ففكر بكيس القستق. وعندها فقط تذكر أنه قد نسي حقيبته في سيارة الجيب. استوى جالساً بقلق وأخذ يربت جيوب سترته حتى لمس حواف جواز سفره وحفنة من الدولارات الأميركية ثم أجفل وهو يتذكر أن البطاقة التي تحمل اسم الملك موجودة داخل الحقيبة التي خلفها وراءه، فأطلق تنهيدة وهو يدرك أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً بهذا الخصوص، وعليه الآن أن يجتمع مع الكومندهان خان بدون أي تعريف.

خلف غطاء الرأس المشجر حول أنفه وفمه وراح يراقب مسير الشاحنة تحت السماء المتلألئة بالنجوم.

"كنت وحدي، يغطيني الوحل ودم الماعز وفقدت أمتعتي ولا أتحدث اللغة المحلية ولم أتناول أي طعام منذ أيام، ومع ذلك فقد كنت في حالة جيدة تثير الدهشة. وراودني الشعور نفسه عندما جلست منذ سنوات فوق الشاحنة التي اجتازت بي معبر الإندوز صعوداً ومعي لوازم بناء مدرسة كورف، ولا أملك ادنى مؤشر عما ينتظرني. وقد كان مخططي للأيام القليلة القادمة غامضاً ولا أعرف إن كنت سأنجح فيما أنويه. ولكن أتعرفون؟ لم يكن ذلك شعوراً جيداً على الإطلاق.

بائعو جلود الماعز تركوا مورتنسون عند فندق أولياه في فايزآباد لكن الوقت كان ذروة موسم شحن الأفيون والغرف جميعها مشغولة. فقدم له المشرف النعس بطانية ومفرشاً لكي ينام في البهو إلى جانب ثلاثين رجل آخر يغطون في نوم النوم. كان مورتنسون يتحرق لغسل ملابسه من نتانة الماعز لكن الفندق لم تكن فيه مياه جارية. فخرج منه وفتح صنبوراً مثبتاً على شاحنة لنقل المياه متوقفة قرب الفندق وترك المياه الجليدية تنسكب على ملابسه.

"لم أكلف نفسي عناء تجفيف ملابسي بل تدثرت بالبطانية واستلقيت على أرض البهو في الفندق. لا يمكنك أن تتصور مكاناً مقرفاً للنوم أكثر منه، إلا أنني وبعد كل ما مررت به استغرقت في النوم وكأنه فندق خمسة نجوم".

قبل الساعة الرابعة صباحاً، حضر المشرف وأيقظ الرجال النائمين في البهو جميعهم لكي يتناولوا وجبة من الطعام لأن شهر رمضان يحرّم الأكل بعد صلاة الفجر. كان مورتنسون قد تجاوز الشعور بالجوع ولم تكن لديه الرغبة في الأكل، ورغم ذلك فقد انضم إلى الرجال لتناول الوجبة الوحيدة المتاحة لذلك اليوم والمؤلفة من عصيدة العدس بالكاري، وازدرد معها أربعة أرغفة مسطحة من الخبز.

وفي صقيع الغسق، المناطق الريفية المحيطة بفايزآباد ذكرت مورتنسون بپالستان. كان النهار الوليد يتسلل بمحاذاة قمم سلسلة جبال بامير الكبرى في الشمال وهاهو الآن بين جباله الأليفة من جديد، ولو غض الطرف عن بعض التفاصيل لظن أنه قد عاد إلى وطنه الثاني. لكن الاختلافات لا تخطئها العين فمن الواضح أن النساء جزء من الحياة العامة، يتحركن بحرية على طول الشوارع، مع أن معظمهن يحجبن أنفسهن وراء البرقع الأبيض. والعهد غير البعيد


https://telegram.me/maktabatbaghdad

للجمهوريات السوفيتية كان واضحاً أيضاً، حيث تتواجد عصابات من الشيشان مدججين بالسلاح يسيرون نحو المساجد لأداء صلاة الفجر وكأنهم في طريقهم إلى العمل.

بما أن مصادر العيش كانت محدودة، فإن المحور الاقتصادي في فايزآباد كان تجارة الأفيون. يجمعون المحصول النيء من حقول الخشخاش بمقادير كبيرة ويكررونه إلى أفيون في المعامل المحيطة بفايزآباد ثم يشحنونه عبر آسيا الوسطى إلى كشيكنايا ومنها إلى موسكو. وبالرغم من سيئاتهم جميعها، كانت حركة طالبان قد قمعت إنتاج الأفيون. وبعد ذهابهم، عادت زراعة الخشخاش عهدها السابق نكاية بهم، خصوصاً في شمال أفغانستان.

ووفقاً لدراسة قامت بها منظمة حقوق الإنسان، فإن محصول الأفيون في أفغانستان قد قفز تقريباً من لاشيء إبان سيطرة طالبان إلى ما يقارب أربعة آلاف طن بحلول عام 2003، إذ أصبحت أفغانستان حينها تنتج ثلثي إنتاج العالم من المادة الخام للهيروين. أما الأرباح فكانت تعود لتصب في جعبة أمراء الحرب، كما كان العرب يدعونهم، أو آمري الجماعة، الكومندهانات، كما يدعونهم في أفغانستان. ويستخدمونها لتجنيد وإعداد مقاتلين أشداء لمضاعفة الحد من نفوذ حكومة حميد كارازي الضعيفة بالأصل كلما ابتعدت المسافة عن كابول.

في بادكشان، وهي أبعد نقطة عن كابول يمكن أن يصلها المرء، كانت السلطة مطلقة تتمثل في مومندهان سادهارخان، وكان مورتنسون يسمع عنه قصصاً منذ سنوات. فشعبه كان يتحدث عنه بافتخار ومازال يذكر الشهيد شاه أحمد مسعود رفيقه في النضال ضد السوفييت وطالبان. خان، شأنه شأن باقي الكومندهانات، كان يجبي رسوماً من قادة قوافل الأفيون الذين تمر بغالهم في أراضيه. لكنه،

ويعكس غيره، يستثمر الأرباحِ لصالح شعبه. فقد بنى لمقاتليه السابقين سوقاً مزدهرة ومنحهم قروضاً صغيرة ليباشروا بها العمل، في محاولة للتخفيف من وقع التحول من مجاهد إلى تاجر. كان خان محبوباً من قبل شعبه بالدرجة نفسها التي تخيف منافسيه بسبب الأحكام الصارمة التي كان ينفذ بموجبها العقوبات.

شارفراز، المحارب الباكستاني السابق من زودخان الذي ساهم في حماية مورتنسون عندما وصلت أنباء الحادي عشر من أيلول عبر الموجة القصيرة من مذياعه، كان قد التقى بخان خلال تحركاته المشبوهة في دهليز واخان كمهرّب وقال عنه: "أهو رجل صالح؟ نعم ولكنه خطير. إن لم يوافق عدوه على الاستسلام والانضمام إليه، يربطه إلى سيارتي جيب ويشقه إلى نصفين. وهكذا فهو بمثابة الرئيس في بادكشان".

بعد الظهر، قام مورتنسون بتصريف بعض النقود واستأجر سيارة جيب أخرى من رجل متدين وابنه وافقا على مرافقته في الرحلة التي تستغرق ساعتين، شريطة أن ينطلقوا على الفور كي يتمكن من العودة عند صلاة العشاء.

"أستطيع أن أغادر الآن" قال مورتنسون.

"وأمتعتك؟" سأله الصبي الذي كان يعرف بضع كلمات بالإنكليزية.

هزّ مورتنسون كتفيه وصعد إلى السيارة.

ويقول مورتنسون: "المسافة إلى باهاراك لا تتجاوز الستين ميلاً، لكن الرحلة استغرقت ثلاث ساعات. كنت قد عدت إلى بقاع ذكرتني ببوادي الهندوس وسيارة الجيب تزحف على طول حيود تشرف على نهر تيلوي في قعر وادٍ صخري، وكنت مسروراً لأن المركبة كانت في حالة جيدة. تلك السيارات الأميركية الكبيرة تصلح للذهاب إلى


https://telegram.me/maktabatbaghdad

التسوق واصطحاب الأولاد إلى تدريبات كرة القدم. أما عبور بقاع كهذه، فيحتاج إلى مركبة روسية حقيقية"

وقبل الوصول إلى باهاراك بعشرين دقيقة، انفتح الممر الجبلي على سفوح غنّاء منبسطة بين الهضاب، حيث كانت مجموعات من المزارعين تغطي المنحدرات وهم يزرعون الخشخاش في كل بقعة صالحة للزراعة.

ويقول مورتنسون: "لولا وجود حقول الخشخاش، لظننت أننا نصعد الطريق نحو وادي شيجار قاصدين كورف. لاحظت كم كنا قريبين من الباكستان ومع أنني لم أكن في هذا المكان من قبل، فقد شعرت وكأنني عائد إلى الوطن وبأنني بين أهلي من جديد".

وبلدة باهاراك عززت ذلك الشعور. محاطة بالذرا الثلجية لهيندوكوش، كانت باهاراك البوابة المؤدية إلى واخان، فمدخل واديها الضيق لم يكن يبعد أكثر من بضعة كيلومترات نحو الشرق وغمر مورتنسون إحساس بالدفء لأنه يعرف أن العديد من الناس الذين يعنون له الكثير قريبون منه في زودخان.

اتجه السائق وابنه إلى سوق باهاراك للسؤال عن الطريق المؤدية إلى منزل سادهارخان. وفي السوق رأى مورتنسون أن سكان باهاراك الذين يزرعون نبات الأفيون أكثر مما يتاجرون به يعيشون في ظروف اقتصادية متدنية مثل البلطيين. فالطعام داخل الأكشاك كان بسيطاً وقليلاً، والحمير الهزيلة المثقلة بأحمالها إلى السوق ومنه بدت عليلة وسيئة التغذية. كان مورتنسون يعرف من خلال قراءاته كم انقطعت باداكشان عن العالم خلال عهد طالبان، لكنه لم يكن يعرف أنها على هذه الدرجة من الفقر.

في وسط السوق حيث كانت وسيلة النقل مقتصرة على ذوات الأربع، اتجهت نحوهم سيارة جيب مهلهلة روسية الصنع بيضاء اللون فلوح لها مورتنسون كي تتوقف وهو يخمن أن من يملك مركبة كتلك في باهاراك لا بد أن يعرف الطريق التي ستقوده إلى سادهارخان. كانت سيارة الجيب مكتظة بمجموعة من المجاهدين قساة الملامح، إلا أن السائق متوسط العمر ذا العينين الثاقبتين واللحية السوداء المشذبة خرج منها ليخاطب مورتنسون.

وببضع كلمات بدائية من اللغة الدارية تحايل مورتنسون على كايس كي يعلمه إياها بعد مغادرتهم لكابول. قال: "أنا أبحث عن سادهارخان".

أجابه الرجل باللغة الإنكليزية: "إنه هنا".

"أين؟".

"أنا هو. أنا كومندهان خان".

على سطح دار سادهار خان الواقع في أسفل تلال باهاراك السمراء. كان مورتنسون يدور بتوتر حول المقعد الذي قادوه إليه بانتظار عودة الكومندهان من صلاة الجمعة. خان يعيش حياة بسيطة، لكن الأجهزة التي تدل على نفوذه كانت بادية للعيان في كل مكان. هوائي جهاز الاتصال القوي الساحق من وراء السطح كسارية بدون علم يؤكد تواصل خان مع العصر الحديث. كما كانت هناك عدة صحون صغيرة للقمر الصناعي موجهة نحو الجهة الجنوبية من السماء. أما على أسطح الأبنية المجاورة، فقد شاهد مورتنسون بنادق القنص التي في حوزتهم.

وإلى الجنوب الشرقي، استطاع أن يرى قمم جبال باكستان مكللة بالثلوج، وجعل نفسه يتخيل فيصل بيج واقفاً تحتها يحيطه بالرعاية كي


https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا يفقده القناصون رباطة جأشه. ومن عند فيصل، رسم مورتنسون خطاً خيالياً ينتقل من مدرسة إلى مدرسة ومن جماعة إلى أخرى. نزولاً إلى وادي هونزا ثم إلى جيلجيت عبر معبر الإندوز، ووصولاً إلى سكاردو يجمع حوله الناس والأمكنة التي يعرفها ويحبها على سطح البناء المقفر ذاك، وطمأن نفسه أنه ليس وحده على الإطلاق.

قبل الغروب مباشرة، شاهد مورتنسون مئات الرجال يتدفقون خارجين من مسجد باهاراك الأشبه بمستودع ويبدو كثكنة عسكرية أكثر منه داراً للعبادة. كان خان آخر المغادرين ومنهمكاً في الحديث مع إمام القرية، ثم انحنى وعانق الرجل المسن واستدار عائداً إلى الرجل الأجنبي الذي ينتظره على سطح بيته.

"صعد خان إلى السطح بدون حراسة، باستثناء واحد من ضباطه من أجل الترجمة. كنت أعرف أن نظرة خاطئة تصدر مني نحوه كفيلة بأن تجعل حراسه يردونني قتيلاً ولكنني كنت ممتناً لتلك الحركة. وكما فعل تماماً عندما التقيته في السوق، كان يريد أن يتحدث معي بنفسه وجهاً لوجه وبلا مواربة"

ومن خلال المترجم الذي يجيد اللغة الإنكليزية قال له خان: "أعتذر لأنني لا أستطيع أن أقدم لك شيئاً من الشاي"، ثم استدار إلى الشمس التي بدأت بالمغيب خلف حقل في جهة الغرب وتابع قائلاً: "ولكنك ستحصل على كل ما ترغب به بعد دقائق قليلة"

أجاب مورتنسون: "لا بأس، لقد قطعت طريقاً طويلة كي أتحدث إليك ويشرفني أن أكون هنا"

"وما هو الموضوع الذي يجعل أميركياً يقطع كل هذه المسافة من كابول من أجل أن يتحدث فيه؟" سأله خان وهو يسوي عباءته الصوفية بنية اللون المطرزة بخيوط قرمزية وتمثل شعار زعامته، فقص عليه

مورتنسون حكايته ابتداءً من فرسان القيرغيز الذين وصلوا إليه هابطين معبر إرشاد في سحابة من الغبار، وانتهاء بتفاصيل المعركة التي كان في وسطها الليلة الماضية وكيفية نجاته من الموت من تحت جلود الماعز. ولدهشة مورتنسون، راح قائد مجاهدي باداكشان مرهوب الجانب يطلق صيحات الابتهاج ويضم الأميركي المذهول إلى صدره.

"أجل! أجل! دكتور جريغ! رفيقي الكومندهان عبد الرشيد حدثني عنك، هذا لا يصدق" قال خان وهو يدور حول نفسه بانفعال: "وأنا الذي لم أهيئ لك وجبة طعام أو استقبالاً لائقاً من قبل وجهاء القرية. سامحني".

بشّ وجه مورتنسون وذاب توتر الرحلة المضنية نحو الشمال، ولو أن غبار الطريق ورائحة الماعز ظلا موجودين. أخرج خان هاتفاً جوالاً قديم الطراز من جيب صدرة المصور التي يرتديها تحت عباءته وأمر رجاله بأن يباشروا في إعداد وليمة. ثم تجول مع مورتنسون حول السطح يناقشان المواقع الملائمة لبناء المدارس.

خان كان يعرف كل تفاصيل دهليز واخان حيث يتوق مورتنسون لمباشرة العمل وقام بتحديد خمس تجمعات يمكن أن تستفيد على الفور من التعليم الابتدائي، وفهرس بحراً من الفتيات المحرومات من المدارس، وكانت أعداداً هائلة فاقت تصور مورتنسون بكثير ففي فايزآباد وحدها قال خان، توجد خمسة آلاف فتاة في سنّ المراهقة يدأبن على حضور الدروس ضمن حقل زراعي يقع إلى جانب مدرسة الذكور الثانوية. وقال له أن القصة نفسها تتكرر في كل أنحاء باداكشان وعدد له سلسلة طويلة من الاحتياجات تحتاج من مورتنسون إلى عقود من العمل.

فيما كانت الشمس تنزلق وراء سلاسل الجبال الغربية وضع خان يداً على ظهر مورتنسون وأشار بالأخرى وهو يقول: "لقد حاربنا مع


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأميركيين، هنا بين هذه الجبال، ضد الروس. ومع أننا سمعنا الكثير من الوعود، فلم يعد إلينا أحد قط ليساعدنا بعد أن انتهى القتال ومات الكثيرون".

"انظر هناك، إلى تلك التلال" قال خان وهو يشير إلى امتداد الكتل الصخرية التي تتصاعد من حواف الطرق الترابية في باداكشان وكأنها شواهد قبور مبعثرة باتجاه الغروب القاني لجيش هائل من الأموات. "كان هناك الكثير من الموت في هذه التلال" قال خان بتجهم: "كل كتلة من الحجر ومن الصخر التي تراها أمامك تمثل واحداً من المجاهدين، من الشهداء الذين كانوا رجالي وضحوا بحياتهم وهم يحاربون الروس وطالبان.و الآن علينا أن نوفي تضحياتهم حقها" واستدار ليواجه مورتنسون: "علينا أن نحوّل هذه الأحجار إلى مدارس" أكان مورتنسون يشكك دائماً في أن الحياة الكاملة التي عاشها الإنسان يمكن أن تومض أمام عينيه في اللحظة الأخيرة التي تسبق موته.لم يكن هناك مايكفي من الوقت، لكن الثانية التي استغرقتها نظرته العميقة في عيني خان الداكنتين ومن خلالهما، وهو يتفكر في العهد الذي يطلب منه، جعلت مورتنسون يرى ماتبقى من حياته لينكشف أمامه.

سطح هذا المنزل المحاط بتلك التلال الصخرية المتوحشة كان مفترق الطرق الذي عليه أن يختار بينها. وإن اختار الوجهة التي تؤدي إلى هذا الرجل وتلك الصخور، فهو يرى ممراً نحو الأمام مشرفاً ووضاء أكثر من ذلك المنعطف الذي عمره عقد من الزمن كان قد اتخذه ذات يوم بعيد في كورف.

ستكون هناك لغات جديدة عليه أن يتعلمها، وأعراف جديدة سيتخبط بينها قبل أن يتمكن من إتقانها. كما ستكون هناك أشهر من الفراق عن أسرته، وهو مبعثر كتلك البقع الصمّاء على سطح هذا المدى

المترامي الوضّاء بأشعة الشمس كحقل ثلجي لم تطأه قدم من قبل، وأمطار لا يعرفها بعد، تتوعده بطريق محفوفة بالمخاطر. وظهرت حياته أمامه واضحة وضوح قمة كليمنجارو عندما رآها وهو صبي صغير ووضّاءة كهرم "كيه2" المتفرد الذي مازال يراوده في أحلامه.

وضع مورتنسون يديه على كتفي عباءة خان البنية، تماماً كما فعل منذ عقد من الزمن بين جبال أخرى ومع قائد آخر اسمه الحاج علي. ولم يعد واعياً لوجود الرجال المسلحين الذين مازالوا يراقبونه عبر شاشات بنادقهم ولا لشواهد الشهداء التي كانت تتوهج تحت أشعة الشمس، بل لذلك الجبل المتنامي في أعماقه الذي نذر نفسه، في تلك اللحظة، لتسلقه.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

# الفهرس


**المقدمة: في فلك السيد مورتنسون** ............................ 5

**الفصل الأول** ............................ 13

**الفصل الثاني:**

الضفة الخطأ من النهر ............................ 27

**الفصل الثالث:**

"الارتقاء والكمال" ............................ 41

**الفصل الرابع:**

"المخزون الذاتي" ............................ 51

**الفصل الخامس:**

"خمسمئة وثمانون رسالة وحوالة مالية واحدة" ............................ 71

**الفصل السادس:**

"أسطح منازل (راولبندي) عند الغسق" ............................ 85

**الفصل السابع:**

رحلة العودة الشاقة ............................ 103

**الفصل الثامن:**

"لكمة (برالدو) الصاعقة" ............................ 123

**الفصل التاسع:**

الشعب قال كلمته ............................ 145





https://telegram.me/maktabatbaghdad

**الفصل العاشر:**
بناء الجسور........................................... 159
**الفصل الحادي عشر:**
"ستة أيام"........................................... 185
**الفصل الثاني عشر:**
"دروس الحاج علي"........................................... 201
**الفصل الثالث عشر:**
"الابتسامة جديرة أن تكون أكثر من مجرد ذكرى"........................ 229
**الفصل الرابع عشر:**
"التوازن"........................................... 257
**الفصل الخامس عشر:**
مورتنسون يباشر العمل........................................... 271
**الفصل السادس عشر:**
صندوق المخمل الأحمر........................................... 291
**الفصل السابع عشر:**
"أشجار كرز في الرمال"........................................... 311
**الفصل الثامن عشر:**
جسد مسجى........................................... 331
**الفصل التاسع عشر:**
قرية تدعى نيويورك........................................... 355
**الفصل عشرون:**
احتساء الشاي مع جماعة طالبان........................................... 385

**الفصل الحادي والعشرون:**

حذاء رامسفيلد ........................................................ 411

**الفصل الثاني والعشرين:**

"الجهل هو العدو"........................................................ 439

**الفصل الثالث والعشرون:**

"الأحجار تتحول إلى مدارس"........................................... 465



https://telegram.me/maktabatbaghdad

مكتبة بغداد

بعد محاولة فاشلة لتسلق "كيه ٢"، وصل مورتنسون إلى "كورف" منهكاً وخائر القوى. وفي قلب تلك الشرذمة البائسة من بيوت الحجر والطوب، تغير مسار حياة مورتنسون وحياة أطفال شمال الباكستان جميعاً. في المساء، أوى الى الفراش قرب نار يوقدها روث ثيران الياك، وفي الصباح شارك مضيفه بضعة أكواب من الشاي بالزبدة وعقد شريط حذائه وتحول إلى ناشط إنساني اكتشف درباً له مغزى سيسير عليه بقية حياته. وبما أننا قد وصلنا إلى "كورف" بصحبة (الدكتور جريغ) فقد كانت في استقبالنا أذرع مفتوحة ورأس ثور ذبح للتو، وأكواب لا حصر لها من الشاي. وعندما بدأنا نستمع إلى أطفال الطائفة الشيعية في "كورف"، وهم أشد الجماعات البشرية فقراً في العالم، يتحدثون عن طموحاتهم وأحلامهم المستقبلية التي بدأت تتحقق على يد رجل أميركي ضخم وصل إليهم منذ عقد من الزمن، وقام ببناء أول مدرسة عرفوها في حياتهم، كنا أنا والجنرال قد استنفذنا.

"لقد انقضى زمن الرياضيات والشعر، في هذا الزمن، ياإخوتي عليكم أن تأخذوا دروسكم من الكلاشينكوف وقاذفات القنابل"

جملة مكتوبة على جدار فناء مدرسة كورف

ISBN 978-9933-429-98-0
9 789933 429980